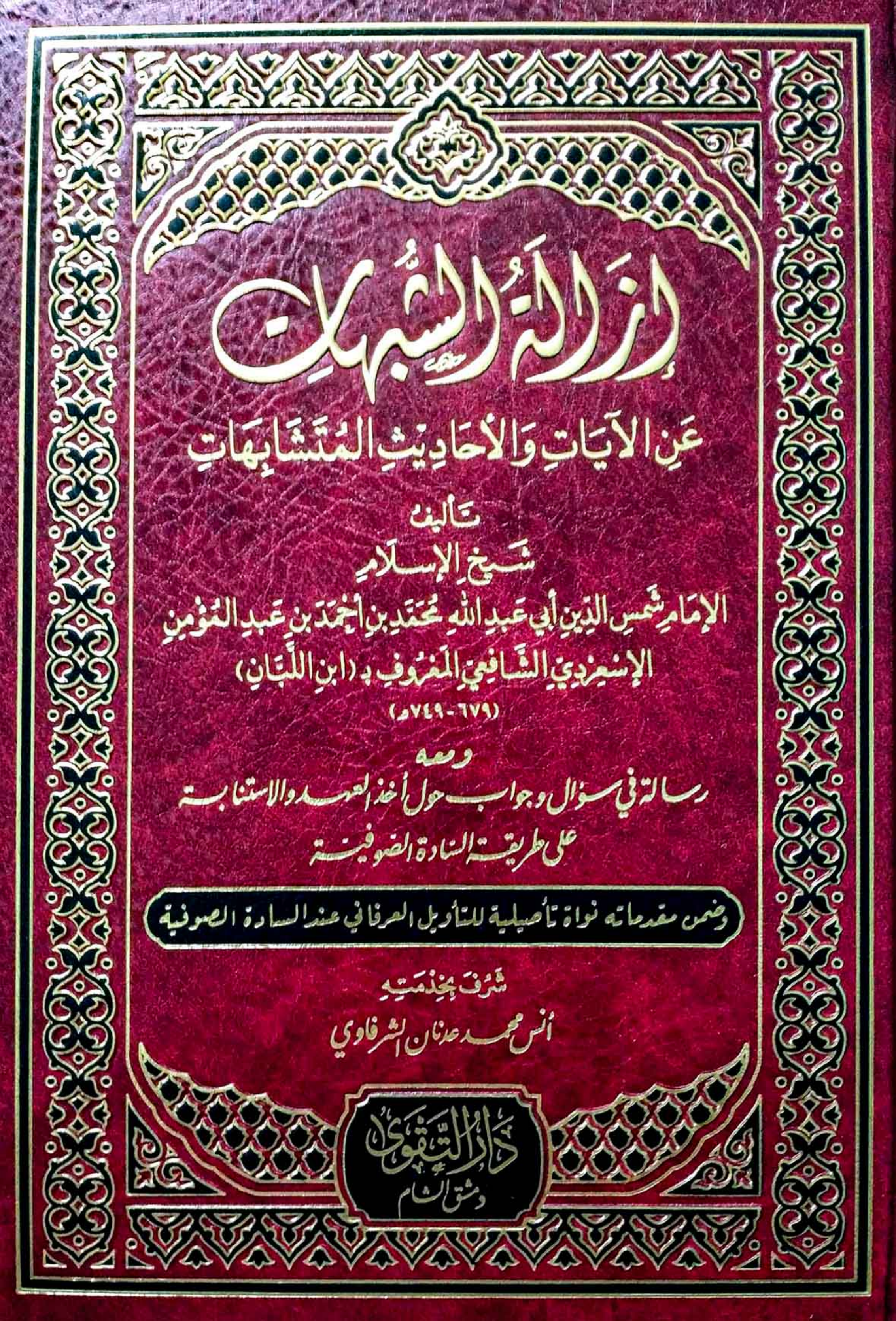
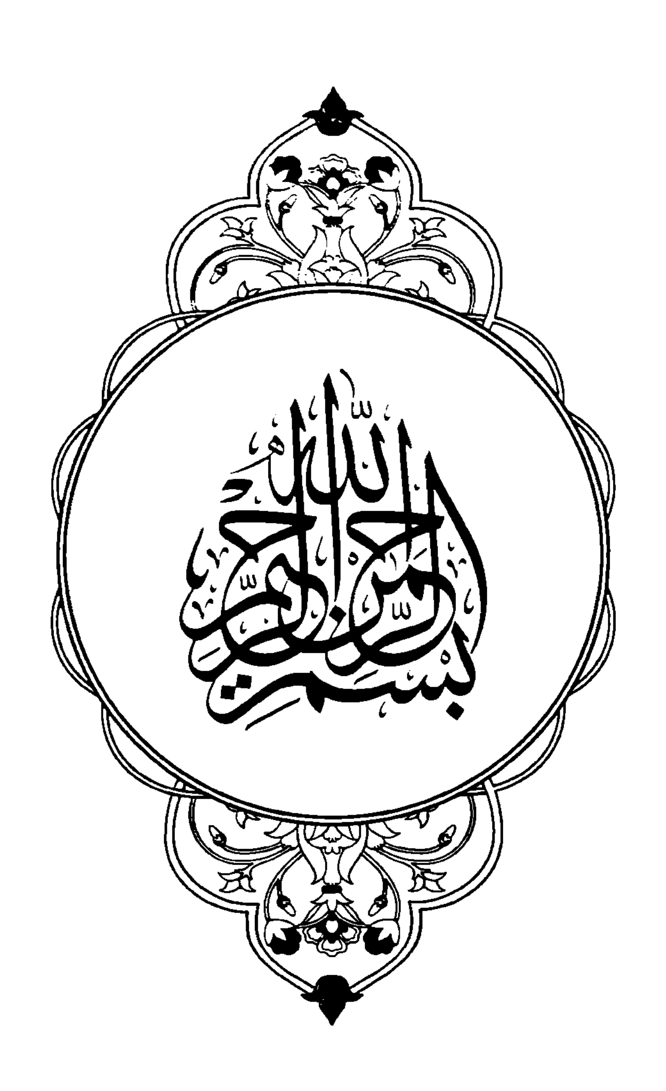


إزالة الشبهات
عن الآيات والأحاديث المتشابهات
تأليف
شيخ الإسلام
الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن
الإسعردي الشافعي المعروف بـ (ابن اللبان)
(٦٧٩-٧٤٩هـ)
ومعه
رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة
على طريقة السادة الصوفية
وضمن مقدماته نواة تأصيلية للتأويل العرفاني عند السادة الصوفية
شرف بخدمته
أنس محمد عدنان الشرفاوي
دار التقوى
دمشق الشام

إزالة الشبهات

عَنِ الآيَاتِ وَالأحَادِيْثِ المُتَشَابِهَاتِ


بسم الله الرحمن الرحيم

إزالة الشبهات

عن الآيات والأحاديث المتشابهات

تأليف
شيخ الإسلام
الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن
الإسعردي الشافعي المعروف بـ (ابن اللبان)
(٦٧٩-٧٤٩هـ)

ومعه

رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة
على طريقة السادة الصوفية

وضمن مقدماته نواة تأصيلية للتأويل العرفاني عند السادة الصوفية

شرف بخدمته
أنس محمد عدنان الشرفاوي

دار التقوى
دمشق الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات

المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد ابن اللبان

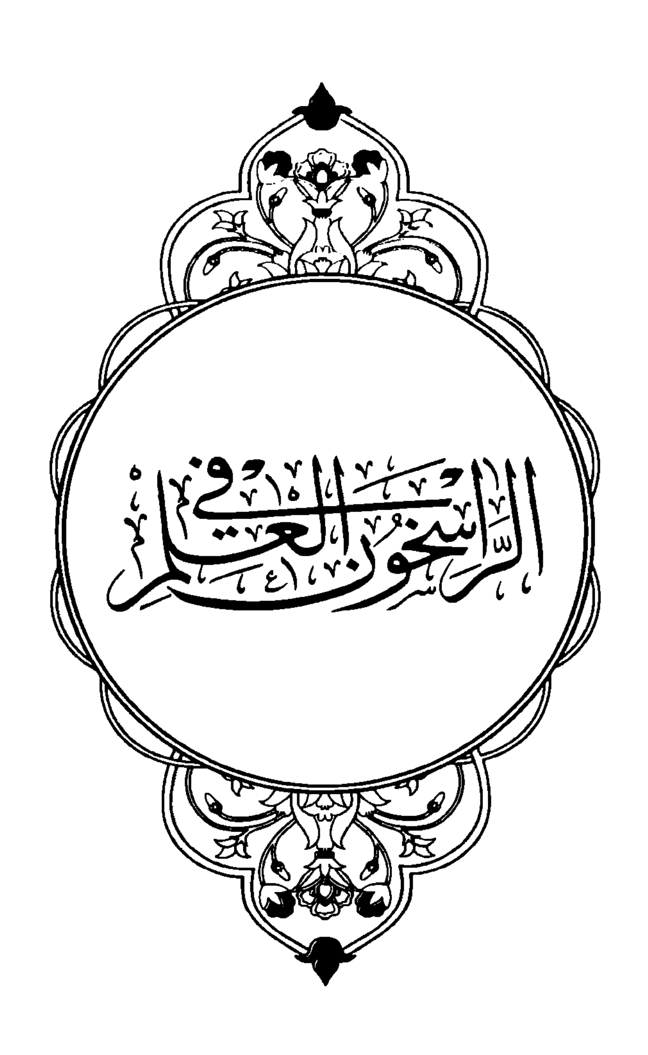
الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

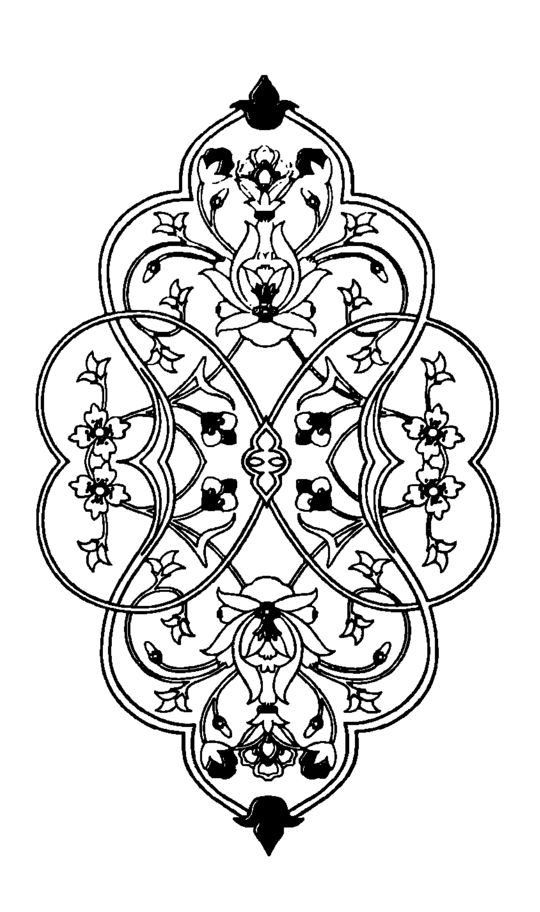
الرقم الدولي: 978-9933-610-04-3





سورية - دمشق - حلبوني
هاتف: ٢٢١٥٤٦٤ ١١ ٩٦٣+ / ص. ب: ٣٠٧٢١
جوال: ٩٣٣٢٠٦٠٠٧ ٩٦٣+ / ٩٤١٩٤٤٣٨٧ ٩٦٣+
daraltaqwa.pu@gmail.com


الراسخون في العلم



بين يدي الكتاب

الحمدُ لمن نهايةُ معرفته حيرةٌ جليلة ؛ العقولُ فيها معقولة ، وأيديها بقيد العجز مغلولة ، وأبصارُها ترجع خاسئةً كليلة ، فما حلَّ عارفٌ في منزلِ معرفةٍ عُلويَّة إلا عرفَ أنه ما زال في وهم ، وما ظنَّ إحاطةً وإدراكاً إلا وعلمَ أنه قصيٌّ عن الفهم

والصلاةُ والسلام علىٰ من علا فلا يرومُ شأوَ معرفته بربه نبيٌّ بلْهَ صدِّيق ؛ مَن أوضح لنا الطريق ، وتركنا على الـمَحجَّة البيضاء ، ليلها ونهارُها سواء ، وعلىٰ آله أهلِ خِبائه وُرَّاث خبايا العقائد النقيَّة ، وعلىٰ صحابته نجوم سمائه الهادينَ إلى السُّبُل المضيَّة .

وبعدُ :

فقد كانت الأمة زمنَ الصحابة في عافيةٍ من التشبيه والتعطيل ؛ إذ خالطت أبدانَهم وأرواحهم أنوارُ النبوة والتنزيل ، وكيف لا يكونون كذلك وقد تُليَتْ عليهم آياتُ الله وفيهم رسولُهُ ؟! وهم إلىٰ ذلك أهل الفصاحةِ والبيان ، وفرسانُ هـٰذا الميدان ، القرآنُ بلغتهم نزل ، والسنةُ صاحبُها بين مضاربهم قد حلَّ ، فما تكاد تخفىٰ عليهم إشارةٌ شاردة ، أفيغيبُ عنهم صريحُ عبارة واردة ؟!

غير أن الأيام تطاولت حتىٰ عمَّت العامةَ العجمة ، وصار أهلُ الفهم لمعاني الكتاب والسنة كنجومٍ في سماءٍ مدلهمَّة ، فكاد بابُ الاجتهاد أن يُرتج ، لولا

وعدُ الله بإبقاء الحقِّ أغرَّ أبلج ؛ إذ قيَّضَ الغنيُّ سبحانه لنصرة دينه أعلامَ العلماء ، الوارثين لحرفة الأنبياء ؛ من إزالة الشبهات وإماطة الأذىٰ عن طريق الحق ، وبيان ما غاب وخَفِيَ بإخلاص وصدق ، فكانوا حجَّة الله على الخلق ؛ ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

وكان القضاء الأزلي قد سبق باختلافِ معتبَرِي الأئمة ؛ فنشأ الاختلافُ المحمود فأتىٰ بالسَّعة والتيسير ، كما سبق أيضاً بافتراق الأمة ، فنشأ الخلاف المؤسَّسُ علىٰ منازعة الحق بالرأي والهوىٰ تحت مِظلَّة دعوى الانتساب إلى الكتاب والسنة ، دون حجة ولا برهان ، بل قعقعةٌ بالشُّنان ، ومن قنع بالدعاوىٰ ضاعَ زمانه ، وطالت آلامُهُ وأحزانه .

وكانت الآيات والأحاديثُ المتشابهات . . محطَّةً لكثيرين من هـٰؤلاء الذين يعبثون بدين الله بعيداً عن سطوة الرقيب ؛ إذ اتخذوها ـ وهي حمَّالة أوجهٍ ـ سبيلاً لتقرير وتزيين شُبههم ، وملاذاً يلجؤون إليه عند تغريرِ الجهلة بالتستُّر بالكتاب والسنة ، فيحسبهم ساذجٌ أنهم هم الذين يُمَسِّكون بالكتاب ويحرصون على اتِّباع السنة ، وما علمَ المسكين أنهم يزعزعون أصولَ الدين ، أو يشوبونها ببدعهم وضلالاتهم وهم يحسبون أنهم علىٰ شيء[(١)]

وقد ظهرت في هـٰذا العصر تآليفُ ذات منحىً يدلُّ علىٰ وجود معاناة في فهم النصوص المتشابهة ، وقصورٍ في كيفية فهمها وسبيل الاعتقاد بها ، دون أدنىٰ شكٍّ بكونها من كتاب الله أو صحيح السنة ، بل هـٰذا أمرٌ توارثته الحِقَبُ

---

(١) ورحم الله القاضي ابن العربي المالكي ؛ إذ قال في « العواصم من القواصم » (ص ١٤) : (إن غلاة الصوفية ودعاة الباطنية يتشبَّهون بالمبتدعة في تعلُّقهم بمشتبهات الآيات والآثار علىٰ محكماتها) ، فالمبتدعة هم الأصل الفاسد في هـٰذا الشأن ، وهم الذين جرَّؤوا هـٰذين الصنفين علىٰ هـٰذا العبث .

بعدما نأت العربيةُ بنفسها عن العقول لتسكن في بطون كتب الآثار والأدب والمعاجم ، غير قليل من بصيصِ إعجازها تبعثُ به الأملَ بالفهم والصلة

ولئن كان الحلالُ بيِّناً والحرام بيِّناً ، وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمها إلا قليل . . لفي سُبُل المطالب العالية والمعارف الراقية متشابهاتٌ لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم ، وهم أقلُّ ذاك القليل ، ولعلَّ من بينهم الإمام ابنَ اللبان صاحبَ هٰذا الكتاب الذي يشرقُ اليوم بين أيدينا ، فهو يؤصِّل فيه لنمطٍ من النظر لهٰذه المتشابهات قد يكون كما سترىٰ ذا نسج فريد ، يُلوِّح لشُداة المعرفة يدعوهم لكشف غشاوة التقليد ، وينادي الذين في آذانهم وقرٌ من مكان بعيد .

وقد حلا لـ (دار التقوىٰ) جزاها الله الخيرات والمبرات . . أن تعيد بعثَ هٰذا العنوان الفذِّ والموضوع النَّشِطِ إلىٰ أروقة المكتبات البحثية ، وسلاسل الكتب العرفانية ؛ لعلَّ الأُحدوثةَ عنه وفيه تكون مدعاةَ وئامٍ بين فئامٍ ما كان لهم أن تقع بينهم خصومة ، ويكون محفِّزاً لمانعي التأمُّل في هٰذه المتشابهات لإعادة النظر في قرارهم ، ولا سيما لمن تأهَّلت فكرته ، وصفت سريرته ، راجين منه سبحانه العون والظفر ، والتأييد وحسن المستقر .

* * *

ترجمة
الإمام شمس الدين بن اللبان

اسمه ونسبه

شيخُ الإسلام[1] ، الإمامُ الأصولي ، المتكلِّمُ الحجة ، الفقيهُ المفتي ، المحدِّثُ الواعظ ، المفسِّرُ المقرئ ، النحويُّ الأديب ، الصوفيُّ المتحقِّق ؛ **شمسُ الدين أبو عبدِ الله محمدُ بن الإمام شهابِ الدين أبي العباس أحمدَ بنِ عبدِ المؤمن بن أبي نصرٍ الإسْعِرديُّ الدمشقي المصري الأشعريُّ الشافعي الشاذلي** ، المعروفُ بـ (**ابن اللَّبَّان**) .

والإسْعِرديُّ : نسبة لبلدة إسْعِردَ بشمال شرق سورية[2] ، قريبة من ديار بكر ، ووالده كان فيها قبل نزوله دمشقَ ؛ فقد عُرِفَ والده بأنه نزيلُ دمشق[3] .

كما عُرِف والده الإمام أحمد بن عبد المؤمن بـ (**اللبّان**) ، ولذا اشتَهر ولدُهُ شمس الدين بابن اللبّان[4] ، واختار الإمام ابن الجزري أن اسم والده هو

---

(١) بهٰذا اللقب الفخيم لقَّبه الإمام العارف بالله إبراهيم المواهبي الشاذلي . انظر (ص٣٠٧) .

(٢) بكسر الهمزة والعين وبينهما سين ساكنة ، وقيل أيضاً : إِسِعِرْد بكسر الهمزة والسين والعين وسكون الراء ، وانظر « تقويم البلدان » (ص ٢٨٨) .

(٣) انظر « غاية النهاية في طبقات القراء » (١/ ١٤٣) ، وقد قال المقريزي في « المقفى الكبير » (٥/ ١١٩) عند ترجمته للإمام ابن اللبان : (الإسْعِردي الأصل) .

(٤) انظر « غاية النهاية في طبقات القراء » (١/ ١٤٣) .

أحمد بن مؤمن ، لا ابن عبد المؤمن[1] ، وقد تبع في ذلك الحافظ الذهبي[2] ، أو لعله عُرِفَ بهما معاً

ولادته ونشأته

وُلِدَ الإمام ابنُ اللبان في دمشق ، في العشر الأواخر من شوال سنة تسع وسبعين وست مئة[3] ، لأب إمامٍ مقرئ جليل ، أخذ القراءات عن أبي شامة ، وترجم له الإمامُ الحافظ المقرئ ابن الجزري في « غاية النهاية » فقال : (أحمد بن مؤمن بن أبي نصر ، أبو العباس الإِسْعِرْدي ، نزيل دمشق ، المعروف باللبَّان : مقرئٌ حاذق مجوِّد ، قرأ علىٰ أبي شامة ، والشيخ زين الدين الزواوي ، وجلس تحت النسر فأقرأ[4] ، وكان ديِّناً متواضعاً ، وهو والدُ الشيخ أبي عبد الله بن اللبَّان الفقيه الشافعي الصوفي الشاذلي ، مات في جُمادى

---

(١) انظر « غاية النهاية في طبقات القراء » (١/ ٧٧) .

(٢) انظر « معرفة القراء الكبار » (ص ٤٠١) .

(٣) كذا ذكر الحافظ المؤرخ الأديب اليافعي في « مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٨) سنةَ ولادته ، وقال : (وعاش سبعين سنة) ، وهـٰذا سديد باعتبار سنة وفاته ، وممَّا يؤكِّد صحة ما ذهب إليه فضلاً عن معاصرته له . . ما قاله الداودي في « طبقات المفسرين » (ص ٣٥٤) : (وخرَّجَ له المحدث شهاب الدين بن أيبك جزءاً ، وحدَّثَ به ، وسأله عن مولده فقال : في العشر الأخير من شوال ، سنة تسع وسبعين وست مئة) ، وحسْبُك بهـٰذا النص .
وذكر الحافظ ابن حجر في « الدرر الكامنة » (٥/ ٦٠) أنه ولد سنة (٦٨٥ هـ) وقال : (أو نحوها) ، لم يجزم ، وكذا ذكر سنة الولادة كل من العلامة ابن قاضي شهبة في « طبقات الشافعية » (٣/ ٥٢) ، والأديب المؤرخ الصفدي في « أعيان العصر » (٤/ ٣٠٠) وقال : (ومولده في حدود سنة خمس وثمانين وست مئة) ، وعليه يكون قد عاش أربعاً وستين سنة ، والله أعلم .

(٤) يعني : تحت قبة النسر في جامع بني أمية بدمشق .

الأولىٰ سنة ستٍّ وسبع مئة عن سبعين سنة)[1]

وقال عنه الحافظُ الذهبي في « معرفة القرّاء الكبار » (وكان من خيار الشيوخ)[2]

وقال الحافظُ ابن حجر (أقرأَ بجامع بني أمية ، وتصدَّرَ للقراءة ، وكان خيِّراً عارفاً بالفن)[3]

وبصحبة هـٰذا الوالد الإمام نشأ الإمام ابنُ اللبان ؛ فحفظ القرآن ، وأخذ القراءات عن والده حتىٰ رَأَسَ فيها كما سترىٰ[4] ، وسمع وهو بدمشق من عمر بن عبد المنعم ابن غديرٍ المعروف بابن القواس الدمشقي ، وهو ممن يروي عن الحافظ ابن الحرستاني[5]

وكتبُ الترجمات لا تحكي لنا عن حاله وتلقِّيه العلمَ في دمشق ، بل تسرعُ بنا إلىٰ مصر ، طاويةً ذكرَ أيام اليفاعة والشباب ، وما كان فيها من أخبارٍ وأحداث[6]

ثم رحل إلىٰ مصر ، فأحسن وفادتَهُ شافعيُّ زمانه الإمامُ ابن الرفعة ،

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١٤٣) .

(٢) معرفة القراء الكبار (ص ٤٠١) .

(٣) انظر « الدرر الكامنة » (١/ ٣٨٤) .

(٤) انظر (ص١٣) .

(٥) انظر « تاريخ الإسلام » (٥٢/ ٣٥٧) ، وقال ابن قاضي شهبة في « طبقات الشافعية » (٣/ ٥٢) : (وسمع الحديث بدمشق والقاهرة من جماعة) ، وتوفي ابن الغدير سنة (٦٩٨ هـ) ، فيكون سماع الإمام ابن اللبان منه علىٰ قول الحافظ اليافعي في سنِّ رشد ، فضلاً عن أن يكون في سن تحمُّل .

(٦) ففي « طبقات الشافعية » للإسنوي (٢/ ١٩٤) ، و« حسن المحاضرة » (١/ ٤٢٨) مثلاً قال : (ولد بدمشق ، ثم قدم إلى الديار المصرية) .

وحسبُك بهٰذه الفاتحة ، فأكرمَهُ إكراماً كثيراً[1] ، إلىٰ أن صارت له مكانةٌ في العلم رفيعة ، فتولَّىٰ بها خطابةَ جامع الأفرم بشاطئ البحر ، والتدريسَ بالزاوية المعروفة بالمجدية بجامع مصر ، ثم تولَّىٰ تدريس مشهد الإمام الشافعي بالقرافة[2]

شيوخه

نَهِلَ الإمام ابن اللبان العلمَ عن كبار أعلام زمانه ، وصقَلَ نفسه بصحبة أهل العرفان من أعيان ميدانه ، ونَفَسَ الأقرانَ وتقدَّمهم في أزمانٍ يسيرة ، حتى اشتعلت في نفوس بعضهم نارُ الحسد والغَيرة ، فلحقَهُ من ذلك ما يلحق كلَّ ذي نفسٍ شريفة ، وعرفَ له قدرَهُ أصحابُ النفوس العفيفة ، وسترى الحديث عن هٰذا مفصلاً قريباً إن شاء الله[3]

وأوَّلُ شيوخه بلا مينٍ هو والده الإمام شهابُ الدين أبو العباس أحمدُ بنُ عبدِ المؤمن ؛ إذ قرأ عليه « الشاطبية » ، وجمع القراءات حتىٰ أمَّ فيها ، وصارت إليه مشيخةُ الإقراء بتربة أم الصالح بعد ابن النقيب البعلبكي[4] ، هٰذا بشأن القراءات .

أما في الفقه : فقد تفقَّهَ علىٰ شيخ الشافعية نجم الدين بن الرفعة[5] ، وسبق أنه هو الذي استقبله وأكرمه حين وفادته إلىٰ مصر ، وكأن الإمام ابن اللبان قد

---

(١) انظر « طبقات الشافعية » للإسنوي (٢/ ١٩٤) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية » للإسنوي (٢/ ١٩٤) .

(٣) انظر (ص٢٢) .

(٤) انظر « البداية والنهاية » (١٤/ ٣٠٣) ، و« مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٨) .

(٥) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٤) .

كانت له سابقة في العلم وفي الفقه حتىٰ لقي مثلَ هـٰذا الإكرام ، **وعلى العلامة جمال الدين أبي بكر أحمد بن أحمد بن عبد الله بن سحمان الشريشي** ، وعلى العلامة **أبي المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري** ، وعلى العلامة صدر الدين **محمد بن عمر بن مكي بن الوكيل**(١) ، وعلىٰ شيخ الإسلام كمال **الدين بن الزملكاني** ، وأذنوا له جميعاً بالفتيا(٢)

ووقع شبه اتفاق ممن ترجم له أنه برعَ في الفقه ، وتآليفه فيه برهانُ تلك الدعوىٰ ، حتىٰ قال المؤرخ الصفدي : (لم يترك ابنُ اللبان لغيره في الفقه زبدةً)(٣)

وأما في علوم العربية : فأخذها عن شيخ النحاة والعربية والقرَّاء ؛ **شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي**(٤)

وأما بشأن الرواية وعلوم الأثر : فقد قال الأديب المؤرخ الصفدي : (سمع بدمشق من أبي حفصٍ عمر بن عبد المنعم **بن القوَّاس**(٥) ، وانجفلَ إلىٰ مصر ، وسمع بها من **الدمياطي** ، ومن **عبد الرحمـٰن بن عبد القوي بن عبد الحكيم الخثعمي** بطُهُرْمُسَ من الجيزية(٦) ، وحدَّثَ بالديار المصرية ، وسمع منه الطلبة ، **وخرَّج له شهاب الدين أحمد بن أيبك الدمياطي جزءاً من حديثه**) ، ثم قال : (روى الحديث ، وكان لحلاوة روايته كأنما أسندَ عن شُهْدة)(٧)

---

(١) انظر « طبقات المفسرين » للداودي (ص ٣٥٤) .
(٢) انظر « مرآة الجنان » (٤/٢٤٨) .
(٣) انظر « أعيان العصر » (٤/٣٠٠) .
(٤) انظر « مرآة الجنان » (٤/٣٤٨) ، و« طبقات المفسرين » للداودي (ص ٣٥٤) .
(٥) وهو مسند الشام ناصر الدين المعروف بابن القواس .
(٦) **طُهُرمُس** : قرية من أعمال الجيزية بمصر ، وانظر « تاج العروس » (ط هـ ر م س) .
(٧) انظر « أعيان العصر » (٤/٢٩٩) ، و« طبقات المفسرين » للداودي (ص ٣٥٤) ، =

كما سمع الحديث عن جماعة ؛ منهم : شرف الدين أبو الحسن اليونيني ، وشرف الدين الدمياطي[1] ، والخطيب شرف الدين الفزاري[2]

وأما في أصول المعرفة الربانية والتزكية والسلوك : فكان قد صحب العارفَ بالله تعالىٰ أبا الدرِّ ياقوتَ بن عبد الله العرشي الحبشي الشاذلي ، قال الحافظ اليافعي (وبورك له في صحبته ، وفتح عليه في كلامه وسرعة عبارته)[3]

ابنُ اللبان والعارفُ بالله أبو الدرِّ ياقوتُ العرشيُّ الحبشي الملثَّم[4] :

عُرف عن الإمام ابن اللبان أنه كان من أعلام أهل الوعظ ، وسيمرُّ بك قريباً تشبيهُهُ بالأستاذ ابن سمعون[5] ، وكان قد مكَّنَ له انتسابُهُ للمدرسة التربوية

= والشُّهدة : القطعة من العسل لا يزال في شمعه ، وعلم علىٰ فخر النساء شهدة بنت أبي نصر البغدادية ، معمَّرة ، روىٰ عنها الكبار ؛ من أمثال حافظ الدنيا ابن عساكر وابن السمعاني وابن الجوزي ، وقد ألحقت الصغار بالكبار .

(١) انظر « طبقات المفسرين » للداودي (ص ٣٥٤) .

(٢) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٣٣٣) .

(٣) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٣٣٣) .

(٤) قال العلامة الحافظ الفقيه ابن الملقن في « طبقات الأولياء » (ص ٤٧٨) : (الشيخ ياقوت بن عبد الله الحبشي الشاذلي ، تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي ، مات سنة اثنتين وثلاثين وسبع مئة .
انتفع به خلق كثير ؛ منهم الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان ، قارب الثمانين ، وكان أبو العباس يقول في حقه : هٰذا هو الياقوت البهرمان .
أعتقته امرأة تُعرف بزوجة الشريفي ، واستأذن أبا الحسن الشاذلي في الاقتداء به ، ففكر وقال : وجدت اسمك في أصحاب أصحابي ؛ أبي العباس المرسي ، في الطبقة الثانية ، فلما حج وقدم صحبه ، قال المكين الأسمر : رأيت نور الولاية عليه) .

(٥) انظر (ص٣١) .

الشاذلية في نيل هٰذه الرتبة ، ولا يخفىٰ ما للصوفية المتحقِّقين من أثر عارم في هٰذا المجال

وعندما يقع الحديثُ عن الصوفية ـ والإمامُ ابن اللبان من أعيانهم ـ تنكمشُ بعضُ النفوس كما تنكمشُ نفوسُ الصوفية عند سماع غِيبةٍ أو لغوٍ من القول ، ولعل أدعياءَ التصوف المخالطين لأهله . . قد كان لهم الدورُ البارز في التسبُّب بهٰذا الانكماشِ من قبل أهل العلم وغيرهم ، ولٰكنْ لتكُنْ علىٰ ثقة بأن الذي خالف قولُهُ عملَهُ ، وظاهرُهُ باطنَهُ . . فما ذاك هو الصوفيَّ الذي يُحدِّث عنه القوم ؛ إذ الكمالُ لا يحمل النقصان ، ولو أقلَّهُ لعاد نقصاناً ؛ إذ التصوفُ عبارةٌ عن تجرُّدِ القلب لله تعالىٰ ، واستحقارِ ما سواه سبحانه[1] ، وهما أمرانِ ما نزلا قلبَ عبدٍ إلا حلَّ بساحته النورُ واليقين ، فأَنِسَ به كلُّ من صفا عن الكدر ، ومن لم يقعْ له أُنسٌ فليرجع إلىٰ نفسه محاسباً ومؤدِّباً .

وفي انتساب الإمام ابن اللبان للسادة الصوفية سلوكاً وعلى الطريقة المعهودة عنهم . . نقفُ بين خبرينِ ليس بينهما تعاندٌ ، غير أن الأول منهما تطمئنُّ له النفس ، وتَهَشُّ وتَبَشُّ ، والثاني فيه ما قد لا يَسْلَمُ من مؤاخذة من قبل القوم أنفسِهم ، أو قل : وصلَ إلينا غيرَ واضح المعالم ، ولا تامِّ الصورة .

---

(١) كذا عرَّف التصوف حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/٣٤٨ ـ ٣٥٠) ، وقال : (وحاصلُهُ يرجع إلىٰ عمل القلب والجوارح ، ومهما فسد العمل فات الأصل) ، وقال وهو ينفي أصل صفة الفسق عن الصوفية : (الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخرىٰ وراء الصلاح) ، وقال : (ولو تُصوِّر صوفي فاسق لتُصوِّر صوفي كافر ، وفقيه يهودي ! وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفي عبارة عن عَدْلٍ مخصوص ؛ لا يقتصر في دينه على القدر الذي تحصل به العدالة) .

فالأول : يحكي لنا أنه صحبَ القوم وتأدَّب بهم ؛ دون وجودِ دوافع إنكاريةٍ عليهم قبلُ ؛ فمن ذلك ما حكاه الإمام ابن السبكي بقوله (وصحبَ في التصوف الشيخَ ياقوتَ المقيمَ بالإسكندرية ، وكان الشيخ ياقوتُ من أصحاب سيدي الشيخ أبي العباس المرسي ، صاحبِ سيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي)[1]

وقال القاضي العمري (صحب الشيخ ياقوتَ الحبشي ، وغيرَهُ من مشايخ الإسكندرية ومصر والشام، وأخذ عنهم من علوم الطريقة والحقيقة)[2].

وقال الحافظ اليافعي (وصحب الشيخَ الكبير الوليَّ الشهير أبا الدُّرِّ ياقوت الشاذلي ، وبُورِكَ له في صحبته ، وفُتِحَ عليه في كلامه وسرعة عبارته)[3]

والثاني : هو ما حكاه العارف بالله تعالى الإمام الشعراني ، وهو يشيرُ إلىٰ أن الإمام ابن اللبان كان منكراً على القوم ، وقد وقع مثل هـٰذا لغيره من الأئمة الأعلام ؛ كالإمام ابن عطاء الله الإسكندري الذي هو من طبقة أشياخه ؛ قال

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٤) ، وأستوقفك هُنيهة مع هـٰذه الكلمات التاجية ؛ إذ ليس من عادة الإمام ابن السبكي إلقاءُ الألقاب علىٰ عواهنها ، ولا سيما مثلِ التي بين يديك من الإقرار بالسيادة عليه ! وما ذاك إلا لعلم الإمام بإمامة هـٰؤلاء السادات في علوم الظاهر التي كان قد أتقنها ، وعلمه بأحوالهم التي يظهر أنه كان ما يزال يَنْشُدُها ، والتي كان قد ورث كمّاً منها عن أبيه شيخ الإسلام تقي الدين السبكي ، والتقيُّ واحد ممن تأدّب وسلك على الإمام ابن عطاء الله الإسكندري ، وهو صاحب وتلميذ العارف بالله ياقوت العرشي ، وكلاهما سلك علىٰ يد إمام أهل زمانه ، ودرَّة عصره وأوانه ؛ العارف الكبير أبي العباس المرسي ؛ وريث علم وحال الإمام أبي الحسن الشاذلي ، بلَّ المولىٰ تربتهم جميعاً بوابل رضوانه .

(٢) انظر « مسالك الأبصار » (٨/ ٤٠٢) .

(٣) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٣٣٣) .

رحمه الله تعالىٰ (ووقع ابن اللبان في حقِّ سيدي أحمد رضي الله عنه ، فسُلب القرآن والعلم والإيمان[١] ، فلم يزل يستغيثُ بالأولياء ، فلم يقدرْ أحدٌ أن يدخلَ في أمره ، فدلُّوه علىٰ سيدي ياقوت العرشي ، فمضىٰ إلىٰ سيدي أحمد رضي الله عنه وكلَّمه في القبر ، وأجابه ، وقال له : أنت أبو الفتيان ؛ رُدَّ علىٰ هـٰذا المسكين رأسَ ماله[٢] ، فقال : بشرط التوبة ، فتاب ، وردَّ عليه رأسَ ماله ، وهـٰذا كان سبب اعتقاد ابن اللبان في سيدي ياقوت رضي الله عنه ، وقد زوَّجَهُ سيدي ياقوت ابنته ، ودُفنَ تحت رجليها بالقرافة ، رحمه الله تعالىٰ)[٣]

وما يعنينا من هـٰذا الخبر هو أنه صحب العارف بالله ياقوت العرشي ، وأنه زوَّجه ابنته ، وأنه تأدَّب به حتىٰ صار عارفاً بربه ، وهـٰذه أمورٌ تناثر خبرُها في كتب الترجمات ، وبقيت صورةُ هـٰذا التعرُّف وما نشأ عنه ، ولنترك هـٰذا ـ بعد سلامة الاعتقاد ، وتوجيه المُشْتبهات ـ لسعة الصدور وأذواقها وحسن ظنِّها .

ذكرُ بعض الآخذين عنه :

قال العلامة ابن قاضي شهبة نقلاً عن الحافظ العراقي : (وتخرَّجَ به جماعةٌ من الفضلاء)[٤]

---

(١) يعني : كماله ؛ إذ توسله وطلبه الشفاعة دليلٌ علىٰ وجود أصل الإيمان كما لا يخفىٰ .

(٢) أراد به : علمَهُ الظاهر ، وبهـٰذا فسَّرَ هـٰذا السلبَ الحافظُ المناوي حيث قال : (فسلب القرآن والعلم ، فصار يستغيث بالأولياء ، حتىٰ أغاثه ياقوت العرشي وشفع فيه) ، وانظر « شذرات الذهب » (٧/ ٦٠٥) .

(٣) انظر « الطبقات الكبرىٰ » للإمام الشعراني (١/ ١٦٢)

(٤) انظر « طبقات الشافعية » (٣/ ٥٤) .

وكان من جملة من تلمذ للإمام ابن اللبان :

- حافظ الإسلام أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمٰن العراقي[1]

- الإمام النحوي اللغوي الفقيه المالكي البارع بدر الدين الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي ، المعروف بابن أم قاسم[2]

- أحمد بن سليمان بن عبد الله الصَّقِيلي[3]

- القاضي أبو بكر بن حسين العثماني المراغي[4]

تآليفه ومخلفه العلمي

قال الإمام ابن السبكي : (وبرع ابن اللبان فقهاً وأصولاً ، ونحواً وتصوُّفاً ، ووعظ الناس ، وعقد مجلس التذكير بمصر) .

وقال العلامة المقريزي : (وكان بارعاً في الفقه والأصول ، والنحو والتصوف والوعظ)[5]

فهٰذه العلومُ والفنون المذكورة هي ما أمَّ فيها الإمام ابنُ اللبان ، وقد

---

(١) انظر « لحظ الألحاظ » (ص ١٤٨) .

(٢) انظر « شذرات الذهب » (٨/ ٢٧٤) ، وهو صاحب كتاب « الجنى الداني » .

(٣) انظر « إنباء الغمر » (١/ ١٣٥) ، وقال : (بفتح المهملة وكسر القاف بعدها تحتانية ساكنة ، أخذ عن الشيخ شمس الدين بن اللبان وغيره ، ودرس وأفاد ، وكان خيراً صالحاً ، ولي خطابة المدينة ، ثم رجع إلى القاهرة) ، والصَّقِيلي : نسبة إلى صقيل ؛ ناحية بالجيزة .

(٤) انظر « طبقات الشافعية » لابن قاضي شهبة (٤/ ٨) .

(٥) انظر « المقفى الكبير » (٥/ ١٢٠) .

تنوَّعت تآليفُهُ علىٰ حسَبِ تنوُّع الذخيرة العلمية التي كان يضمُّها في جنباته ؛ فقد حكىٰ له المترجمون لسيرته أنه تركَ هـٰذه التآليف :

- « إزالةُ الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات » وسيأتي عنه حديث مفرد قريباً[(١)]

- « إصلاحُ كتاب ابن الصلاح » : ولعلَّه أوَّل تنكيت أُلِّف علىٰ « معرفة أنواع علوم الحديث » المعروف بـ « المقدمة » للحافظ العلامة ابن الصلاح ، وقد قال العلامة الزركشي في « النكت علىٰ مقدمة ابن الصلاح » (وأخبرني شيخنا العلامة مغلطاي رحمه الله تعالىٰ أن بعض طلبة العلم من المغاربة كان يتردَّدُ إليه ذكرَ له أن الشيخ شمس الدين بن اللبان وضعَ عليه تأليفاً سمَّاه : « إصلاح كتاب ابن الصلاح » ، وأنه تطلَّبَ ذلك دهرَهُ فلم يجده ، ثم شرع الشيخ علاء الدين في التنكيت ، وسماه بالاسم المذكور)[(٢)]

وقال الحافظ اليافعي : (وله في علم الحديث مصنَّفٌ مفيد جمع فيه كتب ابن الصلاح والنووي)[(٣)]

- « ألفيةٌ في النحو » : ضمَّنها كثيراً من فوائد « التسهيل » للإمام ابن مالك، و« المقرب » للإمام ابن عصفور ، قيل : لم يصنَّف مثلُها في العربية[(٤)].

- « الأمالي » : ذكره في كتابنا الذي بين أيدينا[(٥)].

(١) انظر (ص٣٥) .

(٢) النكت علىٰ مقدمة ابن الصلاح (١/ ١٠) .

(٣) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٩) ، وقال العلامة ابن قاضي شهبة في « طبقات الشافعية » (٣/ ٥٣) : (وجمع كتاباً في علوم الحديث) ، وفي « معجم المؤلفين » (٣/ ٧٨) : (كتاب في علوم الحديث) .

(٤) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٨) ، و« طبقات المفسرين » للداودي (ص ٣٥٤) .

(٥) انظر (ص٢٩٠) .

ـ « ترتيبُ كتاب الأمِّ » للإمام الشافعي بوَّبَهُ ورتَّبه علىٰ أبواب ومسائل « روضة الطالبين » للإمام النووي ، غير أنه لم يبيِّضْهُ ، ولم يشتهر[1] ، ولـٰكن عدم اشتهاره غير دالٍّ علىٰ عدم وجوده ؛ إذ نقل عنه الإمام الزركشي في « البحر المحيط » مصرِّحاً باسمه[2]

ـ « تفسير القرآن » وصل فيه إلىٰ سورة (البقرة) ، ووقع ما ألَّفه في مجلدين ، قال الحافظ اليافعي : (قيل : لو كَمُلَ لم يوجد في التفاسير مثله ؛ لأنه كان رحمه الله نهاية في علوم القرآن)[3]

ـ « رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة علىٰ طريقة السادة الصوفية »[4] : وقد ألحق هـٰذا السؤال والجواب بآخر الكتاب الذي بين أيدينا ؛ إذ هما ما وُقف عليه من تآليف الإمام ابن اللبان

ـ « ديوانُ خُطبٍ » : جمعَ فيه خُطَبَ الجمعة التي كان يخطب بها[5]

ـ « شرحُ الألفية » وهو شرحٌ للألفية التي وضعها ، وقد شرحَها شرحاً بيَّنَ فيه مجملَها ، وفتح مقفلَها[6]

ـ « مختصر الروضة » للإمام النووي : اختصرها في أربع مجلدات ، إلا أنه

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٤) ، و« مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٨) ، و« الدرر الكامنة » (٥/ ٦١) ، و« المقفى الكبير » (٥/ ١٢٠) ، و« طبقات الشافعية » لابن قاضي شهبة (٣/ ٥٣) .

(٢) انظر مثلاً « البحر المحيط » (٥/ ١٣٩) .

(٣) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٩) ، و« طبقات الشافعية » لابن قاضي شهبة (٣/ ٥٣) .

(٤) ضمن مجموع مخطوط في مكتبة كوبريلي ، رقم (١٦٠١) ورقة (٦٤ـ ٦٥) .

(٥) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٩) .

(٦) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٩) ، وفي « معجم المؤلفين » (٣/ ٧٨) : (شرح « ألفية ابن مالك » في النحو) .

لم يشتهر أيضاً ؛ لغلاقة لفظه ، ويفهم من كلام الحافظ اليافعي أنه اختصر « الروضة » للإمام النووي و« العزيز » للإمام الرافعي ، وقال (واستدركَ عليهما)[1]

ـ « **مختصر في النحو** » : ذكره الحافظ ابن حجر في « الدرر الكامنة »[2]

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أيضاً **أن له كتاباً علىٰ لسان الصوفية** ، وقال في صفة هـٰذا الكتاب (وفيه من إشارات أهل الوحدة ، وهو في غاية الحلاوة لفظاً ، وفي المعنىٰ سمٌّ ناقع)[3] ، فإن كان قد عنىٰ به « إزالة الشبهات » فلذلك حديثٌ سيأتي ، وكنْ علىٰ دراية من الآن أن الكتاب خِلْوٌ من الوحدة التي ذمَّها القوم من متكلِّمين ومحدِّثين وصوفية .

محنته وأذيته

رحم الله حجةَ الإسلام إذ قال فاتحةَ كتابه « فيصل التفرقة » : (واستحقرْ من لا يُحسدُ ولا يُقذفُ ، واستقصر من بالكفر والضلال لا يُقرف)[4]

وهي كلمةٌ لا تقالُ في رجل خبيث مردَ على الكفر والنفاق ، بل في رجل عظيمٍ **اختلفَ عليه وفيه أهلُ العلم وأرباب المكانة والسلطان** ، فنازعوه أطرافَ كلامه ، وشنَّعوا عليه مدَّعين فهمَ غورِ مرامه ، متجاهلين سعة العربية

---

(١) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٢٤٨) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٤) ، و« الدرر الكامنة » (٥/ ٦١) ، و« طبقات الشافعية » لابن قاضي شهبة (٣/ ٥٣) .

(٢) الدرر الكامنة (٥/ ٦١) .

(٣) انظر « الدرر الكامنة » (٥/ ٦١) .

(٤) فيصل التفرقة (ص ٤٦) .

وخصائصها ، وهادمين السور بين المجاز والحقيقة ، وجاهلين بأسرار الشريعة والحقيقة والطريقة .

وقد كان للإمام ابن اللبان نصيبٌ من ميراث الأنبياء والكُمَّل ؛ إذ ضاقت عقولُ بعض أعيان عصره عن كلماتٍ نطقَ بها ، فرمَوْهُ بالكفر والزندقة ، وبأنه يقول بالاتحاد والحلول ، وما أشبهَ هـٰذا من مقتضيات البُعد عن التديُّن

ولو أنك تتبَّعت خبره وخبرَ أمثاله ؛ ممَّن ابتُلوا وامتحنوا ، فسكنت قلوبُهم وصبروا . . لوجدت الخُصماء بين حاسد كاسد ، وغيور معاند ، وطالب جاهٍ ومال ، وقربٍ من السلطان ، وفي أحسن أحواله تجدُهُ عالماً لم يُضرب له نصيبٌ فيما يماري فيه ، فلم تلُحْ له منه بارقة ، ولا جادَتْ عليه منه وادقة ، وهـٰذا أشرفُ الخصماء ، وليس وراء ذلك خصومةُ علم ؛ إذ ليس بين الصادقين وأهل الكرم نزاع ، ولوجدت المبتلَيْنَ هم ممَّن هجر حضيضَ التقليد ورَقِيَ يفاع التحقيق ، وضُرب له بنصيب وافر من علم لدنيٍّ لا تألفُهُ المحابر ، وهو إلىٰ ذلك رابضٌ في ميدان الشريعة ، لا تُعرفُ عنه هناة في دينه ، غير كلمات لم يألفها الجمهور ، وهي علىٰ ظاهرها خلافُ المشهور .

ولمَّا رُمي حجة الإسلام بمثل ما سيأتي الحديث عنه ، وكرهَ منه بعضُ أهل العلم صرائح عباراته في التوحيد والتقديس . . قال : (إن الذي يكرهون مني ذلك الذي يشتهيه قلبي ، فاطوِ طومارَ الهذيان ، ولا تقعقع بعد هـٰذا بالشِّنان)[1]

وقبل الحديث عمَّا ابتُلي به الإمام ابن اللبان أنبِّهك علىٰ أن المؤرخ العلامة

---

(١) انظر « الأربعين » (ص ٤٨٠) ، والطومار : الصحيفة ، والشنان : الجلد البالي ، ويُضرب عليه للإفزاع .

ابن الفضل العمري هو خيرُ من وصف هـٰذه الحادثة ، وأصدقُ المؤرِّخين لهجةً في التأريخ لها ؛ فهو عصريُّهُ وابن بجدته ، وهو القاضي العادل الذي نافحَ عنه وبرَّأه ـ كما سترىٰ ـ من بليَّته ، وانظر كلماته التي قالها في مدحه والثناء عليه[1]

وأخصرُ كلمة في هـٰذه المحنة ، لم تعرض لذكر تفاصيلها ، بل أتت على الحديث من آخره ، مع نزاهةٍ ودين ، وصيانة وعفَّةِ لسان . . هي كلمةُ الإمام بحقٍّ تاج الدين السبكي ؛ حيث قال : (وبرعَ ابن اللبَّان فقهاً وأصولاً ، ونحواً وتصوفاً ، ووعظَ الناس ، وعقد مجلسَ التذكير بمصرَ) ، ثم قال : (وبدرَتْ منه ألفاظٌ يُوهم ظاهرُها ما لا نشكُّ في براءته منه ، فاتفقت له كائنةٌ شديدة ، ثم نجَّاهُ الله تعالىٰ)[2]

وحسبُك بها إن كنتَ علىٰ عجل ؛ فهي لقطةُ عجلان ؛ أوَّلُها أسباب ، وآخرها مسبَّبات ، عُجنت بحسن الظنِّ ، وحُبكت بسعة العلم .

حدثت هـٰذه الفتنة سنة سبع وثلاثين وسبع مئة ؛ وإليك ما ذكره العلامة المؤرخ المقريزي في تأريخها ؛ حيث قال : (وفيها كانت واقعةُ الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المؤمن بن اللبان ، في شهر المحرم ؛ وذلك أنه نُسبَتْ إليه عظائمُ ؛ منها : أنه قال في ميعاده بجامع مصر : إن السجود للصنم غيرُ محرم ! وأنه يفضِّل الشيخ ياقوتَ العرشي شيخَهُ علىٰ بعض الصحابة ! وشُهِدَ عليه بها[3]

---

(١) انظر (ص٣٠) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٤) .

(٣) لا ينبغي لقارئ كتب التاريخ أن يمرَّ بمثل هـٰذه الكلمات علىٰ عجل ، فإمامٌ ملأ اسمه مصرَ والشام، وحكىٰ رسمَهُ وعلمه العلماءُ الأعلام . . لا تبدرُ منه أمثالُ هـٰذه الطوام، ومن اعتقد=

واستؤْذن السلطان عليه فمكَّنَ منه ، فترامىٰ على الأمير جنكلي بن البابا ، والأميرِ الحاج آل ملك ، والأمير أيدمر الخطير ؛ حتىٰ حُكِمَ بتوبته ، ومُنعَ من الوعظ هو والشيخ زكي الدين إبراهيم بن معضاد الجعبري وجماعةٌ من الوعَّاظ)[1]

وقال المؤرخ العلامة ابن العماد وهو يتحدَّثُ عن سنة سبع وثلاثين وسبع مئة : (فيها أُخذ بمصر شمس الدين بن اللبان الشافعي ، وشُهدَ عليه عند الحاكم بعظائم تبيح الدم ، فرجع ورسم بنفيه)[2]

وقال المؤرخ الأديب الصفدي في « أعيان العصر » : (وكان قد قام عليه في وقتٍ قاضي القضاة القزوينيُّ بالديار المصرية ، وربما أنه كفره في سنة ستٍّ وثلاثين وسبع مئة ، وقام في أمره القاضي شهاب الدين بن فضل الله[3] ، وناصر الدين خزندار الأمير سيف الدين تنكز ، وغيرهما من أصحابه ، فسكت عنه ، وعمل في ذلك كمال الدين الأدفوي مقامة)[4]

وإليك ما ذكر القاضي ابن فضل الله العمري ، وهو يذكر محنته بقضِّها وقضيضها ؛ قال رحمه الله تعالىٰ : (صحب الشيخَ ياقوتَ الحبشي ، وغيرَهُ

= صحَّة مثل هـٰذه التُّهم الكواذب . . فهو من المجانين ، أو من المعاندين ، أو من أهل الأهواء الهالكين ، وقُلْ مثل هـٰذا في حقِّ كلِّ إمام قد جاوز القنطرة ، وليس في حسن الظنِّ هـٰذا ما يثبت العصمة ، بل فيه صيانةُ الألسنة عن أعلام الأمة .

(1) انظر « السلوك » (٣/ ٢١١) .

(2) انظر « شذرات الذهب » (٨/ ٢٠٠) .

(3) هو العلامة العمري صاحب « مسالك الأبصار » ، وقد سبق أنه كان من جملة من عمل علىٰ براءة الإمام ابن اللبان من الطامات المكذوبة التي نُسبت إليه .

(4) أعيان العصر (٤/ ٣٠٠) ، والمقامة المذكورة كان قد سمَّاها بالمقامة اللبَّانية ، وعند الله تجتمعُ الخصوم .

من مشايخ الإسكندرية ومصر والشام ، وأخذ عنهم من علوم الطريقة والحقيقة ما تقدَّمَ تمهيدَ العلوم الشرعية لسلوكه فيه ، حتىٰ برع وبزَّ أهل زمانه ، وسادَ علىٰ أبناء دهره ، وأطلق قلمَهُ بالإفتاء ، واشتغلَ عليه أنواع الطلبة ، وأخذت عنه طوائفُ المريدين ، وتكلَّمَ علىٰ رؤوس الأشهاد ، وحضر مجلسَهُ الخاصُّ والعام ، ولم يزل يُشارُ إليه بالإجلال ، ويُذكرُ بالتعظيم[١] ، وكنت أسمعُ به ولا يقيَّضُ لي به لقاء .

ثم أُصيبَ بما لم يخلُ منه مثلُهُ ، فخُلِّيَ في بعض مجالسه وقد شرعَ في كلامِ ما كمَّلَهُ ، وأخذ في قولٍ ما أتَمَّهُ ؛ فقام ابنُ الكاتب المالكي وقطعَ عليه الكلام[٢] ، وأخذ في الإنكار عليه ، وقامَ معه أناسٌ قلائل ، وهمَّ بهم السواد الأعظم حتىٰ كادوا يثبون بهم[٣]

ثم حُجِزَ بين الفريقين ، ورفعَ ابنُ الكاتب القضية إلى الحكام ، وكان كلاماً يقتضي قبل تمامه ما أوقدَ حميَّةَ بعضِ الحكام عليه ، فتحدَّث مع البقية ، ثم حدَّثوا السلطان فيه ، فاستشاطَ غضباً ، وأمرَهم فيه بأمرٍ كاد لا يُستدرك ، فقيَّضَ له من بلَّغَ السلطانَ القضية ، وأوصل إليه الخبرَ علىٰ حقيقته ، وعرَّفه بمكانة الشيخ وما هو عليه من العلم والدين ، فسخَّرَهُ الله له ، وقلب تلهُّبَ غيظِهِ عليه برداً وسلاماً له ، وبعثَ إلى الحكام بالتمهُّلِ في أمره

---

(١) وهـٰذا كله يدعو إلىٰ إلهاب نار الحسد والغيرة في النفوس الضعيفة ، ويُهيِّئ جوّاً من التنافس الذي لا يُطلب به وجه الله تعالىٰ ، وهـٰذا هو ما سيقع وتقرؤه من كلام العمري .

(٢) فأشبه حالُهُ حالَ من قرأ : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ، فسطا عليه جاهلٌ منعه من قوله : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ .

(٣) وقومةُ القلائل مع هـٰذا الماكر الجاهل : إما أنها مدبَّرة بليل ، أو أنه صادف مثله من الجهَّال بالحال فتكثَّروا ، وعلىٰ أي حال فالسواد الأعظم في هـٰذا المجلس كان ممن عرف للإمام حقَّه وقدره ، وعرف الكيد والمشاغبة ومن وراءهما .

ثم طلبه السلطان ، وادُّعِيَ عليه لديه ، وسأله عمَّا قال ؟ فاعترف ، فحُكِمَ بصحَّةِ إسلامه وقبول توبته ، وإبقائه على ماله وزوجته ، وعدالته ومناصبه ، بعد استيفاء الشرائط الشرعية ، وفعلِ كلٍّ ما يجب شرعاً

ثم عُقدَ له مجلسٌ بالمدرسة الصالحية عند قاضي القضاة جلال الدين القزويني ، فطلبه ؛ فنزل من القلعة إليه والناس حوله ، وقد ملأ سوادُ الناس ما بين القلعة والمدرسة ، فلما حضرَ مجلسَ الحكم العزيز . . ادُّعيَ عليه ، فأجاب بما حكم به السلطانُ ، وأوصل حكمَ السلطان بالقاضي القزويني ، وحكم حكماً آخر مستقلاً للشيخ بمثل ذلك ، وامتنعَ من الكلام في المجالس العامة ، ثم تكلَّم)[١]

وبهذا تعلم من هم الذين قاموا عليه ، وما هو السببُ الرئيس الذي دفع إلى ذلك ، وتعلم أن كلمة الحافظ ابن حجر في حقِّهِ كانت قاسية جداً ؛ وسترى مكان قسوتها بعد نقلها ؛ قال رحمه الله تعالى : (ولكنه ضُبطت عليه كلماتٌ على طريق الاتحادية ، فقام عليه الفقهاءُ ، وحضر إلى مجلس القاضي جلالِ الدين القزويني ، وادُّعِيَ عليه عنده ، وانتصر له ابن فضل الله ، إلى أن استُنفذ من يد القاضي المالكي شرف الدين عيسى الزواوي بعد أن مُنِعَ من الكلام)[٢]

ولم يحفظ لنا التاريخ تلك الكلمات الاتحادية ، وما أحسبُها إلا كالكلمات التي رصفَها الإمام أبو عبد الرحمن السلمي في « تفسيره » ، ورُمي بعد ذلك

---

(١) انظر « مسالك الأبصار » (٨/ ٤٠٢) .

(٢) انظر « الدرر الكامنة » (٥/ ٦٠) .

بالوحدة والاتحاد ! وأهل العلم والتحقيق ينقلونها من « تفسيره » ذاك ولا يعتبون على قائلها

وذكرَ قومةَ الفقهاء ، وإنما هو ابنُ الكاتب وبعض الرَّعاع

وذكرَ أن ابن الفضل العمري قد انتصرَ له ، وإنما هو ما رأيت ؛ فقد أحاط الرجلُ خبراً بأنه كلام تعمَّد المدَّعي بترَهُ ، وأخفىٰ أمره .

ويظهر أن الحافظ ابن حجر لم تكن تروقُ له كلماتُ الإمام ابن اللبان في التصوف ؛ إذ قال : (وله كتابٌ علىٰ لسان الصوفية ، وفيه من إشارات أهل الوحدة ، وهو في غاية الحلاوة لفظاً ، وفي المعنىٰ سمٌّ ناقع)[١]

وليس هو وحدَهُ رحمه الله تعالى المنفردَ بهـٰذا المشهد ؛ إذ ما زلنا إلىٰ يومنا هـٰذا نرىٰ علماء فضلاء سليمةً قلوبُهم ، شريفةً عمائمُهم . . لا يستطيبون الكلامَ علىٰ طريقة الرمز والإيحاء ، والإشارة والإخفاء ، ويرونها باطنيةً خبيثة ، وعبئاً علىٰ ألواح النصوص ، إلا أنهم مع هـٰذا لا تميلُ نفوسهم إلى الرمي بالزندقة والإكفار ، بل حسبُهم الزجر والإنكار ، وعندما يكون هـٰؤلاء المنكرون من أمثال الحافظ ابن حجر[٢] . . فما في ذلك كبيرُ ضرر ، ولكلٍّ نبأ مستقر .

ولـٰكن وجودهم في كل عصر ومصر لم يكن ليمنع هـٰذه الطريقة من الانتشار ؛ إذ كانت وما زالت الكلمة العليا في الدين لمن استوىٰ عنده الجلاء والإيحاء طالما أنهما ثوبانِ للحق ، فحاذر أن تستقذرَ العسل ولو وضع في

---

(١) انظر « الدرر الكامنة » (٥/ ٦١) .

(٢) يعني : في الطبع والمزاج ، وإلا فهيهات هيهات أن تُرىٰ مثل هـٰذه الدرة الفريدة في أزماننا العفنة .

محجمة الحجَّام ، أو تستطيبَ الدمَ ولو كان في الياقوت والكهرمان

وإنك لترىٰ أعلاماً أثنوا خيراً على الإمام ابن اللبان ، ولم تحجبهم تلك الكلماتُ التي وقفوا عليها عن لينِ القول في حقِّهِ ، وتحقيق دينه وصدقه ؛ فقد قال الحافظ زين الدين العراقي ـ وهو شيخُ الحافظ ابن حجر ، ومن تلامذة الإمام ابن اللبان ـ في ترجمته وهو يصف لنا حاله ، ويحيل تلك الضوضاء التي أحاطت به . . إلىٰ غوغاء الحنابلة[1] : (أحدُ العلماء الجامعين بين العلم والعمل ، وكان يتكلم على الناس بجامع عمرو بن العاص وغيره علىٰ طريق الشاذلية ، ثم امتُحن بأن شُهِدَ عليه بأمور وقعَتْ في كلامه ، وأُحضرَ إلىٰ مجلس الجلال القزويني ، وادُّعِيَ عليه بذلك ، فاستُتيبَ ومُنعَ من الكلام على الناس ، وتعصَّبَ عليه بعضُ الحنابلة)[2]

ومع هـٰذا كله لا بدَّ من الوقوفِ علىٰ هـٰذه الطريقة التي عمدَ إليها الإمام ابن اللبان ، واختارها لعرض معتقداته وقضايا علومه ، والحديثِ عن مكامن الخطر فيها[3]

---

(١) إلىٰ غوغائهم ، لا إلىٰ فضلائهم ، وكم كان لغوغائهم وبعض من ضاقت حوصلته من أعلامهم من فتنٍ ، وقد روىٰ حافظ الدنيا ابن عساكر في « تبيين كذب المفتري » (١٥٨) عن الحافظ ابن شاهين أنه قال : (رجلانِ صالحانِ بُلِيا بأصحابِ سُوءٍ : جعفرُ بن محمد ، وأحمدُ بن حنبل) ، وكان قد قال قبل روايته لهـٰذا القول : (لم تزلْ في الحنابلة طائفةٌ تغلو في السنة ، وتدخل فيما لا يعنيها حبّاً للخفوف في الفتنة ، ولا عارَ علىٰ أحمد رحمه الله من صنيعهم ، وليس يتَّفقُ علىٰ ذلك رأيُ جميعهم) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية » لابن قاضي شهبة (٣/ ٥٣) .

(٣) انظر (ص٤٥) .

ثناءات أهل العلم عليه

ما من كلمةٍ قيلت في الإمام ابن اللبان إلا وهي دون ما نعتَهُ عصريُّهُ الصادقُ في حبِّهِ ؛ العلامة الفقيه المؤرخ أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله العمري ؛ إذ هي دمعةُ باك ، وآهةُ شاك ؛ حيث قال فيه (هو رجلٌ قد جمعَ الله عليه من القلوب ، وجمعَ له من أشتاتِ ما لا هو في ظنٍّ ظانٍّ ، هـٰذا إلىٰ حُسنِ الشكل ، وتنويرِ الوجه والصورة ، وجمالِ الذات والهيئة ، وجودةِ الخطِّ ، وحُسنِ اللفظ ، وبراعةِ اللسان ، وكرمِ النفس ، وجميلِ السجايا ، فآهاً لدهرٍ فرَّقَ بيننا وبينه ، وزمانٍ أبعدَ المدىٰ عنه)[١]

وقال في فاتحة ترجمته (طرازُ مصر المُذْهب ، وفردُ أهلها في علم الحقيقة والمذهب ، والفائزُ المعلَّىٰ قِدْحُهُ ، والسيد المحلَّىٰ بذائب الذهب مدحُهُ ، طابَ غرسه ، وأشرقت ملءَ المشارق والمغارب شمسُهُ ، وطالَ لواؤه ، وحَسُنَ دواؤه ، وكثرت شيعتُهُ تتوالىٰ منه وَلْياً ؛ تُروي أنواؤُهُ ، وتجود الأرضَ سماؤه ، وتعودُ بالفرض والنوافلِ نعماؤه)[٢]

وقال فيه الإمام المؤرخ المحدث اليافعي في « مرآة الجنان » وهو ممنْ عاصره : (الإمامُ العلامة البارع ، الفقيهُ المفتي الشافعي ، الأصولي النحوي ، الخطيبُ المِصْقع ، الوحيد الفريد ، الصوفيُّ المتكلم ، لسانُ الحقيقة ، ودليل الطريقة)[٣]

---

(١) انظر « مسالك الأبصار » (٨/٤٠٣) ، ولم تطل هـٰذه الآهة الحرَّة والزفرة الصادقة ؛ إذ لحقه إلىٰ جوار أرحم الراحمين بعد قرابة شهرين من الزمن ، هـٰذا إن كان ألحق ترجمته بكتابه في آخر حياته ، أو أنه فراق أبدان ، والعلم عند الله تعالىٰ .

(٢) انظر « مسالك الأبصار » (٨/ ٤٠١) .

(٣) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٣٣٣) .

وقال أيضاً : (كان رحمه الله نهايةً في علوم القرآن ، وفي الأصلين والجدل ، وإمامتُهُ في الفقه مشهورة ، وبراعته في العلوم مذكورة)[1]

وقال العلامة الإسنوي : (كان عارفاً بالفقه والأصلين والعربية ، أديباً شاعراً ، ذكيّاً فصيحاً ، ذا همَّةٍ وصرامة ، وانقباض عن الناس)[2]

وقال الحافظ العلامة ابن فهد : (العلامة الرباني)[3]

ووصفَهُ بلغته الأدبية المؤرخُ الصفدي فقال : (ودرَّس بزاوية الشافعي في جامع عمرو بن العاص ، وعقد مجالسَ الوعظ فاشتملَ عليه العامُّ والخاص ، واشتهر ولا شهرةَ ابن الجوزي في بغداذ ، وطارت سمعتُهُ كأنه ابن سمعونَ الأستاذ)[4]

وحكى الحافظ ابن حجر له خبراً لطيفاً في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ؛ فقال : (قال العثمانيُّ قاضي صفد رأيتُهُ بمكة وقتَ صلاة الجمعة وأميرُ الحجِّ يضرب الطائفين ويقول اجلسوا للصلاة ، فقام عليه وأمسك بكتفيه وقال : نبيُّكَ قال : « لا تمنعوا أحداً طافَ بهـٰذا البيتِ أيَّ ساعةٍ شاءَ من ليلٍ أو نهارٍ » ، فسقطَتْ العصا من يد الأمير ، وقبَّلَ يدَ الشيخ ، قال : فاتفقَ أنه لما خرج الخطيبُ جلس الناسُ دفعةً واحدة)[5]

---

(١) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٣٣٤) .
(٢) انظر « طبقات الشافعية » له (٢/ ١٩٤) .
(٣) انظر « لحظ الألحاظ » (ص ٨٢) .
(٤) انظر « أعيان العصر » (٤/ ٣٠٠) .
(٥) انظر « الدرر الكامنة » (٥/ ٦١) .

طرفٌ من شعره

رقَّة الطباع لا تنفكُّ عن العربية وآدابها ، وقديماً قال الإمام الشافعي : (من تعلَّمَ القرآن عظُمت قيمته ، ومن تعلَّمَ الفقه نبُلَ مقداره ، ومن كتب الحديثَ قويَتْ حجَّته ، ومن تعلَّمَ الحساب جزُلَ رأيه ، ومن تعلَّمَ العربية رقَّ طبعه ، ومن لم يصنْ نفسَهُ لم ينفعْهُ عمله)[1]

ومن رقائق الأشعار الدالة علىٰ رقَّةِ طبع الإمام ابن اللبان : ما أورده له الداودي في « طبقات المفسرين »[2] : (من الطويل)

أحبَّـةَ قلبـي أنتـم وحيـاتِكـم ... حياتي فما لي عيشةٌ بسواكُمُ

أمـوتُ إذا غبتُـمْ وأُنشـرُ عنـدمـا ... يبشِّـرُنـي ريـحُ الصبـا بلقـاكُـمُ

إذا كنتـمُ روحَ الـوجـودِ بـأسـرِهِ ... فكيف يعيشُ الصبُّ عند جفاكُمُ

فإن كان ذنبي حالَ بيني وبين ما ... يـؤمِّلُـهُ منكـم نـزيـلُ قـراكُـمُ

وما لي سوىٰ أنِّي بكم قد أتيتُكم ... وعادتُـكم أن تجبروا مَنْ أتاكُمُ

ومن شعره الذي أورده في كتابه الذي بين أيدينا[3] : (من المتقارب)

تشـاغـلَ عنَّـا بـوسـواسِـهِ ... وكـان قـديمـاً لنـا يطلـبُ

محـبٌّ تنـاسـىٰ عهـودَ الهـوىٰ ... وأصبـح فـي غيـرنـا يـرغـبُ

ونحـن نـراه ونملـي لـهُ ... ويحسبُنـا أننـا غُيَّـبُ

ونحـن إلـى العبـد مِـنْ نفسِـهِ ... ووسـواسِ شيطـانـه أقـربُ

---

(١) انظر « أدب الدين والدنيا » (ص ٧٧) .

(٢) طبقات المفسرين (ص ٣٥٥) .

(٣) انظر (ص٣٠٨) .

وقوله فيه أيضاً[1] : (من البسيط)

قد كنتُ أحسبُ أني عن فنائِكُمُ　　نـــاءٍ وأن بـــأرض الله مُتَّسعـــا

ولم يزلْ لطفُكم بي تحت حُجْبِكُمُ　　حتىٰ رفعتُم حجاب العزِّ فارتفعا

فلاحَ أني مقيمٌ ما برحتُ على الـ　　أبوابِ عبداً وأن اللطفَ ما انقطعا

وكان بعضُ أهل الزندقة قد أظهر أبياتاً يلوِّح فيها بالاعتراض على القضاء والقدر علىٰ طريقة أهل السنة[2] ، فكان من جواب الإمام ابن اللبان[3] :

ألا بعـد حمـدِ الله بـاري البـريَّـةِ　　علىٰ ما هدانا من كتابٍ وسنةِ

بـأفضـلِ مبعـوث إلـىٰ خيـرِ أمـة　　عليه من الرحمـٰن أزكىٰ تحيةِ

فإن صحيحاً كون ما شاءَ ربنا　　ونفي سوىٰ ما شاءَهُ من مشيئةِ

ولم يرضَ كفرَ العبد أي لا يحبه　　لـه لا ولا يثنـي عليـه بمـدحـةِ

وحيلــةُ مــن لــم يهـدِهِ الله أنــه　　يلاحظُ وجهَ العجز في كل لحظةِ

وينفي القذىٰ عن عين فكرتِهِ ولا　　يميلُ بأسباب الحِجا عن محجَّةِ

ويجهد كلَّ الجهد في قصْدِ ربه　　بصـدقٍ وعـزم وابتهـالٍ وحُـرْقـةِ

---

(١) انظر (ص٣١٣) .

(٢) وقد أوردها الإمام ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١٠/ ٣٥٢) ، ومنها قوله : (من الطويل)

أيـا علمـاءَ الـديـن ذمـيٌّ دينكـم　　تحيَّـرَ دلُّـوهُ بـأوضـح حجـةِ

إذا ما قضىٰ ربي بكفري بزعمِكم　　ولم يرضَهُ منِّي فما وجهُ حيلتي

دعاني وسدَّ البابَ عني فهل إلىٰ　　دخولي سبيلٌ بيِّنوا لي قضيتي

قضىٰ بضلالي ثم قال ارضَ بالقضا　　فهـأنا راضٍ بالذي فيه شقوتي

(٣) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١٠/ ٣٥٧) .

وفاتـه

سبعون عاماً سطعت فيها شمسُ الإمام شمس الدين بن اللبان ، قد ملأَتْ دمشق ومصر بنورها ، إلىٰ أن قضى الله بمغيبها ؛ معلنةً وفاتَهُ رحمه الله تعالىٰ سنة تسع وأربعين وسبع مئة[1] ، بعد معاناةٍ لطاعون مصرَ الذي نزل بها ، لينتقل إلىٰ جوار ربِّهِ شهيداً حميداً ، سقت جدثه سُحُبُ الرضوان ، ومُزْنُ العفو والغفران .

وكان قد استوطن القاهرة حتىٰ مات[2] ، وكان قد دُفن بالقرافة عند رِجْلَي زوجِهِ ابنةِ العارف بالله تعالىٰ ياقوت العرشي[3] ، وقد قال الأديب المؤرخ الصفدي : (ولم يزل علىٰ حاله إلىٰ أن نُقلَ ابن اللبان إلى الجبَّانة ، وراح بفقرِهِ إلى الغني سبحانه)[4]

* * *

(١) انفرد الأدنه ويَ في « طبقات المفسرين » (ص ٣٧٥) فذكر أنه توفي سنة أربع وثمانين وسبع مئة .

(٢) انظر « المقفى الكبير » (١١٩/٥) .

(٣) انظر ما تقدم (ص١٨) .

(٤) انظر « أعيان العصر » (٣٠٠/٤) .

كلمة عن كتاب
« إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات »

أثنىٰ أهلُ العلم ـ ممَّن ترجم للإمام ابن اللبان وغيرهم ـ علىٰ هـٰذا الكتاب الفذِّ الذي ندرَ وجودُ مثله في رحاب المكتبة الإسلامية علىٰ سعتها ، ولعلَّ طريقة العرض التي اختارها مصنفُهُ كانت هي السببَ الرئيس في تفرُّده ، وهـٰذا لا يعني أن غيرَهُ من أعلام الأمة لم يأتِ ببعض أو أكثر مادة هـٰذا الكتاب ، إلا أنك ستراها مبعثرة في كُتُب التفسير والرقائق والعرفان ، وفي بعض الكتب التي اتخذت الكشفَ والإلهام أحدَ منابع العلم ضمن ضوابط شرعية صارمة .

وسيظهر لك فيه بجلاء أثرُ المدرسةِ العرفانية التي أسَّسَها الإمام أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذليُّ[1] ، وتلميذه العارف بالله تعالىٰ أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصاري المرسي .

وقد كان من أعلام هـٰذه المدرسة العريقة شيخُ الإمام المصنفِ العارفُ بالله تعالىٰ أبو الدرِّ ياقوت الحبشي العرشي ، وهو كما سبق لك شيخُهُ ومربِّيه ، ووالدُ زوجه أيضاً ، فالاجتماع به ومخالطته أمرٌ لا نزاع فيه ، ولا شكَّ أنه أتيح له عبر هـٰذه الصحبة التي شدَّتْ من عزمها القرابةُ والصهريَّةُ . . سماعُ كمٍّ كبير من الأقوال ، ومشاهدةُ كثير من الأحوال ، ولعلها ملأت فؤاد الإمام ابن اللبان

---

(١) والذي قال فيه شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد : (ما رأيتُ أعرف بالله من الشاذلي) ، وانظر « حسن المحاضرة » (١/ ٥٢٠) .

حتىٰ تعدَّت إليه ، وأورثته حالاً ومقالاً يُنميانِ بالانتساب إلىٰ تلك الرياض الأنيقة

وهـٰذا يفسِّرُ لنا صبغةَ الكتاب التي من العبث سلخُهُ عنها ؛ وهي اللغة الصوفية الصارخة الصريحة ؛ حتىٰ قال الإمام ابن السبكي في صفته : (ووقفتُ له علىٰ كتاب « متشابه القرآن والحديث » ، وهو مختصرٌ حسن ، تكلَّمَ فيه علىٰ بعض الآيات والأحاديث المتشابهات بكلام حسنٍ علىٰ طريقة الصوفية)[١]

اسم الكتاب ، وتوثيق نسبته للإمام ابن اللبان :

هـٰذا العنوانُ الماثل بين يديك هو اسم هـٰذا الكتاب الفذِّ ؛ إذ بهـٰذا الاسم عُنون على النسختين الأصيلتين له[٢] ، وكذلك سمَّاه الحافظ اليافعي وهو ممن عاصرَ مؤلفه الإمام ابن اللبان[٣] ، والعلامة الداودي[٤] ، وما تراه أو تسمعه ممَّا قد يخالف هـٰذا العنوان فهو راجع إلى التصرف فيه ؛ فمن ذلك :

- « المتشابه في الربانيات » ، كذا ذكره القاضي العمري[٥]
- « متشابه القرآن » ، كذا سمَّاه الأدنه وي[٦]

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٤) .
(٢) انظر وصف النسخ الخطية (ص٨٧) .
(٣) انظر « مرآة الجنان » (٤/ ٣٣٣) .
(٤) انظر « طبقات المفسرين » له (ص ٣٥٥) .
(٥) كذا في « مسالك الأبصار » (٨/ ٤٠٣) .
(٦) انظر « طبقات المفسرين » (ص ٢٩٦) ، وليس المراد بالمتشابه هنا تشابه الآيات في الألفاظ ؛ وقد أُلِّف في ذلك تآليف خاصة بها .

ـ « متشابه القرآن والحديث » ، كذا ذكره الإمام ابن السبكي[1] ، والعلامة ابن قاضي شهبة[2] ، والعلامة المقريزي[3] ، والمؤرخ ابن العماد[4] ، وكذا جاء علىٰ بعض نسخه الخطية[5]

ـ « تأويل الشبهات » ، كذا ذكره الحافظ الزبيدي[6]

ـ « إزالة الشبهات » ، وهو مجرد اختصار للاسم ، كذا ذكره الحافظ ابن علان[7]

ـ « شرح آيات الصفات » ، كذا ذكره الإمام السيوطي[8]

ـ « رد الآيات المتشابهات في أسمائه تعالىٰ وصفاته عما يوهم التجسيم والتشبيه » ، كذا عنوان الكتاب علىٰ ظاهر بعض نسخه[9]

ـ « رد المتشابه إلى المحكم » ، كذا ذكره حاجي خليفة[10]

إلىٰ غير ذلك من العناوين التي لا يخفىٰ علىٰ متأمِّل أنها متصرَّفٌ فيها

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٤) ، ووصفه وأثنىٰ عليه خيراً كما مر ، فقال : (وهو مختصرٌ حسن ، تكلَّمَ فيه علىٰ بعض الآيات والأحاديث المتشابهات بكلام حسن علىٰ طريقة الصوفية) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية » (٣/ ٥٣) .

(٣) انظر « المقفى الكبير » (٥/ ١٢٠) .

(٤) انظر « شذرات الذهب » (٨/ ٢٧٩) .

(٥) انظر وصف النسخ الخطية (ص٩٠) .

(٦) انظر « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٢) .

(٧) انظر « الفتوحات الربانية » (١/ ١٩٨) .

(٨) انظر « الإتقان » (١/ ٣٥) ، وذكره في « معترك الأقران » (١/ ١١١) ، وفي « الإتقان » أيضاً (٣/ ١٤) فقال : (من المتشابه آيات الصفات ، ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد) ، ونقل فيهما عنه .

(٩) انظر وصف النسخ الخطية (ص٨٨) .

(١٠) انظر « كشف الظنون » (١/ ٨٣٧) .

باعتبار موضوع الكتاب ، وكثيراً ما يقع مثلُ ذلك

وأما بشأن نسبة « إزالة الشبهات » إلى الإمام ابن اللبان فما إخالُ بعد ذكرِ هٰؤلاء النَّقَلةِ أن يقعَ شكٌّ في نسبته إليه ، وزيادةً علىٰ من ذُكر فقد نقل عن كتابنا هٰذا الحافظُ القسطلاني في « إرشاد الساري » ، وفي « المواهب اللدنية » مصرِّحاً بالنقل عن الإمام ابن اللبان ومثنياً عليه[1] ، وكذا نقل عنه العلامة الكفويُّ في « الكليات »[2] ، والعارف بالله إبراهيم الشاذلي في الخبر المشهور عن المعيَّة[3] ، والحافظ المناوي في « فيض القدير »[4]

داعيةُ تأليف كتاب « إزالة الشبهات » :

لا داعيَ للتخمين في البحث عن دواعي تأليف كتابنا هٰذا ؛ فقد بيَّنَ مؤلفُهُ طالعةَ كتابه السببَ الذي حملَهُ علىٰ وضع هٰذا الكتاب ؛ حيث قال :

(فإنكَ سألتني ـ أرشدني الله وإياك ـ عن أمر عظُمَ في هٰذا الزمان خَطبُهُ ، وعمَّ ضرره ؛ وهو ما تظاهرَ به بعضُ المبتدعة المنتسبينَ إلى الحديث والفقه ، وأشاعَهُ في العامَّة والخاصَّة من اعتقاد ظواهر الآيات المتشابهة في أسمائه تعالىٰ وصفاته ، من غير تعرُّضٍ لصرْفِها عمَّا يوهم التشبيه والتجسيم ، ويزعم أنه في ذلك متمسِّكٌ بالكتاب والسنة ، ماشٍ علىٰ طريقة السلف الصالح ، ويشنِّعُ علىٰ من تعرض لشيء منها بتأويل ، أو صرفه عن ظاهره بدليل ! وينسبُهُ في ذلك إلىٰ مخالفة الصحابة والتابعين ؛ لكونهم لم ينقل عنهم التعرُّضُ لشيء

(١) إرشاد الساري (١/ ١٥٠) (٤/ ١٠٥) ، وانظر « شرح المواهب اللدنية » (٢/ ١٢٥) .
(٢) الكليات (ص ١٠٩) .
(٣) انظر (ص٣٠٦) .
(٤) فيض القدير (٢/ ٣٠٦) .

من ذلك ! وقد ضلَّ وأضلَّ ، وما يُضِلُّ به إلا من هو قاصرُ الفهم ضعيفُ النور .

وحيث سألتني عن ذلك ، ورغبتَ في إملاء شيء عليه . . فلا بدَّ من الإجابة علىٰ سبيل النصيحة لله تعالىٰ ولرسوله ولأئمَّةِ المسلمين وعامتهم)[1]

فتأليفُ الكتاب كان بطلبٍ من واحدٍ من أعيان زمانه ، أو من جملة تلامذة الإمام ابن اللبان وإخوانه ، وأيّاً كان الطالب فالذي تجب ملاحظته هو فشوُّ أمرٍ طرأ في زمانه ، ولاكَتْهُ الألسنة فشاع الحديثُ عنه ؛ وهو محاولةُ إبقاء النصوص المتشابهة علىٰ ظواهرها ، وحمل العقائد عليها ، مع غيبوبة عن المحكم الذي يجب ردُّها إليه

ولعلَّكَ تسألُ : تُرىٰ من أراد بقوله : (بعض المبتدعة) ؟

ويكادُ القارئ اليَقِظُ لأحداث تلك الحقبةِ يجزم دون مينٍ أنه أراد العلامة ابن تيمية وأفراد مدرسته ؛ فإن الجلبةَ التي أحدثَها في الشام ومصرَ في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن ؛ فيما أشار إليه الإمام المؤلف بقوله : (وأشاعَهُ في العامَّة والخاصَّة من اعتقاد ظواهر الآيات المتشابهة في أسمائه تعالىٰ وصفاته) . . لا تُعرفُ إلا له ولأتباعه[2] ، وستجد قسيمَهُ المنازعَ له فيما ذهب

---

(١) انظر (ص١١٠ـ١١١) .

(٢) وهناك فئام من الناس اليومَ يجاهدون في تأويلِ عباراته ، وصرفِها عمَّا لا يليقُ بفقهه وعلمه ، وعدمِ إخراجه عن مذهب أهل السنة والجماعة ، وعلىٰ عُسر هـٰذا الطريق ووعورته فلهو خيرٌ من مَسلك آخرينَ يحملون الناس علىٰ ظاهر ما دوَّنَهُ من عقائد التشبيه ، ويرمون أهل السنة والجماعة بالبدعة والضلالة عند مخالفته ، ثم يسطون ملبِّسين ومضلِّلين علىٰ هـٰذا اللقب الشريف فينسبون أنفسَهم إليه بهتاناً وزوراً ، وأيّاً كان فعلهم فالأمةُ اليوم في يقظة لم تعد لتسمح أو تسكت عن مثل هـٰذه العقائد الفاسدة بالانتساب إليها ، ودعاوىٰ هـٰؤلاء في هُزال مستمر والحمد لله ؛ فدينُ الله تعالىٰ أجلُّ وأعظم من أن تُفهم أصوله وفروعُهُ بنظر عالم من أعيان القرن الثامن من خَلَفِ الأمة .

إليه. . جمهرةَ أعلام الأمة يومَها ، سواء سخطنا أم رضينا ، فهٰذه حقيقةٌ تاريخية بلجاء ، قدَّرها الله على الأمة فتنةً واختباراً ، أعاذنا مولانا من الفتن ؛ ما ظهر منها وما بطن .

غير أنَّنا نرى العلامة الأدنهْ ويَّ يختار أن الكتاب منتخبٌ من كلام العلامة الإمامي رشيد الدين ابن شهر آشوب المازندراني[1] ! ويعني بذلك : كتابه « متشابه القرآن ومختلفه » ، وهو قولٌ غريب ! إذ شَبَهُ الاشتراك في العنوان لا يقضي بذلك ، كيف و« إزالة الشبهات » نصَّ فيه مؤلفه كما رأيت علىٰ دوافع تأليفه ، ولم يشِرْ أو يلوِّح لكتاب المازندراني ؟!

ولو عدتَ إلىٰ أبواب كتاب « متشابه القرآن ومختلفه » ، وقارنته بفصول « إزالة الشبهات ». . فسترى اختلافاً كثيراً ، دعْ عنك التباينَ في حجم الكتابينِ الذي قد يُدحضُ بدعوى الاختصار المشار إليه .

فالمازندراني كان بحثه عن المتشابه غيرَ مقصور علىٰ ما اقتصر عليه ابنُ اللبان ؛ فقد عرض الأولُ للحديث عن أسباب النزول ، ووسَّعَ القول في الفقه والأصول ، وتحدَّث عن المسائل التي تُذكر في كتب الإمامية عموماً ، مع نحو وصرف وبلاغة ، وكلُّ هٰذا ليس من شأن كتاب « إزالة الشبهات » أصلاً .

ثم أبرزُ ما ميَّز كتابَ الإمام ابن اللبان هو تلك اللغةُ الصوفية التي اختارها لهٰذا البحث ، والتي أثارت حوله لهبَ الانتقاد ، وهي سمة خُصَّ بها كتابُهُ هٰذا دون غيره في عرضه لبحث المتشابهات .

ثم هبْ على التنزُّل أن الإمام ابن اللبان قد وقف علىٰ كتاب « متشابه القرآن

---

(١) انظر « طبقات المفسرين » (ص ٢٩٧) وقد قال : (صنف « متشابه القرآن » وفسر ؛ وهو مؤلف لطيف انتخبه من تأليف رشيد الدين أبي جعفر محمد بن علي المازندراني) ، وتوفي المازندراني سنة (٥٨٨ هـ) ، وانظر « الوافي بالوفيات » (٤/١١٨) .

ومختلفه » وأفادَ منه ؛ فأيُّ ضيرٍ أن ينقل ما هو حقٌّ في ذاته ؟! وأيُّ بَلَهٍ نكون عليه لو أنَّنا هجرنا كلَّ حقٍّ فاهَ به المخالفون ؟!

ولقد قعَّدَ لهـٰذا أميرُ المؤمنين سيدنا عليٌّ رضي الله عنه بقاعدة هي من أنوار الشريعة ؛ وذاك حينما قام الحارثُ بن حوطٍ الليثي إليه فقال له أتراني أظنُّ طلحةَ والزبيرَ وعائشةَ اجتمعوا علىٰ باطل ؟! فقال له سيدنا عليٌّ رضي الله عنه : يا حارِ[1] ؛ إنك ملبوسٌ عليك ؛ إن الحقَّ والباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال ؛ اعرف الحقَّ تعرفْ أهله ، واعرفِ الباطل تعرف من أتاه[2]

وقد نبَّهَ حجة الإسلام إمامُنا الغزالي علىٰ خطر ترك الحق لمجرَّد أن المخالف قالَهُ فقال : (وهبْ أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلامُ معقولاً في نفسه ، مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن علىٰ مخالفةِ الكتاب والسنة . . فلِمَ ينبغي أن يهجر ويترك ؟!

فلو فتحنا هـٰذا الباب ، وتطرقنا إلىٰ أن يُهجرَ كلُّ حق سبق إليه خاطرُ مبطِلٍ . . للزمنا أن نهجرَ كثيراً من الحق ، وللزمنا أن نهجرَ جملةً من آيات القرآن ، وأخبارِ الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية ؛ لأن صاحبَ كتاب « إخوان الصفا » أوردها في كتابه مستشهداً بها ، ومستدرجاً قلوب الحمقىٰ بواسطتها إلىٰ باطله ! ويتداعىٰ ذلك إلىٰ أن يستخرج المبطلون الحقَّ من أيدينا بإيداعهم إيَّاهُ في كتبهم)[3]

* * *

---

(١) ما ألطف هـٰذا الترخيم الذي أشار فيه إلى الحيرة وعدم التثبُّت !

(٢) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٢/ ٢٧٤) .

(٣) انظر « المنقذ من الضلال » (ص ٧٥) .

الغاية من تأليف الكتاب

نصَّ الإمام المؤلف علىٰ هـٰذه الغاية بقوله : (وإنما المقصود ردُّ المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية ، وتلويحاتٍ وتصريحات من الكتاب والسنة)[١]

واكتفى العلامة حاجي خليفة في تعليل تأليف هـٰذا الكتاب بقوله : (أجاب فيه عمَّا تظاهرَ به بعض المبتدعة بظواهر القرآن والحديث)[٢] ، وقد عرفت الداعيةَ لتأليفه قريباً[٣] .

وكان من جملة المقاصد التي أهدفَ لها الإمام ابن اللبان :

ـ بيانُ أن معرفة الله تعالىٰ لا تكون قاصرةً على النصوص المحكمة ، بل لا بدَّ من معرفته تعالىٰ أيضاً بالمتشابه كما عُرِفَ بالمحكم ، وأن ميدانَ معرفته جلَّ جلاله في المتشابهات رَحبٌ فسيح ، يفهم هـٰذا من جملة كتابه ، وإن لم يذكره صريحاً

ـ الردُّ علىٰ نابتةِ زمانه القائلين بالحرف والحدِّ وإثبات صفات الحدوث له عزَّ شأنه ، والذين حجَروا معرفته سبحانه علىٰ أُطُرٍ لغوية ضيقة مع سعة اللغة وقابليَّتها ، وأقيسةٍ جدليَّة متنازعٍ فيها معارضةٍ بالبراهين والحُجَج .

---

(١) انظر (ص١٢٤ـ ١٢٥) .

(٢) انظر « كشف الظنون » (٢/ ١٥٨٤) .

(٣) انظر (ص٣٨) .

ـ بيانُ أن أقوالهم التي حاولوا إرساءَ قواعدَ علميةٍ لها تفضي بمعتقِدها إلىٰ أخسِّ عقائد الفرق المبتدعة[1]

ـ تأكيدُ وجوب صرْفِ الآيات والأحاديث المتشابهات عن ظواهرها ، مع بيان معانٍ لها ؛ لكيلا يفضي هـٰذا التأويل الإجمالي إلىٰ نوع من التعطيل المغتفر

ـ فتحُ باب الفهم عن الله جلَّ جلاله فيما طوي في تلك الآيات والأخبار من معانٍ وأسرار .

ـ إبرازُ دور الإشارة والرمز في أحرجِ مواطن النصوص ؛ ألا وهي نصوصُ الاعتقاد ، ضمن شروطٍ علمية صارمة ؛ أهمُّها عدم معارضة المحكم والظاهر اللذينِ أقرتهما الشريعة

ـ تصويرُ بعض القضايا الصوفية الإلهامية في صورة قضايا علمية استنتاجية ، أو ما يمكن أن نعبِّر عنه بقولنا : عرضُ المَشاهدِ الكشفية بلغة علمية مألوفة

ـ محاولةُ الجمع بين رأيينِ يظهر تعاندُهما ؛ ويمثلُهما القائلون بالتأويل التفصيلي القاطع ، والقائلون بإثبات الظاهر الممانع ؛ وذلك بصرف المحال عمَّا لا يليق بجلال القديم سبحانه ، وعدم القطع بتفسير دون آخر[2]

---

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « مشكاة الأنوار » (٨٩) وهو يتحدَّث عن المحجوبين : (وأخسُّهم رتبة المجسمة ، ثم أصناف الكرامية بأجمعهم ، ولا يمكنني شرح مقالاتهم ومذاهبهم ؛ فلا فائدة في التكثير ، لـٰكن أرفعهم درجةً مَنْ نفى الجسمية وجميع عوارضها إلا الجهة المخصوصة بجهة فوق ؛ لأن الذي لا ينسب إلى الجهات ولا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله . . لم يكن عندهم موجوداً ؛ إذ لم يكن متخيلاً ، ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوزُ النسبة إلى الجهات) .

(٢) والحقُّ : أن الإمام ابن اللبان مبيِّن لذلك ؛ إذ أعلام العلماء من قبله ما كانوا ليمنعوا من تعدُّد=

ماذا نجد في كتاب « إزالة الشبهات »؟

من الأمور التي يتنبَّه لها مطالعُ الكتاب :

ـ أنَّ المؤلف لم يتعرَّض لكلِّ متشابهٍ في القرآن والسنة ، بل اكتفى بالحديث عن أكثرها شيوعاً ودوراناً ، والاهتمام بالتي كثُرَ فيها اللغط

ـ أنَّ جلَّ الأحاديث التي استشهد بها المؤلف هي من « الصحيحين »

ـ وجودُ بعض التأويلات التي تحتاجُ عند كثير من أهل العلم إلىٰ تأويل وتفصيل ، مع قلَّةٍ أو ندرة للنقولات العلمية ، ووجودُ كثير من الإشارات التي هي في موضع إبهام واستغلاق ، ولا سيما عند من لا خبرةَ له بمصطلحات القوم .

ـ إيجازُ القول في قضايا كان من الحُسْنِ تطويلُ القول فيها

ـ دورانُ بعض الاصطلاحات الصوفية الدقيقة التي قد يتعنَّى القارئ غير المتخصِّص في فهم المراد منها

ـ محاولةُ صبغ نفس القارئ بالمعاني المنتخبة في تفسير المتشابهات .

ـ استعمالُ عناوين لطيفة لمعانٍ خاطفة يجدرُ التنبيه عليها ؛ وذلك بنحو قوله : (لطيفة ، إشارة ، تنبيه ، تربية ، مناجاة ، اعتبار ، تتمة . . .) .

ـ الابتعادُ عن اللغة الكلامية قدر الاستطاعة ، ومع هـٰذا بدرت بعض العبارات التي تؤكِّد انتسابه إلى المنهج الأشعري ، بل الكتاب مصرِّح بذلك .

= الفهوم في المتشابهات ، ولـٰكنهم اختاروا ما قالوا حرصاً على العامة من مزالق التشبيه .

ومن المسائل الخاصة التي اعتنىٰ بها مؤلف الكتاب :

- التعرُّض لأهم الأسباب التي منعت من فهم المتشابهات

- تقعيدُ قاعدة عامة لفهم المتشابه وردِّهِ إلى المحكم .

- ردٌّ عابر على الإمام ابن العربي المالكي في قضية إنكاره رؤيةَ الله تعالىٰ في الموقف

- توسيعُ القول في مسألة التجلِّي في الصور للحقِّ تعالىٰ ، ويكاد الكتاب يكون أحد المراجع الرئيسة في هـٰذه المسألة .

- الحديثُ عن الحقيقة المحمدية ، وإرجاع أنوار الأكوان إليها

- إثباتُ الأقربية بالذات للحضرة الإلـٰهية ، وهي من المسائل التي يعزُّ وجود قائل مصرِّحٍ بها

إلىٰ غير ذلك من المسائل والتنبيهات التي تُوري زندَ المعرفة بزندةِ الحبِّ لله سبحانه ، وتستحثُّ علىٰ طلب علومِ القوم وسلوك سُبُلهم ، ولعل هـٰذا من المقاصد الخفيَّة التي توارت وراءَ حجاب كلماتِ هـٰذا الكتاب .

معنىٰ قول أهل العلم بأنه ألَّف « إزالة الشبهات » علىٰ طريقة الصوفية :

لعلك تشتاقُ لمعرفة معنىٰ قولهم أنه ألَّف كتابَ « إزالة الشبهات » علىٰ طريقة الصوفية .

فاعلمْ : بأنَّ لكلِّ علم وفنٍّ مصطلحاتٍ استحدثها أهلُهُ ؛ رعايةً لحرمة هـٰذا العلم أن يتجاوزه من ليس أهلاً له ، واعتداداً بجهود السابقين الذين اختاروا فيه ألفاظاً خاصة دون غيرها ، واختصاراً لبسط معنىً خاصٍّ بكلمة أو اثنتين .

والتصوفُ أحدُ عَمَدٍ ثلاثة قام عليها دينُنا الحنيف ؛ وهو المعبَّر عنه

بالإحسان ، وما جادلَ في الاصطلاح إلا من جهلَ قدر الأعمار ، فضيَّع وقته في قيل وقال

وقد اشتَهر للتصوف ثلاثُ لغات عليها مدارُ عرضه أمام الجمهور

ـ التعبيرُ بما عبَّرَت به النصوصُ الشرعية من تقوىٰ وورع وزهد ومعرفة وحبٍّ ومجاهدة وذكرٍ ، إلىٰ غير ذلك ممَّا ملأ الكتابَ الحكيم ودواوين السنة ، وهٰذه لغةٌ هي كالأصل الذي يُبتنىٰ عليه ، ولا مجالَ لإنكارها ، أو صرفها عمَّا وضعت له .

وإنك لتقطع أن وصفهم كتابَ « إزالة الشبهات » بأنه علىٰ طريقة الصوفية . . ليس المراد به هٰذه اللغةَ الشهيرة الشرعية ؛ إذ لا سبيلَ لنُكرانها

ـ التعبيرُ باصطلاحات لغويةٍ دالَّة علىٰ أمور دقيقةٍ متفرِّعة عن تلك الألفاظ الدائرةِ المشتَهرة في النصوص الشرعية : هٰذه المصطلحاتُ لن تجدها في كتاب أو سنة ، غير أنك تجدُ ما يشهدُ لها فيهما ؛ وذلك كالجمع والفرق ، والقبض والبسط ، والتواجد والوجد ، والشريعة في مقابلة الحقيقة ، إلىٰ غيرها من الاصطلاحات التي صارت اليوم داخلةً في مناهج التدريس كدخول مصطلحات أيِّ علم آخر .

ومع وجود هٰذه الاصطلاحات التي لا يعرف المرادَ منها إلا من راجعَ أو تلقَّىٰ معانيَها . . فليست هي اللغةَ الصوفية التي نُعتَ الكتاب بها ، وإن كان الكتابُ مشتملاً عليها وعلىٰ سابقتها

ـ التعبيرُ بلغة هي أكثرُ عمقاً ، وأعوصُ فهماً ، وأدقُّ مأخذاً ، ترجعُ على التحقيق إلىٰ علومٍ عزيزة المنال ؛ هي ممَّا يُعبَّرُ عنه بلغة الشرع بالعلوم

اللدنِّية[١] : هـٰذه العلومُ التي صرَّح بها كتاب الله العزيـز ؛ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف ٦٥] ، وأكَّدَ وجودَها ، فوجودُها من المعلوم مـن الديـن بالضرورة ، ومع هـٰذا تجدُ قوماً يؤمنون بالكتاب ، ويقرُّون بوجود هـٰذه العلوم جنساً ، لا نوعاً ولا فرداً ! ولـٰكن ما هي ثمرةُ إيمانٍ كهـٰذا الإيمانِ الخَلَق ؟!

وهـٰذه اللغةُ عربية الألفاظ ، مطمطمةُ المعاني[٢] ؛ إذ لو كانت اللغة الثانية مجازاً فهـٰذه مجازُ المجاز ، ولَئِنْ كان نفيُ النفي إيجاباً فمجازُ المجاز حقيقة ؛ غير أنها حقيقةٌ استعجمَ إبصارُها وجلاؤها ؛ لأنها حقيقةُ الحقائق كما يسميها إمامنا الغزالي .

وهنا تضيق السُّبُل ، ولا يجتازُ علىٰ صراط ذاك الفهْمِ الذي هو أحدُّ من السيف ، وأدقُّ من الشَّعَر . . إلا من أتقن منطقَ الطير ، وحينها تأتي كلاليبُ الحيرة بين الحقيقة والمجاز ، والمحكم والمتشابه ، وتتنازع المارِّينَ الذين لم

---

(١) يعبِّرُ حجة الإسلام الغزالي عن بعض هـٰذه العلوم أحياناً بالأسرار التي اختُصَّ بدركها المقربون ؛ ويرجعها إلىٰ أقسام خمسة :
- أن يكون الشيء دقيقاً في نفسه تكلُّ أكثر الأذهان عن دركه ، ومثَّلَ له بالروح
- أن يكون من الخفيَّات التي امتنع الأنبياء والصديقون عن إفشائها ؛ رحمة بأكثر الخلق ، وهي قطعاً ليست مما كُلِّفنا بمعرفته ، ومثَّل لها بسرِّ القدر .
- سلوك طريقة الاستعارة والرمز ؛ كقول القائل : رأيت فلاناً يقلِّد الدرَّ في أعناق الخنازير .
- التفريق بين الإدراك الجملي والتفصيلي بصيرورة الشي حالاً ؛ كالأحوال الإيمانية .
- التعبير بلسان المقال عن لسان الحال ؛ كقول القائل : قال الجدار للوتد : لمَ تشقني ؟ قال : سلْ من يدقني .

وانظر تفاصيلها في « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٦٧) .

(٢) الطمطمة : العجمة ، وألفاظٌ منكرة شبيهة بلغة العجم .

يتأهَّلوا لما وراء هـٰذا الصراط.. خطاطيفُ الضياع بين الظواهر والبواطن، ولن ينجو إلا إحدىٰ طائفتين :

- **أصحابُ اليقين الذين لا تخالجُهم الشكوك** : وهم طائفةٌ من المقرَّبين عزيزة ؛ من أهل الهداية الخاصة أو الاجتباء والاصطفاء، علموا فعملوا، وأخلصوا فصدقوا، وجاهدوا فهُدوا، ووصلوا فشاهدوا ؛ وهم الراسخون في العلم .

- **أصحابُ التسليم الممزوج باليقين** فهـٰؤلاء أصحابُ ألباب ؛ إذ ليس تسليمُهم عن تقليدٍ أعمىٰ، بل سلَّموا بعدما عرفوا أن القوم علىٰ حقٍّ، ولـٰكنَّ هممَهم تقاصرت خُطاها في ميدان الأولين السابقين، فاحتالوا بحيلة شرعية شريفة ؛ وهي : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »

ولا شكَّ عندي وعند كلِّ من طالع « إزالة الشبهات » أنهم قصدوا بلغة التصوف في صفته به.. هـٰذا النوعَ الصعبَ المرتقىٰ، والذي كتابُنا لوَّحَ فيه بتلويحات، وأبرق ببوارقَ، وألمع بلوامع، وما أراد بها إلا التشويقَ لسلوك الطريق ؛ طريقِ العرفان والتحقيق، الذي ينجو سالكُهُ من البقبقة والحملقة .

وكالعادة بعد سماع مثل هـٰذا الكلام تكثرُ الأسئلة : كيف ؟ وممَّن ؟ ومع من ؟ وإلىٰ أين ؟ وإلىٰ متىٰ ؟ وحتَّامَ ؟ وهـٰذه أسئلةُ المتمنِّينَ، وقد حصَّل حجةُ الإسلام رسومَ التصوف في ابتداء كهولته كما نصَّ علىٰ ذلك، إلا أنه قال : (فظهرَ لي أن أخصَّ خواصهم - يعني : الصوفية - ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، **بل بالذوق والحال وتبدُّلِ الصفات**، فكم من الفرق بين أن تعلم حدَّ الصحة وحدَّ الشبع، وأسبابهما وشروطهما، وبين أن تكون صحيحاً وشبعانَ...) إلىٰ أن قال : (فكذلك فرقٌ بين أن تعرف حقيقةَ الزهد وشروطَهُ

وأسبابه ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا

فعلمت يقيناً أنهم أربابُ أحوال ، لا أصحابُ أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلُّم ، بل بالذوق والسلوك)[1]

وقد يظنُّ بعضُ من جفَّ فهمُهُ ، وبضَّ علمه ، فأرجف لسانُهُ . . أنَّنا نعني بتلك اللغة ما يُعبَّر عنه بالغنوصية ، والتي حوَّلت النصوصَ الشرعية صرائحَها ومحكمَها فضلاً عن غيرهما . . إلىٰ ألغازٍ يُتمتَّعُ بحلِّها ، وإلىٰ أُحجياتٍ تتعاصىٰ حلولها ، وإلىٰ طُرُقٍ حلزونية ومتاهاتٍ فرعونية لا سبيلَ للخروج منها ، وإنما هي قرمطةٌ خبيثة ، وباطنية مفضوحة عارية .

وقد اتفقت الفِرَقُ الإسلامية بما في ذلك أهلُ الأهواء علىٰ **أن النصَّ علىٰ ظاهره إلىٰ أن يأتيَ صارفٌ يصرفُهُ عن ذاك الظاهر** ، بل صار الأمر ببعض تلك الفرق إلىٰ أن اصطنعت عقائدَ تكون قسيماً لتلك الهلوسات الرخيصة ، فجمدت علىٰ ظواهرَ ما كان لها أن تقول بها

وهناك لونٌ آخرُ من التعبير عند بعض الصوفية ، لم يفشُ فشوَّ التعابير المذكورة ؛ لأنه على التحقيق يرجع إلىٰ مقدمات غائبةٍ محذوفة لا يُتفطَّن لها عادة ، وعدم إظهارها يُصَيِّرُ الكلام المسموع كلاماً تنكمشُ عند سماعه النفوس ، فإن هي أحاطت بالغائبات من تلك المقدمات أو القضايا المطوية . . عاودها الارتياح ، غير أنها تبقىٰ غيرَ راضية عنه ؛ **وهو ما قد يعبَّر عنه**

---

(١) انظر « المنقذ من الضلال » (ص ٩٢ـ ٩٣) ، وسمعت من أحد العلماء المحقِّقين عبارة نسيت لفظها ، ومضمونُها : ألا تسألُ نفسك : ما هو الضلال الذي استنقذ الغزالي منه نفسه ؟ إنه الضلال عن طريق الصوفية ؛ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٦] .

بالشطحات أحياناً[١] ، وليس في كتابنا هـٰذا النوعُ من الكلام

فبعضُ الناس مثلاً إذا سمع قائلاً يقول (ألا بذكرِ محمدٍ تطمئنُّ القلوبُ) فلعلَّه يفزع ويقول إنما قال الله تعالىٰ ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] !

ولـٰكنه عندما يُحاط علماً أن القائل ما قصد القرآنية ، وأنه تعالىٰ كلَّما ذُكرَ ذُكرَ معه رسولُهُ صلى الله عليه وسلم ، وأنه تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، وأن ذكرَهُ عليه الصلاة والسلام متضمِّنٌ بالضرورة لذكرِ الله تعالىٰ . . يذهبُ عنه الحرج ، ولعله يبقىٰ في ضيقٍ من العبارة المختارة

ولعلَّ آخر إن سمع قائلاً يقول : (ما في الوجود إلا الله وأفعالُهُ) . . زعقَ وصاح : وأين أنا وأنت والعالمُ الماثل أمامَ أعيننا ؟! فإن ذُكِّرَ بأن الموجود الأزلي الأبدي هو الله تعالىٰ ، وأن ما سواه تعالىٰ إنما هو فعلُهُ ، وما ذكرَ هو من جملة أفعاله . . تقرَّرَ في نفسه صحة هـٰذا القول ، وعرف معنىٰ قول العلامة الكشميري : (ما من شيءٍ في العالم بقضِّه وقضيضه إلا ينتهي إلىٰ صفةٍ من صفات الله تعالىٰ ، وليس فيه شيءٌ مستقلٌّ)[٢] ، ولعله مع ذلك لا يطرب له ، وسبحان من لوَّنَ القلوب وقلَّبَها كيف شاء !

ولعلَّك ستقف علىٰ عبارات في « إزالة الشبهات » تتوقَّف فيها ، فإذا تابعت القراءة وكُشفَ لك عن وجهها الذي غاب عنك في شبْكِ النصوص الشرعية

---

(١) وإلا فالشطحات في الأصل دعاوىٰ عريضة في نحو العشق الإلـٰهي وما شابه ذلك ، أو كلمات غير مفهومة نشأت عن ضعف التعبير ، وهي فتنة على الناس ، وانظر الحديث عن الشطحات والطامات في « إحياء علوم الدين » (١/ ١٣٤)

(٢) انظر « فيض الباري » (٢/ ٣٣٨) .

بعضها ببعض . . انبسطت أساريرُ وجهك

ومع هٰذا كلِّهِ قد تجدُ تفسيراتٍ جديدة غيرَ مألوفة ؛ كتفسير الجنب والقدم والسُّبُحات وغيرها مثالاً ، ولٰكن لتعلم أن غير المألوف لا يعادلُ غير الصحيح ، ومن تبحبحَ في العلم وجدَ لها طعماً

ومن ذلك أيضاً أن الشيخ الإمامَ ابن اللبان كانت له طريقةٌ في الاستدلال غير القطعيات ، قد ابتناها علىٰ مسلَّماتٍ مستلهمة من طريق الصوفية ، ولٰكن يبرِّدُ غُلَوائك كثرةُ شواهدِها الشرعية ، مع العلم أن زعماء المتكلمين اختاروا الوقف في الكلام على المتشابهات .

وبالجملة : فالكتاب نصيبُ النفع فيه لأصحاب المراتب العلمية المتقدمة أكبرُ وأوفر ؛ وذلك راجعٌ للملكة الإلماحيَّةِ التي يجدها المتبحِّرُ في العلوم ، وستبقىٰ مسائلُ هي عند الكثيرين محلُّ نزاع ، والمؤلف قد نوَّهَ إلىٰ ذلك أيضاً[١]

ولٰكنَّ العجيبَ أن يكون ممَّا أُخذ على الكتاب المناجاةُ الرقيقة التي أوردها فيه ! حتىٰ قال الإمام ابن السبكي : (ومن مناجاته في هٰذا الكتاب وهو مما أُخذَ عليه) ثم ساقها[٢] ، وما أحسبُ المؤاخِذَ عليها إلا ممَّن ضاقت حوصلتُهُ وعَرُضَ قفاه ، وقد قال إمامنا الغزالي وهو يتحدَّث عن محطَّة عرفانية علومُها دقيقة ومسالكُها وعرة : (ومن لم يتَّسع صدرُهُ لمعرفة هٰذا . . فليهجرْ هٰذا النمطَ من العلم ، فلكلٍّ علم رجال ؛ وكلٌّ ميسرٌ لما خُلقَ له)[٣]

---

(١) انظر (ص ١٤٤) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٥) ، وانظر (ص ١٣٤) .

(٣) انظر « مشكاة الأنوار » (ص ٦٤) .

ومن جملة من استعملَ هٰذه اللغة التأويلية : حجة الإسلام الغزالي ؛ فمن تيكَ قوله : (بل أقولُ ولا أبالي : إن اسم النور علىٰ غير النور الأول مجازٌ محض)[1]

* * *

(١) انظر « مشكاة الأنوار » (ص ٥٤) .

قصة نشأة كتاب « إزالة الشبهات »
ومنهج الإمام ابن اللبان في تأويل النصوص المتشابهة

ما من فرقة إسلامية إلا وهي قائلةٌ بالتأويل ، غير أن بعضَها ابتدعَ فعمَّمهُ تعميماً تعدَّىٰ فيه حدودَ الشريعة ، وكاد تعدِّيه يصلُ به إلىٰ مشارف الباطنية ؛ كالمعتزلة وبعضِ غلاة الصوفية ، وبعضَها أقام علىٰ ظواهرَ لا يقولُ بها إلا من غلب عليه التشبيه والتجسيم ، وكلا طرفي قصْدِ الأمور ذميم .

وما أُتي المعتزلة إلا من قصور نظرهم في المعارف الإلـٰهية ، ورسوخِ قياس الغائب على الشاهد في طباعهم[1] ، ولعلَّ الردودَ النصِّيَّة الأثرية التي ثوَّرها علماءُ الحديث كانت سبباً للحدِّ من غُلَوائهم ، ولـٰكنَّ آفةً لم تكن بالحسبان قد استشرت بُعيد الأخذ بهـٰذه الطريقة ؛ حيث إن عقولاً قاصرة فهمَتْ من منهج المحدِّثين ما نجزم أن أئمَّتَهم ما أرادوه ولا خطر علىٰ بالهم ؛ وهو إبقاءُ النصوص المتشابهة علىٰ ظواهرها ؛ من إثبات الأعضاء وصفات الحدوث لمن ليس كمثله شيء ، وأعقبَ هـٰذا تمكينٌ واستهزاء وغلوٌّ من طرف المعتزلة والمتدرِّعين بطريقتهم ؛ أدَّت هي الأخرىٰ لبُعد ما بين الفرقتينِ !

وحاول بعد ذلك أئمةُ أهل السنة ؛ من أمثال الحارث المحاسبي

---

(١) كذا قال العلامة السعد في « شرح العقائد النسفية » (ص ١٠٢) ، وقد ذكر أن المعتزلة أول فرقة ناوأت أهل الحق فقال (ص ١٠٢) : (لأنهم أول فرقةٍ أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظاهر السنة، وجرىٰ عليه جماعة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في باب العقائد) .

وابن كُلَّاب والقلانسي . تحقيقَ المسألة ؛ وذلك ببيانِ موطن الخلاف ابتداءً ، وتوجيهِ النصوص المتخالفة في الظاهر انتهاءً ، ثم صاغ هـٰذا المنهجَ الإمامانِ أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي أحسنَ صياغة ؛ حتىٰ عُرف أهلُ السنة من بعدهما بالأشاعرة والماتريدية

ولقد كان لكُتُب المتكلِّمينَ أعظمُ الأثر في فلِّ غَرْبِ كلٍّ من الفرقتينِ الغاليتين ، غيرَ أنهما كُسرت شوكتهما وفي الحلوق غُصَّة المغلوب من الغالب ، فعمدت الفِرَقُ المنكسرة إلىٰ مسلكينِ لتحقيق الغلبة

ـ فرضُ مذهبهم بقوة السلطان وكراسي النفوذ .

ـ تكثيرُ سوادهم بالرَّعاع والعامة التي تجمعها صيحةٌ وتفرِّقها أخرىٰ .

إلىٰ أن جاء الإمام الغزالي ؛ فدقَّق النظر ، ووجَّهَ النصوص توجيهاً مبتكراً من حيث العرض ، مؤصَّلاً من حيث المادة ؛ فعجنَ بين طريقة المتكلمين وكلام العارفين ، فأتىٰ بما تقرُّ به العين ، وقرَّب ما بين المتباعدين ، وأحسن الجمعَ بين مقتضيات العقول وصحيحات النقول ، فعَرَفَ له العلماءُ فضله ؛ فلقَّبوه بـ (حجة الإسلام) ، وعرف له أعيانُ الفِرَقِ المخالفةِ قدرَهُ ؛ فلقَّبوه بـ (مُقْتدى الفِرَقِ) ، وعلموا أنهم وإن خالفوه فالرجلُ مخلصٌ فيما يقول ، وصادقٌ في نفسه بما ذهب إليه ، والصدق سيفٌ ما وُضعَ علىٰ شيء إلا قطعه .

ومنهج الإمام الغزالي صِمامُ أمانٍ للأمة لو أنها أخذت به ، ولـٰكنَّ أقدار الله غلَّابة ، فبقي طَغامُ الفِرَقِ حتىٰ من عامة أهل السنة يَحُشُّون نار الخلاف ووراءهم أصحابُ الأغراض ؛ يستغلُّون سذاجتَهم ، ويؤجِّجون نهمتهم وأهواءَهم كلَّما خبا أُوارُها .

ولعلَّ هـٰذه السمةَ التي بيَّضَها الإمام الغزالي ـ بيَّضَ الله وجهه ـ في

« الإحياء » و« إلجام العوام » و« قانون التأويل » و« القسطاس المستقيم » ، مع الحوارِ الهادئ الذي انتهجه ولم يرد به مكانةً فانية ، ولا سطوةً تعارض بسطوة . . كان قد ورَّثها لمن جاء من بعده من أئمة الدين المشتغلين بالعلوم والفنون التي اعتُني بها ؛ فنلحظُ هـٰذا الأثرَ في كتب الإمام الرازي ، وشُرَّاح « الإرشاد » ، ونجدها عند الإمام ابن التِّلِمْساني ، وكُتُب أهل العرفان من أعيان علماء الصوفية .

وكان يومَها للمنصفينَ من أصحاب الحلِّ والعقد رقابةٌ صارمة ، تدفع بسطوتها ألسنةَ لهبِ الخلاف أن تحرق البلاد والعباد ، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كانت فتنة العلامة ابن تيمية قد تباعدت مساحتُها من بلاد الشام إلىٰ مصر ، وما أيسر اعتقادَ التشبيه ، وإبقاءَ النصِّ علىٰ حاله ! مع كُليمة فارغة يختم بها مذهبه ؛ وهي (من غير تشبيه ولا تمثيل) ، فكأنه أثبت التشبيه في القلب ، ونفاه عن اللسان !

وكان أهلُ قرنه قد أحاطوا بخطر هـٰذه البدعة التي تقادم قولُها ، وتجدَّدَ أسلوب عرضها ؛ إذ حاول تأصيلَ هـٰذا القول علىٰ طريقة المتكلمين ، ودفع تعارض العقل والنقل بزعمه ، فجاء بمنهج أعرج ، سعىٰ جاهداً فيه بأن يأتي بعبارات تَسَعُ معتقده وتكون في الوقت نفسه من اللواتي يمكن لَيُّهُنَّ ليكون في ذلك مخرجٌ له ، غير أن كلماتٍ تأبَّت عليه ، فخطَّها بيمينه ونسجها لسانُهُ قد صرَّح فيها بمذهبه الذي ورثَهُ عن بعض الحنابلة ؛ من أمثال البربهاري والمفتري الأهوازي .

وأقرَّ علماء الأمة يومها خطأَهُ ، ولو لم يكن ينتسبُ إلىٰ أهل السنة والجماعة فلعلَّهم كانوا يكتفون ببيان الخطأ كما بيَّنوا خطأ كلِّ فرقة من

المخالفين ، ولٰكنَّ انتسابَهُ لأهل السنة كان سبباً لمحاسبته وعرض معتقده علىٰ قواعد أهل السنة ، وكان أعيان المذاهب الأربعة هم من يمثِّلون أهل السنة[1] ، وحكموا عليه يومَها بما يخرجه عن أهل السنة في الأصول ، وفي بعض مسائل الفروع، فهو بعد ذلك من علماء المسلمين ، لا من أئمة أهل السنة والجماعة.

وأُلِّفت في تلك الحقبة كُتُبٌ دوَّنت أحداث هٰذه الفتنة ، وأخرىٰ ردَّت علىٰ أقوال من رفع رايتها ، أو علىٰ مسائل أصيلة محورية كمسألة المتشابه وطريقة فهمه ، وكان الإمام ابن اللبان واحداً من أعيان هٰؤلاء المدوِّنين ، وكتبَ كتابه « إزالة الشبهات » ـ كما صرَّح به ـ ردّاً علىٰ تلك البدعة الشنيعة في هجر ردِّ المتشابه إلىٰ محكمه[2] ، ولٰكن لا علىٰ طريقة المتكلمين الصارمة ، ولا علىٰ طريقة المنهزمين القاصرة ، بل بلغة يمكن أن تقول : إنها غير مألوفة ، وبعبارة أدقَّ : غير شائعة ، فجاء بكتابه الذي بين يديك ، وهٰذه باختصار قصةُ إنشاء الكتاب .

فما هو المنهج الذي اتبعه الإمام ابن اللبان في التأويل ؟

للتأويل مناهجُ بعضُها أصيلُ النشأة ، وبعضُها هجينٌ دعت له الأهواء والغايات غير النبيلة ، وأحبُّ أن أحدِّثك عمَّا يمكن أن تقع عليه عينٌ عابرة من هٰذه المناهج ، ويخُطاً مستعجلة ؛ دفعاً للملال .

فأهمُّ مناهج التأويل عند المسلمين ومن ينتسبُ إليهم :

ـ التأويلُ الإجمالي (التفويض) : وهو صرفُ النصِّ عن ظاهره قطعاً وجزماً ، وتفويض علمه إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؛ مع إظهار الضعف عن

---

(١) وما زالوا بحمد الله كذلك ، وأهل السنة هم السواد الأعظم بين المسلمين اليوم .

(٢) انظر (ص ١١٣) .

دَرَكِهِ ، وأن لله تعالىٰ صفاتٍ جليلةً جاء البيان القرآني بإثباتها ، وأنه سبحانه هو المتفرِّد بعلمها ، وقد ابتلىٰ عباده بذكر المتشابهات ليستخلص الإيمانَ بها من قلوبهم ، ممزوجاً بالإقرار بالعجز عن الإحاطة بها

وقد كثُر هٰذا النوع وفشا عند السلف حتىٰ صار يُنسبُ إليهم ، وعبَّروا عنه بقولهم : (أمرُّوها كما جاءت) ، و(تفسيرُها تلاوتُها) ، وورثَ هٰذا النوع عنهم المحقِّقون من أهل السنة ، غير أنهم بيَّنوا أن للهِ تعالىٰ أن يُفهِمَ بعضَ خواصِّه ويكشف لهم عن أسرار هٰذا المتشابه ، ونكاد نجزمُ أن الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم كانوا عالمين بذلك ؛ كلٌّ علىٰ حسب معرفته بربِّه ، ولا يبعدُ أن يكون سكوتهم عنه لتعدُّدِ فهومهم ، فلم يرضَوا أن يضيِّقوا دائرةَ فهمه بقولٍ أو اثنين أو ثلاثة

وعمدةُ هٰذا التأويل : الإيمانُ بآيات التنزيه ، والتسليمُ للعليم الخبير سبحانه .

ويقابل هٰذا النوع من التأويل ما يُسمَّىٰ بـ (التأويل التفصيلي) ، ولهٰذا التفصيل مناهجُ أيضاً ؛ هو ما سيأتي الحديث عنه[1]

---

(١) وعن هٰذا التأويل التفصيلي يقول العلامة القاري في « مرقاة المفاتيح » (٣/ ٩٢٤) وهو يتحدَّث عن الخلف الذين سلكوا هٰذا النوع من التأويل : (وإنما دعت الضرورة في أزمنتهم لذلك ؛ لكثرة المجسمة والجهمية وغيرهما من فرق الضلالة ، واستيلائهم علىٰ عقول العامة ، فقصدوا بذلك ردعَهم وبطلان قولهم ، ومن ثم اعتذرَ كثيرٌ منهم وقالوا : لو كنَّا علىٰ ما كان عليه السلف الصالح من صفاء العقائد وعدم المبطلين في زمنهم . . لم نخض في تأويل شيء من ذلك .

وقد علمت أن مالكاً والأوزاعي وهما من كبار السلف أوَّلا الحديثَ تأويلاً تفصيلياً ، وكذلك سفيان الثوري أوَّلَ الاستواء على العرش بقصد أمره ، ونظيره : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٩] أي: قصد إليها ، ومنهم الإمام جعفر الصادق، بل قال جمعٌ منهم =

ـ **التأويلُ اللغوي البلاغي** وهو فهم النصِّ المتشابه بمراعاة جملة القرآن وصحيح السنة علىٰ حسَبِ قواعد اللغة العربية ، بعيداً عن ضوابط مستحدثة في ذلك ، ولا شكَّ أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا آخذين بهٰذا النوع من التأويل كأيِّ عربي يسمعُ كلاماً عربياً هو في أوج البلاغة والبيان

وقد برعَ متكلِّمو أهلِ السنة في هٰذا النوع من التأويل ، **ولهٰذا التأويل في فهم المتشابهِ صورتان**(١)

الأولىٰ : أن النصَّ مجازٌ محضٌ أو كناية محضة ، لا يُرادُ منه إثبات حقيقة ظاهره ، بل التنبيهُ علىٰ معنىً تحمله العبارة وهو وراء أسوارها ، **ويحسن التمثيل لذلك** :

فإذا سمعت قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [قٓ : ٣٠]، فسبق إلىٰ ذهنك : **أن جهنم علىٰ سعةٍ هائلة ؛ فمهما تكاثر أهل النار فهي محيطةٌ بهم**، ولم يخطر ببالك أصلاً وجودُ خطابٍ أو ردٍّ . . **فذاك هو التأويل المجازي** .

ومثلُهُ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢) [يسٓ ٨٢] ، ففهمت منه مجرَّد إثبات الاقتدار ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى

= ومن الخلف : إن معتقد الجهة كافر ، كما صرح به العراقي ، وقال : إنه قول لأبي حنيفة ومالك والشافعي والأشعري والباقلاني) .

(١) قال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٢٢/ ٥٣) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ : (وفي كيفية المجاز قولان : الأول : المراد من العين : العلم ؛ أي : ترىٰ علىٰ علم مني ، ولما كان العالم بالشيء يحرسه عن الآفات كما أن الناظر إليه يحرسه عن الآفات . . أطلق لفظ العين على العلم ؛ لاشتباههما من هٰذا الوجه . **الثاني** : المراد من العين : الحراسة ؛ وذلك لأن الناظر إلى الشيء يحرسه عما يؤذيه ، فالعين كأنها سبب الحراسة ، فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٧٣) .

﴿ ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] ، ففهمت منه مجرَّد سعة التصريف الإلـٰهي ؛ فأنت متأوِّلٌ علىٰ هـٰذه الطريقة

الثانية : الأخذُ بالاستعارات والتشبيهات البعيدة ؛ وتطبيقُهُ على الآيات المذكورة : أن تتصور وقوع أمرٍ أو فعلٍ من الله تعالىٰ في حقِّ السماء والأرض مثلاً ؛ فكان من بلاغة البيان القرآني أن صُوِّر بصورة خطاب ومخاطِبٍ ومخاطَب

ومثالُهُ في كلامنا : قولك : (بيني وبين الصبرِ عهدٌ ؛ ما أنا بناقضه) ، فعلى الطريقة الأولىٰ : المرادُ التحلِّي بالصبر ، وعلى الطريقة الثانية : يُتصوَّر وقوع غضبٍ منك يوماً ألجأكَ إلىٰ ما لم تحمد عقباه ؛ فألزمت نفسَكَ ألا تغضبَ بعده أبداً ، فعبَّرت عن فعلك هـٰذا بتيكَ العبارة .

ولا شكَّ أن الصحابة رضوان الله عليهم وسلفنا الصالح ومن قويت شوكته وعلا كعبه في فهم العربية . . له من ذاك التأويلِ أوفرُ نصيب(١)

وعمدةُ هـٰذا التأويل : فهمُ اللغة العربية بخصائصها وعلومها ، وعلىٰ رأسها علم البلاغة .

ـ التأويلُ التشبيهي : وهو أن يُفهمَ من النصِّ ظاهره ابتداءً ، إلا أنه تفجَأُ صاحبَ هـٰذا التأويل آياتُ التنزيه في كتاب الله تعالىٰ ، فيلجأُ إلىٰ تأويلٍ للنصِّ يجمع بين ظاهره وبين التنزيه بزعمه ، صرَّح أنه أوَّل أو لم يصرِّح ؛ فإذا سمع قوله تعالىٰ : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] قال : لله يدٌ ؛ غير أنها لا من عظم ولحم كأيدينا ، إلا أنها بمحلٍّ منه تعالىٰ مباينٍ لجنبه وقدمه وعينه ،

---

(١) ولذلك قال المؤلف (ص ٢٦٣) معللاً بدعيَّةَ السؤال عن المتشابه : (لأن الصحابةَ رضي الله تعالىٰ عنهم كانوا عالمينَ بمعناه اللائقِ بحسَبِ اللغة) .

تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً

فليس هـٰذا التأويل بتأويل سلفي ؛ إذ السلف قالوا يدُهُ صفتُهُ ، ومعلوم أن الصفة ترجع عقلاً وشرعاً وعادةً إلى المعاني ؛ فهي كالقدرة والإرادة ، غير أن صاحب هـٰذا التأويل يفهمُ من اليد أنها بعضُ ذات الله جلَّ وعزَّ

وعمدةُ هـٰذا التأويل التصديقُ بالنصوص المتشابهة مع الغيبوبة عن الضوابط النقلية والعقلية في فهمِهما ، وغلبةُ أوهام التشبيه على القائلين به ، ونفْيُ وجود موجود لا مكان له ولا زمان .

ـ التأويلُ بالرأي والهوىٰ وهو تأويلُ المتشابهات مع عدم الدواعي الشرعية والعقلية لهـٰذا التأويل ، ويمكن أن تسمِّيَهُ بالتأويل الأهوائي ؛ فقد كثُر هـٰذا النوع عندهم .

فعند سماع المعتزلي مثلاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ـ ٢٣] يقول : المرئي لا بدَّ أن يكون جسماً ؛ وأن تكون بينه وبين الرائي مقابلةٌ ومسافةٌ مخصوصة ، وأن يتصل الشعاع به ، وكلُّ ذلك ممنوع في حقِّه تعالىٰ ، فوجب صرف الرؤية لمعنىً يليق بجلال الله ؛ فهي بمعنى انتظار إنعامات الله تعالىٰ في الجنة ، وما شابهَ ذلك[1] ، وفات هـٰذا المتأوِّل أن ما نفاه عنه سبحانه لا جدال فيه ، ولـٰكن مقدمته الأولى القائلة : (المرئي لا بدَّ أن يكون جسماً) غير مسلَّمة ، وإنما التحقيق أن يُقال : (المرئي لا بد أن يكون موجوداً) إذ المعدوم لا يُرىٰ ؛ غير أنه تعالىٰ واجب الوجود ، فرؤيته عقلاً جائزة ، وشرعاً واقعة ، ولـٰكن لا كما قال المشبهة ، بل علىٰ معنىٰ

(١) وصرت خبيراً أن ذلك يرجع لطريقتي التأويل اللغوي البلاغي ، وقد أكثر منه شيخ البلاغيين الزمخشري ، ولـٰكنَّه زلَّت به قدمه هنا وفي مواطن مشابهة كما لا يخفاك .

إدراكٍ يخلقه مولانا في عين الرائي يُسمىٰ رؤية .

وعمدةُ هـٰذا التأويل غلبةُ القول بقياس الغائب على الشاهد ، وقصرُ النظر في المعارف الإلـٰهية ، والتأثُّر بالمناحي الفلسفية .

ـ التأويلُ المهمل : وهو نوعٌ من التأويل الذي يمارسُهُ من لم يُحكِمْ العلوم والوظائفَ المشترطة لمباشرة التأويل وإن كان منتسباً إلىٰ أهل الحقِّ ؛ حيث إنه يشتغلُ فيما لا يعنيه ، ولا يبعدُ أن يأثم وإن أصاب ؛ ولذلك قال حجة الإسلام الغزالي : (تأويلُ العامِّيِّ علىٰ سبيل الاشتغال بنفسه ـ وهو حرام ـ يشبهُ خوضَ البحر المغرِق ممَّن لا يحسنُ السباحة)[1] ، غير أن هـٰذا التأويل علىٰ خطره أقلُّ بشاعةً من التأويل الباطني والتخريبي الآتي ذكرُهما

وعمدةُ هـٰذا التأويل : الاعتداد بالنفس ، من غير تعلُّم أو سؤال .

ـ التأويلُ الباطني : وهو صرفُ النصوص عن ظواهرها واحتمالاتها المجازية الممكنة إلىٰ مجازات بعيدة لا تقرُّها الشريعة ؛ كصرف الصلاة إلىٰ مجرَّد مراقبة الله تعالىٰ ، أو صرف الصوم إلىٰ ترك الأخلاق السيئة .

تجد هـٰذه الهذيانات عند إخوان الصفا ، والفلاسفة المتسترين باسم الإسلامِ والإسلامُ منهم براء ، ولا داعيَ لتوسيع القول في هـٰذا النوع من التأويل ، فهو علىٰ وجوده تشهدُ زندقةُ القائلين به علىٰ فساده .

وعمدةُ هـٰذا التأويل : تجويزُ الكذب على الأنبياء عليهم السلام للمصلحة .

ـ التأويلُ التخريبي (القراءة المعاصرة) : وهو حملُ النصوص علىٰ معانٍ لا تقرُّها لغةٌ ولا شريعة ؛ وشواهدُهُ التي يصيب سماعُها بالغثيان من قبل دعاة

---

(١) انظر « إلجام العوام » (ص ٧٠) .

التجديد. . أخسُّ من أن تذكر ويستشهد بها ، والقائلون به صنفان

الأول ورّاث المنهج التجديدي الغربي الذي ثارَ علىٰ كتابهم المقدَّس المحرَّف ، وأراد أن ينعتق منه ، ولعلَّ لهم عذراً فيما ذهبوا إليه ، وأمَّا المقلِّدونَ لهم من المنتسبين إلى الإسلام وأرضه. . فهم من خلال المراقبة والتَّتبُّع من الثقافات العشوائية ، والاختصاصات التي لا تؤهِّلهم للخوض في مثل هٰذه الأمور ، بل قلَّما تجدُ لهم اشتغالاً صادقاً في العلوم الشرعية ، ولن تغفر لهم نيَّتهم الطيبة إن وجدت جريمتَهم التي ارتكبوها حينما أساؤوا الظنَّ بمنظِّم هٰذا الكون ومدبِّر أمره ، وبرسولِهِ الذي ارتضاه لعباده ، ولو صدقوا لسألوا فتعلَّموا

الثاني أناسٌ مأجورون ، لهم تبعيَّة مكشوفةٌ لمن لهم غاياتٌ خبيثة في هدم صرحِ هٰذا الدين الحنيف ؛ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف : ٨] ، ومضحكاتُهم التي أتوا بها صارت تهريجاتٍ يسخرُ منها العامة ، ولٰكن خطرهم في أيامنا هٰذه في استفحالٍ ، ولَوسائلُ الإعلام التي ليس للعالم الإسلامي منها في الأغلب إلا التبعية. . هي أكبر المروِّجات لعفنِ أقوالهم .

وخصومةُ التأويل التخريبي للغة العربية فضلاً عن الضوابط الشرعية. . أجلىٰ من أن تُستظهر ، والحديث عن الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية من قبل المتخصِّصين من أهل العلم في أيامنا. . من أوجب الواجبات في استصغاره ودفعه ، وخير ما يهدم هٰذا النوع من التأويل العلمُ بالعربية وأصول الفقه .

وهٰذا التأويلُ وإن كان مع التأويل الباطنيِّ من جملة الأهواء ؛ إلا أن ثَمَّ

فروقاً معتبرة صرتَ منها علىٰ علم ، ومن أهمِّها أن تأويل فرق الأهواء لا يخرجها عن الإسلام ، فهم انتهاءً من أهل الإيمان المخلَّدين في الجنة

وعمدةُ هٰذا التأويل دعوى النهوض بالأمة ، والانعتاق من أسر وقيود التشريع

ـ التأويلُ الإشاري (الإلهامي والكشفي) : وحقُّ هٰذا النوع التقديم علىٰ سابقيه ؛ وإنما أُخِّر لطول الحديث عنه

وقد ذكر الإمام ابن اللبان شبهَ تعريفٍ لهٰذا النوع من التأويل حينما قال عن منهجه في التأويل (وإنما المقصود ردُّ المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية ، وتلويحاتٍ وتصريحات من الكتاب والسنة)[1]

ويمكن أن تقول هو تأويلُ النصِّ المتشابه بالقواعد اللغوية ، مع مراعاة دوران الكلمة في جملة الشريعة ، وملاحظة المطالب المعرفية العالية ، والخطابات التنزُّلية من قبل الحقِّ تعالىٰ ، ممزوجاً بما يلقيه عز وجل في القلوب الصافية من معانٍ عرفانية[2] ، لا يمكن بالتأمُّل أن تعارض أصلاً أو فرعاً من أصول وفروع التشريع .

وعدم هٰذه المعارضةِ هي أعظمُ شاهدٍ علىٰ تجويز الأخذ بهٰذا التأويل .

---

(١) انظر (ص ١٢٤ـ ١٢٥) ، وأنت خبير أن المتكلمين أنفسَهم هم ممن شرطوا العلم بالمحكم قبل المتشابه حتىٰ يردَّ إليه ؛ فقال إمام الحرمين في « الشامل » (ص ٥٥٣) : (فمن رام تأويلَ المتشابهات قبل العلم بالمحكمات . . ذل وضل) .

(٢) رحم الله الإمام السيوطي ؛ حيث سئل عن بعض متشابهات العارف بالله ابن الفارض ؛ فقال : (أما قول ولي الله الشيخ العارف بالله تعالىٰ عمر بن الفارض . . فلا نتكلم عليه ، بل من أراد أن يعرف معناه فليجعْ جوعَهُ ويسهر سهرَهُ . . يعرفْ معناه) ، وانظر « الحاوي للفتاوي » (١/ ٤٦٠)

وعمدةُ هـٰذا التأويل الإلهامُ الصحيح الذي يشهدُ له الشرع ، وسبرُ النصوص المتعلقة بالمتشابه الذي يُراد تأويله ، والاستئناسُ بالشواهد الأدبية والوجدانية .

وهـٰذا النوع من التأويل شبيهٌ بتعبير الرؤىٰ ، والتفسير الإشاري ، والمواقف والمخاطبات التي يذكرها القوم ، فأنت أمامَ بحار معرفية لا حدودَ لها ، ووجهُ الشَّبهِ : هو الاشتراكُ في قضية الإلهام

وعباراتُ هـٰذا النوع من التأويل قد لا تكون مألوفةً عند بعض أهل العلم بلهَ العامة ، فيحسبُ سامعها وقارئها أنها هذيانُ محمومٍ ؛ وحجته في ذلك لا أنها تخالف أصول الدين ، بل كونها تخالف عبارات السلف الصالحين ، مع أن الكلامينِ خرجا من مشكاةٍ واحدة !

وقد نبَّه علىٰ خطأ هـٰذا الميزانِ حجةُ الإسلام حينما قال : (والعجبُ ممن يسمع مثلَ هـٰذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدري ما يسمعُهُ علىٰ وَفْقِهِ، ويزعمُ أنه من ترَّهات الصوفية ، وأن ذلك غير معقول !)[1].

وقال أيضاً : (وبهـٰذا يستبينُ للمنصف أن طريق الصوفية وإن كان يُرىٰ مائلاً عن أكثر الظواهر . . فمشهودٌ له من الشرع بشواهد قوية ، فلا ينبغي أن يعاديَه الجاهلُ بجهله وقصوره عنه)[2]

ولنقف قليلاً مع بعض ضوابط هـٰذا المنهج عند الإمام ابن اللبان :

القارئ لـ « إزالة الشبهات » يمكنه أن يلحظ ضوابطَ ألزم المؤلف نفسه بها عند الحديث عن المتشابهات ؛ فمن ذلك :

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (١/ ١٩٤) .

(٢) انظر « ميزان العمل » (ص ٢٣٩) .

ـ ما فُسِّرَ في كتاب الله من كتاب الله فليس بمتشابه ولذلك تراه يقول تارة : (وهو من المتشابه) ، وأخرىٰ : (وهو ليس من المتشابه) ، فلم يجعل مثلاً بطش الله من المتشابه[1]

ـ الاعتناءُ بتفسير المتشابهات في حقِّ المولىٰ سبحانه ذاتاً وأسماءً وصفاتٍ : ولم يعرج على المتشابه في النبوات[2] ، وكذا لم يتعرَّضْ للمتشابهات في نصوص الأحكام ، والتي منها المشتركُ والمجمل

ـ عدمُ الخروجِ عن القواعد اللغوية[3] : ولا ريبَ أنه التزم ذلك ، ولـٰكن مع مراعاة ضوابطَ أُخر تجعلك في حيرة من اشتراط هـٰذا الضابط ؛ إذ تفسيرُ النفس بالغيب والسرِّ قد يشكلُ لغة ، غير أن سياقَ الآية وما تحدَّث عنه في تفسيرها يخفِّفُ من هـٰذا الإشكال ، وكذلك تفسير الصورة بآيات التعرُّف ، ولا يبعد أن يكون أراد بالقواعد اللغوية ما هو أعمُّ من معنى المفردة العربية[4]

ـ سبرُ النصوص المتعلقة بالمتشابه[5] : محطَّة بارزةٌ في هـٰذا التأويل ، حتىٰ إنك ترى الإمام ابن اللبان لمَّا تأوَّل القدم أتبعَها بشاهد النعل والنعلين في السنة ، وهو ملحظٌ عجيب ، لا تكاد تجده في أي منهج من مناهج التأويل ،

---

(١) انظر (ص ٢٠٧) .

(٢) كالمتشابهات التي أوردها الإمام السنوسي في « شرح صغرى الصغرىٰ » (ص ٢٠٨) واشتغل بشيء من تأويلها ، والتي وصفها القاضي عياض في « الشفا » (ص ٦٨٤) بأن من تمسك بها والتزم ظاهرها أفضت به إلىٰ تجويز الكبائر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٣) انظر (ص ٢٥٩) .

(٤) انظر (ص ٦٨ـ ٨٢) .

(٥) انظر مثلاً (ص ٢١١) .

وأما المتكلمون فلا شكَّ عند الخبير أن الذين جاؤوا من بعد القشيري والغزالي جمعوا بين الكلام والعرفان ، حتى الإمام الرازي والقاضي البيضاوي والعضد الإيجي والسعد التفتازاني والشريف الجرجاني ، ولولا ضيق السطور لمُلئت من شواهد ذلك الصدور .

- **الإكثارُ من تدبُّرِ كتاب الله تعالىٰ**[1] وسبر النصوص المشار إليه واحد من ثمرات هـٰذا التدبر ، والكتاب جاء بعد تأمل ورحلة مع القرآن وئيدة كما يظهر للناظر فيه

- **احتماليّةُ تعدُّد الفهم للنصِّ المتشابه**[2] فقد أكَّد الإمام المؤلف أن فهمه وتأويله للمتشابه لا يقتضي أنه متعيِّن المعنىٰ ، بل قد يكون هـٰذا التأويل معنىً مراداً وثَمَّ معانٍ أُخر

- **تأويله المتشابه للعموم وللخصوص** والتحقيق أنه لا تباين بين التأويلين ؛ إلا أن التأويل للعموم يُراعىٰ فيه عدم التدقيق ، بخلاف التأويل للخصوص .

وتعدُّدُ التأويل لا يدلُّ علىٰ ضعفه ؛ كما أن تعدُّد التفسير كذلك ، ومثالُ ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] ؛ فقيل : الهادي : هو المعجزة التي تلائم من أُرسل إليهم المنذر ؛ كإحياء الموتىٰ لسيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام المعجزةِ لمن برع في الطب ، وقلب العصا لسيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام المعجزةِ لمن برع في السحر ، وقراءة القرآن الكريم لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام المعجزةِ لمن برع في الفصاحة

---

(١) انظر مثلاً (ص ٢١٢) .

(٢) انظر مثلاً (ص ١٤٤) .

والبيان ، وقيل : هو الله تعالىٰ ، وقيل : هو سيدنا علي رضي الله عنه ، والأقوال الثلاثة مبثوثة في كتب التفسير[1] ، **والجمع بينها يسير ؛ فتقول** : لله تعالى الهدايةُ العامة بإرسال الرسل ، وللمعجزة الهدايةُ من باب التنبيه والتأكيد ، ولسيدنا علي هدايةٌ خاصة وردت بالنص ، وكلُّها محتملة لا تتعارض .

وبما أن الإمام ابن اللبان قد انتهج هٰذا المنهج في عرضه لمسألة المحكم والمتشابه . . فقد صار الحديث عن منهج الصوفية في ذلك لزاماً لا مفرَّ منه .

* * *

(١) انظر « مفاتيح الغيب » (١٩/ ١٥) .

ليس المرادُ من هـٰذا الحديث مجرَّد تصحيحِ قول الإمام ابن اللبان في الطريقة التي انتهجها في كتابه « إزالة الشبهات » ، ولا تصحيح طريقة الصوفية في المسلك نفسه ؛ بل المرادُ تأصيلُ هـٰذا المنهج شرعاً حتىٰ نتخلَّص من قضية الاعتراض عليه والطعن بنتائجه ، وتبقىٰ مسائله الجزئية موضعَ نظر وبحث ، مع التسليم لأهله المنضبطين بقواعده بأنهم علىٰ صراط مستقيم

وقد قام هـٰذا المنهج الأصيل علىٰ أُسُسٍ ثابتة ، مؤصَّلةٍ بالكتاب والسنة ؛ وأبرزُها وأهمُّها

ـ ثبوتُ العلم من الله تعالىٰ دون واسطة : حيث قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥] ، وقال عز وجل ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٤] ، وهـٰذا العلم هو المعروف عند أهل الظاهر والسادة الصوفية دون خلاف . . بالعلم اللدني ، ويكون لرسول ونبي وولي ، وقصرُهُ على الأنبياء جهلٌ لا يلتفت إليه ولا يشتغل بردِّهِ .

وقد روى البخاري من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لقد كان فيمَنْ كان قبلَكم من بني إسرائيل رجالٌ يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياءَ ؛ فإن يكن من أمتي منهم أحدٌ فعمرُ »[1]

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٨٩) ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٦/ ١٠٢) : =

وأحياناً يقال لهـٰذا العلم الوحي الفطري ؛ ومنه إلقاءُ السيدة أم سيدنا موسىٰ علىٰ نبينا وعليه السلام ابنَها في نهر النيل عند الخوف عليه ، ومن ذلك أيضاً : الإيحاءات التي عمل بها الخضر عليه السلام على القول بولايته .

وما من مؤمن يَقِظِ الفؤاد إلا وله من الحق خواطرُ حق ، يسمعها من باطنه ، ولكون هـٰذا يقع كثيراً وضعَ العلماء له ميزاناً حتىٰ لا تزلَّ عنده الأقدام .

ـ ورودُ هـٰذا النوع من التأويل في الكتاب والسنة : فقد فهمَ حذَّاقُ الصحابة أن سورة (النصر) إنما هي أجلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[1]

وقد روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن السيدة عائشة رضي الله عنها : أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن للنبي صلى الله عليه وسلم : أيُّنا أسرع بك لحوقاً ؟ قال : « أطولُكُنَّ يداً » ، فأخذوا قصبةً

= (وليس قوله : « فإن يكن » للترديد ، بل للتأكيد ؛ كقولك : إن يكن لي صديق ففلان ؛ إذ المراد اختصاصه بكمال الصداقة ، لا نفي الأصدقاء ، وإذا ثبت أن هـٰذا وُجدَ في غير هـٰذه الأمة المفضولة . . فوجوده في هـٰذه الأمة الفاضلة أحرىٰ) .

(١) روى البخاري (٤٢٩٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم : لِمَ تدخلُ هـٰذا الفتىٰ معنا ولنا أبناءٌ مثله ؟! فقال : إنه ممن قد علمتم ، قال : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، قال : وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني ، فقال : ما تقولون في : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا . . . ﴾ [النصر : ١ـ ٢] حتىٰ ختم السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وقال بعضهم : لا ندري ، أو لم يقل بعضهم شيئاً ، فقال لي : يا بن عباس ؛ أكذاك تقول ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له ؛ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ فتح مكة . . فذاك علامة أجلك ؛ ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ ، قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم .
وما فسَّره الصحابة من ظاهر الآية ما كان سيدنا عمر رضي الله عنه ليردَّه ، بل أظهرَ علماً لهم بتأويل سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قد غاب عنهم .

يذرعونها ، فكانت سودةُ أطولَهن يداً ، فعلمنا بعدُ أنما كانت طولَ يدها الصدقةُ[١] ، وكانت أسرعَنا لحوقاً به ، وكانت تحبُّ الصدقة[٢]

ـ عدمُ مخالفة هٰذا التأويل لظاهر الشريعة قِيدَ أنملة : وهٰذا الضابط هو أهمُّ ما يجب الاعتناء به ، وقد قال شيخُ الصوفية الإمام المتكلم أبو القاسم القشيري الأشعري : (كلُّ شريعة غيرِ مؤيدة بالحقيقة فغيرُ مقبول ، وكلُّ حقيقة غيرِ مقيَّدة بالشريعة فغيرُ محصول)[٣]

وقال الإمام أبو بكر الزقاق (كلُّ حقيقة لا تتبعُها الشريعة.. فهي كفر)[٤]

وبعد هٰذا أقول : لا يأتينَّ أحدٌ بأخبار وقصصٍ تناطحُ شرعَ الله جلَّ وعزَّ ، يستأصلُها من بعض كتب الصوفية ، أو يسلخُها عن سياقها ، أو يحكيها عن بعضهم خبراً منقطعا مبتوراً ، ثم يُمثِّل بها في هٰذا المقام ! إنه إن هو فعل ذلك فقد فاته ابتداءً شرطُ القوم ، وفاته إلىٰ ذلك الإنصافُ ، فلم يعدْ لكلامه قيمة ووزنٌ في ميزان العلم والنقد ، والعمائمُ الكبيرة تعلمُ أن أكثر المعترضين هم علىٰ هٰذه الشاكلة .

نعم ؛ ثَمَّ مشتبهاتٌ في مثل هٰذا يجب ردُّها إلىٰ أهل العلم ، ولٰكن هٰذا أمرٌ شاع في كلِّ علم وفن ، فعلامَ يُقصر على السادة الصوفية ؟![٥]

---

(١) فتبيَّن لهنَّ رضي الله عنهن أنها السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها .

(٢) صحيح البخاري (١٤٢٠) ، صحيح مسلم (٢٤٥٢) .

(٣) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٨٢) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٧١٩) وكان هٰذا الكلام خاطراً قد وقع له .

(٥) كما أن للحديث وللفقه بل ولكل علم كتباً معتمدة ، وأخرىٰ محلَّ بحث ونظر ، وثالثة مهملة ، ورابعة مردودة.. ففي كتب الصوفية وعلومهم مثلُ ذلك ، فلنعدلْ يرحمُنا الله تعالىٰ .

ويضيفُ السادة الصوفية لهٰذا المنهج المعرفي أصولاً يُستأنسُ بها ، فهي وإن لم يقمْ عليها دليل برهاني قاطع . . لها شواهدُ شرعية تورث الطُّمأنينة والارتياح ؛ **فمن ذلك**

- **إثباتُ طورية وراء العقل في كشف المعارف** ومهمَّةُ العقل في هٰذا الطور محضُ التصور ، وهنا يأتي الحديث عن التفريق بين العقل والروح والقلب والنفس[1] ، وكما أن الأُذن وظيفتها إدراك المسموعات ، والعينَ رؤية المبصرات . . فوظيفة القلب إدراك الخواطر والملهمات ؛ ويقسمها القائلون بإثبات هٰذه الطورية إلىٰ لمَّة المَلَك وتسمىٰ بالإلهام ، وهاجسِ النفس ، ووسواس الشيطان ، وخاطر الحق سبحانه وتعالىٰ[2]

وهناك ملحظٌ نبَّه عليه السادة الصوفية في **قضية التعاند بين العقل والكشف** ، فقد يظنُّ بعضُ أهل العلم أن هٰذا ناشئ من وجود أحكام كشفية معارَضة بالأحكام العقلية ؛ بمعنىٰ : قد يحكم الكشفُ بوجوب أو جواز أمر كان العقل قد حكم باستحالته ، وليس هٰذا هو مرادهم ؛ فإن الأحكام العقلية قد زكَّتها الشريعةُ حينما جعلت العقلَ مناطاً للتكليف .

إن العقل آلةُ الإدراك ، وقاضٍ صارمُ الأحكام ، **ويستحيلُ أن تأتي الشريعةُ بخطابٍ** : ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ، **ثم يقول لها المكلَّفُ : فيكِ ما لا أعقل !** ولٰكن هناك برزخ كبير بين الواجب والمستحيل يقال له : الجائز ، **وقد ظهرت أكثرُ** القضايا الجائزة لأكثر الخلق ، وبقيت بعضُ الجائزات مستورةً بذيلَيِ الواجب

---

(١) وهو ما أخذ به كلٌّ من الإمام الحكيم الترمذي والإمام القشيري ، وخالفهما الحجة الغزالي ، ومال إلىٰ أنها ألفاظ علىٰ مسمّىً واحد ، اختلف تسميته باعتبارات التعلُّق .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٨٤) .

والمستحيل ، وهي أقلُّ القليل ، وقد اشتبهَ ذلك على العامة وكثير من الخاصة أيضاً ، واحتاجت هٰذه الرفارفُ إلىٰ إضاءة فوق ضوء العقل ؛ يسمِّيها القوم بالكشف ، وشمس المعارف ، والنور المحمدي ، وحقيقة الحقائق ، وبهٰذا النور يتجلى المستور[1]

وعندما تتجلَّى الحقيقة في القلب فاعلم أن العقل لن يعاندها ؛ لأن مَثَلَهُ حينئذٍ مثلُ العينِ لو افترضنا إدراكَها للمسموعات ؛ فإنها لن تحصر المعرفة بالمرئيات ، بل تقرُّ بالمسموعات وتقول : إنني لم أخلق أصالةً لهٰذا ، ولٰكن الله منَّ عليَّ بمزيد عرفان وبيان ، ولهٰذا قال العارف الحاتمي : (فمَنْ لم يشهد التجلِّيات بقلبه . . ينكرُها بعقله)[2] ؛ وعليه يمكن التفريع : من شهد التجليات بقلبه . . فلن ينكرها عقلُهُ .

أما أن يحاول بعضُ القاصرين ممن ينسبون أنفسهم إلىٰ رحاب التصوف أن يتَّهموا العقل بالقلق وأحكامَهُ بالاضطراب . . فتلك زندقة متستِّرة ، وعبثٌ بدينِ الله مهدومُ الأركان ، وإنما تسليمُ العقل للشرع في المطالب العالية إيمانٌ رفيع البنيان .

ـ الإلهامُ الصحيح مصدرٌ من المصادر المعرفية : والإلهامُ نوع من الكلام النفسي الكائن في الضمائر[3] ، ويعبَّر عنه أيضاً بـ (الخاطر) ، وأصلُ هٰذا

---

(١) وقد أشار حجة الإسلام إلىٰ هٰذه الحقيقة (توقف العقل في الحكم على الشيء بين الاستحالة والجواز) في « إلجام العوام » (ص ٧٢) حيث قال عن المظنون في التأويل : (اعلم أن للظنِّ متعلقين : أحدهما : أن المعنى الذي انقدح عنده هل هو جائز في حق الله تعالىٰ أم هو محال ؟ والثاني : أن يعلم قطعاً جوازه ، لٰكن تردد في أنه هل هو المراد أم لا ؟) .

(٢) انظر « الفتوحات المكية » (١/ ٢٨٩) .

(٣) انظر « نتائج الأفكار » (٢/ ٩٧) ، واعلم : أن ردَّ الإلهام عند المتكلمين كمصدر معرفي. . .=

النوع من الإلهام ثابتٌ قطعاً في تقرير الشريعة ؛ وهو الوحي ، ويذهب محققو المتكلمين والسادة الصوفية إلىٰ إثبات مبايناتٍ بين الوحي والإلهام ؛ فالوحي مصدرٌ من مصادر التحليل والتحريم[١] ، وقد انقطع بانتقال جسد النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ عالم البرزخ ، والإلهامُ ليس سبباً معرفياً عامّاً لكافة الخلق ، وحصوله لبعضهم لا يصلحُ للإلزام على الغير

وقد نبَّه علىٰ هـٰذا ريحانةُ الأصوليين والمتكلمين السعدُ التفتازاني ؛ حيث قال في حقِّ الإلهام الصحيح (فلا شكَّ أنَّهُ قد يحصلُ به العلمُ ، وقد ورد القولُ به في الخبر[٢] ، وقد حُكِيَ عن كثيرٍ من السلف)[٣]

ـ أنَّ هـٰذا النوع من التأويل لا يجبُ شرعاً علىٰ عامة المكلَّفين : فالإيمانُ تصديقٌ مخصوص بمجموعة من المسائل المحدودة ؛ تعربُ عنها كلمةُ التوحيد ، ولا ريبَ أن ما طُولبنا به لتحقيق النجاة عند الله تعالىٰ لا يقضي بعُدْمِ

= لا لعدم وجوده ، أو لكونه باطلاً على الدوام ، بل لفقد الاشتراك في التخاطب ، وفقد شرط الثقة به كما ستعلم ، وخفاء معرفة أحقِّيَّته عند أكثر الخلق ؛ ولذلك قال الإمام أبو المعين النسفي في « تبصرة الأدلة » (١/ ٢٣) : (وإذا كان الإلهام بعضه صحيحاً وبعضه فاسداً . . لم يمكن الحكم بصحة كل إلهام على الإطلاق ما لم يقم دليل صحته ، فصار المرجع حينئذ إلى الدليل دون الإلهام) .

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٢٨٤) : (فإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم ؛ ولهـٰذا قالوا : كلُّ خاطر لا يشهد له ظاهر . . فهو باطل) .

(٢) من ذلك : ما رواه البخاري (٣٤٦٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إنَّهُ قد كانَ فيما مضىٰ قبلكم مِنَ الأممِ محدَّثونَ ، وإنَّهُ إنْ كانَ في أمَّتي هـٰذه منهم فإنَّهُ عمرُ بنُ الخطابِ » ، ومنها : ما رواه الترمذي (٣٤٨٣) من حديث سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما فيما علَّمَهُ صلى الله عليه وسلم لأبيه : « اللهمَّ ؛ ألهمني رشدي ، وأعذني من شرِّ نفسي » .

(٣) انظر « شرح العقائد النسفية » (ص ١٢٩) ، ومما حُكي عن السلف : قول سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري (٦١) : (ووقع في نفسي أنها النخلة) .

زيادة معرفية لا حدَّ لها ، بل يجب على المكلف أن يعلم ذلك ؛ وهو ما يعبَّرُ عنه بالإيمان الجُمْلي (يجب في حقِّهِ تعالىٰ كل كمال ، ويستحيل في حقِّهِ كلُّ نقص) .

والواجبُ على المكلَّف هو أصلُ الإيمان الذي بيَّنته كتبُ الفقه وأصولِ الدين ، وهـٰذا التكليفُ متوازن مع القدرة الحادثة العامة التي أُورثَها المكلَّفُ لتحقيق الكسب ، فمعرفة الصفاتِ الإحدىٰ والخمسين في حق الله تعالىٰ ، والتسعة في حق أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، التي بيَّنها أهل الكلام . . هو المشتركُ الذي لا عذر عن الإحاطة به في حقِّ كلِّ مكلَّف ، وبه ينجو عند الله تعالىٰ ، ولـٰكن ليس كلُّ ناجٍ سعيداً ، وليست السعادة علىٰ رتبة واحدة ، فلو قيل : إننا قد طولبنا من الازدياد من معرفة الله تعالىٰ إلى الموت . . لم يبعد ذلك ، بل هو الواجب الذي ندين الله جلَّ جلاله به .

فوراء الواجب التكليفيِّ في الأصول علومٌ عرفانية كبحر لا ساحلَ له ، يسمِّيها السادة الصوفية بالأسرار ، وبعضُ البلداء يظنون أنها نُعتَتْ بالأسرار لكونها تنطوي علىٰ كفر وزندقة ، أو أنها تخالف ما عرفه الجمهور من المشهور ! وإنما مرادُ القوم أنها ممَّا قد لا تُطيقه العامة ، ولـٰكنهم إن تأهَّلوا بالمجاهدة والخلوة وأكلِ الحلال النَّصِّ . . فُتح لهم الباب ، ورُفع الحجاب ، ودخلوا المحراب .

وقد عبَّر عن هـٰذا حجة الإسلام الغزالي بقوله : (ثم ليس كلُّ سرٍّ يُكشَف ويُفشىٰ ، ولا كلُّ حقيقة تُعرض وتُجلَىٰ ؛ بل صدورُ الأحرار قبور الأسرار ، ولقد قال بعض العارفين : إفشاءُ سرِّ الربوبية كفر)[1]

---

(١) انظر « مشكاة الأنوار » (ص ٣٩) .

وهٰذا بعينه ما يجعلنا نتعرَّف علىٰ رحمة الله الواسعة في إنزال المتشابهات ، فتفاوت الفهوم والعقول ، وفيض الكرم والجود الذي لا حدود له ، وحكمة الله التي تنفَّست في كلِّ ذرة من ذرات الوجود . . دعت ـ بالنسبة إلينا ؛ إذ لا غرض ولا علة في أفعال الله ـ إلىٰ إنزال نصٍّ في معرفة الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته متعدِّدِ الاحتمالات ، فضفاض المعاني ؛ وبعد ذلك قد علم كلُّ أناس مشربهم

وهٰذه الزياداتُ المعرفية هي التي أشار إليها العارف الحاتمي بقوله (ولما رأت عقولُ أهل الإيمان بالله تعالىٰ أن الله قد طلبَ منها أن تعرفَهُ بعد أن عرفته بأدلَّتها النظرية . . علمت أن ثَمَّ علماً آخر بالله لا تصلُ إليه من طريق الفكر ؛ فاستعملت الرياضات والخلوات والمجاهدات ، وقطع العلائق والانفراد ، والجلوس مع الله بتفريغ المحلِّ وتقديس القلب عن شوائب الأفكار ؛ إذ كان متعلَّقَ الأفكار الأكوانُ ، واتخذت هٰذه الطريقة من الأنبياء والرُّسُل .

وسمعَتْ أن الحق جل جلاله ينزلُ إلىٰ عباده ويستعطفهم ، فعلمَتْ أن الطريق إليه من جهته أقربُ إليه من الطريق من فكرها ، ولا سيما أهلِ الإيمان ، وقد سمعَتْ قوله تعالىٰ : « من أتاني يسعىٰ أتيته هرولة » ، وأن قلبه ـ أي : قلب المؤمن ـ وسعَ جلال الله وعظمته .

فتوجَّهَ العقل إليه تعالىٰ بكلِّهِ ، وانقطع من كل ما يأخذ عنه من هٰذه القوىٰ ، فعند هٰذا التوجُّهِ أفاض الله عليه من نوره علماً إلـٰهيّاً ؛ عرَّفَهُ بأن الله تعالىٰ من طريق المشاهدة والتجلِّي لا يقبلُهُ كونٌ ولا يردُّهُ كون ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ يشير إلى العلم بالله من حيث المشاهدة ﴿ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق : ٣٧] ، ولم يقل غير ذلك .

فإن القلب معلوم بالتقلُّبِ في الأحوال دائماً ، فهو لا يبقىٰ علىٰ حالةٍ واحدة ، فكذلك التجلِّيات الإلـٰهية ، فمَنْ لم يشهد التجلِّيات بقلبه . ينكرُها بعقله ؛ فإن العقلَ يقيِّدُ وغيرَهُ من القوىٰ إلا القلب ؛ فإنه لا يتقيَّدُ ، وهو سريعُ التقلُّب في كلِّ حال ؛ ولذا قال الشارع « إنَّ القلبَ بين إصبعينِ من أصابع الرحمـٰن ، يقلِّبه كيف يشاء » ، فهو يتقلَّبُ بتقلُّب التجلِّيات ، والعقل ليس كذلك ، فالقلب هو القوّةُ التي وراء طور العقل ، فلو أراد الحقُّ في هـٰذه الآية بالقلب أنه العقلُ . . ما قال : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾ فإن كل إنسان له عقل ، وما كل إنسان يُعطىٰ هـٰذه القوّة التي وراء طور العقل المسمَّاة قلباً في هـٰذه الآية ؛ فلذلك قال : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾

فالتقليب في القلب نظير التحوُّلِ الإلـٰهيِّ في الصور ، فلا تكون معرفة الحقِّ من الحقِّ إلا بالقلب ، لا بالعقل ، ثم يقبلها العقل من القلب كما يقبل من الفكر ، فلا يسعُهُ سبحانه إلا أن يقلبَ ما عندك ، ومعنىٰ قلب ما عندك : هو أنك علَّقْتَ المعرفة به عز وجل ، وضبطت عندك في علمك أمراً ما ، وأعلىٰ أمرٍ ضبطته في علمك به : أنه لا ينضبط سبحانه ولا يتقيَّدُ ، ولا يشبهُ شيئاً ولا يشبهُهُ شيء ، فلا ينضبطُ مضبوط لتميُّزه عما ينضبط ، فقد انضبطَ ما لا ينضبط ؛ مثل قولك : العجز عن دَرَكِ الإدراك إدراكٌ ، والحق إنما وسعه القلب .

ومعنىٰ ذلك : ألا يحكم على الحق تعالىٰ بأنه لا يقبل ولا لا يقبل ؛ فإن ذات الحق وإنِّيَّته مجهولة عند الكون ، ولا سيما وقد أخبر جلَّ جلاله عن نفسه بالنقيضين في الكتاب والسنة ؛ فشبَّه في موضع ، ونزَّه في موضع ؛ نزَّهَ بـ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ ، وشبَّهَ بقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ ، فتفرَّقت

خواطر التشبيه ، وتشتَّت خواطر التنزيه ؛ فإن المنزِّهَ على الحقيقة قد قيَّدَهُ وحصره في تنزيهه وأخلىٰ عنه التشبيه ، والمشبِّهَ أيضاً قيَّدَهُ وحصرَهُ في التشبيه وأخلىٰ عنه التنزيه ، والحقُّ هو في الجمع بالقول بحكم الطائفتين ؛ فلا يُنزَّهُ تنزيهاً يخرج عن التشبيه ، ولا يُشبَّهُ تشبيهاً يخرج عن التنزيه ، فلا تطلقْ ولا تقيّدْ ؛ لتميُّزِهِ عن التقييد ، ولو تميَّزَ تقيَّد في إطلاقه ، ولو تقيَّدَ في إطلاقه لم يكن هو ، فهو المقيَّد بما قيَّدَ به نفسه من صفات الجلال ، وهو المطلق بما سمَّىٰ به نفسه من أسماء الكمال ، وهو الواحد الحق ، الجليُّ الخفيُّ ، لا إلـٰه إلا هو العليُّ العظيم)[1]

هـٰذا بإيجاز وعجلٍ يمكننا أن نستلمحه من منهج السادة الصوفية في ضبط فهم النص المتشابه في كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله الأعظم عليه الصلاة والسلام .

المتكلمون والصوفية والنصُّ المتشابه :

لئنْ برَّزَ المتكلمون في المحكم والتنزيه . . فقد كان للصوفية من أمثال ابن اللبان بروزٌ في المتشابه ونفي حقيقة التشبيه ، وأظهروا للناس أن المتشابه في كتاب الله فضاءٌ رحبُ الأرجاء بل بلا حدود في معرفة الله تعالىٰ .

فبينما ترى المتكلِّم يمرُّ علىٰ آيات التشبيه بكلمات عجلة ، ويطوِّل الكلام في آيات التنزيه . . تجدُ علماء الصوفية على الخلاف من ذلك ؛ إذ يرون أن

---

(١) الفتوحات المكية (١/ ٢٨٩) ، وبطبعة الدكتور عثمان يحيىٰ (٤/ ٣٢١ـ ٣٢٤) ، وإن كنت ممَّن لا يروق له تلك النصوص ، وينفر من صاحبها ؛ لما رسخ في نفسك من صورة له صوَّرتها أقلامُ بعض أهل العلم . . فلا تسرفْ في القتل ، واستبنِ الحق بنفسك ؛ فإن لك عيناً وأُذناً ، فإن رأيته نصّاً يباينُ ظاهرَ العلم فإني أنصح نفسي وإياك بألا نشتغل بكتابٍ لا ينفعُ عندنا ، ولندعْهُ لمن ادَّعوا أنهم أحاطوا علماً به ، ورأوا فيه ما لم نرَ ، ولكل مقام رجال .

المحكم صارم المعنىٰ ، لا تستشكلُهُ النفوس ، بينما المتشابهُ فضفاض المعاني ، إلىٰ حدٍّ فتحوا فيه الباب علىٰ مصراعيه ؛ ليقول كلُّ عارف بما فتح الله به عليه ضمن الضوابط المذكورة

وكأنهم أيضاً تنبَّهوا إلىٰ أن المتشابه لا تنحلُّ مشكلات فهمه بالعلوم الظاهرة وحدها ، بل لا بد من إنشاء نفس جديدة لها طبع غير طباع المادة ، لتكون محطَّ ومهبط تنزُّلات الفهم عن الله تعالىٰ

وعلى الجملة يبقىٰ ما قرَّره علماء الكلام له السلطة العامة عند محاولة التعدي على النصوص ، أما الصوفية في هـٰذا الباب فيأتي دورُهم لمن فتح قلبَهُ للأخذ عن الله ، وطهَّر نفسه من علائق المادة الدنيوية والأخروية ، وصار من الصادقين .

وبعبارة أكثر جرأة : قد يُتصوَّر وجود متكلم فاسق في غير الاعتقاد ، بل في الاعتقاد أيضاً ، ويأتينا بما أتىٰ به عمدةُ المتكلمين عبد الملك الجويني مثلاً ، ولـٰكن لا يمكنُ أن يُتصوَّر وجود صوفي فاسق يأتي بما أتىٰ به أمثالُ النِّفَّري وابن اللبَّان مثلاً ؛ لأنه بفسقه خرجَ عن كونه صوفياً أصلاً

بيانُ معنى المتشابه الذي يدخلُهُ التأويل

أكثرَ الأصوليون من ذكر حدودٍ للمتشابه ، واختار جمهورهم : أن **المحكم** : ما أمكنَ معرفةُ المراد منه بظاهره أو بدلالة تكشف عنه ، وأن **المتشابه** : ما لا يعلم تأويله إلا الله ، وصحَّح هـٰذا القول الأستاذ أبو منصور الإسفراييني ، وعدَّهُ ابن السمعاني أحسن الأقاويل[1]

---

(١) انظر « البحر المحيط » (١/ ٤٥٢) ، وقد يكون المتشابه متشابهاً من جهة اللفظ فقط ، أو من جهة المعنىٰ فقط ، أو من جهتهما ، وانظر « معترك الأقران » (١/ ١٠٩) .

ولـٰكن الذي يليقُ بكتابنا « إزالة الشبهات » هو حدُّ إمام الحرمين الجويني ؛ حيث قال : (المحكمُ هو السديدُ النظمِ والترتيبِ ، الذي يفضي إلىٰ إثارة المعاني القويمة المستقيمة من غير تناقض ولا تنافٍ

والمتشابهُ : هو الذي لا يحيطُ العلمَ بالمعنى المطلوب به من حيث اللغة إلا أن تقترن به أمارةٌ وقرينة)[1]

ووجهُ الأليقية : أن الإمام ابن اللبان يرىٰ أن المتشابهَ قد فتح ذراعيه ليُفهمَ ، ولـٰكن للراسخين في العلم ؛ فهو في هـٰذا علىٰ مذهب شيخ السنة أبي الحسن الأشعري في الوقف علىٰ قوله تعالىٰ ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ٧] ، وهو أحدُ قولي حبر القرآن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

فإذاً ؛ للمتشابهِ معانٍ يجب على المؤمن أن يتدبَّرها ؛ إذ هي من جملة الكتاب الحكيم ، ولذلك يرى الإمامُ ابن اللبان أن كلمةَ الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ في الحكم على السؤال عن معنى المتشابه بأنه بدعةٌ . . قد انقضىٰ وقتُها من زمنٍ بعيد ؛ قال رحمه الله تعالىٰ : (لأن الصحابةَ رضي الله تعالىٰ عنهم كانوا عالمينَ بمعناه اللائقِ بحسَبِ اللغة ، فلم يحتاجوا للسؤال عنه ، فلمَّا جاءَ من لم يُحِطْ بأوضاع لغتهم ، ولا له نورٌ كنورهم يهديه لصفات ربِّهِ تعالىٰ . . شرعَ يسألُ عن ذلك ، فكان سؤالُهُ سبيلاً لاشتباهِهِ على الناس ، وزيغِهم عن المراد ، وتعيَّنَ على العلماء حينئذٍ ألا يهملوا البيانَ ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران : ١٨٧])[2] .

---

(١) انظر « التلخيص في أصول الفقه » (١/ ١٨٠) .

(٢) انظر (ص ٢٦٣) ، ويبقى العمل بكلمة الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ بحقِّ كلِّ إنسان لم تتشبث منه أوهام التشبيه ، وهو ما اختاره حجة الإسلام في « إلجام العوام » (ص٦١) .

ولـٰكن لا ريبَ أن هـٰذا البيان مشروطٌ بالشروط التي ذكرها حجةُ الإسلام الغزالي في « إلجام العوام » ، ولو فُتح الباب علىٰ مصراعيه لهلكَت فئامٌ من الناس بحجة التعليم والبيان ، ويجمِلُ هـٰذه الشروطَ كلمةُ سيدنا علي رضي الله عنه فيما رواه البخاري عنه (حدِّثوا الناسَ بما يعرفون ؛ أتحبُّون أن يُكذَّبَ الله ورسوله ؟!)[1]

ويمكننا أن نحدَّ المتشابه علىٰ رأي الإمام ابن اللبان : بأنه النصُّ الشرعي الذي استحال فهمُهُ بإبقائه علىٰ ظاهره ، ولا يظهرُ معناه إلا بردِّهِ إلىٰ مُحْكمه .

وقد ذكر الأصوليون للتأويل شروطاً ؛ فمن ذلك ما قال الإمام الزركشي : (وشرطُ التأويل : أن يكون موافقاً لوضع اللغة ، أو عرف الاستعمال ، أو عادة صاحب الشرع)[2]

وستلحظُ أن الإمام ابن اللبان كانت عنايته الكبرىٰ منصبَّة على الملحظ الثالث ؛ وهو عادةُ صاحب الشرع ، ولعل ذلك هو أهمُّ ما اعتدَّهُ الإمام بل عامة الصوفية في فهم الكلمة المتشابهة ؛ كأنهم يرون أن المتشابهَ له شبكة كبيرةٌ ترتبطُ به مما له تعلُّقٌ بلفظه ، ولذلك لما فسَّرَ القَدَمَ لاحظ معنى النعل والنعلينِ في الشريعة ، ولمَّا تحدث عن تأويل الكلام لاحظ معنى الصلصلة ، ولمَّا فسَّر اليد لاحظ معنى الأصابع ، **لا للارتباط العضوي والمصلحي الموجود في الحادث ، بل للارتباط اللغوي المبثوث في اللغة** ، وهـٰذا أمرٌ نجزم بعدم عناية المتكلمين به ؛ إذ هو مبحثٌ يأتي بعد التسليم بنفي الظاهر المستحيل ، وإثبات المجاز القريب .

---

(١) صحيح البخاري (١٢٧) .

(٢) انظر « البحر المحيط » (٣/ ٤٤٣) .

ومع هٰذا كلِّهِ : نجدُ للإمام ابن اللبان بعضَ اهتمامٍ بما أرشدَ إليه علم الكلام ، بل هو واحدٌ من المحيطين به ، ولٰكنه عنده محطةٌ لا يُطوِّل الوقوفَ فيها ، بل وراءها محطَّاتٌ لا نهايةَ لها على التحقيق والجزم في معرفة الله تعالىٰ ، إلىٰ أن يستقرَّ في فؤاد السالك جزماً لا قولاً بأنه عاجزٌ كلَّ العجز عن أن يحيط بعضَ علمٍ بربِّه[1]

ولٰكن هٰذه النصوص المتشابهة ومعها محكماتُ كتاب الله سبحانه وسنَّة نبيه . . هي الرياضُ النضرة والمنيفة في تجليات وتعرُّفات القديم سبحانه للفاني الهالك من عباده ، وعلىٰ قدر الاستعداد يكون الإمداد ، ولا تحسب عامةَ المؤمنين كخواصِّهم في هٰذا المهيع ، وإيَّاك أن تظنَّ بأن عالم العقل علىٰ سعته هو وحده الذي تشرقُ فيه المعارفُ ويقوم بها ؛ ورحم الله حجة الإسلام إذ قال : (فلا يبعدُ أيُّها العاكفُ في عالم العقل أن يكون وراءَ العقل طورٌ آخر يظهرُ فيه ما لا يظهرُ في العقل ، كما لا يبعدُ كون العقل طوراً وراءَ التمييز)[2]

أما عدمُ فهم المتشابه بعد غياب الصحابة الكرام رضي الله عنهم . . فيرجع عند المؤلف لأمرين :

الأول : لا مدخلَ للإنسان فيه ؛ وهو نشوءُ قَرْنٍ لا خبرةَ لهم بأوضاع اللغة

---

(١) حذارِ أن يُفهم من هٰذه الكلمة التي شاعت في كتب حجة الإسلام وغيره من علماء الكلام والصوفية . . المعرفةُ الشرعية التي كُلِّف بها الإنسانُ الذي يتوجَّه له الخطابُ الشرعي التكليفي ، بل هي معرفةُ الصدِّيقين والمقرَّبين العزيزة ، التي من حظيَ بها فهو ذو حظٍّ عظيم ، غير أن الجنة لن تدفع عن أبوابها أهلَ الإيمان الذين وحَّدوا مولاهم سبحانه ، وأقرُّوا بالنبوات وما عُلمَ من دين الله بالضرورة .

(٢) انظر « مشكاة الأنوار » (ص ٧٧) .

العربية بالقدر الذي كان لهم رضي الله عنهم ، وفواتُ رؤية الأنوار النبوية التي يجزم كلُّ مؤمن بأن لها مدخلاً في تنوير القلوب بنور العلم والفهم

الثاني أسبابٌ خُلُقية مرضية قلبية ؛ فالتكلُّم بتأويل النصوص المتشابهة من قبل أُناسٍ يبحثون في كتاب الله وسنَّةِ رسوله الأعظمِ عليه الصلاة والسلام بما يُحْكِمُ مذهبهم ، لا بما هو الحقُّ في نفسه.. مرضٌ خطير ، فبدل أن يحكموه بالمحكم الذي وجدوه معانداً لفاسد عقائدهم.. أحكموه بالمتشابهِ منه ![1]

وستبقىٰ مسألةُ المحكم والمتشابه ذاتَ شجون إلىٰ أن يشاء الله أمراً .

* * *

---

(١) فصار ما هو متشابهٌ عند أهل السنة محكماً عند بعض مخالفيهم ، وما هو متشابهٌ عند هٰذا البعض قد يكون محكماً عند أهل السنة ! ولا شكَّ أن هٰذا هو القول بالرأي المذموم الذي ورد به الحديث الشريف .

منهج العمل في الكتاب

يكاد يكون كتابُ « إزالة الشبهات » إلى الآن على الأقلِّ هو الكتابَ المعرِّفَ بالإمام ابن اللبان ، وعلىٰ كثرة نسخِهِ وجلاء نسبته نأسفُ أن تقع طبعاتٌ له تهوَّشَ عليها أمرُهُ وأغبشَ ؛ حتىٰ إن بعضها نسبَهُ للعارَف الحاتمي ! وأحسبُ أن العجلة وقلَّة التروِّي هي ما حملَتْ علىٰ ذلك ، وعلىٰ أيِّ حال فالكتاب فذٌّ في موضوعه وأسلوبِ عرضه ، وفريدٌ من التعريف بمؤلفه ، فلا أقلَّ من أن يلقىٰ من العناية ما يُروِّقُهُ ويُحسنُ إليه .

وقد تمَّ بحمد الله تعالى اعتمادُ أربع نسخٍ خطية ، وبعض من نسخٍ أخرىٰ متأخِّرة اتُّخذت للاستئناس ؛ منها اثنتان كثُر النظر فيهما بمقارنتهما بغيرهما

وقد اتخذت النسختان (أ ، ج) أصلاً يمثل نسيجَ الكتاب ؛ ولا سيما أنهما اتفقتا في ترتيب فصول الكتاب من أوله إلىٰ آخره ، وهو الأمر الذي خالفت فيه باقي النسخ الخطية ، ولوقوع اضطراب كبير في هـٰذا الترتيب أضع بين يديك أيها القارئ الكريم جدولاً بُيِّنَ فيه ترتيب فصول الكتاب في النسخ المعتمدة ونسخ الاستئناس :

جدول ترتيب فصول كتاب «إزالة الشبهات»

النسخة أ	النسخة ب	النسخة ج	النسخة د	النسخة هـ	النسخة و	النسخة ز
النفس	الصورة	النفس	الصورة	الصورة	الصورة	الصورة
الصورة	الوجه	الصورة	الوجه	الوجه	الوجه	الوجه
الوجه	الرؤية	الوجه	الرؤية	الرؤية	الرؤية	الرؤية
الرؤية	النفس	الرؤية	السمع والبصر والإدراك والعين والأعين	النفس	النفس	السمع والبصر والإدراك والعين والأعين
السمع والبصر والإدراك والعين والأعين	القرب	السمع والبصر والإدراك والعين والأعين	النفس	القرب	القرب	الكلام
الكلام	السمع والبصر والإدراك والعين والأعين	الكلام	القرب	النزول	السمع والبصر والإدراك والعين والأعين	البطش
البطش	البطش	البطش	الكلام	المجيء والإتيان	البطش	الأيدي والأصابع واليمين
الأيدي والأصابع واليمين	الأيدي والأصابع واليمين	الأيدي والأصابع واليمين		المعية	الأيدي والأصابع واليمين	الجنب
الجنب	الكلام	الجنب		الحب	القضاء والعدل	القدم
القدم	القدم	القدم		العندية	الكلام	النفس
الفوقية	الجنب	الفوقية		الأينية	القدم	القرب
الاستواء	الفوقية	الاستواء		الضحك والغضب والرضا	الجنب	العندية
قصة الإسراء	قصة الإسراء	قصة الإسراء			الفوقية	الأينية
النزول	الاستواء	النزول			قصة الإسراء	المعية
المجيء والإتيان	النزول	المجيء والإتيان			الاستواء	الفوقية
القرب	المجيء والإتيان	القرب			النزول	قصة الإسراء
العندية		العندية			المجيء والإتيان	الاستواء
الأينية		الأينية			المعية	النزول
المعية		المعية			الحب	المجيء والإتيان
الحب		الحب			الأنانية	الحب
الضحك والغضب والرضا		الضحك والغضب والرضا			العندية	الضحك والغضب والرضا
					الضحك والغضب والرضا	

وقد عُورضت هاتان النسختان المشار إليهما مع النسختين (ب ، د) مع وجود بتر في الأخيرة ، وكثرة مغايرات في الأولىٰ ، وأثبتت بعض الفروق والمغايرات التي يمكن أن تعتبر ، من غير ملاحظة فروقِ نسخِ الاستئناس إلا عند الحاجة .

وقد كان بتوفيق المولىٰ سبحانه أن خُرِّجت آثاره ونقوله ، وأُحيل بعضها علىٰ بعض المراجع التي لها تطويل أو صلة في المسألة المبحوث فيها ، وعُلِّقَ عليه ببعض التعليقات الإثرائية ، والتي أسأل الله تعالىٰ للقارئ النفعَ فيها ، والتحفيزَ للاستزادة والبحث

كما رُكِّنَتْ له المقدمات العلمية التي تليق بمثله ؛ من إعداد ترجمةٍ ذات سعة للمؤلف ، والذي قلَّت سطور ترجمته في كتب الترجمات ، وكلمة عن كتاب « إزالة الشبهات » وأبرز ما فيه ، مع العناية بإبراز منهج مؤلفه ، وصلته بالتأويل الإشاري الصوفي ، ومكانته بين كتب هـٰذا الفنِّ .

وقد جاء في خاتمة النسخة (ز) سؤال وجواب للإمام ابن اللبان ؛ حول بعض رسوم للسادة الصوفية ؛ كأخذ العهد على المريد ، وتصحيح نسبته في طريق القوم ، وإلباسه الخرقة ، إلىٰ غير ذلك ، وقد ضمَّت كلاماً حسناً قد لا يلفىٰ في غيرها .

ولكيلا تغيب عنَّا تمَّ بحمد الله تعالى النظر فيها ، وضبطها وخدمتها ، وأُلحقت بآخر كتابنا هـٰذا ؛ ليحيا بنشرها معه ما وُجدَ للإمام ابن اللبان من مؤلفات ، علىٰ أن سوء نسخها قد منع من استتمام معالمها .

وبعـــد :

فيا لهـٰذه الذرَّات التي أُخذَ عليها العهدُ من قِبَلِ بارئها ومولاها ؛ ألستُ

بربِّكم ؟ قالت وهي ما زالت في طيِّ العماء بلىٰ ، فلمَّا طُويت في عالم الشهادة ، وصار لها شبهُ وجود من عالم الفيض والجود . . **أخذ بعضُها بالتعظُّم والتَّكبُّر** ، ونفخ الشيطانُ في رؤوسها ليقصم ظهورَها ، فنازعت الحقَّ فقالت : (أنا) بدل (بلىٰ) ، فتعلقت بها أسماء الشقاوة ، **وأخذ بعضُها بالتذلُّل والتوكُّل** ، وساورَها الماكرُ ، فخرَّ صريعاً لليدينِ وللفم ، وعرفت عظيمَ المنَّة فقالت : ربنا ظلمنا أنفسنا ؛ فتعلقت بها أسماء السعادة

إلـٰهي ؛ أنَّىٰ لنا أن نتعرَّفك لولا ما عرَّفتنا ؟! بل أيُّ شيءٍ هي معرفتُنا وأنت المعرِّفُ والمعرَّف ؟! وقد تعاليتَ وحَجَبْتَ جميعَ خلقك برداءِ كبريائك وإزار عظمتك ، فأهبطتَهم إلىٰ أرضِ ابتلائك بحكمتك

بسرِّ حياتِكَ وقيُّوميَّتك قامَتْ ذرَّاتُ عوالمك ؛ فلمَّا شهدَ العارفون فيضَ مددِكَ قد ملأ الوجودَ . . استحْيَوا من شكرك ، ولمَّا فاضَ علمُ العلماءِ بك وحازوا الصدِّيقيَّة . . أعلنوا العجزَ عن معرفتك ، وما استغفرَكَ عاصٍ إلا لجهلِهِ بك وبسعةِ رحمتك ، بل إقامةً لحدود ومعالمِ شريعتك .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

حرر في دمشق الشام

(٢٨) ربيع الآخر المنور (١٤٤١هـ)

الموافق (٢٦) كانون الأول / ديسمبر (٢٠١٩م)

وكتبه

الفقير لعفو مولاه الغني

أنس محمد عدنان الشرفاوي الحسني

وصف النسخ الخطية

يظهر أن هناك عنايةً متلاحقة لكتابنا « إزالة الشبهات » عبر القرون؛ وتفاوت نسخه تاريخياً يبرزُ هـٰذا المعنىٰ ، كما أن له غيرَ نسخة ، وهـٰذا دليلُ عناية أيضاً .

وقد تمَّ بحمد الله اعتمادُ أربع نسخ رئيسة في إخراج نصِّه الذي بين أيدينا ، والاستئناسُ بثلاث نسخ أخرىٰ ، وهـٰذه النسخ هي :

النسخة الأولىٰ

نسخة مكتبة تشستربيتي بدبلن أيرلندا ، ذات الرقم (٣٣٥٤) ، وهي نسخة تامَّة ، كتبت بالمدينة المنورة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، و مع شكل يسير لبعض الكلمات ، وجاءت في (٤٥) ورقة ، ووقع الفراغ من نسخها سنة (٨٦٧ هـ)

جاء اسم الكتاب في ورقة العنوان منها : « إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات » ، ونعت المؤلف فيها بـ (الشيخ الإمام ، شيخ الإسلام ، علم الأئمة الأعلام ، أوحد المحققين ، لسان المتكلمين ، الجامع بين الشريعة والحقيقة ؛ شمس الملة والدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد المعين[1] ، المعروف بابن اللبان الشافعي الشاذلي المصري) ، وهي نعوت فخيمة .

ورمز لها بـ (أ) .

---

(١) كذا جاء فيها اسم جده ، وإنما هو عبد المؤمن .

النسخة الثانية

نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة مصر ، ذات الرقم العام (١٣٢٤٠٧) ، والخاص (٧٢٠٨) ، وهي نسخة غير تامَّة ، كتبت ضمن مجموع ، وبخط نسخي مألوف ، وجاءت في (٩١) ورقة ، ووقع الفراغ من نسخها في العقد الثاني من القرن العاشر

وفي ورقة العنوان تمَّ التعريف بالكتاب بأنه في رد الآيات المتشابهات في أسمائه تعالىٰ وصفاته عما يوهم التجسيم والتشبيه ، دون أي ذكر لاسمه ، بل اكتُفِيَ بهٰذه الإشارة ، وقد عنونت بعض فِقَر الكتاب بمطالب وفوائد عديدة ، تظهر منها عناية أحد أهل العلم بهٰذه النسخة ، كما كُتبت عناوينها الأصلية والفرعية باللون الأحمر

ومن الملحوظات المهمة : أن هٰذه النسخة باينت النسختين (أ ، ج) في ترتيب فصول الكتاب ، وسقط قرابة ربع الكتاب منها ، مع وقوع خاتمة لها ! ويمكن من خلال النظر في جدول ترتيب الفصول أن تدرك ما سقط منها .

كما يظهر أن الناسخ حاول مواءمةَ نصِّ الكتاب للمشهور عند عامة أهل العلم ، وما هو الدافع لهٰذا ؟ لعله لم ترقْ له طريقةُ العرض التي فيها شبه غُربة عن المألوف في الحديث عن هٰذه المسائل ، ومع هٰذا فما وقع من ذلك قليل جداً بالنسبة لحجم الكتاب .

ورمز لها بـ(ب) .

النسخة الثالثة

نسخة مكتبة الأحقاف بتريم اليمن ، ذات الرقم (٥٩) ، وهي نسخة تامَّة ، كتبت بخط نسخي جميل رائق ، مع شكل يسير لبعض الكلمات التي قد تشكل ، وجاءت في (٤١) ورقة ، ووقع الفراغ من نسخها سنة (٩٨٩ هـ) .

جاء اسم الكتاب في ورقة العنوان منها مطابقاً للنسخة (أ) : « إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات » ، ونعت المؤلف فيها بنعوت جليلة ؛ فقد جاء فيها : (تصنيف الشيخ الإمام ، شيخ الإسلام ، بركة الأنام ، وارث علم الرسل الكرام ، علم الأئمة الأعلام ، آخر المجتهدين ، إمام المحققين ، لسان المتكلمين ، سيف المناظرين ، قامع البدع ، ناصر الحق ، صفوة الزمان ، وحيد دهره وفريد عصره ، الجامع بين الحقيقة والشريعة ، شمس الملة والدين ؛ الشيخ جمال الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ الإمام عبد المؤمن ، عُرِفَ بابن اللبان ، رضي الله عنه ، ونفعنا به ، ورزقنا من بركة علمه وعمله ، آمين آمين آمين آمين) ، وهي نعوت جليلة كما ترىٰ ، دالَّةٌ علىٰ رفيع مقام المؤلف رحمه الله تعالىٰ .

وقد امتازت هـٰذه النسخة بالدقة ، فيظهر أنها قوبلت علىٰ أصلها المنقولة هي عنه ، وقد أثبت علىٰ قلَّة بعض فروق النسخ علىٰ هامشها ، ويمكننا أن ندعي أنها مازت جميع النسخ التي بين أيدينا .

ورمز لها بـ(ج) .

النسخة الرابعة

نسخة المكتبة الوطنية باريس فرنسا ، ذات الرقم (٦٤٥) ، وهي نسخة مبتورة ، وقعت ضمن مجموع ، تلاها قطعة من « شرح الخمرية » للعارف بالله ابن الفارض ، ولم تُذكر سنة كتابتها ، ووقعت في (٣١) ورقة

وقد أفدنا من هـٰذه النسخة علىٰ ما فيها ، وهي كباقي النسخ ما عدا (أ ، ج) متباينة ترتيب الفصول ، وقد ذُكر في ورقة العنوان منها فهرس تفصيلي لفصول الكتاب كاملة ، منع من تمام وجودها البترُ المشار إليه

وجاء عنوان الكتاب فيها : « كتاب متشابه القرآن والحديث » ، وهو في الحقيقة توصيف علىٰ أغلب الظن ؛ إذ هـٰذه التسمية لا تحدِّد بدقةٍ ما في الكتاب ، بخلاف عنوانه الأصلي .

ورمز لها بـ (د) .

* * *

أما بشأن نسخ الاستئناس فهي

النسخة الخامسة

نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة مصر ، ذات الرقم العام (٦٨٥) ، والخاص (٢٤) ، وهي مجموع ، وقع كتابنا فيه من الورقة (٨٣) إلى الورقة (٩٥) .

ورمز لها بـ (هـ) .

النسخة السادسة

نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة مصر أيضاً ، ذات الرقم العام (٩٧٦٤١) ، والخاص (٢٠٩٥) ، وهي مجموع كذلك ، وقع كتابنا فيه من الورقة (٣٨) إلى الورقة (٧٠)

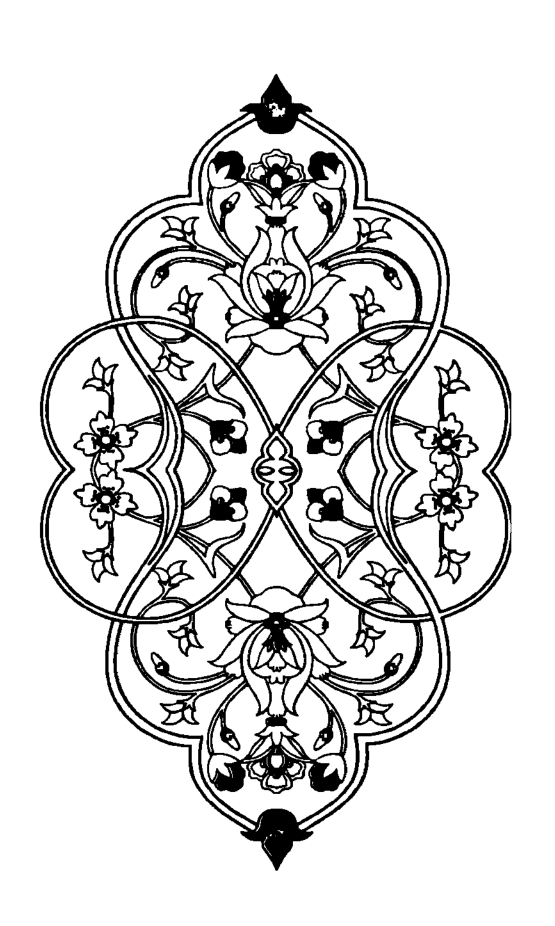
ورمز لها بـ (و) .

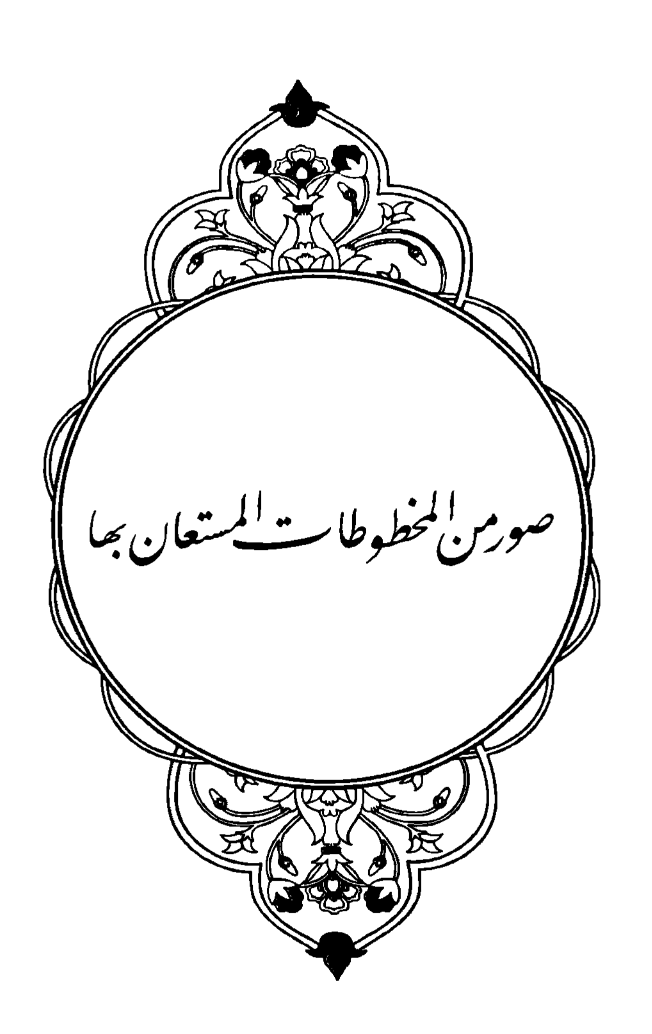
النسخة السابعة

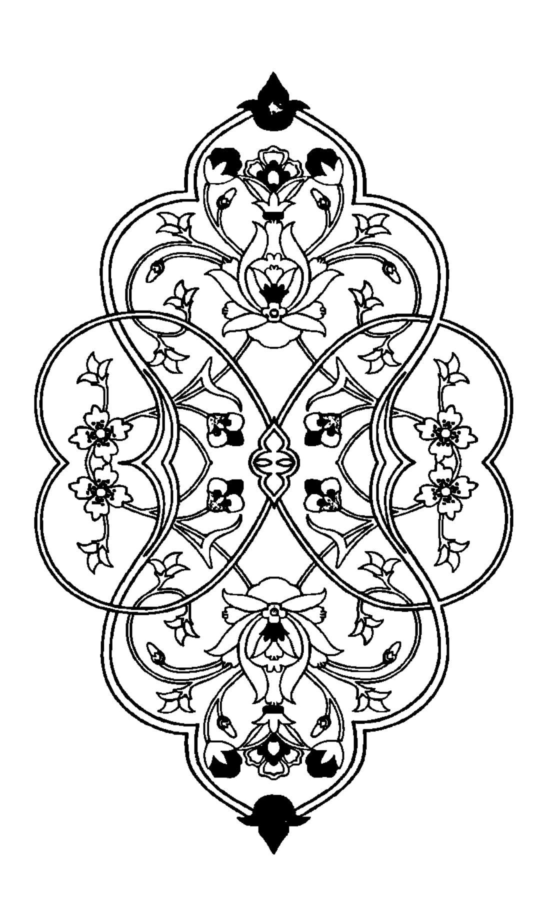
نسخة مكتبة كوبرلي إستنبول تركيا ، ذات الرقم (١٦٠١) ، وهي نسخة تامة ، ومقابلة بأصلين أحدهما حسن ، وفي خاتمتها ألحق سؤال عن بعض رسوم السادة الصوفية ، كتب عليه الإمام ابن اللبان جواباً نفيساً ، ووقعت في (٦٥) ورقة

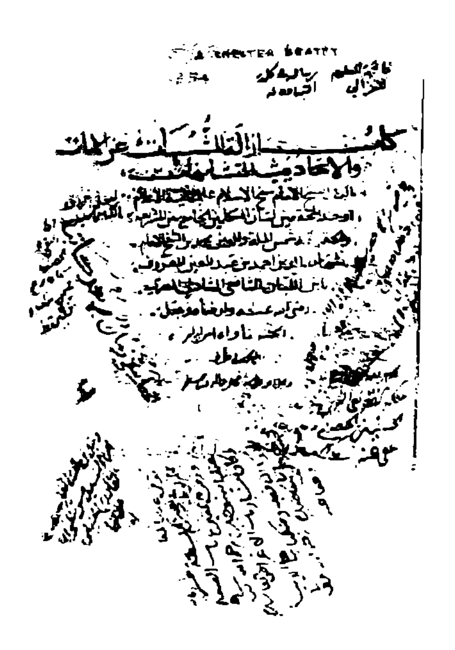
ورمز لها بـ (ز) .

* * *




صور من المخطوطات المستعان بها



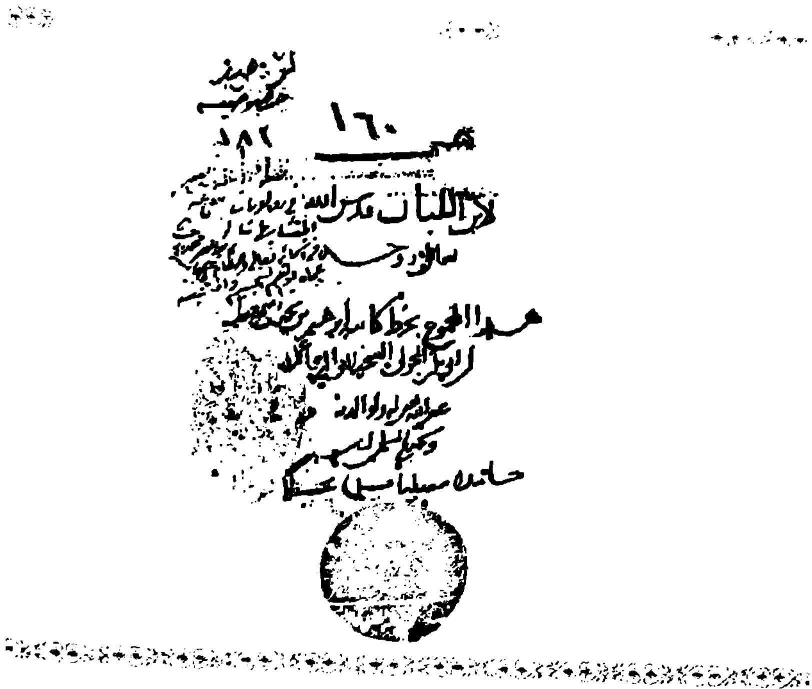


راموز ورقة العنوان من النسخة (أ)



راموز الورقة الأولى من النسخة (أ)

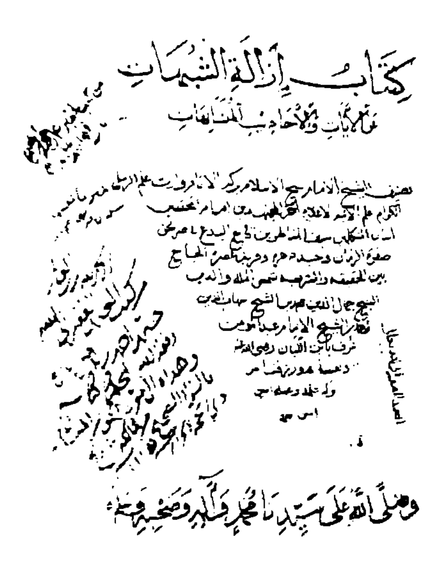
راموز الورقة الأخيرة من النسخة (أ)



راموز ورقة العنوان من النسخة (ب)

رواموز الورقة الأولى من النسخة (ب)

رواموز الورقة الأخيرة من النسخة (ب)


كتاب إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

راموز ورقة العنوان من النسخة (ج)

راموز الورقة الأولى من النسخة (ج)

ومن المتشابه صفة الضحك والغضب والرضا وقد ورد الغضب والرضا في الكتاب وورد الضحك في السنة في احاديث وقد اختلف اهل التفسير في معنى الرضا في الشاهد وهو من خلق ومعاني وايا ما كان فهو من صفة الكمال نرى مستحيل على الله تعالى والضحك في الشاهد معروف واستحالته على الله بالسنة لما انه ضروري فلذلك كان من المتشابه ورجوعه للمحكم ما قدمناه في الصورة فيكون ظهور الضحك في الصورة التي يظهر فيها ربا على عبده ولا اشتباه في ذلك فاذا اسند الضحك عند الحكاية مثلا من قال الناس الجبهة الصدر فيتعلل اقبال البدن بالكيفية التي تسمى ضحكا والفاعل في الحقيقة في ذلك كله هو الله فلا يشكل انه اذا تجلى بروح توجه على عبده في الصورة المشكلة من قبله انه يظهر على تلك الصورة باقباله فيه الضحك المناسبة للضحك المعتاد باقبال القلب وينسب ذلك الضحك اليه كنسبة الصورة والوجه اليه بالمعنى الذي قدمناه ويتضح عن ذلك نعم الرؤية للمؤمن والافاضة جوائز الكرم عليه وقد ثبت ان الله تعالى يلقى المؤمن ذا الهيبة بروح وريحان ورب غير غضبان فانظر كيف جعل مظهر لقائه له الروح وفي الروح يظهر لذلك العبد رضاه وضحكه وعدم غضبه وحقق بقوله ورب غير غضبان ان الروح مظهر الربوبية وان العبد يلقاه الروح يلاقي ربا ولولا ذلك لاشكل على قواعد العربية لانه عطف الرب على الروح وشرّك بينهما في تعدي الفعل اليه بالباء على وجه تعديه للمفعول وذلك يأبى كون الرب تعالى ملاقًا واذا اتخرجته على المعنى الذي ذكرناه لم يبق فيه اشكال تمت

وكان الفراغ من نساخته ضحوة يوم الاحد الرابع والعشرين من شهر رمضان الذي هو احد شهور سنة ٩٠٩ من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلوة والسلام والحمد لله رب العالمين

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

كتاب متشابه القرآن والحديث

تأليف الشيخ الامام العالم العلامة

شيخ الاسلام مفتي الانام

شمس الدين محمد بن اللبان اسكنه الله

الفردوس من جنته امين

الترتيب

النفس الصورة الوجه الرؤية السمع والبصر والعين والاعين الكلام والحروف والصوت والبطش واليد والايادي والانامل الجنب القدم الرؤية الاستوا الاسراء النزول المجيء والاتيان القرب المعية واين والمعية المحبة والغضب والرضى والضحك هذا الترتيب اولى قاله المصنف والحمد لله وحده

راموز ورقة العنوان من النسخة (د)

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن
الحمد لله الواحد بذاته وصفاته المنزه في جبروته
عن مشابهة مخلوقاته وصلواته على محمد عبده ورسوله
الموضح لسنته متشابه آيات الباري المصدق لآياته
[illegible] وعلى آله وصحبه الذين
[illegible]
[illegible] وسلم تسليمًا كثيرًا أما بعد
[illegible] أرشدني الله وإياك في هذا الزمان [illegible]
[illegible] بعض المبتدعة المنتسبين إلى
الحديث والفقه وإشاعته في العامة والخاصة من اعتقاد
ظواهر الآيات المتشابهة في أسمائه تعالى من غير تعرض لما
فيها يوهم التجسيم والتشبيه وبرهانه في ذلك تمسكه
بالكتاب والسنة ماشيًا على طريقة السلف الصالح ويتبع في

من غير تعرض إلى شيء منها [illegible]
في ذلك إلى مقالة الصحابة والتابعين لكونهم ما علم منهم
التعرض لشيء من ذلك [illegible] كثيرًا وما قيل إلا
[illegible]
[illegible] على سبيل [illegible]
[illegible] رسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم [illegible]
[illegible] على عبده
[illegible] قلبه وسلامة فطرته [illegible]
[illegible] الحكمة [illegible]
[illegible] المتشابه [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

نماذج الورقة الأولى من النسخة (د)

[illegible] قديمة يتقدس عن الحدوث والحروف في إفادة
[illegible] الترتيب [illegible] على بعض وذلك
مستحيل على القديم [illegible] أن لصفاته
مظهرين مظهر [illegible] منسوب للعباد وهي الألسنة
والأيدي والأقلام ومظهر [illegible]
[illegible] والحروف والأصوات
من لوازم المظهرين وكلامه منزه عنها [illegible]
[illegible] كلامه عن الحروف [illegible] والأصوات
[illegible] وإن كانت مظاهر له [illegible]
المتشابه [illegible]
[illegible] كلام الله أي بواسطة مظاهره الجسمانية وهي
أصوات العباد وحروفهم [illegible]

نماذج الورقة الأخيرة من النسخة (د)

راموز ورقة العنوان من النسخة (هـ)

راموز الورقة الأولى من النسخة (هـ)

[illegible]

تم كتاب ذكر معاني آيات

والأخبار المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات

والحمد لله رب الأرضين والسموات وصلاته وسلامه على

سيدنا محمد خير البريات وعلى آله وأصحابه النجوم

الزاهرات والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الميقات

وافق الفراغ من تعليقه يوم الاثنين المبارك

ثالث شهر الله المحرم سنة ست وخمسين

بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل

الصلاة والسلام على يد الفقير علي بن محمد

المنصوري الشافعي

عفى الله عنه وعن جميع

إخوانه المسلمين

آمين

آمين

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

حمد لله الواحد بذاته وصفاته المنزه في أحديته عن

مشابهة مخلوقاته وصلاته على محمد عبده ورسوله الواضح بحججه متشابه

آياته الباقي مدده لأوليائه بعد مماته كما كان لهم في حياته وعلى

آله وصحبه الذي كان أحدهم إذا رآه في قبره سلم عليه ورفع يديه

كما كان يرفعهما عند افتتاح صلاته وسلم تسليما كثيرا أما بعد سألني

أرشدني الله وإياك عن أمر عظيم في الزمان خطبه وعم ضرره وهو

ما تظاهر به بعض المدعين المنتسبين إلى الحديث والفقه وأشاعه

في العامة والخاصة من اعتقاد ظواهر الآيات المتشابهة في أسمائه

تعالى وصفاته من غير تعرض لصرفها عما يوهم التشبيه والتجسيم وزعم

أنه في ذلك متمسك بالكتاب والسنة ماش على طريقة السلف الصالح

ويشنع على من تعرض لشيء منها بتأويل أو صرفه عن ظاهره بدليل وينسبه

في ذلك إلى مخالفة الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين

لكونهم ما نقل عنهم التعرض لشيء من ذلك وقد ضل وأضل كثيرا وما يضل

به إلا من هو قاصر الفهم ضعيف النور وحيث سألني عن ذلك رغبت

في إملاء شيء عليك ولا بد من الإجابة على سبيل النصيحة لله تعالى

ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين عامتهم رضي الله عنهم أجمعين

أمدني الله تعالى وإياك بمدد توفيقه أن من تحلى بمنح الله تعالى

على عبده طهارة قلبه وسلامة فطرته وقلة مخالطة فاته بملك يحقق

لكم وتسمع هواتف الحق في كل نفس من أنفاسه وتضيء له في ليل

المتشابه مصابيح الحكم فيرسخ قدم صدقه في معرفة ربه سبحانه ويجني

بلا

من الطيب بنبت الهدى والعلم فيخرج نباته بإذن ربه كشجرة طيبة أصلها

ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها شراب مختلف

ألوانه فيه شفاء للناس وكان للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

من هذا المطلع الشريف أصفاه وأعذبه ومن العلم بالكتاب والسنة

أزكاه وأطيبه وكيف لا يكون كذلك وقد تليت عليهم آيات الله وفيهم

رسوله ولهم الاعتصام بالله تعالى ما ضمنت لهم به الهداية والاستقامة

ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم يعلمون الناسخ والمنسوخ

بالمعاصرة وأسباب النزول بالوقائع ويفهمون ما أودع في مواضع

التركيب وأساليب البيان بالطباع يردون ما اختلفوا فيه إلى الله

ورسوله فيعلمه الذين يستنبطونه منهم وهم الراسخون في العلم وأولو الأمر

يتدبرون القرآن ويردون معنى المتشابه إلى معنى المحكم ويقولون

آمنا به كل من عند ربنا فلا اختلاف فيه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

اختلافا كثيرا ولأجل ذلك لم ينقل عنهم اعتناء بإيضاح آيات الأسماء

والصفات ولم يكثروا السؤال عنها لعدم أشكالها عندهم لفهمهم واتساع

مجال أفهامهم في معاني الفصيحة وكان من آدابهم أن لا يتنازع أحد منهم

بفهمه في استيعاب المراد منها فسكتوا عنها مفوضين إلى كل فهم صحيح

ما أفهمه الله تعالى من الاتساع الموفق للغة والآيات المحكمة كما في صحيح

البخاري وغيره عن أبي جحيفة قال قلت لعلي كرم الله وجهه هل عندكم

كتاب قال لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة

وفي بعض الروايات إلا ما يعطيه الله عبدا فهما في القرآن فلا انقطع

راموز الورقة الأولى من النسخة (و)

عليه وقد ثبت ان يلقى المؤمن بروح وريحان ورب غير غضبان فانظر كيف
جعل نظير الروح ان العبد يلقى الروح يلاقي ربه ولولا ذلك لاشكل على قواعد
العربية لانه عطف الرب على الروح وشرك بينهما في تعديه الفعل اليه بالباء على
وجه تعديه للمفعول وذلك ينافي كون الرب فاعلا للقاء واذا انت خرجته على
المعنى الذي ذكرناه لم يبق فيه اشكال والله تعالى اعلم بالصواب واليه المرجع
والمآب والحمد لله اولا واخرا باطنا وظاهرا وصلى
الله عليه وسلم وعلى مركز دايرة الوجود
ورحمة كل موجود سيدنا ومولانا محمد
وعلى آله وصحبه نجوم الهدى ورجوم
العدى ورضوان الله عن ورثته
وتابعيهم باحسان الى يوم
الدين آمين آمين
وكان فراغي من تعليقه ليلة الجمعة المباركة في ع ثامن عشر شهر ربيع الاول سنة [illegible]

الحمد لله وبه نستعين وهذه جملة فوايد ملتقطة من فوايد الكتب
صفة معجون مفرح جلي يوخذ بسباسة جوزبوا قرفه قرنفل
مصطكى قاقلة كبير قاقلة صغير [illegible] من كل واحد جزء وخمسة
دراهم افيون دراهم عشر عسل ثلاث امثالها يطبخ تحت
صفة جوارش هندي مقوي للباه وهو من العجايب زنجبيل
قرفه ٧ قرنفل ٤ بسباسة ٤ جوزبوا ٣ عرق خولنجان ٤ زنجبيل
دار فلفل ٤ بزر الجرجير ٦ بزر كراث ٤ شونيز ٣ انيسون ٤ ورد
ورق التنبل حمص نصف رطل وثلاث امثالها وان اردت تسويد

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (و)

ع

كتاب رد الايات المتشابهات
الى الايات المحكمات تاليف
الشيخ الامام العالم العلام
الجامع بين طريقي الحقيقة
والشريعة ناصر السنه
ومميت البدعه
ابو عبد الله محمد شمس الدين ابن الشيخ ابي العباس احمد ابن الشيخ
عبد المومن الشاذلي المعروف نسبه الكريم بابن اللبان
نفع الله به
آمين

راموز ورقة العنوان من النسخة (ز)

راموز الورقة الأولى من النسخة (ز)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ز)

بيان كون المريد [illegible] وإذا أمر حسنه على المعنى الذي ذكرناه ليس
فيه إشكال والله سبحانه أعلم

جزء الكتاب المنتسب لسيدنا ومولانا الشيخ الإمام العالم المحقق
العارف بالله القطب الفرد الغوث الجامع شمس الدين محمد الشهير بابن
اللبان الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به وجميع المسلمين
أجمعين آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما يقول السادة العلماء رضي الله عنهم وأرضاهم فيما يفعله بعض
الفقراء المنتسبين إلى بعض الشيوخ من أخذ العهد على بعض المريدين
ممن يريد ربطه بالنسبة إليه واستنابته إليه والالتزام [illegible]
[illegible] وإلباسه الخرقة هل هذا مما يحمد فاعله وينسب إلى
الأخذ بالسنة فيه أم لا. فأجاب سيدي الشيخ
الإمام القطب العارف سيدي الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد
ابن اللبان [illegible] بحمد الله وسأله التوفيق [illegible] الصادق

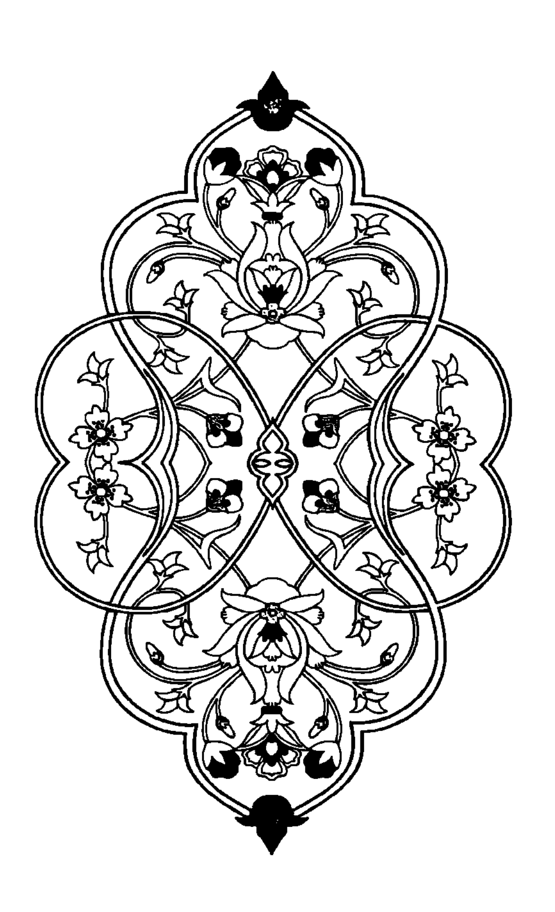
فلا يرى لنفسه عهدا ولا يرى إلا بركاته وبعلائه الحقيقة لا [illegible]
[illegible] ولا يتقدم [illegible] سر النبي [illegible] الذكر [illegible]
[illegible] بالتأديب [illegible] ولا يتوقف [illegible] ذلك عند الإتيان
الله والكرمة [illegible] العبودية في شهود الربوبية [illegible]
وعلم أن [illegible] مخلوق [illegible] بأن يقول ما لا يفعل
بالداعي إلى الله سبحانه وتعالى أن يستعين بلسان حاله عن قاله [illegible]
[illegible] عن [illegible] سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن
اتبعني فالمسلم صلى الله عليه وسلم [illegible] إليه ولم يكلهم إلى نفسه
وحسب المريد عهد الله وعهد رسوله ولا بأس بتذكير الشيخ له به
فإن الذكرى تنفع المؤمنين وإن كان له إليه نسبة إيمانية فتح الله
قلبه على يديه [illegible] إليه والنسبة لا تصح بالالتزام إنما هي [illegible]
إيمانية وأسرار عرفانية [illegible] التوحيد ثم [illegible]
[illegible] على أراضي القلوب مفاتيح الأنوار [illegible] فكان منها
أرض طيبة [illegible] وأنبتت [illegible] فسقى الناس واستقوا [illegible]
علم كل أناس مشربهم [illegible] الله له [illegible] فسبحانه [illegible]

صورة اللوحة الأولى لرسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة

من انتسب إلى غير أبيه وهو يعلم [illegible] الصديقين [illegible]
[illegible] فاللائق والداعي إلى الله سبحانه وتعالى أن يذكر
بذكر [illegible] فإن كان لبصيرته نفوذا أخذ أصحابه من [illegible]
[illegible] وجملوا [illegible]
وإن لم يكن له نفوذا [illegible] أصحابه على ما [illegible] الله سبحانه وتعالى
من محبته في قلوبهم [illegible] بركات [illegible] ولا يعتمد
ما يعتمده أرباب [illegible] الذين اتخذوا [illegible] وعهده [illegible]
بأكد [illegible] علامات النفاق [illegible]
[illegible] الانتساب إلى غير أبيه والانتماء إلى غير مواليه [illegible]
وهو من [illegible] بهاتة وهو على غير [illegible]
[illegible] شيئا [illegible] ولا يستطيعون
وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد [illegible]

[illegible]

صورة اللوحة الأخيرة لرسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة



إِزَالَةُ الشُّبُهَاتِ

عَنِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيْثِ المُتَشَابِهَاتِ

تَأْلِيفُ

شَيخِ الإِسلَامِ

الإِمَامِ شَمسِ الدِّينِ أَبي عَبدِ اللهِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بن عَبدِ المُؤْمِنِ

الإِسْعِرْدِيِّ الشَّافِعِيِّ المَعْرُوفِ بـ (ابنِ اللَّبَّانِ)

(٦٧٩-٧٤٩هـ)

ومعه

رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة

على طريقة السادة الصوفية

وضمن مقدّماته نواةُ تأصيليّةُ للتّأويل العرفاني عند السّادة الصُّوفيّة

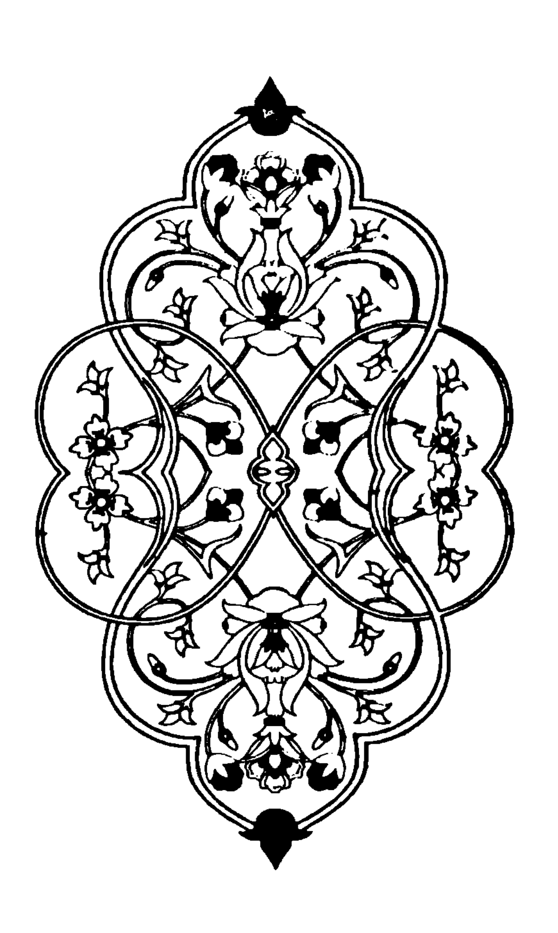
شَرُفَ بِخِدْمَتِهِ

أنس محمد عدنان الشرفاوي



دار التقوى

دمشق الشام



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر ولا تعسر يا كريم[1]

أما بعدَ حمدِ الله الواحدِ بذاته وصفاته[2] ، المنزَّهِ في أحديَّته عن مشابهة مخلوقاته ، وصلواتِهِ علىٰ سيدنا محمد عبدِهِ ورسوله الموضِحِ بسنَّته متشابهَ آياته ، الباقي مددُهُ لأوليائه بعد مماتِهِ كما كان لهم في حياته[3] ، وعلىٰ آله

---

(١) في (ب) وحدها جاءت فاتحة الكتاب : (قال الشيخُ العلامة ، شيخ الطريقة ، والجامع بين علم الشريعة والحقيقة ، الإمامُ العارف الرباني ؛ محمدٌ شمسُ الدين الشهير بابنِ اللبَّانِ ، قدَّسَ الله تعالىٰ روحه ، ونوَّرَ ضريحه ، ونفعنا ببركاته ، آمينَ) .

(٢) في (د) : وحدها : (الحمدُ لله الواحد. . .) ، وجواب (أما) قوله فيما سيأتي : (فإنك سألتني. . .) .

(٣) إشارة لما رواه البزار في « مسنده » (١٩٢٥) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « حياتي خيرٌ لكم ، تُحدثونَ ويُحدثُ لكم ، ووفاتي خيرٌ لكم ؛ تُعرضُ عليَّ أعمالُكم ، فما رأيتُ مِنْ خيرٍ حمدتُ اللهَ عليهِ ، وما رأيتُ مِنْ شرٍّ استغفرتُ اللهَ لكم » .
فالمقصود بعدم انقطاع المدد النبوي : دوام دعائه صلى الله عليه وسلم لأمته إلىٰ يوم القيامة ، وقد بيَّن ذلك الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٣/ ٤٠٠) فقال : (لأن لكل نبيٍّ في السماء مستقراً إذا قبض كما دلت عليه الأخبار ، فالمصطفىٰ صلى الله عليه وسلم مستمر هناك يسأل الله لأمته في كل يوم لكل صنف ؛ فللمتهافتين التوبة ، وللتائبين الثبات ، وللمستقيمين الإخلاص ، ولأهل الصدق الوفاء ، وللصديقين وفور الحظ ، فبيَّن بقوله : « ومماتي خير لكم » عدم انقطاع النفع بالموت ، بل الموت في وقته أنفع ولو من وجهٍ ، ومن فوائده : فتح باب الاجتهاد ، وترك الاتكال ، والمشي على الاحتياط ، وغير ذلك ، =

وصحبه الذين كان أحدُهم إذا زارَهُ في قبره سلَّمَ عليه ورفعَ يديه كما كان يرفعُها عند افتتاح صلاته[١] ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً :

[داعية تأليف الكتاب]

فإنَّكَ سألتني ـ أرشدني اللهُ وإياك ـ عن أمرٍ عَظُمَ في هـٰذا الزمان خَطْبُهُ ، وعمَّ ضرره[٢] ؛ **وهو ما تظاهرَ به بعضُ المبتدعة المنتسبينَ إلى الحديث والفقه**[٣] ، **وأشاعَهُ في العامة والخاصة ؛ من اعتقادِ ظواهر الآيات المتشابهةِ في أسمائه تعالىٰ وصفاته ، من غير تعرُّضٍ لصرْفِها عمَّا يوهم التشبيهَ والتجسيم**[٤] ، **ويزعم أنه في ذلك متمسِّكٌ بالكتاب والسنة ، ماشٍ علىٰ طريقة السلف الصالح**[٥] ، **ويشنِّعُ علىٰ من تعرَّضَ لشيء منها بتأويل ، أو صرفَهُ عن**

= فزعْمُ البعض أنه لم يَبِنْ له كون موته خيراً . . جمودٌ أو قصور) .

وقد ترىٰ في كلام القوم تفصيلاً في نعوت المدد النبوي غير هـٰذا ، إلا أنها كلَّها ترجع لتوجُّهه صلى الله عليه وسلم إلىٰ مولاه سبحانه ؛ إذ جعله تعالى الواسطة العظمىٰ بينه وبين عباده ، لا لاحتياج ، بل لحِكَم يشير إليها قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩] .

(١) إشارة إلىٰ ما رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٨٦٧) عن عبد الله بن أمامة قال : (رأيت أنس بن مالك أتىٰ قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف فرفع يديه حتىٰ ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلَّم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم انصرف) ، وفي ثبوت هـٰذه الهيئة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم : إثبات إبصاره صلى الله عليه وسلم وهو في قبره الشريف ، كما ثبت سمعه وعلمه بغير هـٰذا الأثر ، وللإجماع علىٰ حياة الأنبياء في قبورهم صلوات الله وسلامه عليهم ، فلم يُسقطوا أدبَ الهيئة .

(٢) في (ج ، د) وقريب منها في (أ) : (ظهوره) بدل (ضرره) ، وفي هامش (ج) نسخة : (ضرره) .

(٣) انظر الحديث عن هـٰذا الخطب الإدِّ ، وعن هـٰذا المبتدع (ص ٣٩) .

(٤) إذ لو عرضَ لذلك لوجب الإعراض عن الردِّ عليه .

(٥) وتيك دعوىٰ يشترك فيها أهل الحقِّ مع جميع الفرق المبتدعة ، ولـٰكن صدقَ البوصيري إذ =

ظاهره بدليل ! وينسبُهُ في ذلك إلىٰ مخالفة الصحابة والتابعين ؛ لكونهم لم ينقل عنهم التعرُّضُ لشيء من ذلك !

وقد ضلَّ وأضلَّ ، وما يُضِلُّ به إلا من هو قاصرُ الفهم ضعيفُ النور

وحيث سألتني عن ذلك ، ورغبتَ في إملاء شيء عليه[1] . . فلا بدَّ من الإجابة علىٰ سبيل النصيحة لله تعالىٰ ولرسوله ولأئمَّةِ المسلمين وعامتهم .

[نعمة القلب السليم]

فاعلمْ ـ أمدني الله وإياك بمدد توفيقه ـ : أن من أجلِّ مِنَحِ الله تعالىٰ علىٰ عبده طهارةَ قلبه ، وسلامةَ فطرته ، وقلَّةَ منطقه ؛ فإنه بذلك يُلقَّنُ الحكمةَ[2] ، ويسمع هواتفَ الحق في كل نَفَسٍ من أنفاسه ، ويضيءُ له في ليل المتشابه مصباحُ المحكم ، فيرسخ قدمُ صِدْقِهِ في معرفة ربه ، ويحيا بلدُهُ الطيب بغيث الهدىٰ والعلم ، فيخرج نباتُهُ بإذن ربه[3] ؛ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٤ـ٢٥] ، ويسلك بنَحْلِ أفكاره سُبُلَ الاستقامة ، فيخرجُ من بطونها شرابٌ مختلف ألوانُهُ فيه شفاء للناس[4]

= قال في « همزيته » : (من الخفيف)

والدعاوىٰ ما لم تقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤها أدعياءُ

(١) في بعض نسخ الاستئناس : (عليك) بدل (عليه) .

(٢) إشارة إلىٰ ما رواه ابن ماجه (٤١٠١) من حديث سيدنا أبي خلاد رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا رأيتم الرجلَ أُعطيَ زهداً في الدنيا ، وقلَّة منطقٍ . . فاقتربوا منه ؛ فإنَّهُ يُلقَّى الحكمةَ » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٠٥) بلفظ : « يلقَّنُ الحكمةَ » ، ويُلقَّن : يُؤتىٰ .

(٣) قال عز شأنه : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

(٤) لا تخفى الاستعارة البديعة المقتبسة من قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ=

[رتبةُ الصحابة العلياء في فهم المتشابهِ من كتاب وسنة]

وقد كان للصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم من هـٰذا المشرب أصفاهُ وأعذبُهُ ، ومن العلم بالكتاب والسنة أزكاه وأطيبُهُ ، وكيف لا يكونون كذلك وقد تُليَتْ عليهم آياتُ الله وفيهم رسولُهُ ، ولهم من الاعتصام بالله ما ضُمنت لهم به الهدايةُ والاستقامة ؟! ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] .

يَعلمون الناسخَ والمنسوخ بالمعاصرة ، وأسبابَ النزول بالوقائع ، ويفهمون ما أُودع في مواقع التركيب وأساليبِ البيان بالطباع[(١)]

يردُّونَ ما اختلفوا فيه إلى الله والرسول ، فيعلمه الذين يستنبطونه منهم ؛ وهم الراسخون في العلم وأولو الأمر ، يتدبَّرونَ القرآن ، ويردُّونَ المتشابهَ إلى المحكم[(٢)] ، ويقولون : آمنَّا به ، كلٌّ من عند ربنا ، فلا اختلافَ فيه[(٣)] ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

= ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٦٩] ، وفي سياقه مع هـٰذه الاقتطافات القرآنية . . تنبيه للقارئ لما في كتاب الله من إشارات وتنبيهات مطويات في صدفات آياته الكريمات ، ولا داعي بعد هـٰذا للوقوف مع أصل كل جملة ، فما أكثرها في كلامه !

(١) في (أ) وحدها : (مواضع) بدل (مواقع) ، وفي السياق إشارة لتقديم علوم العربية نحواً وبلاغة ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم أسباب النزول . . على الخوض في فهم الآيات الكريمة .

(٢) في (ج) : (إلىٰ معنى المحكم) بدل (إلى المحكم) .

(٣) يعني : لو كان المتشابه علىٰ ظاهره ، والمحكم علىٰ ظاهره . . للزم وقوع الاختلاف في كتاب الله تعالىٰ ؛ إذ العبرة في الاختلاف راجعة للمعاني ، ولذا لم يهتبل العلماء باختلاف القراءات في كتاب الله تعالىٰ ، ولم يجعلوه اختلافاً أصلاً .

ولأجل ذلك لم يُنقلْ عنهم اعتناءٌ بإيضاح آيات الأسماء والصفات[1] ، ولا أكثروا السؤالَ عنها ؛ لعدمِ إشكالها عليهم بحسب لغتهم ، ولاتساعِ مجال أفهامهم في معانيها الصحيحة .

وكان من أدبهم رضي الله تعالىٰ عنهم : ألا يثق أحدٌ منهم بفهمه في استيعاب المراد منها ، فسكتوا عنها مفوِّضينَ إلىٰ كلِّ فهمٍ صحيح ما منحه الله تعالىٰ من الاتساع الموافقِ للُّغةِ والآيات المحكمة[2] ؛ كما في « صحيح البخاري » وغيره عن أبي جُحَيْفةَ قال : قلت لعليٍّ رضي الله عنه : هل عندكم كتابٌ ؟ قال : لا ، إلا كتابُ الله ، أو فهْمٌ أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هـٰذه الصحيفةِ[3]

وفي بعض الروايات : (إلا ما يعطيه اللهُ عبدَهُ في القرآن)[4]

[أسبابٌ منعَتْ من فهْمِ المتشابه ، وأدَّت لظهور أرباب البدع]

فلمَّا انقطع بموته صلى الله عليه وسلم عن ظواهر الأسماع مددُ روحِ الوحي ، وعَفَتْ عهودُ الوقائع بانقراض علماء الصحابة ، وضَعُفَ استنباطُ المتشابهِ من المحكم بمخالطة النَبَط ، وانعجمَ المعنى الواضحُ بملابسة

---

(١) وقوله : (اعتناء) بليغ في محله ؛ إذ ليس من مقتضىٰ عدم الاعتناء بالشيء نفيُ أصل وجوده ، بل يحصل بالتتبُّع والإكثار ، ولهـٰذا ترىٰ نُتفاً لهم في هـٰذا المجال ، تأتي في مواضع من هـٰذا الكتاب .

(٢) فالتفويض علمٌ ، ولـٰكنه لا يمنع من فهومٍ أُخر تكون في النصِّ ، وشرطاه الرئيسان : موافقة المحكم ، وموافقة اللغة العربية .

(٣) رواه البخاري (١١١) ، وتمامه : قال : قلت : فما في هـٰذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

(٤) رواه البخاري (٣٠٤٧) ، ولفظه : (إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن) .

العجم ، وحصل التمريجُ في القلوب فزاغَتْ وحُجبت عن هواتف الغيب[١] ، وكَثُرَ الكلامُ فيما لا يعني فقلَّ إيتاءُ الحكمة[٢] . . هنالك ظهرت أربابُ البدع ، وأشكلَ معنى المتشابه ، فاتَّبعه مَنْ في قلبه زيغ ، وكاد الأمرُ يلتبس لولا ما أيدَ الله تعالىٰ به هـٰذه الأمةَ من العلماء الوارثين والسلف الصالحين ، فنهضوا لمناظرة أرباب البدع وتخطئتهم ، وحلِّ شُبَهِهم ، ونهوا الناسَ عن اتباعهم وعن الإصغاء إليهم ، وعن التعرُّضِ بالآراء للمتشابه ، وحسموا مادةَ الجدال فيه والسؤال عنه ؛ سدّاً للذريعة ، واستغناءً عنه بالمحكم ، وأَمروا بالإيمان به ، وبإمراره كما جاء من غير تعطيلٍ ولا تشبيه[٣]

[السكوت والتسكيت انقطع نفعُهُما في هـٰذا الباب]

وكان هـٰذا في عصرهم مغنياً[٤] ؛ لولا أنَّ المبتدعة دوَّنوا بدعَهم ، ونصبوا عليها أشراكَ الشُّبَهِ والأهواء المضلَّة ، فوفَّقَ الله سبحانه الراسخين من علماء السنة ؛ فدوَّنوا في الردِّ عليهم الكتبَ الكلامية ، وأيَّدوها بالحُجج العقلية ،

---

(١) التمريج : الاختلاط والاضطراب ، وأمر مريج : مختلط .

(٢) تلك التي نبَّهَ عليها (ص ١١١) بقوله : (يلقن الحكمة) .

(٣) روى البيهقي في « الاعتقاد » (٥٩) عن الوليد بن مسلم قال : (سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هـٰذه الأحاديث ـ يعني : المتشابهات ـ فقالوا : أمرُّوها كما جاءت بلا كيفية) .

(٤) إذ كانت كلمة العلماء مطاعة ، وليس للنابتة صولة ، فكان التأديب بالطرد والتعذيب فيه كفاية ، وهو ما عمل به سيدنا الفاروقُ عمر في خبره المشهور مع صبيغ ، ومالكُ بن أنس في جوابه للسائل عن الاستواء ، وإلىٰ هـٰذا المذهب مال الإمامُ أحمد بن حنبل ، ولـٰكن لمَّا صار للمبتدعة كلمة تُسمع وحال تُتبع . . اختار عبد العزيز المكي والحارث المحاسبي وعبد الله ابن كُلاب وجماعة . . بَسْطَ الكلام في الردِّ على المبتدعة ، وانظر « تبيين كذب المفتري » (ص ٢٦١) .

والبراهين المنيرة من الكتاب والسنة ، إلىٰ أن أظهر الله سبحانه الحقَّ علىٰ ألسنتهم ، وقمع أهلَ الباطل والزيغ ، وأطفأ نارَ البِدَعِ والأهواء ، فجزاهم الله تعالىٰ علىٰ نصيحةِ هـٰذه الأمَّةِ أفضلَ الجزاء .

* * *

[إجمال القول في المحكم والمتشابه]

ولنشرعْ في بيان ما سألتَهُ علىٰ سبيلِ الإجمال ، ثم علىٰ سبيل التفصيل :

فاعلمْ ـ هداني الله وإيَّاكَ لما اختُلف فيه من الحق بإذنه ـ : أنَّ ربَّنا سبحانه وتعالىٰ حيٌّ ، متكلِّم ، عالم ، مريد ، قدير[1] ، ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ : ١١] ، أحديٌّ فلا أينَ ولا تركيبَ لذاته ، أزليٌّ فلا كيف ولا ترتيبَ لصفاته ، أبديٌّ فلا تناهيَ لجلاله وإكرامه

تنزَّهَ في سمعِهِ وبصرِهِ وإدراكِهِ وبطشِهِ عن الجوارح[2] ، وعزَّ في قدرته عن الشريكِ والمعين ، وجلَّ في إرادته عن الأغراض ، وتفرَّدَ في كلامه عن الحروف والأصوات ، وتعالىٰ في استوائِهِ عن النسبة والكون[3] ، وتقدَّسَ في علوِّهِ وفوقيَّته عن الجهات .

ينزلُ بلا نُقْلة ، ويجيء ويأتي بلا حركة ، وتراهُ أبصارُ المؤمنين بلا إدراكٍ ولا إحاطة[4]

---

(١) استغنىٰ بالآية الآتية عن ذكر السمع والبصرِ وعن عدِّها في صفات المعاني الواجبة .

(٢) قال حجة الإسلام في (قواعد العقائد) من « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٣٦) : (يرىٰ من غير حدقة وأجفان، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ؛ إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق) .

(٣) تعاليه سبحانه عن النسبة هنا : أن الاستواء الحقيقي نسبةٌ بين المستوي والمستوىٰ عليه علىٰ هيئة مخصوصة ، وفي (أ ، ج ، هـ ، و) : (التشبيه) بدل (النسبة) ، والكون عندهم ـ وهو من جملة الأعراض ـ له أشكال أربعة ؛ وهي : الحركة والسكون ، والاجتماع والافتراق ، ومولانا لا يتصف بشيء منها .

(٤) قوله : (ولا إحاطة) عطف تفسير لقوله : (بلا إدراك) إذ الرؤية نوع إدراك قطعاً .

لا حدَّ لقُرْبه ، ولا ميلَ لِحُبّه[1] ، ولا سَوْرةَ لغضبه[2] ، ولا كيفَ له في رضاهُ وضحكِهِ .

لا شفعيَّةَ إلا بمعيَّته[3] ، ولا وتريَّةَ إلا بظهور قهره وأحديَّته[4] ، ولا بقاءَ إلا لأهل عنديَّته .

نفسُهُ : ذاتُهُ أو أمُّ كتابه[5] ، ووجهُهُ : نورُ توحيده عند إقباله[6] ، وصورتُهُ : مظاهرُ تعرُّفاته وظُلَلُ غمامه[7] ، ويدُهُ ويداه وأيديه : أسماءُ حقائقَ

---

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٤٩) : (محبة الحق سبحانه للعبد : إرادته لإنعام مخصوص عليه ، كما أن رحمته إرادة الإنعام ، فالرحمة خاصٌّ من الإرادة ، والمحبة أخصُّ من الرحمة ؛ فإرادة الله أن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام . . تسمىٰ رحمة ، وإرادته لأن يخصه بالقربة والأحوال العلية . . تسمىٰ محبة) .

(٢) السَّوْرة : الحِدَّة ، وفي (ب) ونسخة في (ج) : (صورة) بدل (سورة) ، فالغضبان تحمرُّ عيناه وتنتفخ أوداجه ، تعالىٰ مولانا عن صورة ذلك كله ، أما تجلي غضبه في صورة يخلقها يوم القيامة أو في الدنيا . . فلا إشكال فيه .

(٣) هـٰذه الشفعية هي المشار إليها بقوله سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] .

(٤) المشار إليها فيما رواه البخاري (٣١٩١) من حديث سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما مرفوعاً : « كان اللهُ ولم يكن شيءٌ غيرُهُ » ، أو بلطفه وتأنيسه ، وذاك فيما رواه البخاري (٣٦٥٣) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟! » .

(٥) سيأتي زيادة بيان لذلك (ص ١٣٥) ، والمعتمد جواز إطلاق النفس والذات على الله تعالىٰ ، وكلمة (الأم) في اللغة تطلق ويراد بها الأصل أو محل جمع الشيء وجملته ، واختار الإمام الرازي في « تفسيره » (١٩/ ٥٢) أن المراد بأم الكتاب هو علم الله تعالىٰ ، وهو صفته ، والصفة لا تنفك عن الموصوف ، وعلمه من حيث وجوده هو ذاته ، ومن حيث معناه غيره ، ولذلك قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (٣/ ١٦٠) : (اعلم : أن الحقَّ هو على الحقيقة أمُّ الكتاب) .

(٦) من ذلك : موطن الصلاة ؛ إذا ناجى العبد مولاه بقوله : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٥٧٤) عن عبد الله بن منقذ قال : (إذا قام الرجل إلى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه ، فإذا التفت أعرض عنه) .

(٧) المظاهر : التجليات ، وهي مخلوقة في قلب العبد عند إدراكه لها ، ومرجع التعرُّفات =

يتصرَّفُ بها في مخلوقاته ، وعينُهُ وأعينُهُ آياتُهُ المبصِرةُ القائمة بالحفظ والرعاية للمخصوصينَ من عباده[1] ، وقدمُهُ قدم الصدق الذي يبشِّرُ به المؤمنينَ[2] ، وجنبُهُ : صحبتُهُ وكلاءتُهُ للذاكرين من أتباع النبيِّين[3]

وهو الأوَّلُ والآخر ، فما من عرضٍ ولا جوهر إلا وهو مبدوء بأوَّليته ، مختومٌ بآخريته ، وهو الظاهرُ بحُكْمه في محكمه ، الباطن بعلمه في متشابهِ آياته وحِكَمه ، ظهر بمعيَّته في باطن وتربيَتِهِ ، فنشأت أعدادُ مصنوعاته ، وبَطَنَ بقدم أحديَّته في أسماء الحوادث ، فرجعت بحقائق هُويَّاتِها إليه ، ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] .

لا شريكَ له في ملكه وهو يُؤتي الملكَ من يشاء ، ولا مثلَ له في كُنْهِهِ وله المَثَلُ الأعلىٰ ، تقدَّسَ عن النظير في الدنيا والآخرة ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ـ ٢٣] ، وتنزَّهَ عن الجهات ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الأنعام : ٣] ، وتعالىٰ عن الشبيهِ وله الآياتُ المتشابهات ، يجتني معانيَها أهلُ قُرْبه في رياض جنانِ ذكره ، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥] .

هٰذا ما فتحَ اللهُ به علىٰ سبيل الإجمال .

* * *

= للأسماء العلمية الإلـٰهية ، وهي كظُلَل الغمام حاجبةٌ عن حقيقة كنهِ الذات التي لا سبيل للتعرُّف عليها عند المحققين .

(١) قوله : (المبصِرة) علىٰ صيغة اسم الفاعل ، وسيأتي التنبيه عليه (ص ١٩١) .

(٢) في قوله سبحانه : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] .

(٣) قارن هـٰذا السياق بمقدمة إمام الحرمين في « غياث الأمم » (ص ٥) ، ومقدمة الإمام الرازي في « تأسيس التقديس » (ص ٤٣) .

[تفصيل القول في المحكم والمتشابه]

[ذكر قاعدة كلية في الكلام على المتشابه]

وأمّا علىٰ سبيل التفصيلُ : فلنقدمْ عليه مقدمة تكون بمثابة القاعدةِ والتمهيد له ؛ وهو أنه ليس في الوجود فاعلٌ إلا اللهُ سبحانه[1] ، وأفعالُ العباد بجملتها ـ عندَ أهل السنة والجماعة ـ منسوبةُ الوجود والاختراع إلى اللهِ تعالىٰ[2] ، بلا شريكٍ ولا معين ، فهي على الحقيقة فعلُهُ ، وله بها عليهم الحجة ، ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[3] [الأنبياء : ٢٣] .

---

(١) تزعج هـٰذه المقدمةُ المشبهةَ ؛ إذ يرون أن الأثر يمكن أن ينشأ عن مؤثرين ، فالشبع أثرٌ ناشئ عن مجموع فعل العبد (أكله ومضغه وابتلاعه للطعام) وفعل الله تعالىٰ (ما جعله الله تعالىٰ في الإنسان وفي الغذاء من القوى المعينة علىٰ حصول الشبع) ، وينعتون هـٰذا بالقول الوسط بين أهل السنة والقدرية ! انظر « درء تعارض العقل والنقل » (٩/ ٣١) .

(٢) وعند القدرية ترجع إلى المباشرة أحياناً ، وإلى التولد والاعتماد أحياناً أُخر ، وعند المشبهة ترجع إلىٰ مجموع القدرتين القديمة والحادثة ، وهو قول إلى القدرية أقرب منه إلىٰ أهل السنة كما ترىٰ .

(٣) دفع بهـٰذه الجملة وهـٰذه الآية الكريمة ما قد يقال : إن كان كل ما في الوجود فعله فلِمَ يعاقب العاصي علىٰ معصيته ؟ والجواب : أن ذلك كثواب الطائع علىٰ طاعته ، ألا ترىٰ أن الشرع بيَّن أن الطاعة ليست سبباً لحسن الجزاء فيما رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من أحدٍ يدخلُهُ عملُهُ الجنَّةَ » ، وكذلك المعصية ، فالجنة فضل ، والنار عدل ، وثبتت الحجة على العبد بوجدانه من نفسه ما يوافق إرادة ربه .

[تجلِّيات الصفات له تعالىٰ تظهر بمظهرين]

ومن المعلوم : أن أفعالَ العباد لا بدَّ فيها من توسُّطِ الآلات والجوارح مع أنها منسوبةٌ إليه تعالىٰ ، وبذلك تعلمُ أن لصفاته تعالىٰ في تجلياتِها لعباده مظهرينِ :

ـ مظهرٌ عاديٌّ سفلي منسوبٌ لعباده : وهو الصُّوَر والجوارح الجسمانية .

ـ ومظهرٌ حقيقيٌّ علوي منسوبٌ إليه : وقد أجرىٰ عليه أسماءَ المظاهر السفلية المنسوبة لعباده علىٰ سبيل التقريب لأفهامهم والتأنيس لقلوبهم(١)

ونبَّهَ تعالىٰ في كتابهِ على القسمين ، وأنَّهُ منزَّهٌ عن الجوارح في الحالين .

فنبَّهَ على الأول بقوله تعالىٰ : ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة : ١٤] ، وذلك يفهمُ أن كلَّ ما يظهر علىٰ أيدي العباد فهو منسوبٌ إليه وفعلٌ له ، وأن جوارحَنا مظهر له وواسطةٌ فيه ، فهو على الحقيقة الفاعلُ بجوارحنا ، مع القطع الضروريِّ لكلِّ عاقل أن جوارحَ العبد ليست جوارحَ

---

(١) يتضمَّن هـٰذا التنبيه : أن ما تراه من الفعل الجاري علىٰ أيدي الحوادث أياً كانت.. فهو فعل الله تعالىٰ ، لا شريك له في إيجاده ، وليس للحادث منه إلا نصيب الصورة الحادثة المشاهدة ، أما مصوِّرها وموجدها فهو القديم المنزَّه عن الاتصاف بها ، فهـٰذا المظهر السفليُّ تكون النسبةُ فيه للحادثات الهالكات ؛ وذاك قوله تعالىٰ : ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ ، ثم نبَّهَ علىٰ كونها محض صورة بقوله جل وعز : ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ . فإن علمت ذلك : فيجب عليك أن تعطيَ كلَّ ذي حق حقه ، فالصفة الحادثة تلحقُها بالحوادث ، وما يليق بجلال القديم ومن التنزيه والتعظيم فهو صفته ، والحديث عن التجلِّيات في الصورة عند المصنف أمر مهمٌّ ، من تعدَّاه من غير تحقيق زلَّت به قدمه .

وقوله : (وقد أجرىٰ عليه أسماءَ المظاهر السفلية المنسوبة لعباده...) بيَّن فيه أن المظهر الحقيقي حقيقةٌ مسمَّاة بأسماء المظاهر العادية السفلية ، ومن هنا حصل التشابه ، فالاشتراك لفظي ليس غيرُ .

لربِّنا تعالىٰ ، ولا صفاتٍ له تعالىٰ[1]

ونبَّهَ على الثاني بقولِهِ فيما أخبر به عنه نبيُّهُ صلى الله عليه وسلم في « صحيح مسلم » وغيره : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ويدَهُ التي يبطشُ بها ، ورجلَهُ التي يمشي بها. . . » الحديثَ[2]

وقد حقَّقَ الله تعالىٰ لنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ بعد قوله تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ . . . ﴾ الآيةَ [التوبة : ١٠٣ـ١٠٤] ، وبقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] ، فنزَّلَ يدَ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم منزلةَ يدِهِ سبحانه في المبايعة وأخْذِ الصدقات ، والرمْيِ في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وذلك كلُّهُ يفهِمُ : أن العبدَ إذا صار محبوباً صارت أفعاله ناشئةً عن أنوار علويَّةٍ روحانية من عند ربه تكون له بمثابة الجوارح[3] ، وأن اللهَ سبحانه يكونُ

---

(١) وبه تعلم : أن القدرة القديمة أثرها لا في محلِّها ، خلافاً للقدرة الحادثة .

(٢) إنما رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وسيأتي شرح الحديث .

ويتضمَّن هٰذا التنبيه : أنه تعالىٰ هو القيوم الذي قامت بقدرته الحادثات ، بل هو الحق وما سواه باطل ، وأنه يجب عليك أن تعلم : أنه لا يجوز لك الوقوف معها ، بل ترجع بمظاهرها إلىٰ مُظهِرها الأوحد سبحانه .

(٣) وإلىٰ هٰذه الأنوار الإشارة بدعائه عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « اللهم ؛ اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً. . . » الحديث ، وفي (ج) : (كانت) بدل (صارت) .

له بواسطتها سمعاً وبصراً ويداً ورِجْلاً ، مع القطع الضروريِّ أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يكونُ جارحةً لعبده .

[التمثيل لما سبق بالقلب وجنوده]

ولـٰكنَّ سرَّ الأمر في تحقيق ذلك : أن الله جلَّتْ حكمته ضربَ لنفسه في دوائر ملكه مثلاً بالقلب في دائرة بَدَنِهِ ، ومن المعلوم لكلٍّ أحد أن المتصرِّف في دائرة بدنه هو قلبه ، ونوره شاملٌ لجميع أجزائه ، وروح الحياة منه شائعةٌ في سائر أقطاره ، وأن الجوارح مظاهرُ لأنوار القلب وتصرُّفاته ؛ فبنوره تبصرُ العين ، وتسمع الأذن ، ويَشَمُّ الأنف ، ويذوق اللسان وينطق ، وتلمس الجوارح وتبطش ، مع العلم الضروريِّ بأن الجوارح صفاتٌ للبدن ، وليست صفاتٍ للقلب ، ولا تعلُّق لها به ، ولا تنسبُ إليه إلا نسبة الأتباع والعبيد للملك المُطاع(١)

[القلب بين عالمي الغيب والشهادة]

ثم إنَّ القلب إنْ غلب عليه التوجُّهُ إلىٰ عالم الشهادة . . تصرَّفَ بالجوارح ؛

---

(١) أعظمْ بهـٰذا المثال ، واعلم : أن المبصِر في الإنسان حقيقته ، والعين آلة لهـٰذا الإبصار ، وكذا يقال في سائر الجوارح ، فهي كالجوارح للصائد ، لا يحلُّ الصيد إلا إذا نُسِبَ الصيد إليه ، فإن أكلت منه صار خبيثاً له حكم الميتة .
فقولك : (رأَتْ عيني) مجاز ، والحق : رأيتُ بعيني ، وحق الحق : أراني ربي ، ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] .
ثم القلب في هـٰذا المثال وفيما سيأتي المرادُ منه حقيقة الإنسان ، لا تلك القطعة اللحمية الصنوبرية التي يشارك فيها الإنسانُ الدوابَّ ، بل ما يُوصف بالسعادة والشقاء .
وقد نبَّهَ الإمام المؤلف بقوله : (مع العلم الضروري بأن الجوارح صفات للبدن) علىٰ أن الألفاظ الدالة على الجوارح إذا أضيفت للحق تعالىٰ . . فهي صفات ، لا أبعاض .

فصار يرىٰ بالعين ، ويسمعُ بالأذن ، ويبطش باليد ، فهو مثلُ قوله تعالىٰ : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة : ١٤]

وإنْ غلبَ على القلب التوجُّهُ إلىٰ عالم الغيب . . استتبعَ الجوارح ، فصارت هي متصرِّفةً به ، فتصير العينُ تبصر بالقلب ، وكذلك باقي الحواسِّ والجوارح ، وهو مثلُ قوله تعالىٰ « كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ . . . » إلىٰ آخره ، فافهمْهُ فإنه بديع ، وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ في التفصيلِ ما يؤيِّدُهُ ويزيده وضوحاً

وبهـٰذا : يتَّسعُ لك فهْمُ ما جاء من الجوارح منسوباً إلىٰ أفعاله تعالىٰ وصفاته ، فلا تشتبهُ بعدَ هـٰذا عليك ، ولا تفهمُ من نسبتها إليه تشبيهاً ولا تجسيماً ، بل تفهمُ أن مثلَ النسبة إليه كمثل نسبةِ الجوارحِ إلى القلب ، وأن ذاته المقدسةَ متعاليةٌ عن الاتصاف بها ؛ لأن الجوارحَ يلزمها الحدوث ، وذاته تعالىٰ واجبةُ القدم ، وكلُّ ما كان واجبَ القدم استحالَ عليه العدم .

وإنَّما الروحُ الأصلي الذي هو منشأُ عالم الأمر هو مصباحُ نور التوحيد[١] ؛

---

(١) وكلَّما اقتربت من هـٰذا المصباح اتَّضحت لك الرؤية ، فإن صار قلبك محلاً لنور التوحيد فقد صار مصباحاً في مشكاة المعرفة الإلـٰهية ، ويقول إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٦١٧) في بيان عالم الأمر : (العالم عالَمان : عالم الأمر ، وعالم الخلق ؛ ولله الخلق والأمر .

فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق ؛ إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان ، وكلُّ موجود منزَّهٍ عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر ، وشرح ذلك سرُّ الروح ، ولا رخصةَ في ذكره ؛ لاستضرار أكثر الخلق بسماعه ؛ كسرِّ القدر الذي مُنعَ من إفشائه ، فمن عرف سرَّ الروح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربَّهُ ، وإذا عرف نفسه وربه عرفَ أنه أمرٌ رباني بطبعه وفطرته ، وأنه في العالم الجسماني غريب) ، وفي (ج) : (وهو) بدل (هو) .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [النحل : ٢] ، وبهـٰذا الروح يتجلَّىٰ سبحانه وتعالىٰ لعباده بأسمائِهِ وصفاته المحكمةِ والمتشابهة .

[مثال يقرِّب منهم معنى التجلي والتصوُّر]

ومن المعلوم : أنه قد ثبت قوَّةُ التصوُّر في الصور المختلفة للملائكة[1] ، وهم من رقائق هـٰذا الروح[2] ، فلأَنْ تكون له قوَّةُ التجلِّي بأي صورةٍ شاء . . أولىٰ[3] ، وتصحُّ نسبةُ تلك الصورة إلى الله سبحانه لتجلِّيهِ فيها باعتبار الدلالة[4] ، كما سيأتي تحقيقُهُ في صفة المجيء والصورة وغيرهما[5]

وهـٰأنا إن شاء اللهُ تعالىٰ أشرعُ في تفصيل الصفات المتشابهة ، وليس المقصود ذكر البراهين التي هي مدونةٌ في الكتب الكلامية ، وإنما المقصود ردُّ

---

(١) في (أ ، ب) : (التطور) بدل (التصور) ، وروى البخاري (٢) من حديث سيدنا الحارث بن هشام رضي الله عنه مرفوعاً « وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » ، وروى البخاري (٤٨٥٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : (رأىٰ جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين)

(٢) الرقائق : صلات تصلهم بالروح ، وسيدنا جبريل هو الروح الأمين عليهم جميعاً .

(٣) فيه : أنه من باب قياس الغائب على الشاهد الشرعي ، وأنه قياس أولوي لا تظهر علتُهُ ، ولـٰكن يجاب : بأن قياس الغائب على الشاهد قد يكون يقينياً أو ظنياً راجحاً ، والعلة في القياس المذكور الفاعلية والتأثير ، ولا فاعل ولا مؤثر عند أهل الحق إلا الله تعالىٰ ، وفي (ج) العبارة : (فلأن يكون له قوة التجلي والصورة والظهور بأي صورة شاء . . أولىٰ) .

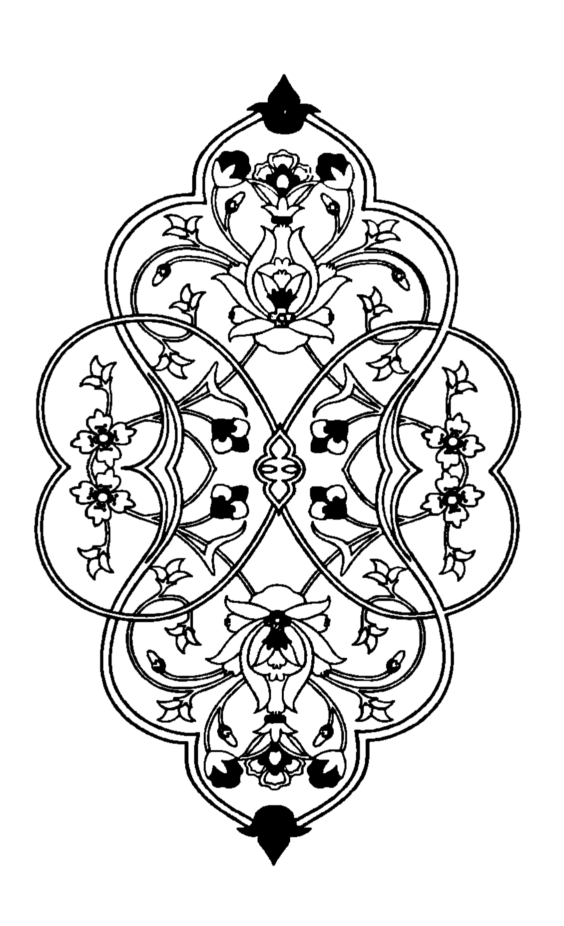
(٤) والتجلي في الشيء مباينٌ في المعنىٰ للحلول فيه ، فالتجلي أشبه ما يكون بظهور الصورة في المرآة عند مقابلتها ، فالمتجلِّي ليس حالاً في المرآة ، ولا المرآة محلاً له ، وستحقق زيادة علم بذلك بالنظر في ثنايا الكتاب .

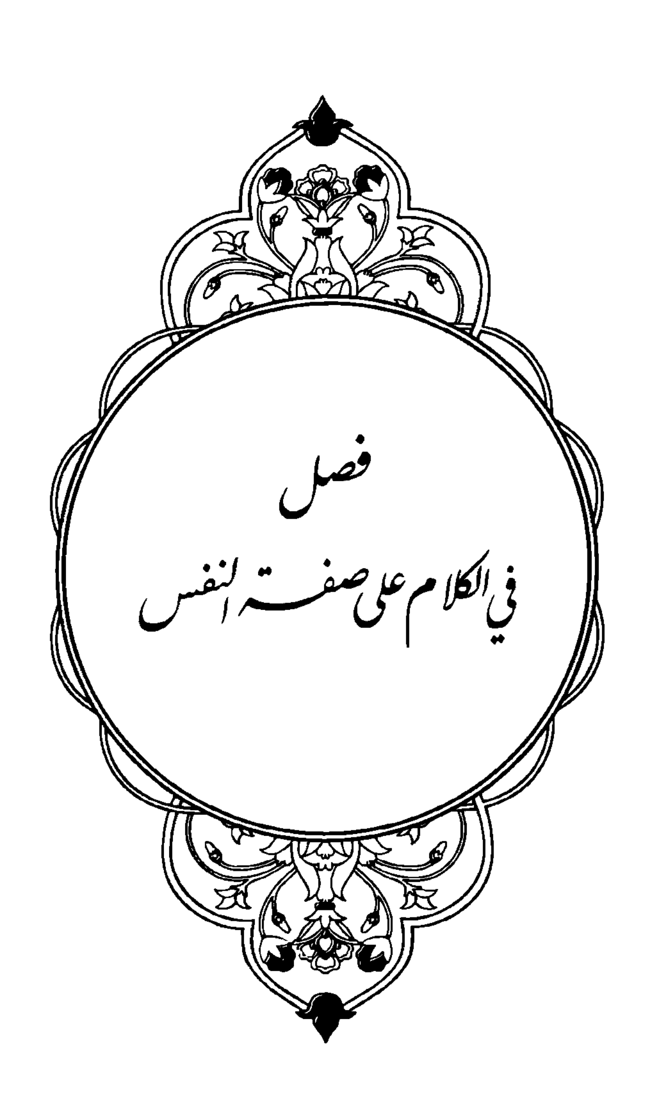
(٥) انظر (ص ١٤٣ ، ٢٩٧) .

المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية ، وتلويحاتٍ وتصريحاتٍ من الكتاب والسنة .

هٰذا تمامُ المقدمة ، ولنشرعْ في التفصيل ، مع بسْطِ يد الفاقة والافتقار عسىٰ أن يهديَني ربي سواءَ السبيل

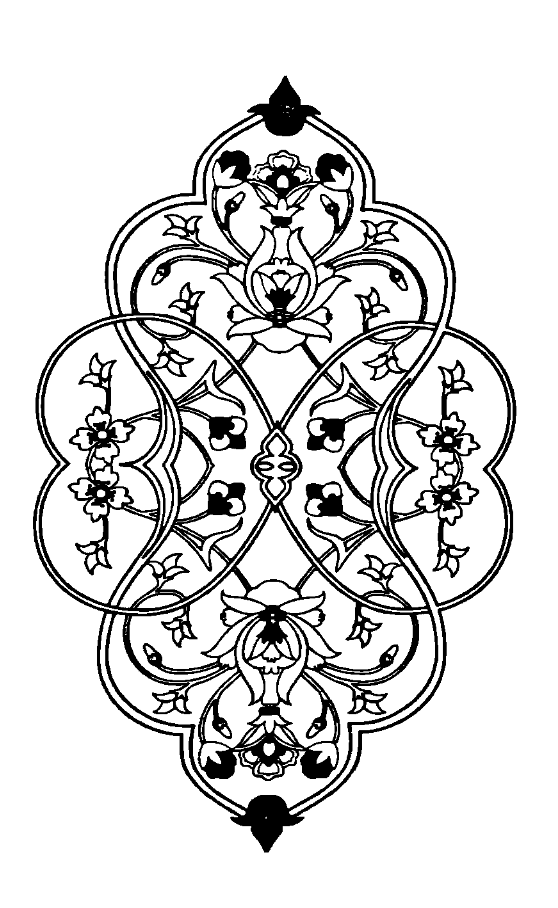
* * *





فصل

في الكلام على صفة النفس



فصل

في الكلام على صفة النفس (1)

من المتشابهِ : صفةُ النفس

في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] لأن النفسَ في اللغة تستعمل لمعانٍ ، كلُّها تتعذَّرُ في الظاهر ها هنا ، وقد أوَّلها العلماءُ بتأويلات :

منها : أن النفسَ عُبِّرَ بها عن الذاتِ والهُوِيَّة ، وهٰذا وإن كان شائعاً في اللغة(2) . . ولٰكن تعدِّي الفعلِ إليها بواسطة (في) المفيدِ للظرفية محالٌ ؛ لأن الظرفيةَ يلزمُها التركيبُ ، والتركيب في ذاتِهِ مُحال(3)

وقد أوَّلَها بعضُهم بالغيب ؛ أي : ولا أعلمُ ما في غيبك وسرِّكَ ، وهٰذا حسنٌ ؛ لقوله في آخر الآية : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، ولٰكن لا بدَّ من تخريجه علىٰ ما مهَّدناهُ حتىٰ تنتظمَ أشتاتُ الصفات .

---

(1) ترجع صفة النفس عند عامة المتكلمين إلىٰ صفة الوجود ؛ وهي ثبوت الذات ثبوتاً حقّاً ، وهو الهوِيَّة ؛ وبهٰذا تعلم أن إطلاق الوصف عليها فيه تسمُّحٌ كما يقولون .
وقد وقع في النسختين (ب ، د) وباقي نسخ الاستئناس تقديم وتأخير في فصول الكتاب ، وتمَّ اعتماد ترتيب النسختين المتطابقتين (أ ، ج)، وانظر جدول هٰذه الفصول في النسخ (ص ٨٤).

(2) في (ب ، د ، هـ) : (سائغاً) بدل (شائعاً) .

(3) كبرىٰ هٰذا القياس ـ وهي استحالة التركيب على الذات العلية ـ مسلَّمة ، ولٰكن قد يُنازع في صغراه ؛ إذ الظرفية كثيراً ما تكون مجازية ؛ فلا يلزمها التركيب ؛ من ذلك : ظرفيتها الزمانية في نحو قوله تعالىٰ : ﴿ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٣ـ٤] ، ومنه : التي بمعنى الباء ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

وذلك أن الصورةَ إذا كانَتْ ظُلَّةَ غمام آياته . . فنفسُهُ هي أمُّ كتابه[1] ؛ وهي الآياتُ المحكمات ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

والآياتُ المحكمات : هي الآياتُ الدالات على وحدانيّتِهِ[2] ؛ بدليل قوله تعالىٰ في أوَّلِ سورة (هود) : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ . . . ﴾ الآيةَ [هود : ١] ، ثم فسَّرَ إحكامَها بالتوحيد في قولِهِ سبحانه : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود : ٢] ، وفسَّرَ تفصيلَها بالاستغفار والتوبة في قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٣] .

ونبَّهَ علىٰ أن آياتِهِ المحكمةَ يرجعُ أعدادُها إلىٰ آية واحدةٍ محكمة ؛ وهي : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] ، فما من علمٍ من العلوم في الغيب ولا في الشهادة إلا وهو منتظمٌ في سلك (لا إلهَ إلا اللهُ) ، مستثمَرٌ من ثمار أسرارها[3] ؛ ولهذا اكتُفي بعلمِها للنبيِّ صلى الله عليه وسلم إحكاماً وتفصيلاً في قولِهِ تعالىٰ[4] : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ . . . ﴾ الآيةَ [محمد : ١٩] .

---

(١) انظر ما تقدم (ص ١١٧) ، وفي (ج) : (ليست) بدل (إذا كانت) .

(٢) لا خلاف عند الأصوليين أن الآيات الدالة علىٰ وحدانيته سبحانه وعلىٰ وجوده . . هي من المحكمات الجليات التي لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً ، وتخصيص الإمام المؤلف هنا مشهدٌ له رحمه الله تعالىٰ ؛ إذ من المحكم عند الأصوليين : الإخبار بما كان وما سيكون ؛ لاستحالة الكذب في حقه سبحانه وامتناع التغيُّر في مدلولاتها ، وبه تعلم : أن تعريف المحكم هنا ليس علىٰ طريقة الأصوليين .

(٣) كما سيأتي قريباً من أن ثمرة كون سيدنا عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام لم يوادد أحداً من الذين عبدوه وعبدوا أُمَّه . . أنه أُيِّد بروح القدس .

(٤) في (ب) ونسخة هامش (أ ، ج) : (إجمالاً) بدل (إحكاماً) ، والمثبت ألصق بالسياق .

تنبيه

[علىٰ تلطُّف سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في مخاطبة مولاه سبحانه]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة : ١١٦] إذا خرَّجتَهُ علىٰ هـٰذا .. تَطَّلِعُ علىٰ أسرارٍ بديعة ؛ وذلك أن السياقَ اشتملَ علىٰ سؤال عيسىٰ عليه السلام عمَّا بلَّغَهُ لبني إسرائيلَ هل أمرَهم بتوحيد ربِّهم ، أو بأن يعبدوا له ولأمه ؟[1]

ومن المعلوم : أنه لم يكن أمرَهم إلا بالتوحيد ، فلما أرادَ أن يخبر بذلك تلطَّف بالإخبار به إجمالاً وتفصيلاً :

أما تفصيلاً : فبقولِهِ : ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ...﴾ الآيةَ [المائدة : ١١٧] .

وأما إجمالاً : فبقولِهِ : ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فقوله : ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ أي : أمِّ كتابِكَ المشتمل علىٰ سرِّ القدر ؛ فإن القلم جرىٰ فيه بكفرهم .

وقوله : ﴿مَا فِي نَفۡسِي﴾ أي : أمِّ كتابي ؛ وهو ما كتبَهُ الله له من بيِّنات التوحيد ، وأيَّدَهُ به من روح القدس ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

---

(١) الأصل أن فعل (عبد) يتعدَّىٰ بنفسه .

تبصرة

[في بيان حال المحجوبين من أهل الرئاسة]

شأنُ المحجوبينَ عن الله تعالىٰ من أرباب الرئاسة : موادةُ من عبدَهم وعبد أقاربَهم لأجلهم، وأهل القلوب المؤمنة مبرَّؤون من ذلك؛ بمقتضىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ إلىٰ قوله : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

ومن المعلوم : أن عيسىٰ عليه السلام كُتبَ في قلبه الإيمانُ ، وأُيِّدَ بالروح ، فلهٰذا قال : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ ، فقولُهُ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ أي : ما كتبتَهُ من الإيمان في قلبي ، وأيَّدتَني به من الروح ، وأن ذلك ثمرةُ كوني لم أوادِدْ هٰؤلاء الذين عبدوني وعبدوا أُمِّي من دونِكَ ، وأنت علامُ الغيوب .

تنبيه

[علىٰ سرِّ القدر المنطوي بين الحقيقة والشريعة]

قوله : ﴿أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ ولم يقلْ : أمرتَ به ، مع أن الأمر بالتوحيد لم يُختصَّ به ، بل أُمِرَ به جميعُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . ولٰكنَّه نبَّهَ بذلك علىٰ سرِّ القدر ، وأن الأمر أمران : أمرُ حقيقة ، وأمرُ شريعة .

فأمرُ الحقيقة : هو المشارُ إليه بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل : ٤٠] ، وهو متوجِّهٌ إلىٰ جميع الكائنات ، فما من كفرٍ ولا إيمانٍ إلا وهو مأمورٌ به بهٰذا الاعتبار ؛ لأنه لا يكون إلا بأمرِهِ[1]

---

(١) هٰذا ما يعبِّر عنه المتكلمون بالتعلُّق التنجيزي القديم لصفة الإرادة ؛ إذ الحقُّ أن صفة =

وأما أمرُ الشريعة[1] فهو الذي رُبطَ به الثوابُ والعقاب ، وقامَتْ به الحجَّة ؛ ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

فمن هـٰذا يُفهمُ السرُّ في قول عيسىٰ عليه السلام ﴿ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ ؛ خصَّصَهُ ـ أي : الأمر ـ بالإضافة إليه ؛ تنبيهاً علىٰ أمرِ الشريعة ، ولم يقل (أمرتَ) تنبيهاً علىٰ أمرِ الحقيقة .

إشارة

[إلىٰ سرِّ قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾]

لمَّا كان في هـٰذا اشتباهٌ على المحجوبينَ من المعتزلة وغيرِهم ، الذين

= الإرادة قديمة ، وأنها لا تتعدَّدُ ، كما أنه يستحيل تخلُّفها ، والأصحُّ أن تعلُّقاتها التنجيزية قديمةٌ لا حادثة ، ولـٰكن مشى الإمام المصنف هنا علىٰ أن تسمية هـٰذه الصفة بالأمر ، وما عليه المتكلمون أن الأمر راجعٌ لصفة الكلام ، وليست صفة الكلام من صفات التأثير (الإرادة والقدرة) ، فلهـٰذا لا توصف بالتخلُّف أصلاً ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [قٓ : ٢٩] القولُ فيه أيضاً راجع للإرادة القديمة . ثم الأمرُ عند المتكلمين هو ما سيأتي بقوله : (أمر الشريعة) ، وبه تعلم : أن الله قد يأمر ويقع المأمور لسبق الإرادة المشار إليها وإلىٰ تعلُّقاتها ، وقد يأمر ولا يقع المأمور أيضاً لسبق الإرادة ، فليس ثَمَّ خلاف معتبرٌ أصلاً ، إلا أن علماء العقيدة حقَّقوا ودقَّقوا في الاصطلاح ، ودليل ذلك : أنه سيأتي للمصنف ردٌّ على المعتزلة الذين لم يفرِّقوا بين الأمر والإرادة ، وقالوا بالترادف ، وألزموا أنفسَهم القولَ بخلق أفعال العباد للعباد .

والخلاصة : الإرادةُ القديمة : هي ما عبَّر عنه الإمام المصنف بأمر الحقيقة ، والأمرُ الإلـٰهي والحكم التكليفي والخطاب الشرعي : هو ما عبَّر عنه فيما سيأتي بأمر الشريعة .

(١) وتسمية هـٰذا الأمر بالإرادة الشرعية ، ونسبة الإرادة إليه تعالىٰ فيه مع وقوع التخلف غالباً ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] . . خطأٌ ، وهـٰذا قال به من اعتقد حدوث الإرادة من المشبهة .

يقولون إن كفْرَ العبد منسوبٌ إلى اختراعه ، غيرُ مستندٍ إلىٰ إرادة ربِّهِ ، وإلا لما جاز له أن يعاقبَهُ عليه . . لا جرمَ بيَّنَ الله تعالىٰ جوابَهم علىٰ لسان نبيِّهِ عيسىٰ صلاةُ الله وسلامُهُ عليه في قوله تعالىٰ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] .

علَّلَ جوازَ تعذيبِهِ لهم بأنهم عبادُهُ ؛ تنبيهاً علىٰ أن التعذيبَ لا يُحتاجُ في جوازه عقلاً إلىٰ معصيةٍ ولا كفر[١] ؛ ولهـٰذا لم يقلْ (فإنهم عصَوْكَ) ، وإنما بمجرَّد كونِهم عباداً يجوزُ للمالك أن يفعلَ بهم ما يشاءُ .

لـهُ حـقٌّ وليـسَ عليـهِ حـقٌّ ومهما قالَ فالحسنُ الجميلُ[٢]

مناجاة[٣]

إلـٰهي ؛ جلَّتْ عظمتُكَ أن يعصيَكَ عاصٍ ، أو ينساكَ ناسٍ ، ولـٰكنَّكَ أوحيتَ روحَ أوامرِكَ في أسرار الكائنات[٤] ، فذكرَكَ الناسي بنسيانِهِ ، وأطاعَكَ العاصي بعصيانِهِ ، وإنْ من شيءٍ إلا يسبِّحُ بحمدِكَ .

---

(١) إذ المعصية والكفر وصفان شرعيان حادثان ، ولا تأثير للحادث في القديم عقلاً ، كما أن العقل إن لم يتنوَّر ويتكمَّل بالخطاب الشرعي . . فهو مجوِّز لتعذيب المطيع وتنعيم العاصي ، ولا يشكل هـٰذا إلا علىٰ أصحاب الأهواء .

(٢) البيت من الوافر ، وهو لعبد الله بن مصعب الزبيري المعروف بـ (عائد الكلب) ، وانظر « الكامل » للمبرد (١٠٣/٢) ، ولا يليق معنىٰ هـٰذا البيت حقّاً وصدقاً إلا في المولى الجليل سبحانه .

(٣) هـٰذه المناجاةُ العرفانية ، الدالَّة علىٰ رفعة معرفة صاحبها بمولاه عز شأنه . . هي لبابةُ هـٰذا الكتاب ، وواسطةُ عقده ، ولو لم تكن له فيه إلا هـٰذه المخاطبةُ الرقيقة . . لكفاه ، كيف وقد وشَّاه وحبَّكه ، وغشَّاه وونقه . . بما هو من شاكلتها في العرفان ؟!

(٤) في (ب) : (أوجبت) ، وفي (أ ، ج) : (جرت) ، وفي هامش (ج) نسخة : (جرت) بدل (أوحيت) .

إن عصىٰ داعيَ إيمانِهِ . . فقد أطاعَ داعيَ سلطانك ، ولـٰكن قامَتْ عليه حجَّتُكَ ، ولله الحجةُ البالغة ؛ ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[1] [الأنبياء : ٢٣] .

اعتبار

[في الخوف من السابقة ، وكون الأعمال بالخواتيم اللاحقة]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] . . من هـٰذا ؛ أي :

---

(١) نقل هـٰذه المناجاةَ عن كتابنا هـٰذا الإمامُ ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٥) وقال : (ومن مناجاته في هـٰذا الكتاب وهو مما أخذ عليه) ثم ذكرها ، والمؤاخذة ـ والله أعلم ـ من قدريٍّ يأبىٰ أن يكون الفاعل الموجد واحداً أحداً ، ويجعلُ للإرادات والقُدَرِ الحادثة تأثيراً ، أو من قاصرٍ لم يرقَ فهمه لاستشراف هـٰذا الكلام فهو دون عتبته ، أو ضعيفِ همَّة لا تسمح له بالترفُّع عن حضيض التقليد في الاعتقاد .
واعلم : أن مذهب أهل السنة والجماعة أنه تعالىٰ ما عصاه عاصٍ إلا بإرادته وقهره ، كما أنه ما أطاعه طائعٌ إلا بإرادته وفضله ؛ فإرادة القديم سبحانه جلَّت عن المخالفة ؛ إذ إليها يستند كلُّ شيء ، وهي لا تستند إلىٰ شيء ، وهو ما عبَّر عنه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني بقوله لقاضي المعتزلة عبد الجبار : أيُعصىٰ ربُّنا قهراً عنه ؟! وذلك حين قال له الهمذاني : أيحبُّ ربُّنا أن يُعصىٰ ؟!
فوحيه في هـٰذه المناجاة لروح أوامره إنما المقصودُ منه تعلُّقات الإرادة الأزلية ، وبهـٰذا تعلم : أنه في هـٰذه المشهدِ لا عاصيَ بإطلاق ، بل الكلُّ فيه مطيعٌ بإطلاق ، وإنما المعصية والطاعة الشرعيتان إنما تكونان بقيد الأوامر الشرعية ، لا بإطلاق تعلُّقِ الإرادة الأزلية ، فمن عصى الأمر فقد أطاع من حيث ظنَّ أنه عصىٰ ، ولـٰكن ظنُّه هـٰذا أرداه في الهاوية ؛ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٣] ، وكفاه يقينُهُ هـٰذا حجةً عليه دنيا وأخرىٰ ، وهـٰذا المعنىٰ بعينه هو ما أشار إليه العارف الجيلي في « النادرات العينية » حيث يقول : (من الطويل)

فإن كنتُ في حكمِ الشريعةِ عاصياً ... فإنيَ في حكمِ الحقيقةِ طائعُ

فإن قلت : إبليس إذاً كان طائعاً بتركه للسجود المأمور به من قبل الحق بغير شبهة .
فالجواب : أما من حيث النظر لإرادة الله تعالىٰ فهو كذلك ، ولـٰكن لا تنسبُ الطاعة له قطعاً؛ لأنه لم يعلم أنه لم يُرد منه السجودُ إلا بعد وقوع الإباية منه ، فهو مؤاخذٌ وعاصٍ من هـٰذه الحيثية .

ويحذرُكم أمَّ كتابه ؛ بدليل قولِهِ تعالىٰ أوَّلَ الآية ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ . . . ﴾ الآيةَ ، مع قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : ٤٩] ، مع ما ثبتَ في « صحيح مسلم » وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم : « فوالذي لا إلـٰهَ غيرُهُ ؛ إنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ حتىٰ ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلا ذراعٌ واحدٌ ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ ، فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُها ، وإنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ النارِ حتىٰ ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلا ذراعٌ واحدٌ ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ ، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ فيدخلُها » الحديثَ[١]

فهـٰذا تحذيرٌ من أمِّ الكتاب ؛ الذي تكون خاتمةُ العبد علىٰ وَفْقِ ما سبقَ له فيه ، وبهـٰذا تفهمُ السرَّ في ذكر (النفس) و(أمِّ الكتاب) متقاربينِ في أوَّلِ السورة[٢]

إشارة

[إلى المخصوصين بخوف سوء الخاتمة]

في الحديث : أن خشيةَ سوء الخاتمة مخصوصةٌ بأهل أعمال الجنة ، وأما أهلُ الإخلاص لأعمال التوحيد . . فلا يُخشىٰ عليهم سوءُ الخاتمة ؛ ولهـٰذا قال : « لَيعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ . . . » الحديثَ .

يفهمُ من ذلك : أن المتقرِّبَ متقربانِ : متقرِّبٌ إلى الجنة بأعمالِها ، ومتقرِّبٌ إلى الله تعالىٰ بذكرِهِ ؛ كما ثبتَ في « الصحيح » : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ حينَ يذكرُني . . . » إلىٰ قوله : « وإنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعاً تقرَّبْتُ منهُ

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) يعني : سورة (آل عمران) .

باعاً »[1] ، وذلك يفهمُكَ أن المتقرِّبَ إلى الله سبحانه وتعالىٰ لا يمكنُ أن يبقىٰ بينَهُ وبين اللهِ سبحانه ذراعٌ[2] ؛ لأن ذلك الذراعَ إن كان التقرُّبُ به مطلوباً من العبد . لم يبقَ بعدَهُ مقدارٌ يتقرَّبُ اللهُ به إليه ، وحينئذٍ فيستلزمُ الخُلْفَ في وعده تعالىٰ[3] ، وهو محالٌ ، وإن كان موعوداً به من الله تعالىٰ لزمَ تنجُّزُ وعده ، وتحقَّقَ القربُ للعبد ، فلا يبقىٰ بُعْدٌ ولا دخولٌ إلى النار .

فعُلِمَ : أن ذلك الذراعَ مخصوصٌ بأهل التقرُّب إلى الجنة ، التي لا يلزم أن تَقْرُبَ ممَّن تقرَّبَ إليها ، فافهمْهُ فإنه بديعٌ .

تتمة

[في بيان معنى الذكر في النفس ، والذكر في الملأ]

قولُهُ في الحديث : « فإن ذكرَني في نفسِهِ ذكرتُهُ في نفسي »[4] ، إذا أردت تخريجَهُ علىٰ ما تقدَّم فمعناه : أن العبدَ إذا ذكر اللهَ تعالىٰ في سرِّهِ فذكْرُهُ له من آياتِ توحيده المتشابهةِ ، فلا يزالُ يذكر ويشهدُ ذكرَ نفسه حتىٰ ينكشفَ حجابه كما سيأتي في حُجُبِ الوجه وسُبُحاتِهِ[5] ، فهنالك يحترقُ ذكرُ العبد

---

(1) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) في (أ ، ج) : (أن يكون) بدل (أن يبقىٰ) .

(3) وعده سبحانه هنا : هو تحقق المشروط بعد وجود شرطه ، والخُلْف في الوعد القديم محال شرعاً ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٩] وقال تعالىٰ : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الروم : ٦] .

(4) وهو من تمام الحديث المتقدم : « أنا عند ظنِّ عبدي بي » .

(5) هـٰذه الجملة هي التي أوجبت اعتماد ترتيب فصول الكتاب علىٰ ما في النسختين (أ ، ج) إذ النسختان (ب ، د) تقدم فيهما فصل (الوجه) علىٰ هـٰذا الفصل ؛ ولعل ذلك لمراعاة قوله في أول فصل (الصورة) : (والأليقُ تقديمُها) .

المخلوق ، ويتجلَّىٰ ذكرُ الله له سبحانه لعبده بسُبُحاتِهِ ، فيصير العبد مذكوراً ، والربُّ سبحانه ذاكراً ، **وذلك من آيات التوحيدِ المحكمة**[1] ، وهي أمُّ الكتاب[2] ، فلهـٰذا عبَّرَ عنها بالنفس ، ونُسبَتْ إليه سبحانه في قوله : « ذكرتُهُ في نفسي »

قولُهُ : « وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهُ »[3] ، هـٰذا من بابِ الترقي من حال الجمع والفناءِ إلىٰ حال الفرقِ والبقاء[4] ؛ وذلك أن العبدَ إذا جمعَهُ اللهُ تعالىٰ عليه بذكرِهِ له في نفسه وحدَهُ . . أفناهُ ، فإذا أرادَ أن يجعلَهُ هادياً بعثَهُ لذكر الله في الملأِ ، فذلك إبقاؤه ، فإذا ذكرَهُ . . ذكرَهُ اللهُ في ملأٍ خيرٍ منه .

ومعناه والله أعلم : أنه يذكرُهُ ويثني عليه بألسنة ملائكتِهِ وأوليائِهِ وأرواح أنبيائِهِ ورسلِهِ ، **ويشهدُهُ أن الله هو الذاكرُ له في مظهرِ ذكرِهم** ، فيتنعَّمُ بذلك نعيماً دائماً ، ويحيا حياةً طيِّبة ، ويكونُ له به حظٌّ من المقام المحمود[5]

---

(١) إذ ذكْرُ العبد فعلُ الله تعالىٰ ، فنسبتُهُ إليه حقٌّ ، ونسبتُهُ للعبد مجاز ، وهـٰذا هو وجه الأحكمية .

(٢) انظر معنىٰ هـٰذا (ص ١٣٥) .

(٣) هـٰذا من تمام الحديث السابق : « أنا عند ظنِّ عبدي » .

(٤) وهـٰذا الأخير هو حال الأنبياء ، والكمَّل من الأولياء ، قال تعالىٰ حكاية عن سيدنا هارون علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

(٥) ذكر الملائكة للمؤمنين والاستغفار لهم . . منصوصٌ عليه في كتاب الله تعالىٰ وصحيح السنة ، وكذا أرواح الأنبياء لها اطِّلاع علىٰ أعمال أممها بعد وفاتها ؛ ومن ذلك حديث عرضِ الأعمالِ علىٰ نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإنما قال : (له حظ) لأن هـٰذا المقام بتمامه لا يكون إلا للذي كلُّ ما فيه من قول وفعل محمودٌ ، وهو لا ينبغي إلا للحبيب الأعظم المفخَّم عليه أفضل الصلوات والتسليمات كما جاء في « الصحيحين » . =

* * *

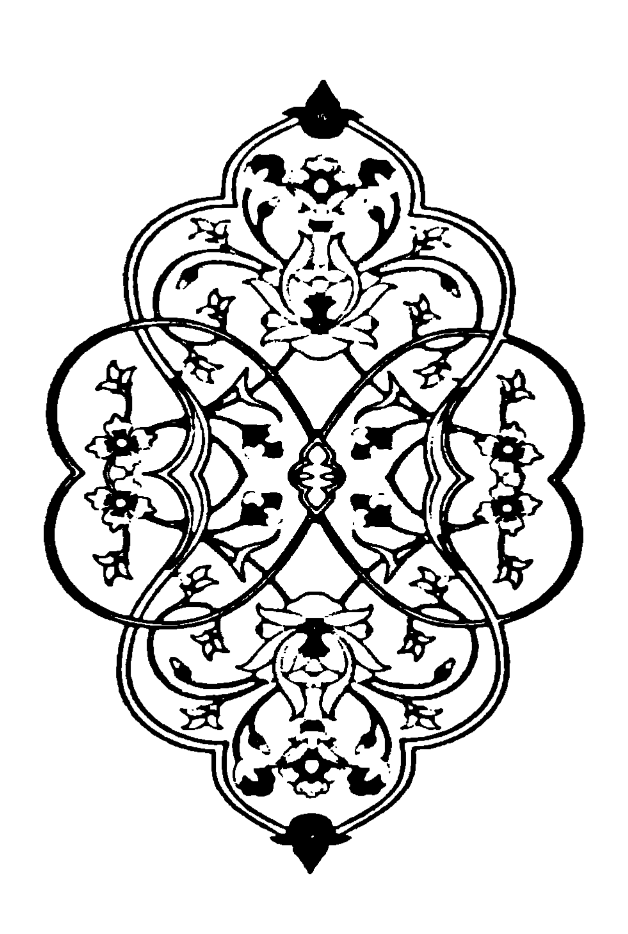
= وهـٰذا معنىٰ ما حكى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٣/ ٤٥٥) عن العارف بالله ابن الفارض فقال : أخبرني عنه بعض أصحابه أنه ترنَّمَ يوماً وهو في خلوة ببيت الحريري صاحب « المقامات » [ص ١٦٥] ، وهو : (من مجزوء الرجز)

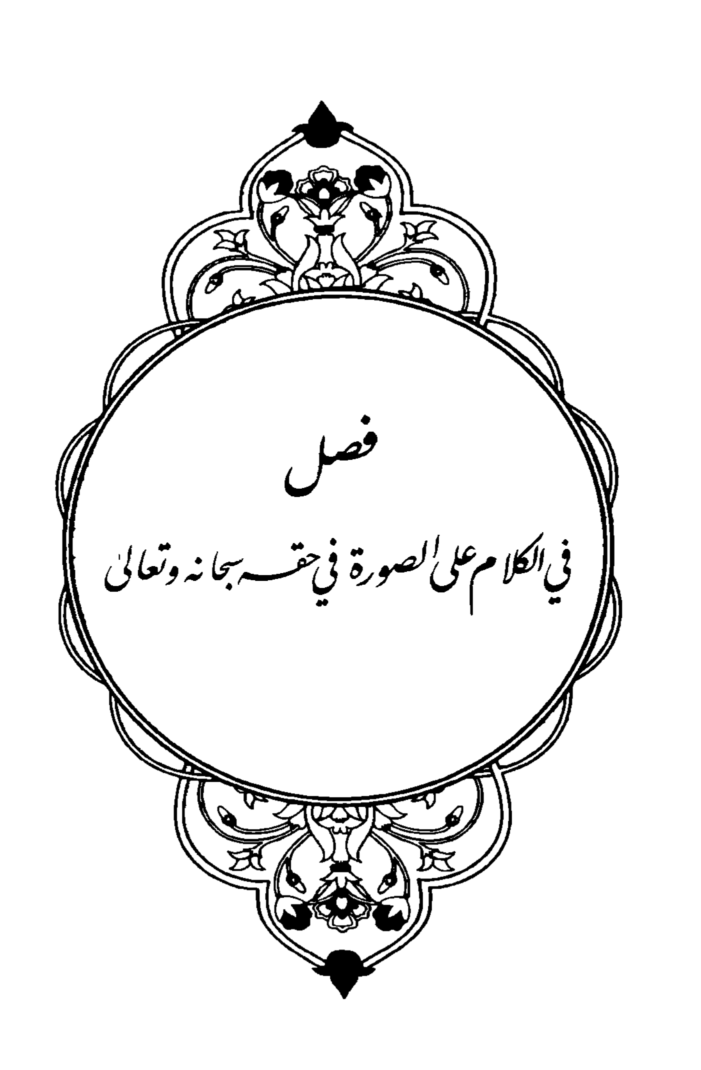
مَـــن ذا الـــذي مـــا ســـاءَ قـــطْ   ومَـــنْ لـــهُ الحسنـــىٰ فقـــطْ

قال : فسمعَ قائلاً ولم يرَ شخصه وقد أنشد :

محمـــدُ الهـــادي الـــذي   عليـــهِ جبـــريـــلُ هبـــطْ

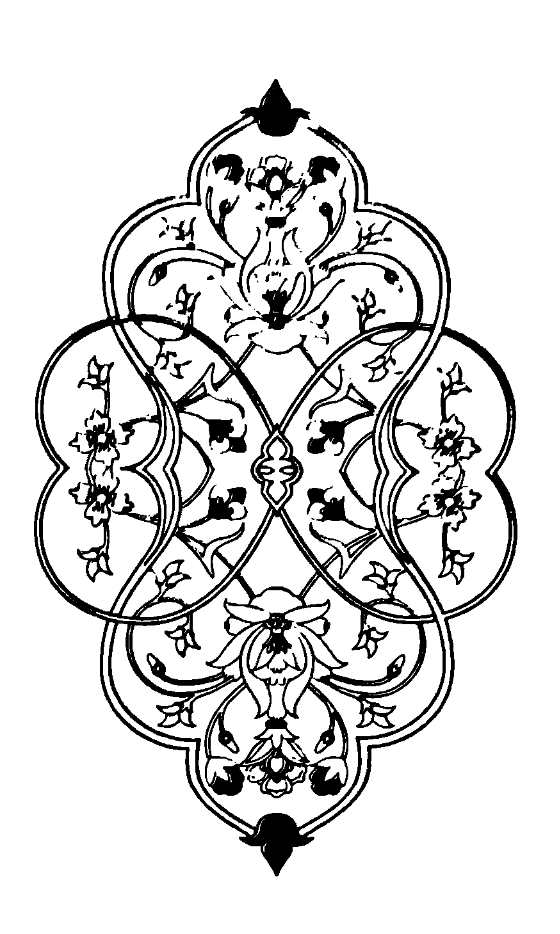
ثم مقام المحمودية المطلقة لا يقتضي وجود خطأ فيما دونها من المقامات العلية ، فحاذر إساءة الظن عند سماعك بعض المتشابهات في حق الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .





فصل

في الكلام على الصورة في حقه سبحانه وتعالى



فصل

في الكلام على الصورة في حقه سبحانه وتعالى

ومن المتشابه : الأحاديثُ التي يُذكرُ فيها الصورةُ :

والأليقُ تقديمُها[١] ؛ لأنَّها اسم جامعٌ لباقي الحقائق في غيرها[٢]

فممَّا صحَّ في ذلك : ما رواه البخاريُّ وغيره من حديث الرؤية عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وفيه « فيأتيهم ربُّهم في غيرِ الصورةِ التي يعرفونَ ، فيقولُ : أنا ربُّكم ، فيقولونَ نعوذُ باللهِ منكَ ، هٰذا مكانُنا حتىٰ يأتيَنا ربُّنا ، فإذا أتانا ربُّنا عرفناهُ ، فيأتيهم في الصورةِ التي يعرفونَ ، فيقولُ : أنا ربُّكم ، فيقولونَ : نعم ؛ أنتَ ربُّنا ، فيتبعونَهُ »[٣]

وقد ثبت ذكرُ الصورةِ في حديث أبي سعيد أيضاً[٤]

---

(١) سقطت هٰذه العبارة من (أ ، ج) وكتبت بين السطور كنسخة في (ج) ، وهٰذا الأليق جرىٰ عليه الإمام الرازي ؛ حيث ابتدأ بها وقدَّمها علىٰ غيرها من الألفاظ المتشابهات في « تأسيس التقديس » (ص ١٢١) .

(٢) إذ لا تنفك المتشابهات المغايرة لها في اللفظ عن حقيقة معناها الجامع لها ؛ فإن الصورة شاملة لكلِّ ما يتعرَّف الله به إلىٰ خلقه ، وكلُّ المتشابهات هي عندهم صورٌ من التعرُّفات الإلٰهية للعباد ، بل والمحكمُ علىٰ هٰذا يشمله لفظ الصورة .

(٣) صحيح البخاري (٦٥٧٣) ، ورواه مسلم أيضاً (١٨٢) بلفظ مقارب ، وقد أولع السادة الصوفية بالحديث عن هٰذا الأثر وعن رموزه ، وهو عمدتهم النقلية في إثبات التجلي الإلٰهي بالصور الحادثة ، ولٰكن لا بمعنى اتِّصافه تعالىٰ بالحوادث ، كما ستعرف قريباً .

(٤) رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ولفظه : « فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » .

وهو من الأحاديثِ المتشابهة ، ومرجعُها إلى الآيات والأحاديثِ المحكمة[1] ، وكلُّ من له من الله نورٌ . له في مرجعها إلى المحكم فهْمٌ علىٰ حسَبِ نوره ، ونحن إن شاء الله تعالىٰ نذكرُ مبلغَ علمنا وفهمنا فيه[2] ، ونسأل الله تعالىٰ أن يهديَنا لما اختُلفَ فيه من الحق بإذنِهِ[3]

[الصور لها حقيقة ومظهر]

واعلمْ : أن للصور التي يأتي فيها ربُّنا تعالىٰ يوم القيامة مظهراً وحقيقة :

فالحقيقةُ : هي الظُّلَّةُ في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فعُلمَ بذلك : أن مظاهرَ تجلِّيه لعباده هي ظُلَلُ غمامه ، وحقائق هـٰذه الظُّلَلِ آياتُهُ التي تَعَرَّفَ لخلقه فيها بواسطة أنبيائه[4]

وقد ثبت في « الصحيح » تشخُّصُ حقائق آياته كالظُّلَلِ ؛ ففي « مسلم » وغيره من حديث أبي أمامةَ وحديث النوَّاسِ بن سمعان : « أنَّ القرآنَ يأتي يومَ القيامةِ تقدُمُهُ (البقرةُ) و(آلُ عمرانَ) كأنَّهما غمامتانِ، أو ظُلَّتانِ سوداوانِ »[5].

---

(١) هـٰذه قاعدة في فهم كلِّ متشابه ؛ إذ حقُّه أن يُردَّ إلى المحكم ، ومن لم يفعل فقد ظلم .

(٢) وذاك راجع لقاعدتهم : أن التجليَ يكون علىٰ حسب استعداد المتجلَّىٰ له ، وصفاءَ فهمه وإدراكه يكون علىٰ حسب صفاء مرآة فؤاده .

(٣) انظر الحديث عن التأويل عند السادة الصوفية (ص ٦٨ ، ٧٧) .

(٤) أراد بالآيات : معانيَ يجمعُها ما تعرَّف الله تعالىٰ به إلىٰ خلقه ؛ كالكُتُب المنزلة والشرائع المتضمنة بها كما سيذكر الإمام المصنف ، وهـٰذه التعرُّفات لن تجد لها حدّاً ؛ إذ لا نهاية لتعرُّفات الحق سبحانه .

(٥) صحيح مسلم (٨٠٤ ، ٨٠٥) ، وزاد : « أو كأنهما حزقانِ من طير صوافَّ ، تُحاجَّانِ عن صاحبهما » .

ومن المعلوم : أن كلامَهُ صفتُهُ ، وصفته لا تفارقُهُ ، فإذا ثبت إتيانُها في صور ظُلَلِ الغمام . . ثبت إتيانُه[1]

(١) يعني : إتيانه في تجلِّيه سبحانه ، وهـٰذه مغاصة لا بد من وقفة عابرة عندها .

فاعلم يا أخي : أن تجليه تعالىٰ مخلوق قطعاً ، واجزم بذلك ابتداءً ؛ فما حلَّ في المخلوق فهو مخلوق ، فتجلِّي الحق لا هو ذاته ولا صفاته ؛ بل هو من جملة أفعاله ، وقد هلك أقوام حسبوا أن تجليه تعالىٰ هو عين ذاته أو عين صفة من صفاته ، وأن ما يدركه المرء هو القديم سبحانه ! وأنَّىٰ لابن التراب أن يعرف كُنهَ ربِّ الأرباب ؟! ومرجعُ التجلي إلىٰ قدرته عز وجل ؛ فهو إدراكٌ يخلقه في قلب العبد عند حصول التجلي ، والمراد منه تعرُّف الله سبحانه لعبده في هـٰذا المظهر

ومسألة الصورة والتجلي فيها من أعوص ما خاض فيه السادة الصوفية ، وهم الذين فتقوا اللسان في الحديث عنها ؛ يقول العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (٢/ ٥٦٦) في بيان التجلي : (هو أشكل المسائل عند الصوفية ، وهو مخلوق عندهم ، وصورة من صور الأفعال الإلـٰهية ، تُنْصَبُ بين العبد وربه لمعرفته تعالىٰ ، وينسب إليها ما ينسب إليه تعالىٰ مع كونه منفصلاً عنها) ، والأوضح أن يقال : مع كونه مبايناً لها بينونة تليق بجلاله ؛ إذ مولانا لا يتصف بانفصال ولا اتصال .

وتأصيل التجلِّي بلغة شرعية لا تعويص في فهمها ، ولا تنغيص بالاعتراض عليها : أن التجليات ترجع إلىٰ فهم الحكمة في أفعاله سبحانه وتعالىٰ ، وقد أُمرنا بالنظر في مخلوقاته تعالىٰ للاعتبار ، وأيُّ عبرة أعظمُ من أن تعلم أن الأشياء كلَّها تستندُ في وجودها لمولانا جلَّ وعزَّ ؟! فتحت كلِّ فعل إلـٰهي ـ ولا فعل إلا فعله ـ حِكَمٌ تحار فيها الألباب ، وتعجز عن الإحاطة بها العقول ، وإنما قيمة الأثر بمعرفة مؤثره ، فما الفعل إلا غمامة وسِتارة وثياب وراءها الفاعل الحكيم ، ومن أبصر الفعل ولم يتعرَّف الفاعلَ فهو كليل الفهم .

ثم لا فعلَ إلا هو مستند إلى القدرة الأزلية ، ولا يخفىٰ عليك أن أثر الفعل يرجع إلى التعلق عند المتكلمين ، والذي قيل عنه وعن تصوره وفهمه : إنه من مواقف العقول ، فلا يعلمه إلا الله تعالىٰ ، وهـٰذا بعينه يرجع إلىٰ إشكال مسألة الصورة والتجلي .

ولـٰكن ثَمَّ ما هو أهمُّ من معرفة الحكمة ؛ وهو معرفة الحكيم ، وهي منطويةٌ في تجلِّيات أسمائه وصفاته القديمة ، والتي منها المحكم ومنها المتشابه ؛ وذلك أن تتعرَّفه في كلِّ صُوَرِ هـٰذا الوجود الحادث الماثل أمام مشاهداتك ، في كلِّ شيء مطلقاً ودون قيد ؛ فليست معرفة الله تعالىٰ عند القوم مقصورة على النُّظم الكلامية والترتيبات المدونة في الكتب =

وفي « مسلم » وغيره أن أُسيدَ بن حُضيرٍ رضي الله عنه قرأ سورة (الكهف) ليلة ، فجالَتْ فرسُهُ ؛ فإذا مثلُ الظُّلةِ فوق رأسه فيها أمثالُ السُّرُج ، فسألَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال « إنَّ السكينةَ تنزَّلَتْ للقرآنِ »[1]

وفي « الترمذي » : « معَ القرآنِ »[2]

وفي روايةٍ : « تلكَ الملائكةُ كانَتْ تسمعُ لكَ »[3]

وذلك كلُّهُ موافقٌ لآية (البقرة) ، ونفرةُ الفرس دليلٌ على أنها ظُلةٌ محسوسة[4]

وقد ثبتَ رؤيا النبيِّ صلى الله عليه وسلم للظُّلة[5] ، وتأويلُ

= العقدية ، فهي ـ وما أحسنها وأتقنها وأحكمها ! ـ منجاةٌ للعبد من الشقاء ، ولكنها ليست مرقاة للعبد لدَرَجِ المشاهدة واللقاء ، **فهي محطة يجب المرور بها** ، **ولا يجوز الوقوف عندها** ، ففرقٌ بين **أن تتعرَّف الله** تعالى بكونه موجوداً ، قديماً باقياً واحداً قائماً بنفسه منزَّهاً عن كل صفة حدوث ، حيّاً عالماً مريداً قديراً سميعاً بصيراً متكلِّماً ، وبين **أن تتعرَّف عليه** منعماً مبتلياً ، مانعاً معطياً ، قابضاً باسطاً ، مقدِّراً مغنياً ، مصِحّاً ممرِضاً ، معِزّاً مذِلاً ، مبكِياً مضحِكاً ، مقرِّباً مبعِّداً ، بل أن ترقى فتتعرَّفه **قيُّوماً** ضاحكاً غاضباً متعجِّباً محبّاً آتياً ماشياً مهرولاً ساعياً خيرَ الماكرين ، إلى غير ذلك ممَّا لا خلاف في عدِّهِ متشابهاً ، وفي وجوب استناده وفهمه بالمحكم الذي هو أم الكتاب ، **ولكن هل ما تأوَّله متأوِّلو المتكلمين هو المراد دون غيره ؟** هذا ما لا يمكن الجزم به ، كما لا يمكن القطع **أن** فهم الإمام ابن اللبَّان هنا هو المراد أيضاً ، ولكننا نجزم أنه رتبة معرفية منوَّرة هي مبلغ المتكلم من العلم .

(١) صحيح مسلم (٧٩٥ ، ٧٩٦) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

(٢) سنن الترمذي (٢٨٨٥) .

(٣) رواها مسلم (٧٩٦) ، وعلى هذه الرواية : يكون التجلي بإتيان الملائكة عليهم السلام .

(٤) **وبه تعلم** : أن تجلِّي الحق سبحانه ليس هو ذاته ؛ إذ ذاته العلية تتعالى عن الإدراك الحسيِّ ، ثم محلُّ التجلي هو القلب ، والصورة المشاهدة هي نصيب الحواسِّ وعالمِ الخيال ، ووراء ذلك معنىً معقول هو نصيب الفؤاد من المعرفة .

(٥) في (د) وحدها : (رؤية) بدل (رؤيا) .

أبي بكر رضي الله عنه لها بالإسلام[1]

وذلك كلُّهُ يحقِّق أن حقائق الظلل هي آياتُ الله تعالىٰ وشرائعه[2] ، وهي من الروحِ كما قدَّمتُهُ لك[3] ، قال تعالىٰ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . . . ﴾ الآيةَ [الشورىٰ ٥٢]

والظلَّةُ قسمان : ظلة عذاب ، وظلة رحمة

فظلَّةُ العذاب : كظُلَّةِ قوم شعيبٍ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] ، وقد ضرب الله سبحانه المثلَ بذلك للقرآن في قوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . . ﴾ الآيةَ [البقرة : ١٩][4]

---

(١) وهو ما رواه البخاري (٧٠٤٦) ، ومسلم (٢٢٦٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلاً أتىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل ، فأرى الناس يتكفَّفون منها ، فالمستكثرُ والمستقلُّ ، وإذا سببٌ واصل من الأرض إلى السماء ، فأراك أخذتَ به فعلوت ، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعلا به ، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعلا به ، ثم أخذ به رجلٌ آخر فانقطع ثم وُصِلَ ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ؛ بأبي أنت ، واللهِ ؛ لتدعَنِّي فأعبُرَها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعبُرْها » ، قال : أما الظلةُ فالإسلام ، وأما الذي ينطفُ من العسل والسمن فالقرآنُ ، حلاوته تنطف ، فالمستكثرُ من القرآن والمستقلُّ ، وأما السببُ الواصل من السماء إلى الأرض فالحقُّ الذي أنت عليه ، تأخذ به فيعليك الله ، ثم يأخذ به رجلٌ من بعدك فيعلو به ، ثم يأخذ به رجلٌ آخر فيعلو به ، ثم يأخذه رجلٌ آخر فينقطع به ، ثم يُوصلُ له فيعلو به ، فأخبرني يا رسول الله ، بأبي أنت ؛ أصبتُ أم أخطأتُ ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً » ، قال : فوالله يا رسول الله ؛ لتحدِّثَني بالذي أخطأتُ ، قال : « لا تقسمْ » .

(٢) انظر (ص ١٤٤) وفيها : أن المراد بالآيات لا ما يرجع إلىٰ صفة الكلام فحسب ، بل لكلِّ مظهرٍ هو علامة علىٰ وجوده المطلق سبحانه وتعالىٰ .

(٣) انظر (ص ١٣٢) ، وقوله : (من الروح) تقدم أن الروح الأصلي هو منشأ عالم الأمر ، وأن التجلي الإلـٰهي يكون عبره ، وأن الملائكة من رقائقه .

(٤) قال العلامة ابن عطية في « المحرر الوجيز » (١/ ١٠٢) عند تفسير هـٰذه الآية الكريمة : =

وأما ظلَّةُ الرحمة : فهي آياتُهُ المقتضية للرحمة ، النازلُ غيثُها على قلوب المؤمنين ، كما صحَّ في « مسلم » و« البخاري » وغيرهما قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مثلي ومثلَ ما بُعثْتُ بهِ مِنَ الهدىٰ والعلمِ كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضاً . . . » الحديثَ[1]

هٰذا هو الحقيقةُ[2]

وأما مظهَرُ الصورة : فهو العملُ[3] ، وقد ثبت تشخُّصُ الأعمال بصورٍ

= (قال جمهور المفسرين : مثَّلَ اللهُ تعالى القرآنَ بالصيِّب ؛ لما فيه من الإشكال عليهم ، والعمىٰ : هو الظلمات ، وما فيه من الوعيد والزجر : هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم : هو البرق ، وتخوُّفهم وروعهم وحذرهم : هو جعل أصابعهم في آذانهم ، وفضحُ نفاقهم واشتهار كفرهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه : هي الصواعق) ، ثم قال : (وهٰذا كله صحيح بيِّنٌ) .

(1) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ولفظه : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب ؛ أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرىٰ ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأً ؛ فذلك مثل من فقُهَ في دين الله ونفعه بما بعثني الله به ، فعلم وعلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

(2) يعني : حقيقة الصورة التي يتجلّى الحق فيها المنبَّه عليها (ص ١٤٣) ، والتجلي في الصور : هو الذي يعبِّر عنه السادة الصوفية بالتجلي في الكثائف ، وإليه الإشارة بكلام العارف بالله أبي يزيد البسطامي ؛ إذ حكى الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٤٥٩) : أن أبا يزيد سئل عن العارف ، فقال : لا يرىٰ في نومه غير الله تعالىٰ ، ولا في يقظته غير الله تعالىٰ ، ولا يوافق غير الله تعالىٰ ، ولا يطالع غير الله تعالىٰ .

وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٤) ، وأورد القشيري في « رسالته » (ص ٦٦٧) عنه أيضاً أنه قال : (إن لله عباداً لو حجبَهم في الجنة عن رؤيته . . لاستغاثوا من الجنة كما يستغيثُ أهلُ النار من النار) .

(3) والعمل عرضٌ ، والعرض لا يقوم بنفسه ، فلا بد له من محلٍّ يقوم به فيقوِّمه ، غير أن =

شتىٰ ؛ كما في حديث البراء رضي الله عنه بإسنادٍ صحيح ، أخرجه أصحابُ المسانيد كالإمام أحمد وغيره : « أنَّ الميتَ المؤمنَ يُفسحُ لهُ مدَّ بصرِهِ ، ويمثَّلُ لهُ عملُهُ في صورةِ رجلٍ حسنِ الوجهِ ، طيِّبِ الريحِ ، حسنِ الثيابِ ، فيقولُ : مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الصالحُ ، وأنَّ الفاجرَ يمثَّلُ لهُ عملُهُ في صورةِ رجلٍ قبيحِ الوجهِ ، منتنِ الريحِ قبيحِ الثيابِ ، فيقولُ : مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ . . . » الحديثَ[1]

وقد صحَّ تمثيلُ الموت بصورة كبشٍ[2] ، وتمثيلُ المال بالشجاعِ الأقرعِ

= المحل إذا قوَّم العرضَ كان الحديث للمحلِّ ابتداء وللعرض تبعاً ، فإذا أردنا تمثيل العرض تمثيلاً محضاً . . افتقرنا بالضرورة إلىٰ جوهر يقوِّمه مع وجود صارفٍ يصرفنا عن ملاحظة الجوهرية ، وإبقاء العرضية علىٰ حالها ؛ وهـٰذا معنىً شعوري نجده في أنفسنا ، ولـٰكنَّه لا يتمحَّض في الخارج ؛ ألا ترىٰ أن الموت الآتي الحديثُ عنه حينما يُؤتىٰ به يعرف الناظرون أنه الموت ليس غيرُ مع كونهم لا يبصرون في الخارج إلا كبشاً ؟! وهـٰذا مَهْمَهٌ ليس لمثلي رِجلانِ تمشيانِ فيه ، بل عامة الناس إن التفتوا للبحث فيه كان لهم منه محضُ التقليد والتخمين ، ولأفرادٍ قلوبُهم محلُّ نظر الحقِّ التحقيقُ والكشف المبين .

(1) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٩٠) .

(2) روى البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « يؤتىٰ بالموت كهيئة كبشٍ أملحَ ، فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ؛ فيشرئبُّون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هـٰذا ؟ فيقولون : نعم ، هـٰذا الموتُ ، وكلُّهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ؛ فيشرئبُّون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هـٰذا ؟ فيقولون : نعم ، هـٰذا الموتُ ، وكلُّهم قد رآه ، فيذبحُ ، ثم يقول : يا أهل الجنة ؛ خلودٌ فلا موت ، ويا أهل النار ؛ خلودٌ فلا موت » ، ثم قرأ : « ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ ، وهـٰؤلاء في غفلةٍ أهلُ الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] » .

وأعجبُ ما في هـٰذا الخبر ـ الذي نؤمن به ونصدِّق بكلِّ ما فيه ـ أنهم قالوا من غير تردُّدٍ : (هـٰذا الموت) ، مع أن المنظور إنما هو كبشٌ كما ترىٰ ! فكأنَّ العرض قد قام بنفسه ، =

وغيره[1] ، وتمثيلُ الملائكة بصورِ الآدميينَ[2] ، والسنةُ مشحونةٌ بنحو ذلك[3] .

ومن المعلوم : أن الأعمالَ أعراضٌ ، فإذا ثبت ظهورُها وتمثُّلُها بصور الجواهر والأجسام ، مع القطع بأنَّها ليست جسماً ولا جوهراً ، وأن الملائكة ليسوا بآدميينَ . . فعلىٰ مثل ذلك قِسْ إتيانَ ربِّنا جل وعلا سبحانه في صورِ

= وهـٰذا هو سرُّ التجلي في الصورة ؛ حيث تمظهر المعنى المجرَّدُ ـ وهو الموت هنا ـ بصورة كبشٍ ، ولم يُعرف منها إلا حقيقة الموت الراجعة إلىٰ آية إلـٰهية عند ذبحه ، وهي الحكم بالخلود الأبدي ؛ فهي تجلٍّ لاسمه سبحانه الباقي ، وفينا معنى الإبقاء لا البقاء .

وبهـٰذا المثال تعلم : أنه كما حكمَ الناظرون إلى الكبش بأنه الموت فحسب . . فكذلك الناظرون إلىٰ صور التجليات الإلـٰهية يبوحون بأنهم رأوا ربَّهم ؛ رؤيةَ ظاهرُها جوهر وعرض ، وباطنُها حقيقةٌ ومعرفة يقينية .

(1) روى البخاري (١٤٠٣ـ٤٥٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالاً ، فلم يؤدِّ زكاته . . مُثِّلَ له مالُهُ يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتانِ ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلِهْزِمَتَيه ـ يعني : بشدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ، ثم تلا : « ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ . . . ﴾ الآية » [آل عمران : ١٨٠] ، **والشجاع** : الحية الذكر ، أو ما تثب على الإنسان تؤذيه ، **والأقرع** : ما كان رأسه أبيض لشدَّة سمِّهِ ، ورواه مسلم (٩٨٨) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، وفيه ذكرُ الدوابِّ التي لم تُؤدَّ زكاتُها .

(2) كمجيء سيدنا جبريل علىٰ نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام بصورة سيدنا دحية بن خليفة الكلبي ؛ فقد روى البخاري (٣٦٣٤) ، ومسلم (٢٤٥١) من حديث سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما : أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة ، فجعل يحدث ثم قام ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة : « من هـٰذا ؟ » ، أو كما قال ، فقالت : هـٰذا دحية ، قالت أم سلمة : ايمُ الله ؛ ما حسبته إلا إياه ، حتىٰ سمعت خطبة نبي الله صلى الله عليه وسلم يخبر بخبر جبريل .

(3) كاللبن ، والعسل ، والسمن ، والبقر ، والحَبْل ، وصفة قلوب أهل الإيمان ، والنفاق ، والكفر .

الأعمال ؛ فإنه لا يلزمُ من إتيانِهِ في صور الأعمال أن يكونَ تعالىٰ له صورةٌ[1] ، ولا يلزمُ من نسبتها وإضافتِها إليه أن تكون ذاتيّةً له[2]

كما قد ثبت نسبةُ اليدينِ والرُّكبتينِ إلىٰ جبريل عليه السلام في حديث عمر رضي الله عنه عند مسلم وغيره ؛ في قوله : (طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ . . .) إلىٰ قوله : (فأسندَ ركبتيهِ . . .) الحديثَ[3] ، ومن المعلوم : أنَّ الركبتينِ واليدينِ التي جاء بها جبريل جسمياتٌ ، وليست ذاتيَّةً له[4]

---

(١) إذ تعالى المصوِّر وجلَّ عن أن تكون له صورة ، بل من الحقائق الكلامية المقررة : أن الفاعل لا يفعل مثل نفسه ، قال الحافظ البيهقي في « الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد » (ص ٩١) : (يستحيل أن يكون الفاعل يفعل مثله ؛ كالشاتم لا يكون شتماً وقد فعل الشتم ، والكاذب لا يكون كذباً وقد فعل الكذب) ، فالمصوِّر تعالىٰ قديمٌ ، وصورة تجلِّيه فعلُهُ ، وفعله غيرُهُ ، وهو حادث ، وليست الصورة صفته فضلاً عن أن تكون ذاته ، فتبصَّر .

(٢) يقول حجة الإسلام الغزالي في « المضنون به علىٰ غير أهله » (ص ٨٨) معلقاً علىٰ حديث : « من رآني في المنام فقد رآني ؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي » : (لا معنىٰ له إلا أن ما رآه واسطة بين النبي وبينه من تعريف الحق إياه ، فكما أن جوهر النبوة ـ أعني : الروح المقدسة الباقية من النبي بعد وفاته ـ منزهة عن اللون والشكل والصورة ، ولـٰكن تنتهي تعريفاته إلى الأمة بواسطة مثال صادق ذي شكل ولون وصورة .

وإذا كان جوهر النبوة منزهاً عن ذلك . . فكذلك ذات الله منزهٌ عن الشكل والصورة ، ولـٰكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس ؛ من نور أو غيره من الصور الجميلة التي تصلح أن تكون مثالاً للجمال المعنوي الحقيقي الذي لا صورة له ولا لون ، ويكون ذلك المثال صادقاً وحقاً وواسطة في التعريف ، فيقول النائم : رأيت الله تعالىٰ في المنام ، لا بمعنىٰ أني رأيت ذاته ، كما يقول : رأيت النبي لا بمعنىٰ أنه رأىٰ ذات النبي وروحه أو ذات شخصه ، بل بمعنىٰ أنه رأىٰ مثاله) .

(٣) صحيح مسلم (٨) ، ورواه أبو داود (٤٦٩٥) ، والنسائي (٨/ ٩٧) .

(٤) وكذلك قوله : (رجلٌ) إذ لا تتَّصف الملائكة بذكورة ولا أنوثة ، فمن اعتقد ذكوريَّتها فقد ابتدع ، ومن اعتقد أنوثتها بعد إعلامه بنصِّ النفي . . فقد كفر .

=

[اختلاف نعيم العباد برؤية الحقِّ يوم القيامة]

وبهٰذا تعلمُ : أن رؤية العباد لربِّهم يوم القيامة مختلفةُ النعيم ، فكلٌّ يراه في صورة عمله ، علىٰ حسب مراقبته وإخلاصِ توجُّهِهِ إليه ، وصدقِهِ في إقباله عليه[1]

= ولهٰذا نبَّه الإمام ابن الملقن علىٰ تغاير صورة الملك والملك ؛ حيث قال في « التوضيح » (٧٥/١٩) : (فجبريل جبريل ، وإن كانت الصورة صورة إنسان ، إذاً فالصورة ليست الملك) .

(١) واقرأ التنبيه الآتي (ص ١٥٣) علىٰ معنى التعوُّذ والتعلُّق بالصورة التي يأتي بها الله يومَ القيامة ؛ ففيه دندنة حول ما هنا .

وهٰذه حكاية تنفع في تصوير هٰذا المعنىٰ : قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٧١) : (حكي أن أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين ، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجيده ، فقال له أبو تراب يوماً : لو رأيت أبا يزيد ، فقال المريد : إني عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله : لو رأيت أبا يزيد . . هاج وجد المريد ، فقال : ويحك ! ما أصنع بأبي يزيد ؟! قد رأيت الله تعالىٰ فأغناني عن أبي يزيد .

قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك ! تغترُّ بالله عز وجل ؟! لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة . . كان أنفعَ لك من أن ترى الله سبعين مرة .

قال : فبهت الفتىٰ من قوله وأنكره ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك ! إنما ترى الله تعالىٰ عندَكَ ، فيظهر لك علىٰ مقدارك ، وترىٰ أبا يزيد عند الله قد ظهر له علىٰ مقداره ، فعرف ما قلتُ ، فقال : احملني إليه .

فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا علىٰ تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوي إلىٰ غيضة فيها سباع ، قال : فمرَّ بنا وقد قلب فروةً علىٰ ظهره ، فقلت للفتىٰ : هٰذا أبو يزيدَ ، فانظرْ إليه ، فنظر إليه الفتىٰ فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونَّا علىٰ دفنِهِ .

فقلت لأبي يزيد : يا سيدي ؛ نظرُهُ إليك قتله ؟ قال : لا ، ولٰكن كان صاحبك صادقاً ، وأُسكن في قلبه سرٌّ لم ينكشف له بوصفه ، فلما رآنا انكشف له سرُّ قلبه ، فضاق عن حمله ؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك) .

تنبيه

[على معنى الصورة في قوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ على صورتِهِ »]

إذا علمتَ أن حقيقةَ الصورة آياتُهُ التي تعرَّفَ بها إلى خلقه[1] . . فنزِّلْ على ذلك ما صحَّ من « أنَّ اللهَ تعالى خلقَ آدمَ على صورتِهِ »[2] ؛ فإن الإنسانَ قد

(1) لا أنه تعالى له صورة قائمة بذاته ، ولذلك قال العلامة المازري في « المُعْلِم » (٣/ ٢٩٩) : (واعلم : أن هـٰذا الحديث غلط فيه ابن قتيبة ، وأجراه على ظاهره ، وقال : « فإن الله سبحانه له صورة لا كالصور » ، وأجرى الحديث على ظاهره ، والذي قاله لا يخفى فساده ؛ لأن الصورة تفيد التركيب ، وكل مركب محدث ، والبارئ سبحانه وتعالى ليس بمحدث ، فليس بمركب ، وما ليس بمركب فليس بمصوَّر ، وهـٰذا من جنس قول المبتدعة : إن البارئ عز وجل جسم لا كالجسام) ، وما قاله العلامة المازري قاله من قبلُ العلامة ابن بطال في « شرح صحيح البخاري » (١٠/ ٤٦٢) .

(2) رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
قال العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (٦/ ١٨٧) : (الصواب : أن الضمير راجع إلى الله تعالى ؛ لما في بعض الطرق : « على صورة الرحمن » ، وإذاً أشكل شرحه : فقال القاضي أبو بكر بن العربي : إن المراد من الصورة الصفة ؛ والمعنى : أن الله تعالى خلق آدم على صفاته ؛ وتفصيلُهُ : أنه وضع في بني آدم أنموذجاً من الصفات الإلـٰهية ، وليس من الكائنات أحد من يكون مظهراً كاملاً لتلك الصفات إلا هو ، ألا ترى أن صفة العلم التي هي من أخصِّ الصفات لا توجد إلا في الإنسان ؟! فإن سائر الحيوانات ليس فيها إلا قوة مُخيِّلة .
وقيل : الغرض من إسناد الصورة إلى نفسه : مجرَّدُ التشريف والتكريم ؛ على ما ينطق به النص : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، وليس المراد منه : أنه تعالى أيضاً صورة .
وقال الشيخ الأكبر : الصورة على معناها ، ومغزى الحديث : أن الله سبحانه وتعالى لو تنزَّل إلى عالم الناسوت . . لكان في صورة الإنسان ؛ فإن ذلك صورته في هـٰذا العالم لو كانت ؛ ألا ترى أنه أسند إلى نفسه : العين ، والقدم ، والأصابع ، والوجه ، والساق ، واليد ، والحقو ، واليمين ، والقبضة ، والرداء ، والإزار . . إسناداً شائعاً في القرآن والحديث ؟!=

جمع اللهُ تعالىٰ فيه كلَّ حقائق الكائنات ، فكان مظهراً لآيتِهِ الكبرى الجامعةِ لجميع حقائقِ الآيات ، المتجلِّية لخلقه بجميع أنوارِ الأسماء والصفات[١] ، فلذلك قَبِلَ تعليمَ الأسماء ، وسجدَتْ له ملائكةُ الأرض والسماء ؛ أي : خَلقَهُ على المثاليَّة القابلة لتجلِّي صورةِ آيتِهِ الكبرىٰ[٢] ؛ وهي التي أُريها محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وحقيقتُها روحُ (لا إلـٰه إلا الله)[٣]

= ولا ريب أنها هي حلية الإنسان ، فلو فرضنا فرض المحال أن الله تعالىٰ لو كان نازلاً في العالم الناسوتي . . لما كانت حليتُهُ إلا حليةَ الإنسان ، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال : « إنه أعورُ العين اليمنىٰ ، وربُّكم ليس بأعور » ، فلو تجلىٰ ربُّنا جل وعلا في هـٰذا العالم . . لم يكن أعور ؛ فإنه ليس من حلية الإنسان الصحيح)

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٧١) (ثم أنعم تعالىٰ علىٰ آدمَ فأعطاه صورةً مختصرة جامعةً لجميع أصناف ما في العالم ، حتىٰ كأنه كلُّ ما في العالم ، أو هو نسخةٌ من العالم مختصرة ، وصورة آدم ـ أعني : هـٰذه الصورة ـ مكتوبةٌ بخطِّ الله ، فهو الخط الإلـٰهي الذي ليس برقم حروف ؛ إذ تنزَّهَ خطُّهُ عن أن يكون رقماً وحروفاً ، كما تنزَّهَ كلامُهُ أن يكون صوتاً وحرفاً ، وقلمه عن أن يكون خشباً وقصباً ، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً

ولولا هـٰذه الرحمة لعجز الأدمي عن معرفة ربه ؛ إذ لا يعرف ربَّهُ إلا من عرف نفسه ، فلما كان هـٰذا من آثار الرحمة صار علىٰ صورة الرحمن ، لا علىٰ صورة الله ؛ فإن حضرة الإلـٰهية غير حضرة الرحمة ، وغير حضرة الملك ، وغير حضرة الربوبية ، ولذلك أمر بالعياذ بجميع هـٰذه الحضرات فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ١ـ٣]) .

(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨] ، والمعنىٰ : لقد رأىٰ آية من آيات ربِّهِ الكبرىٰ ، وفي السياق إشارة إلى الحقيقة المحمدية ، والتي دار الحديث عنها علىٰ ألسنة السادة الصوفية .

(٣) وهـٰذه الروح هي منشأ عالم الأمر كما تقدم (ص ١٢٣) .

تنبيه

[علىٰ معنى الصورة في حديث سُوق الصور في الجنة]

قد جاء في « الجامع » لأبي عيسى الترمذيِّ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ في الجنةِ سُوقاً ، ما فيها بيعٌ ولا شراءٌ ، إلا الصورَ مِنَ الرجالِ والنساءِ ، فإذا أرادَ الرجلُ صورةً دخلَ فيها » ، قال الترمذي (حديث غريب)[1]

وإذا نزَّلتَهُ علىٰ ما قررناه . . علمتَ أن تلك الصورَ حقائقُ آياتٍ من آياتِ أسمائه وصفاته تعالىٰ وأخلاقه ، فما من آية منها تخلَّق العبد بها في الدنيا . . إلا وقد تعرَّفَ الحقُّ إليه بها ، فإذا دخل الجنةَ ورآها في سوق المعرفة . . عرفَها ، فدخل فيها ، فكانَتْ زيادةً في معرفته بربِّهِ ، وتجليه له فيها بنعيمِ رؤيتِهِ[2]

فإن قلتَ : فما معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « إلا الصورَ مِنَ الرجالِ والنساءِ » ؟ وما مناسبةُ الرجال والنساء لصور آياتِ الصفاتِ والأسماء ؟

قلتُ : ما من آيةٍ يتخلَّقُ بها عبدٌ إلا وقد اشتقَّها اللهُ تعالىٰ من اسمه الرحمـٰن

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٥٠) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (٥١٨/٣) وهو يتحدث عن البرزخية : (ألا ترى الصور التي في سوق الجنة كلُّها برازخ ، تأتي أهل الجنة إلىٰ هـٰذا السوق من أجل هـٰذه الصور ، وهي التي تتقلب فيها أعيان أهل الجنة ، فإذا دخلوا هـٰذه السوق فمن اشتهىٰ صورة دخل فيها ، وانصرف بها إلىٰ أهله كما ينصرف بالحاجة يشتريها من السوق ، فقد يرىٰ جماعة صورة واحدة من صور ذلك السوق فيشتهيها كل واحد من تلك الجماعة ، فعين شهوته فيها التبس بها ، ودخل فيها وحازها ، فيحوزها كل واحد من تلك الجماعة ، ومن لا يشتهيها بعينه واقف ينظر إلىٰ كل واحد من تلك الجماعة قد دخل في تلك الصورة وانصرف بها إلىٰ أهله ، والصورة كما هي في السوق ما خرجت منه)

للرحمة الإيمانية ، وانتقلَتْ إليه إرثاً من أبٍ إيماني أو أمٍّ إيمانية[1] ؛ ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب ٦] ، وهو أبٌ لهم[2] ، فلعلَّ هـٰذا معنىٰ قولِهِ عليه الصلاة والسلام « إلا الصورَ مِنَ الرجالِ والنساءِ »[3]

---

(١) انظر الحديث عن معرفة الآباء العلويات والأمهات السفليات في « الفتوحات المكية » (١/ ١٣٨)

(٢) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤١٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه كان يقرأ هـٰذه الآية : (النبيُّ أولىٰ بالمؤمنينَ من أنفسِهم وهو أبٌ لهم وأزواجُهُ أمهاتُهم) .

(٣) وإليك هـٰذه القطعة في الحديث عن مسألة الصورة والتجليات الإلـٰهية فيها ، وأحسب أن الإمام المصنف قد وقف عليها أو علىٰ مثلها والله أعلم؛ وهي للعارف الحاتمي ؛ حيث يقول في « الفتوحات المكية » (١/ ١٤٨) : (المسألة الأولى : الصورة : وهي تنقسم قسمين : صورة جسمية عنصرية تتضمن صورة جسدية خيالية ، والقسم الآخر صورة جسمية نورية .

ـ فلنبتدئ بالجسم النوري ؛ فنقول : إن أول جسم خلقه الله أجسام الأرواح الملكية المهيَّمة في جلال الله ؛ ومنهم العقل الأول ، والنفس الكل ، وإليها انتهت الأجسام النورية المخلوقة من نور الجلال ، وما ثَمَّ ملكٌ من هـٰؤلاء الملائكة مَنْ وُجِدَ بواسطة غيره إلا النفس التي دون العقل ، وكلُّ ملك خلق بعد هـٰؤلاء فداخلون تحت حكم الطبيعة ، فهم من جنس أفلاكها التي خلقوا منها ، وهم عُمَّارها ، وكذلك ملائكة العناصر ، وآخرُ صنفٍ من الأملاك : الملائكة المخلوقون من أعمال العباد وأنفاسهم ، فلنذكر ذلك صنفاً صنفاً في هـٰذا الباب إن شاء الله تعالىٰ :

اعلم : أن الله تعالىٰ كان قبل أن يخلق الخلق ولا قبلية زمان ، وإنما ذلك عبارة للتوصيل تدلُّ علىٰ نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع ؛ كان جلَّ وتعالىٰ في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وهو أول مظهر إلـٰهي ظهر فيه ، سَرَىٰ فيه النور الذاتيُّ كما ظهر في قوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ، فلما انصبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيَّمين الذين هم فوق عالم الأجسام الطبيعية ولا عرش ولا مخلوق تقدَّمهم .

فلما أوجدهم تجلَّىٰ لهم ، فصار لهم من ذلك التجلِّي غيباً ، كان ذلك الغيب روحاً لهم ؛ أي : لتلك الصور ، وتجلَّىٰ لهم في اسمه الجميل ، فهاموا في جلال جماله فهم لا يفيقون .

=

= فلما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير . . عيَّن واحداً من هٰؤلاء الملائكة الكروبيين ، وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور ، سمَّاه العقلَ والقلمَ ، وتجلَّىٰ له في مجلى التعليم الوهبي ، بما يريد إيجادَهُ من خلقه لا إلىٰ غاية وحدٍّ ، فقَبِلَ بذاته علم ما يكون وما للحق من الأسماء الإلـٰهية الطالبة صدور هـٰذا العالم الخلقي ، فاشتق من هـٰذا العقل موجوداً آخر سماه اللوح ، وأمر القلم أن يتدلَّىٰ إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلىٰ يوم القيامة لا غير ، وجعل لهـٰذا القلم ثلاث مئة وستين سِناً في قلميَّته ؛ أي : من كونه قلماً ، ومن كونه عقلاً ثلاث مئة وستين تجلِّياً أو رقيقة ، كلُّ سِنٍّ أو رقيقة تغترف من ثلاث مئة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية ، فيفصلها في اللوح

فهـٰذا حصر ما في العالم من العلوم إلىٰ يوم القيامة ، فعلمها اللوح حين أودعه إياها القلم ، فكان من ذلك علم الطبيعة ، وهو أول علم حصل في هـٰذا اللوح من علومِ ما يريد الله خلقه ، فكانت الطبيعة دون النفس ، وذلك كله في عالم النور الخالص .

ثم أوجد سبحانه الظلمة المحضة التي هي في مقابلة هـٰذا النور ؛ بمنزلة العدم المطلق المقابل للوجود المطلق ، فعندما أوجدها أفاض عليها النور إفاضة ذاتية بمساعدة الطبيعة فلأَمَ شعثَها ذلك النورُ ، فظهر الجسم المعبر عنه بالعرش ، فاستوىٰ عليه الاسم الرحمـٰن بالاسم الظاهر ، فذلك أول ما ظهر من عالم الخلق ، وخلق من ذلك النور الممتزج الذي هو مثل ضوء السحر الملائكةَ الحافين بالسرير ؛ وهو قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ، فليس لهم شغل إلا كونهم حافين من حول العرش يسبحون بحمده ، وقد بينا خلق العالم في كتاب سميناه : « عقلة المستوفز » ، وإنما نأخذ منه في هـٰذا الباب رؤوس الأشياء .

ثم أوجد الكرسي في جوف هـٰذا العرش ، وجعل فيه ملائكة من جنس طبيعته ، فكلُّ فلك أصلٌ لما خَلَقَ فيه من عُمَّاره ، كالعناصر فيما خَلَقَ منها من عُمَّارها ، كما خلق آدمَ من تراب ، وعمر به وببنيهِ الأرضَ .

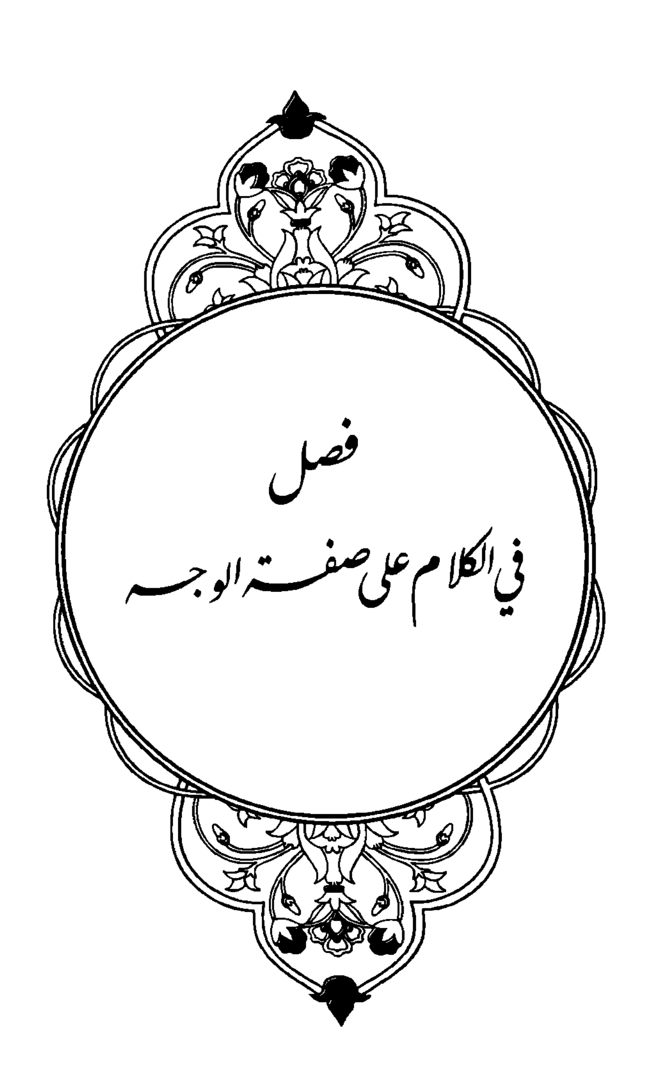
وقَسَمَ في هـٰذا الكرسي الكريم الكلمة إلىٰ خبر وحُكْم ؛ وهما القدمان اللتان تدلَّتا له من العرش كما ورد في الخبر النبوي .

ثم خلق في جوف الكرسي الأفلاك ، فلكاً في جوف فلك ، وخلق في كلِّ فلك عالماً منه يعمرونه ، سمَّاهم ملائكة ؛ يعني : رسلاً ، وزيَّنَها بالكواكب ، وأوحىٰ في كل سماء أمرها ، إلىٰ أن خلق صور المولَّدات . =

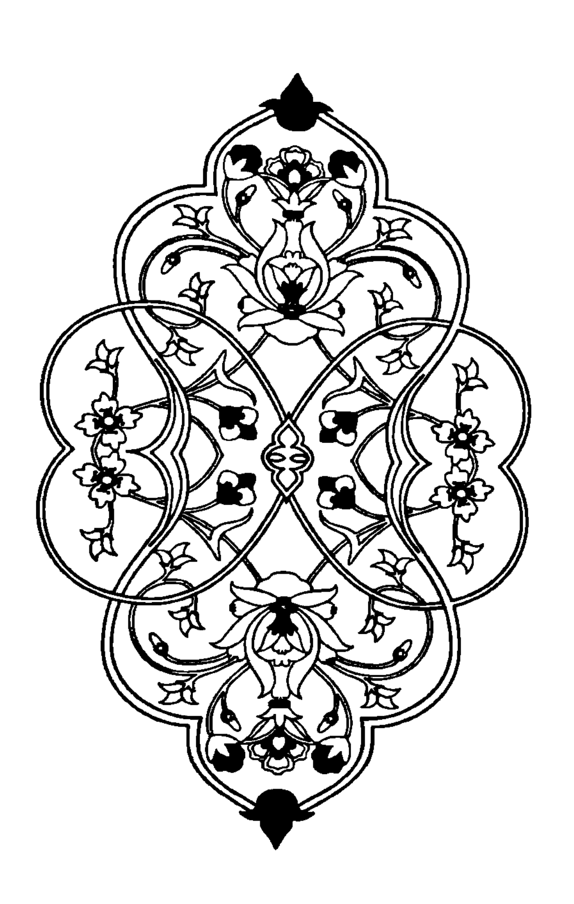
* * *

= ولما أكمل الله هٰذه الصور النورية والعنصرية بلا أرواح تكون غيباً لهٰذه الصور.. تجلّىٰ لكل صنف من الصور بحسب ما هي عليه ، فتكوَّنَ عن الصور وعن هٰذا التجلي أرواحُ الصور ، وهي المسألة الثانية ، فخلق الأرواح ، وأمرها بتدبير الصور ، وجعلها غير منقسمة ، بل ذاتاً واحدة ، وميَّزَ بعضَها عن بعض فتميَّزَتْ ، وكان ميَّزَها بحسب قبول الصور من ذلك التجلي ، وليست الصور بأَيْنِيَّات لهٰذه الأرواح على الحقيقة ، إلا أن هٰذه الصور لها كالملك في حق الصور العنصرية ، وكالمظاهر في حق الصور كلها

ثم أحدث الله الصور الجسدية الخيالية بتجلٍّ آخر بين اللطائف والصور تتجلّىٰ في تلك الصور الجسدية الصور النورية والنارية ظاهرةً للعين ، وتتجلّى الصور الحسية حاملةً للصور المعنوية في هٰذه الصور الجسدية في النوم وبعد الموت وقبل البعث ؛ وهو البرزخ الصوري ؛ وهو قرن من نور أعلاه واسع وأسفله ضيق ، فإن أعلاه العماء ، وأسفله الأرض ، وهٰذه الأجساد الصورية التي يظهر فيها الجن والملائكة وباطن الإنسان ، وهي الظاهرة في النوم وصور سوق الجنة ، وهي هٰذه الصور التي تعمر الأرض) ، ولولا علقة هٰذا الكلام بسياق الإمام المصنف كما ترىٰ. . لما أُورد هنا .



فصل
في الكلام على صفة الوجه



فصل

في الكلام على صفة الوجه

ومنها : صفةُ الوجه

وقد جاء ذكرُهُ في آيات كثيرة ، فإذا أردت أن تعلمَ حقيقتَهُ ومظهره من الصورة[1] .. فاعلم أن حقيقتَهُ من غمام الشريعة : بارقُ نور التوحيد ، ومظهرَهُ من العمل : وجهُ الإخلاص ؛ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ . . . ﴾ الآيةَ [الروم ٣٠][2] .

ويدلُّ على أن وجهَ الإخلاص مظهرُهُ : قولُهُ تعالىٰ ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان ٩] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل ٢٠] ، والمرادُ في ذلك كلِّهِ : الثناءُ بالإخلاص علىٰ أهله تعبيراً بإرادة الوجهِ عن إخلاص النيّة ، وتنبيهاً علىٰ أنه مظهرُ وجهِهِ سبحانه وتعالىٰ .

ويدلُّ علىٰ أن حقيقةَ الوجه هو بارقُ نور التوحيد : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] أي : إلا

---

(١) لما تقدم (ص ١٤٤) من أن لكل صورة حقيقةً ومظهراً .

(٢) والآية بتمامها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، قال العلامة ابن عطية في « المحرر الوجيز » (٤/٣٣٦) : (وإقامة الوجه : هي تقويم المقصد ، والقوة على الجد في أعمال الدين ، وذكر الوجه لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه) .

نورَ توحيدِهِ ؛ وهو نورُ السماوات والأرض ؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذُ بوجهِكَ الذي أشرقَتْ بهِ الظُّلماتُ ، وصلحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ »[1]

وبهـٰذا تفهمُ سرَّ قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

تنبيه

[علىٰ معنى التعوُّذ والتعلُّق بالصورة التي يأتي بها الله يومَ القيامة][2]

قولُهُ صلى الله عليه وسلم في حديثِ الرؤية « فيأتيهم ربُّهم في غيرِ الصورةِ التي يعرفونَ »[3] ؛ أي في ظُلَّةِ آيات العذاب ، ومظهرِ الأعمال السيئات ، « فيقولونَ : نعوذُ باللهِ منكَ » أي : فيستعيذون باللهِ من تلك الصورة كما كانوا في الدنيا ينكرونَها ويستعيذونَ منها

قولُهُ : « فيأتيهم في الصورةِ التي يعرفونَ » أي : في مظهرِ أعمال البِرِّ ، وظُلَّةِ صفة الرحمة والنبوَّة التي كانت تحيي قلوبَهم بغيثِ الهدىٰ والعلم ، « فيقولونَ : أنتَ ربُّنا » ، فيعرفونَهُ بواسطة تعرُّفِهِ لهم في الدنيا ؛ تحقيقاً لقولِهِ صلى الله عليه وسلم : « أهلُ المعروفِ في الدنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ »[4].

* * *

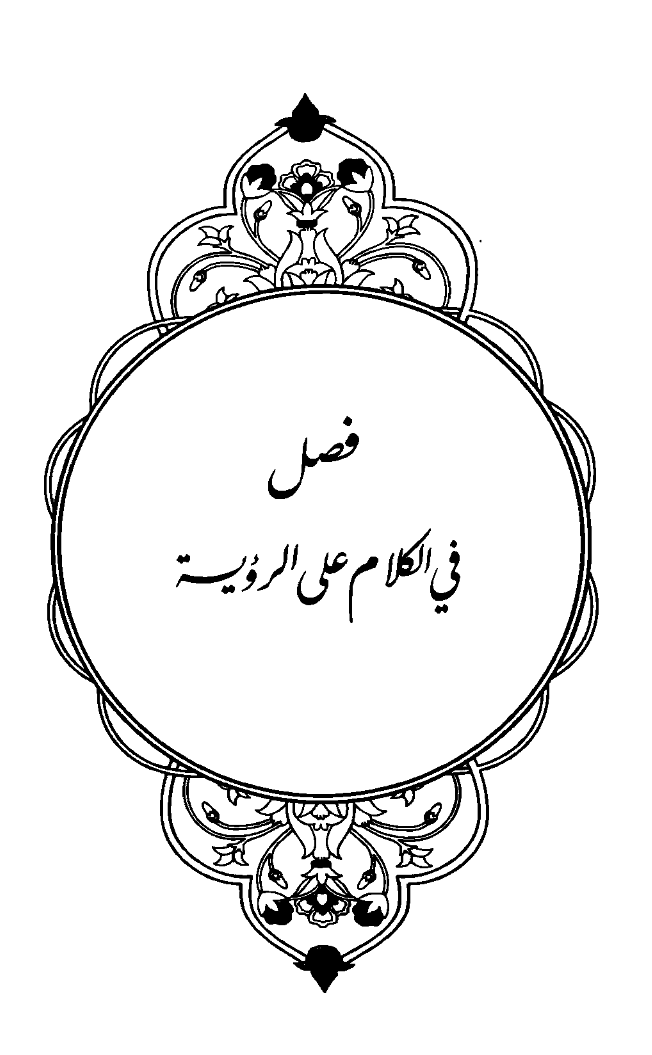
---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣/ ٧٣) من حديث سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه .

(٢) هـٰذا التنبيه فيه استدراك لمبحث الصورة المتقدم (ص ١٤٣) .

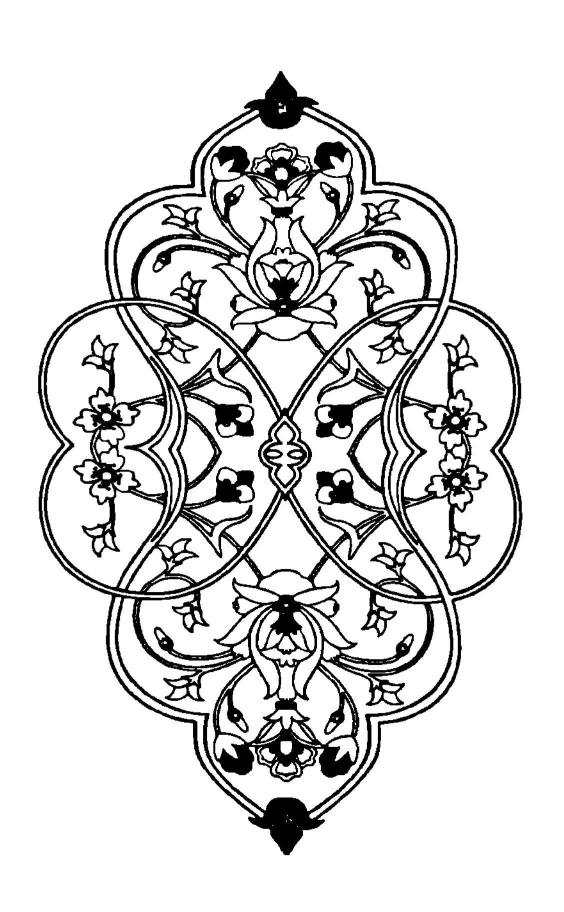
(٣) تقدم (ص ١٤٣) .

(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٢١) من حديث سيدنا قبيصة بن برمة الأسدي رضي الله عنه ، وتمامه : « وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة » ، ولا يخفى الرمز الذي أومأ إليه الإمام المصنف رحمه الله تعالىٰ .



فصل

في الكلام على الرؤية



فصل

في الكلام على الرؤيــة

ومنها : صفةُ الرؤية[١]

وقد جاءَتْ في غيرِ ما آيةٍ ، وفي أحاديثَ ؛ منها : في هـٰذا الحديث[٢] : قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « هل تمارونَ في رؤيةِ القمرِ » ، وفي رواية : « في الشمسِ »[٣]

وإذا ثبتَ تجلِّيه تعالىٰ في صورة روحِ الشريعة[٤] . . لم يبقَ في رؤيته إشكال .

---

(١) لا شكَّ أن رؤية الله تعالىٰ لخلقه صفةٌ له سبحانه ؛ وهي صفة البصر ، إلا أن حديث الإمام المصنف هنا عن رؤية العباد لمولاهم جل وعز ؛ وهي فعله ، وليست صفة له تعالىٰ ؛ ولهـٰذا تُنعتُ بالجواز ؛ فيقال : يجوز في حقِّهِ سبحانه أن يُرىٰ ، وصفات الحق لا تكون إلا واجبة ، فتحمل عبارة المصنف علىٰ مطلق الوصفية التي يدخل تحتها الوصف بالأفعال ، فيقال : يُوصف الله تعالىٰ بأنه يُرىٰ ؛ بمعنىٰ : يخلق معنىً وإدراكاً في قلب الرائي يسمَّىٰ رؤية له تعالىٰ ، فيدخل في ذلك الجائزات في حقه ، لا علىٰ معنى الصفة الاصطلاحية عند علماء العقيدة .

ووجه كون رؤيته سبحانه من المتشابه : هو أن القديم لا سبيل للحادث إلىٰ إدراكه ؛ والرؤية نوع إدراك ، إلا أن الشارع أخبر بوقوعها ، فوجب فهمها بردِّها إلىٰ محكمها : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

(٢) يعني : حديث الصورة المذكور آنفاً (ص ١٤٣) .

(٣) هما جملتان من حديث واحد رواه البخاري (٨٠٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظ الجملة الثانية : « فهلْ تمارونَ في الشمسِ ليسَ دونَها سحابٌ ؟ » .

(٤) انظر ما تقدم (ص ١٣٢) .

وإنَّما عبَّرَ بالقمر والشمسِ عن حقيقةِ الوجه ؛ وهو نورُ التوحيد .

واختلافُ الروايتينِ يجوز أن يكونَ تنبيهاً على اختلافِ درجات الرائينَ في نعيم الرؤية[١] ، ويجوزُ أن يكون باعتبار الرؤية في البرزخ والآخرة ؛ فإنَّ البرزخ في وجودِهِ كالليل ، وآيته القمرُ ، والآخرةَ كالنهار ، وآيته الشمسُ .

قولُهُ : « ليسَ دونَها سحابٌ » فيه تربيةٌ لأهل المراقبة ؛ وذلك لأن غالبَ أهل المراقبة لا يشهدون بقلوبِهم عند العبادة والمراقبة إلا ظُلَلَ آياتِ الشريعة ، ويحجبون بسحابها عن شهود وجهِ ربِّهم ؛ وهو نورُ توحيده .

فإذا كان يومُ القيامة كُشِفَ الغطاء ، واحتدَّ البصر[٢] ، فيرون وجهَ ربِّهم كشمسٍ ليس دونها سحابُ الأعمال ، ولا ظُلَلُ غمام الشرائع ، بل هو أقربُ إليهم من أعمالهم ؛ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦][٣] .

---

(١) تقدم أنهما ليستا روايتين ، بل جملتان تنويعيَّان في حديث واحد ، وهـٰذا لا يعطِّل ما أهدفَ له الإمام المصنفُ وعرضَ لبيانه ، وتقدم أن اختلاف الرؤية عائد لاختلاف الاعتقادات في الدنيا ؛ فكلٌّ يراه سبحانه على مبلغ علمه به تعالىٰ وجلَّ .

(٢) احتدَّ البصر : صُقل فاشتدَّ وقوي ، فهو حديد ، قال تعالىٰ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

(٣) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٩/ ٦٢٨) عن رؤيته سبحانه : (هـٰذه هي غاية الحسنىٰ ، ونهاية النعمىٰ ، وكلُّ ما فصَّلناه من التنعُّم عند هـٰذه النعمة يُنسىٰ ، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهىً ، بل لا نسبةَ لشيء من لذات الجنة إلىٰ لذة اللقاء) .

ثم قال : (فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوىٰ لقاء المولىٰ ، وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرَّحة في المرعىٰ) .

وقال أيضاً (٨/ ٤٣٠) وهو يتحدث عن تفاوت الرؤية في الجنة : (وبحرُ المعرفة لا ساحل له ، فالإحاطة بكُنْهِ جلال الله محال ، فكلَّما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار =

تنبيه

[علىٰ إنكار القاضي ابن العربي المالكي رؤيةَ الله في الموقف]

قد أنكرَ القاضي أبو بكر بن العربيّ في « الأحوذي »[1] ثبوتَ الرؤية في الموقف ، وقال : (إن نعيمَ الرؤية لا يكون إلا للمؤمنينَ في الجنة ، وما جاءَ من الرؤية في الموقف إنَّما هو علىٰ سبيلِ الامتحان والاختبار)[2]

والذي نعتقده ثبوتُ الرؤية ونعيمِها للمؤمنينَ في الموقف علىٰ ما صحَّ في الحديث[3] ، وذلك صريحٌ في قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ـ٢٣][4]

= مملكته وقويت . . كثر النعيمُ في الآخرة وعظم ، كما أنه كلَّما كثرَ البذرُ وحسُنَ . . كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هـٰذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في صعيد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة .

ولهـٰذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله » ؛ لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، ويستدعي ذلك زماناً لا محالة .

فمن أحبَّ الموت أحبَّه لأنه رأىٰ نفسه واقفاً في المعرفة ، بالغاً إلىٰ منتهىٰ ما يُسِّرَ له ، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيدَ معرفة تحصل له بطول العمر ، ورأىٰ نفسه مقصِّراً عما تحتمله قوته لو عُمِّرَ ، فهـٰذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة ، وأما سائر الخلق فنظرهم مقصورٌ علىٰ شهوات الدنيا ؛ إن اتسعت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تمنَّوا الموت ، وكلُّ ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة ، فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة ، والعلم والمعرفة أساس كل سعادة) ، ما أغور هـٰذا الكلام !

(١) أراد : كتاب « عارضة الأحوذي » الذي شرح فيه « سنن الترمذي » .

(٢) انظر « عارضة الأحوذي » (١٠/ ٢٣) ، وعبارته فيها : (إنما محل الرؤية الجنة ، وإنما تكون هـٰذه المراجعات بين الحق وبين الواسطة ، وإلا فإن الله لا يكلم الكفار ولا يرونه ، ولا يراه أحد إلا بها ، ولا يكلمهم إلا في الجنة بإجماع العلماء) .

(٣) يعني : في الحديث المارِّ الذكر قريباً ، الذي فيه المراجعة وذكر التجلي في الصورة .

(٤) أما كون الآية الكريمة صريحةً بوقوع الرؤية للمؤمنين يوم القيامة . . فنعم ، إلا أنها ليست =

تنبيـــه

[على الرداء والحُجُبِ والسُّبحات لوجهه سبحانه]

لوجهِ ربِّنا سبحانه وتعالىٰ : رداءٌ ، وله حُجُبٌ ، وله سُبُحات .

[بيان معنى الرداء]

فأمَّا رداؤُهُ : فقد نبَّهَ عليه قولُهُ صلى الله عليه وسلم في حديث [أبي بكرِ بن] عبدِ الله بن قيسٍ عن أبيه[1] : « جنَّتانِ مِنْ فضَّةٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وجنَّتانِ مِنْ

- صريحةً في وقوعها في الموقف قبل دخول الجنة ، ولـٰكنها محتملة له ؛ لإطلاق النظر في ذلك اليوم ، فهـٰذا هو وجه صراحتها ، ولعل الإمام المصنف ركَّب بين الحديث والآية دليلاً لما ذهب إليه ، والله أعلم ، وقد نقل عنه هـٰذا السياق الإمام ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٦٩) .

فائدة : قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٣٢) : (فإن قلت : فهـٰذه الرؤية محلُّها القلب أو العين في الآخرة ؟

فاعلم : أن الناس قد اختلفوا في ذلك ، وأرباب البصائر لا يلتفتون إلىٰ هـٰذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقُهُ عن أن يلتفت إلىٰ أن رؤيته : هل تُخلق في عينه أو في جبهته ؟ بل يقصد الرؤية ولذَّتَها ، سواء كان ذلك بالعين أو غيرها ، فإن العين محل وظرف ، لا نظر إليه ولا حكم له .

والحق فيه : أن القدرة الأزلية واسعةٌ ، فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هـٰذا في حكم الجواز .

فأما الواقع في الآخرة من الجائزين : فلا يدرك إلا بالسمع ، والحق : ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع ؛ أن ذلك يخلق في العين ؛ ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع يجري علىٰ ظاهره ؛ إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة ، والله تعالىٰ أعلم) .

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق ؛ إذ الراوي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام هو سيدنا أبو موسى الأشعري عبدُ الله بن قيس رضي الله عنه .

ذهبٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وما بينَ القوم وبينَ أنْ ينظروا إلىٰ ربّهم إلا رداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهِهِ تعالىٰ في جنَّةِ عدنٍ »[(١)]

فالرداءُ ها هنا واللهُ أعلم هو ما يحجبُ القلبَ عن رؤية الربِّ ؛ وهو أن يكون في قلبِكَ كبرياءُ لغيره عزَّ وجلَّ ، فأهلُ الجنة ليس لهم مانعٌ من نعيم الرؤية وشهود نور التوحيد إلا رداءُ الكبرياء ، فمَنْ كَبُرَ في قلبه غيرُ الله سبحانه ؛ من غُرَفٍ أو تُحَف ، أو قصورٍ أو حُور ، أو مأكولٍ أو مشروب ، أو شيءٍ سواهُ . . حُجِبَ عن الله سبحانه[(٢)]

---

(١) رواه البخاري (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « جنة عدن » قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١٠/٤٠٩) : (أي : جنة إقامة ، وهو ظرف للقوم ، لا لله تعالىٰ ؛ إذ لا تحويه الأمكنة) .

(٢) سياق الإمام المصنف هنا : يُفهم منه أن أهل الجنة وهم في الجنة قد يحجبون برداء الكبرياء ، وفسَّره بأن يقع في قلب المحجوب عن الرؤية تكبيرٌ لشيء سواه سبحانه ، ويمكن حمل هٰذا المعنىٰ (تكبير ما سواه تعالىٰ) علىٰ الفترات الواقعة في الجنة التي لا تحصل فيها رؤية لله تعالىٰ ، فيَحجبُ الله هٰؤلاء العبادَ عن رؤيته في الجنة بقدر الغفلات الحاصلة في الدنيا عند تكبير ما سواه ، فليس النظر إلىٰ وجهه الكريم في الجنة للمؤمنين علىٰ رتبة واحدة ؛ فلا يساوي نظرَ الأنبياء لربهم ـ فضلاً عن ماهية هٰذه الرؤية ـ نظرُ غيرهم من عامة المؤمنين ، بل بعض المؤمنين يشتغلون في الجنة بملاذِّهم ، وهٰذا الشغل هو نعيمهم ، وكلٌّ نعيمه علىٰ قدر معرفته بربه ، وقد نقلت لك (ص ١٤٨) قالةَ العارف أبي يزيد : (إن لله عباداً لو حجبَهم في الجنة عن رؤيته . . لاستغاثوا من الجنة كما يستغيثُ أهلُ النار من النار) ، وجعل الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/ ٤٣٢) المانعَ من الرؤية بعد دخول الجنة . . وقوع الهيبة من ذي الجلال سبحانه عند تبوُّئهم مقاعدَهم فيها .

وقال العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (١/ ٩٢) بعد حديثه عن رؤيته عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه : (ومن ها هنا اختلفوا في نفس الرؤية لعامة المسلمين في الجنة : هل تحصل برفع الحجاب ؟ أو تكون في الحجاب ؟

فجنح الشيخ الأكبر : إلىٰ أن رداء الكبرياء لا يُرفعُ في الجنة أيضاً ؛ فإن المرئي في الرداء يعدُّ ذاتُهُ مرئياً عرفاً ، كما لو رأيت رجلاً في ملبوس ، لا تقول إلا إنك رأيتَ ذاتَهُ حقيقةً ، =

ومن عرفَ اللهَ سبحانه صَغُرَ عنده كلُّ شيء[1] ، فارتفعَ عن بصره رداءُ الكبرياء لكلِّ شيء ، فشهدَ اللهَ سبحانه في كلِّ شيء

وبهذا يظهرُ لك سرُّ افتتاح الصلاة بالتكبير ؛ لأن الصلاةَ حضرةُ التجلِّي والمناجاة ، والمراقبة لأنوار سُبُحات وجههِ سبحانه وتعالىٰ[2]

= ولا يشترط لرؤية الشخص رؤيتُهُ مجرَّداً عن اللباس ، وإنما يكون المراد منه ما هو المعروف ، والمعروف فيها ما قلنا ، فكذلك الله سبحانه يكون مرئيّاً ألبتة ، إلا أن رؤيته تكون في رداء الكبرياء عنده ؛ وهي التي بشَّرَ بها الله سبحانه عبادَهُ بالغيب .

وذهب العلماء : إلىٰ أنها تكون برفع الحجاب ؛ علىٰ ما وقع من تشبيه رؤيته برؤية القمر ليلةَ البدر ، وهٰذا التشبيه لا يرد علىٰ ما اختاره الشيخ كما سبقت الإشارة إليه ؛ فإن المراد في الأحاديث من عدم الحجاب عنده . . سوىٰ حجابه الذي هو نوره ورداؤه الكبرياء ، والرؤية مع الرداء رؤية للذات عرفاً وشرعاً بلا تأويل وتأمل .

قلت : وليس هٰذا اختلافاً ، وإنما هو اختلاف الأنظار ، ونظرُ العلماء أحكمُ ، ونظرُ أرباب الحقائق أسبقُ وألطف ، فهم يمثِّلون علىٰ ما يظهر من ظاهر الشريعة ، وهٰؤلاء يراعون ما كشف الله سبحانه عليهم من حقائق الشريعة وخبيئة أسرارِها ؛ وفي الحديث : « لكلِّ آيةٍ ظهرٌ وبطنٌ ، ولكلِّ حدٌّ مطلعٌ » ، والأمر إلى الله سبحانه) .

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٥٦) عن ذي النون المصري قال : بينا أنا أسير في بلاد الشام إذا أنا بعابد خرج من بعض الكهوف ، فلما نظر إليَّ استتر بين تلك الأشجار ، ثم قال : أعوذ بك سيدي ممَّنْ يشغلني عنك ، يا مأوى العارفين ، وحبيب التوابين ، ومعين الصادقين ، وغاية أمل المحبِّين ، ثم صاح : وا غمَّاهْ من طول البكاء ، وا كرباهْ من طول المكث في الدنيا ، ثم قال : سبحان من أذاق قلوبَ العارفين به حلاوةَ الانقطاع إليه ، فلا شيء ألذُّ عندهم من ذكره والخلوة بمناجاته ، ثم مضىٰ وهو يقول : قدوس قدوس قدوس .

قال ذو النون : فناديته : أيُّها العابد ؛ قفْ لي ، فوقف لي وهو يقول : اقطعْ عن قلبي كلَّ علاقة ، واجعل شغله بك دون خلقك ، فسلمتُ عليه ، ثم سألته أن يدعو اللهَ لي ، فقال : خفَّفَ الله عنك مؤنَ نصب السير إليه ، ودلَّكَ علىٰ رضاه حتىٰ لا يكون بينك وبينه علاقة ، ثم سعىٰ من بين يديَّ كالهارب من السَّبُع .

(٢) روى البخاري (٤٠٥) ، ومسلم (٥٥١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأىٰ نخامة في القبلة ، فشَقَّ ذلك عليه حتىٰ رئي في وجهه ، فقام فحكَّهُ=

إشارة

[إلىٰ أن نعيم الرؤية يحصل لأرباب القلوب في رياض جنة الأذكار وساعة المراقبة]

صحَّ في الحديث : « أنَّ غراسَ الجنَّةِ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ »[1]

وفي الحديث : « إذا رأيتُمْ رياضَ الجنَّةِ فارتَعوا » ، قيل : وما رياضُ الجنة ؟ قال : « حِلَقُ الذكرِ »[2]

= بيده ، فقال : « إنَّ أحدَكم إذا قامَ في صلاتِهِ فإنَّهُ يناجي ربَّهُ » ، أو « إنَّ ربَّهُ بينَهُ وبينَ القبلةِ ، فلا يبزقَنَّ أحدُكم قِبَلَ قبلتِهِ ، ولـٰكنْ عن يسارِهِ أو تحتَ قدميهِ » ، ثم أخذ طرف ردائه ، فبصق فيه ، ثم ردَّ بعضه علىٰ بعض ، فقال : « أو يفعلُ هـٰكذا » .

وعن حال المكبِّر في الصلاة واستحضار معنىٰ هـٰذا الكبرياء يقول حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦١٧/١) : (أما التكبير : فإذا نطق به لسانك فينبغي ألا يكذبه قلبُكَ ؛ فإن كان في قلبك شيءٌ هو أكبرُ من الله سبحانه . . فالله يشهدُ إنك لكاذبٌ وإن كان الكلام صدقاً ؛ كما شهد على المنافقين في قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسولُ الله ، فإن كان هواك أغلبَ عليك من أمر الله عز وجل . . فأنت أطوعُ له منك لله تعالىٰ ؛ فقد اتخذته إلـٰهَكَ وكبَّرتَهُ ، فيوشك أن يكون قولك : الله أكبر . . كلاماً باللسان المجرد ، وقد تخلَّفَ القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك ! لولا التوبة والاستغفار ، وحسن الظن بكرم الله تعالىٰ وعفوه) ، وهـٰذا كلام يعين قارئه علىٰ ما أشار له المصنف رحمه الله تعالىٰ .

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٢) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه بتمامه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسريَ بي ، فقالَ : يا محمد ؛ أقرئْ أمَّتَكَ منِّي السلامَ ، وأخبرْهم أنَّ الجنَّةَ طيبةُ التربة ، عذبةُ الماء ، وأنَّها قيعانٌ ، وأنَّ غراسَها : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ » .

ووجهُ الإشارة : أن التسبيح تنزيه وتقديس ؛ وهو جامع لكل صفات الجلال (السلبية عند المتكلمين) ، وأن التحميد ثناء راجع لإثبات صفات الكمال (المعاني عند المتكلمين ، والمعنوية تبع له) ، وهما مجامع المعرفة الإلـٰهية .

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٠) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولفظه : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » . =

وفي ذلك إشارةٌ : إلىٰ أن نعيمَ الرؤية يحصلُ لأرباب القلوب في رياض جنَّةِ الأذكار ، وعند المراقبةِ ، وارتفاعِ رداء الكبرياء عن وجه التوحيد .

[بيان معنى الحُجُب][1]

وأما حُجُبُهُ : فقد ثبتَ في « الصحيح » : « حجابُهُ النورُ » ، وفي رواية : « حجابُهُ النارُ »[2] ، وليسَ بين الروايتين تنافٍ ، ولك في تأويله سبيلانِ :

أحدهما : أن وجهَهُ سبحانه هو الباقي ذو الجلالِ والإكرام ؛ فله تجلٍّ بجلاله في حجابِ النار ؛ كما تجلَّىٰ لموسىٰ عليه السلام حين آنسَ من جانب

= ووجهُ الإشارة : أن الجنة هي محلُّ الجزاء ، وهي لا تطلب لذاتها ، بل لجوار الحقِّ فيها ؛ ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ، فالذاكر الحاضر محصِّلٌ لهـٰذا المقصود العظيم ؛ فهو في الجنة وإن لم يدخلها بعدُ .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ رمز الحجة الغزالي في خبايا ثنايا قوله في « إحياء علوم الدين » (٥/٥٥) : (جملة عالم الملك والملكوت إذا أُخذَتْ دفعةً واحدة تسمى الحضرة الربوبية ؛ لأن الحضرة الربوبية محيطةٌ بكل الموجودات ؛ إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالىٰ وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلَّىٰ من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم ، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته ، وبمقدار ما تجلَّىٰ له من الله وصفاته وأفعاله) .

وحدَّثَ عن علاقة الذكر بالسعادة الأبدية في « إحياء علوم الدين » (٢/ ٤٥٩) أيضاً فقال : (اعلمْ : أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاةَ إلا في لقاء الله تعالىٰ ، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالىٰ وعارفاً بالله سبحانه ، وأن المحبة والأنس لا تحصلُ إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه ، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله ، وليس في الوجود سوى الله تعالىٰ وأفعاله ، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها ، والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة ، وكلُّ ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار) .

(١) في (ب) وحدها زيادة هنا : (لطيفة) .

(٢) رواه مسلم (١٧٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو متضمِّن للروايتين المذكورتين هنا .

الطورِ ناراً[1] ، وله تجلٍّ بإكرامه في حجابِ النور ؛ كما تجلَّىٰ لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم في ليلةِ الإسراء ؛ في قولِهِ صلى الله عليه وسلم « رأيتُ نوراً »[2] ، وهٰذانِ الحجابانِ لأهل الخصوص .

---

(1) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٢٩ـ٣٠] .

(2) رواه مسلم (١٧٨) عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر : لو رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألتُهُ ، فقال : عن أيِّ شيء كنتَ تسألُهُ ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربَّكَ ؟ قال أبو ذر : قد سألتُ ، فقال : « رأيتُ نوراً » .

وقال العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (١/ ٩١) في شرح قوله عليه الصلاة والسلام : « نور أنَّىٰ أراه » و« رأيت نوراً » : (وهٰذا أيضاً يحتمل المعنيين ؛ أي : رأيت نوراً فحسب دون الذات ومنعني النورُ عن رؤيتها ، أو رأيت ذاتاً منوَّراً ، وقد فهم الناس التقابلَ بين هٰذين الاحتمالين ، وهما عندي واحدٌ ؛ فإن الرؤية التي حصلت له صلى الله عليه وسلم كانت رؤيةً حقيقية ، وأمكن أن تكون بدون الحجاب أيضاً ، إلا أن مهابة الكبرياء منع التحديقَ إليه ، فصارت بين بين ، وكان كما قيل : (من الكامل)

فبـدا لينظـرَ كيـفَ لاحَ فلـمْ يطـقْ نظـراً إليـهِ وردَّهُ أشجـانُـهُ

ولٰكنه صلى الله عليه وسلم تشرَّف برؤيته تعالىٰ ، ومنَّ عليه ربُّهُ بها وكرَّمه ، وتفضَّل عليه بنواله ، وأفاض عليه من إفضاله ، فرآه رآه ـ كما قال أحمد رحمه الله تعالىٰ مرتين ـ ، إلا أنه رآه كما يرى الحبيبُ إلى الحبيب ، والعبدُ إلىٰ مولاه ؛ لا هو يملكُ أن يكفَّ عنه نظره ، ولا هو يستطيعُ أن يشخصَ إليه بصرَه ؛ وهو قوله تعالىٰ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ، فالزيغُ : أن يتغافلَ عن جمال وجهه ، فلا يراه مستجمعاً ، والطغيانُ : أن يراه ولٰكن يتجاوز عن حدِّهِ ، فيقع في إساءة الأدب ، وهٰذا إثبات لرؤيته في غاية اعتدال .

فالحاصل : أنها كانت بحيث لا يصفُها واصف ، أما أنها كيف كانت ؟ فلا تسأل عنها ؛ فإنها كانت وكانت . (من مجزوء الكامل)

أشتــاقُــهُ فــإذا بــدا أطــرقــتُ مِــنْ إجــلالِــهِ

ولو كانت رؤية منام لما احتيج إلىٰ تلك الاحتراسات) .

التأويلُ الثاني وهو لأربابِ العموم ، يؤخذُ ممَّا قرَّرناه أنه لا فاعلَ في الكون غيرُهُ تعالىٰ ، ولا هاديَ ولا مضلَّ سواه ، يهدي من يشاءُ ، ويضلُّ من يشاءُ ؛ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء ٢٣]

فوجهُ توحيدِهِ : هو الذي يُنعِّمُ ويَهْدي بإقباله ، ويُعذِّبُ ويُضِلُّ بإعراضه

وله في هدايتِهِ وإضلاله حجابانِ

فحجابُهُ في هدايته النورُ وهو آياتُهُ المتجلِّية للقلوب بواسطة شرائعِ رُسُلِهِ ؛ قال تعالىٰ ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة ١٥ـ ١٦]

وحجابُهُ في إضلاله النارُ : وهي الأكسابُ المغشِّيةُ للقلوب من وساوس الشيطان المخلوقِ من النار[1] ؛ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤ـ١٥] .

فقد تبيَّنَ بذلك أن وجهَ توحيدِهِ **هو الهادي** بإقباله في حجابِ نورِ الاتِّباع للرُّسُل ؛ ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه ١٢٣] ، **وأنه هو المضلُّ** بإعراضِهِ في حجابِ نارِ الاتِّباع لوساوس الشيطان ، وأنه لا تنافيَ بين قوله : « حجابُهُ النورُ » ، وبين قوله : « حجابُهُ النارُ » .

وبذلك تفهمُ سرَّ قوله صلى الله عليه وسلم « اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً . . . » إلىٰ قوله : « واجعلْني نوراً »[2] ؛ أي : اجعلني نوراً من جميع الوجوهِ دالّاً عليك ، وحجاباً يتنعَّم برؤيتي مَنْ أراد التنعُّمَ بحسن النظرِ إليك .

---

(١) **الأكساب** : جمع كسب ؛ وهو حظُّ المكلَّف من الفعل ، طاعة كان أو معصية ؛ وهو تعلُّق القدرة الحادثة المتوهَّمة بالأفعال الاختيارية الحادثة .

(٢) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

لطيفة

[في بيان تعدُّد حُجُب الأنوار]

جاءَ في « الصحيح » : « إنَّ للهِ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ »[1] ، وذلك لا تنافيَ بينه وبين قوله : « حجابُهُ النورُ » ؛ لأنه جنسٌ يصلح لشمول الأفراد وإن تعدَّدَتْ .

والحقُّ : أن حُجُبَ أنواره لا حصرَ لها[2] ، لأنه ما من شيءٍ إلا وهو حجابٌ من حُجُبِ وجه ربِّنا تعالىٰ ، وآيةٌ من آيات وحدانيَّتِهِ[3]

وفـــي كـــلِّ شـــيءٍ لـــهُ آيـــةٌ   تـــدلُّ علـــىٰ أنَّـــهُ واحـــدُ[4]

---

(1) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٤٠٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٧١) ، وقد أفاض القول في تفسير هٰذه الرواية الإمام الغزالي في « مشكاة الأنوار » ، (ص٨٤) .

(2) قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٧٨) وهو يتحدث عن هٰذه الحُجُب : (ذكره السبعين ليس للتحديد ، بل عبارةٌ عن الكثرة ؛ لأن الحجب إذا كانت أشياءَ حاجزة فالواحدُ منها يحجب ، والله لا يحجبُهُ شيء ، والقدرة لا نهايةَ لها ، وإن كانت الحجب عبارةً عن الهيبة والإجلال ، والأعداد دونها منقطعةٌ بكلِّ حال ، والغايات مرتفعة ، وكيف تكون السبعين غايةً مع خبر : « إن دون الله يوم القيامة سبعين ألف حجاب » ؟! والنورُ وإن كان سبباً لإدراك الأشياء ورؤيتها ، لـٰكنه يَحْجُبُ كالظلمة ، والحاجبُ القدرة دون الجسم ، وحُجبَ هـٰذا الملَكُ الأعظم عن تجلِّي كُنْهِ عظمته ؛ لأنه هو وغيره لا يصبرون لعظيمِ هيبته ، فحجبَهم ليكون لهم البقاءُ إلى الآجال المضروبة ، وإلا هلكوا) .

(3) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٧٢) ناقلاً بعض ما قال العلماء في تفسير هـٰذا الخبر : (قيل : معناه : أن لله عز وجل علاماتٍ ودلالاتٍ علىٰ وحدانيته ؛ لو شاهدها الخلق لقامت مقامَ العِيان في الدلالة عليه ، غير أنه خلق دون تلك الدلائل سبعين ألف حجاب من نور وظلمة ؛ ليتوصل الخلق إلىٰ معرفته بالأدلة النظرية دون المعارف الضرورية) .

(4) البيت من المتقارب ، وهو لأبي العتاهية كما في « ديوانه » (ص١٠٤) ، وقبله : =

وبمثل ذلك : تفهمُ قولَهُ سبحانه وتعالى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ . . . ﴾ الآيةَ [النور ٣٥] ، وقولَهُ تعالىٰ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة : ١١٥]

وبذلك : تعلمُ أن ذكر عدد السبعين في حُجُبه ليس للحصر ؛ قال الأزهريُّ وغيره من علماء اللغة : (العرب تضعُ السبعَ موضع التضعيف وإن جاوز السبع ، وأصلُهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ . . . ﴾ الآيةَ ، [البقرة : ٢٦١])[١]

وأصلُ الاعتبار لهٰذا العددِ في تضعيف حُجُبِهِ تعالىٰ : أن لله صفاتٍ ذاتيَّةً[٢] ؛ وهي : العلمُ ، والحياةُ ، والقدرةُ ، والإرادةُ ، والسمعُ ، والبصرُ ، والكلامُ ، فهٰذه سبعُ صفات ذاتية يتجلَّىٰ سبحانه وتعالىٰ في حُجُبِ أنوارها بوجهِ توحيده ، فكانت هي مبدأَ التضعيفِ في حُجُبِ أنواره .

ثم لأعدادِ التضعيف ثلاثُ رتب : رتبة العشرة ، ورتبة المئة ، ورتبة الألف .

= ولله في كلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ أبداً شاهدُ

وعن هٰذا الشهود في أجزاء الوجود يقول حجة الإسلام الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص ١١١) : (وكل ما في الوجود نورٌ من أنوار القدرة الأزلية وأثرٌ من آثارها ، وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض علىٰ كلِّ مستنير ؛ فكذلك المعنى الذي قصُرَت العبارة عنه فعُبِّرَ عنه بالقدرة الأزلية للضرورة . . هو ينبوعُ الوجود الفائض علىٰ كلِّ موجود ، فليس في الوجود إلا الله تعالىٰ ، فيجوز أن يقول العارف : لا أعرف إلا الله) .

(١) انظر « تهذيب اللغة » (٢/ ٧٠) ، ومطلع عبارته فيه : (والعرب تضع التسبيع موضع التضعيف وإن جاوز السبع) .

(٢) وهي صفات المعاني المتفق عند جميع الفرق الإسلامية علىٰ معنويَّاتها ، فلا خلاف عندهم جميعاً أنه تعالىٰ متجلٍّ علىٰ عباده بها ، وإن اختلفوا في أصولها التي ذكرها الإمام المصنف هنا .

وآيات[1] صفاته في تجلِّياته تتضاعفُ بكلِّ رتبة في كلِّ دائرة من دوائر ملكِهِ ؛ فإن تضاعفَتْ برتبة العشرةِ كانت سبعين ، وإن تضاعفَتْ برتبة المئةِ كانت سبعَ مئة ، وإن تضاعفَتْ برتبة الألفِ كانت نهايةَ الكثرة .

وقد نبَّه صلى الله عليه وسلم على الثلاثِ بقوله : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فعملَها . . كتبَها اللهُ عندَهُ عشرَ حسناتٍ ، إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ ، إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ »[2] ، ووراء ذلك أسرارٌ يمنحُها الله تعالىٰ مَنْ يشاءُ من عباده .

تبصرة

[في بيان معنى السُّبحات]

وأمَّا سُبُحاتُ وجهِهِ سبحانه : فقد ثبت في « الصحيح » : « لو كَشَفَ حجابَهُ لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهىٰ إليهِ بصرُهُ مِنْ خلقِهِ »[3]

وقد أوَّلها العلماءُ بجلاله سبحانه وتعالىٰ[4] ، وهو تأويلٌ صحيح ، لٰكنْ وجهُ ربِّنا ذو الجلال والإكرام : فله بجلاله سُبُحاتٌ ، وله بإكرامه سُبُحاتٌ .

---

(١) في (ب) وحدها : (آثار) بدل (آيات) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، والحديث بتمامه : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ؛ فمن همَّ بحسنة فلم يعملها . . كتبَها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملَها . . كتبها الله له عنده عشرَ حسنات ، إلىٰ سبع مئة ضعفٍ ، إلىٰ أضعافٍ كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها . . كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملَها . . كتبها الله له سيئة واحدة » .

(٣) رواه مسلم (١٧٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتقدم بعضه قريباً .

(٤) قال الإمام النووي ي « شرح صحيح مسلم » (٣/ ١٣) : (قال صاحب « العين » والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين : معنىٰ « سبحات وجهه » : نوره وجلاله وبهاؤه) .

إذا أردت أن تجريَ في التأويل على وفقِ الاستعمالِ اللغوي ، والقواعدِ التي مهَّدناها . . فاعلم : أن السُّبُحاتِ جمعُ سُبْحَةٍ ، والسبحةُ في اللغة : ما يُتطوَّعُ به من ذكر وصلاةٍ وتسبيح ونحوِ ذلك ممَّا لا تحصرُ أفرادُهُ[١]

وقد بيَّنَّا أن أنوارَ الطاعات حُجُبُ وجهِهِ سبحانه وتعالىٰ[٢] ، ونورُ الذكر شاملٌ لجميعها[٣] ، ومهيمنٌ علىٰ سائر سُبُحات الإكرام والجلال[٤] ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة ١٥٢] .

وذكرُ اللهِ تعالىٰ لنفسه ولعبدِهِ سبحةُ وجهه الشاملةُ لأنواعِ سُبُحاته ، وذكرُ العبد له نورُ حجابِهِ ، فما دام العبدُ يشهد ذكرَهُ لربِّهِ . . فوجهُ ربِّهِ متجلٍّ عليه في حجابه بسُبْحة ذكرِهِ ؛ كما ثبت في « الصحيح » « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ حينَ يذكرُني »[٥]

فلا يزالُ العبد يذكرُ الله تعالىٰ ، وذكرُهُ له يبعدُهُ من شهود نفسه ونسبتِها ، ويقرِّبُهُ من شهود توحيد ربِّهِ . . حتىٰ ينكشفَ حجابُ ذكرِهِ لله سبحانه ، وتتجلَّىٰ له سُبْحةُ ذكرِ الله سبحانه له ، هنالك تحرقُ سبحتُهُ نسبةَ الأفعال والأذكار للعبدِ ، وتظهرُ نسبتُها للربِّ[٦] ، كما ثبت في « الصحيح » : « ولا يزالُ عبدي

---

(١) انظر « تاج العروس » (س ب ح) .

(٢) وهو حجاب نور اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وانظر (ص ١٧٢) .

(٣) الضمير عائد للطاعات ؛ إذ لا تخلو طاعة عن ذكر الله تعالىٰ ولو بالنية قلباً .

(٤) أراد : تجليه سبحانه بحجاب النور ، وتجليه بحجاب النار ، وكلاهما كما سبق لأهل الخصوص ، وانظر (ص ١٧٢) .

(٥) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه : « إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ هم خيرٌ منهم ، وإن تقرَّبَ مني شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرَّبَ إلي ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

(٦) فما ذكره عبدٌ إلا وقد منَّ سبحانه عليه بذكره ، فلولا ذكره لعبده ما ذكره عبدُهُ ، وبهـٰذا تفهم=

يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنتَ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ويدَهُ التي يبطشُ بها ، ورِجْلَهُ التي يمشي بها »[١]

تنبيه

[علىٰ عدم تناهي متعلَّقات صفة البصر له تعالىٰ]

قولُهُ : « لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهىٰ إليهِ بصرُهُ مِنْ خلقِهِ »[٢]

اعلمْ أن بصره سبحانه لا تتناهىٰ مبصَراتُهُ ، ولا يحجبُهُ عن خلقه حجابٌ ، وإنَّما ينكشف لك معنى الحديث بمراجعةِ ما قرَّرْتُهُ لك ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « الإحسانُ : أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »[٣]

فنبَّهَ بالشرطِ[٤] علىٰ أن العبد لا يشهدُ رؤيةَ الله تعالىٰ له حتىٰ يغيبَ عن صفتِهِ ورؤيته ومراقبتِهِ لربِّهِ[٥] ، **فكلُّ عبادة تصحبُها المراقبة فهي نورٌ من حُجُبِ وجهه سبحانه** ، ينظرُ العبد منه إلىٰ ربِّهِ ، وينظرُ الله سبحانه منه إلىٰ عبده ، فإذا كُشِفَ للعبد فيها حجابُ المراقبة شهدَ رؤيةَ الله سبحانه له ، **فانتهاءُ بصره** : عبارةٌ عن انتهائه بحسَبِ كشف العبدِ وشهوده ، لا بحسبِهِ في نفسِهِ جلَّ وعلا ؛ فإنه لا انتهاءَ له ، **وخلْقُهُ** : هو صفةُ العبد[٦] ، **ورؤيتُهُ وإحراقه** : هو محوُهُ

= قوله عليه الصلاة والسلام مناجياً المولىٰ سبحانه فيما رواه البخاري (٢٨٣٧) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه : « لولا أنتَ ما اهتدينا ، ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا » .

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) تقدم قريباً (ص ١٧٧) .

(٣) رواه البخاري (٥٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٨) من حديث سيدنا الفاروق عمر رضي الله عنه .

(٤) وهو عدم كينونة الرؤية للعبد .

(٥) في (أ) : (صفة رؤيته) بدل (صفته ورؤيته) .

(٦) أفعال الله تعالىٰ إيجاداً تنسب لله تعالىٰ ، ولا يوصف بها ؛ لأنها جائزة ، ولا يوصف القديم=

بثبوتِ صفة الربِّ ورؤيتِهِ للعبد[1] ، وصفةُ الربِّ ورؤيتُهُ : هي سُبْحتُهُ ؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] .

إشارة

[إلىٰ أن العبرة بنظر الحقِّ إليك]

أورد محمد بن علي الأصبَهانيُّ عن مجنون ليلىٰ في محاومةِ هـٰذا المعنىٰ بيتينِ[2] : [من الوافر]

رأىٰ ليلىٰ فأعرضَ عن سواها محبٌّ لا يرىٰ حَسَناً سواها
لقدْ ظفرَتْ يداهُ ونالَ مُلكاً لَئِنْ كانَتْ تراهُ كما يراها

فنبَّهَ علىٰ أن المُلْك والظفرَ ليسا في رؤيته هو لها ، وإنَّما هما في رؤيتِها له .

وقوله : (كما يراها) فيه تنبيهٌ علىٰ تجلِّي السُّبْحة ؛ وذلك أنه رأىٰ ليلىٰ علىٰ وجهِ الإفراد ، فلم يرَ معها غيرها ، ولهـٰذا قال (فأعرضَ عن سواها)

= سبحانه بالجائزات ، بل يقال : يجوز في حقه سبحانه فعلُ أيِّ ممكن أو تركه ، وهـٰذه الأفعال هي صفات لمخلوقاته قطعاً ، فهو تعالىٰ خالق الطول والعرض والعمق ، والشكل واللون ، ولـٰكن لا يقال : طويل عريض عميق ، متشكل متلون ، تعالىٰ ربُّنا وجلَّ ، وإنما هي صفاتٌ لخلقه ، فمن شبَّه فقد لبَّس وخلَّط ، ومن عطَّل فقد جهل وعاند ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ .

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (٢٦٥) : (المحو : رفعُ أوصاف العادة ، والإثباتُ : إقامة أحكام العبادة ؛ فمن نفىٰ عن أحواله الخصال الذميمة ، وأتىٰ بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة . . فهو صاحب محو وإثبات) .

(٢) انظر « الأغاني » (٨٦/٢) ، وصدر البيت الأول عنده :

بكىٰ فرحاً بليلىٰ إذ رآها

حتىٰ عن نفسِهِ ، ولهـٰذا قال : (أنا ليلىٰ ، وليلىٰ أنا)[1] ، فنبَّهَ على أن المُلْكَ هو أن تراهُ كذلك ، فلا تراهُ غيرَها

وهـٰذا فيما نحن فيه لا يتمُّ إلا بتجلِّي السُّبْحة المقدَّسة ؛ فإنها إذا تجلَّتْ أحرقَتِ الحادث من صفة العبد ، وتبقىٰ صفةُ الربِّ هي المرئيةُ له ، كما أنَّها هي المرئيةُ لعبده ، فهنالك تظفرُ يداه ، وينال مُلْكَ التصريف بقوله « كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ . . . » الحديثَ[2]

إشارة

[إلىٰ سرِّ قراءته عليه الصلاة والسلام القرآن علىٰ بعض الصحابة]

بهـٰذا تفهمُ سرَّ أمرِ الله سبحانه لنبيِّهِ صلى الله عليه وسلم أن يقرأَ علىٰ أُبَيٍّ رضي الله عنه : (لم يكنْ)[3] ، مع قوله صلى الله عليه وسلم : « أقرؤُكم أُبَيٌّ »[4] ، مع العلم بأن أُبيّاً لم يكن أحفظَ الصحابة للقرآن ، ولا أفصحَهم في

---

(١) أورده ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص ٥١) ، وسياقه فيه : (قيل للمجنون : أتحب ليلىٰ ؟ قال لا ، قيل : ولمَ ؟ قال : لأن المحبة ذريعة للرؤية ، فقد سقطت الذريعة ، فليلىٰ أنا ، وأنا ليلىٰ) .

(٢) تقدم (ص ١٢١) .

(٣) يعني : سورة (البينة) ، روى البخاري (٤٩٦٠) ، ومسلم (٧٩٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : أن الله تعالىٰ أمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يقرأ القرآن علىٰ أُبيٍّ رضي الله عنه ، فقرأ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (البينة) .

(٤) رواه الترمذي (٣٧٩١) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولفظه : « أرحمُ أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدُّهم في أمر الله عمر ، وأصدقُهم حياءً عثمان بن عفان ، وأعلمُهم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل ، وأفرضُهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبيُّ بن كعب ، ولكلِّ أمة أمينٌ ، وأمينُ هـٰذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ، وزاد ابن ماجه (١٥٤) : « وأقضاهم عليُّ بن أبي طالب » .

القراءة ، ولا أفقهَهم في أحكامه[1] ، ولكن لعلَّهُ كان عند قراءتِهِ القرآنَ أصغاهم مراقبةً لتلاوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم[2] ، كذلك الذي يقرؤُهُ ويغيبُ بذلك عن قراءةِ نفسه ؛ حتىٰ كأنَّهُ يسمعُهُ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم

وممَّا يدلُّكَ علىٰ ذلك ويوضِّحُهُ لك أن السورةَ التي أمر بقراءتها هي (لم يكنِ الذينَ كفروا) ، وهي مشتملةٌ علىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : ١-٣] ، وكان أُبَيٌّ إذا قرأها أصغىٰ بأُذُنِ قلبه إلىٰ روحِ النبوَّة يتلو عليه ذلك ، فأراد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يحقِّقَ له في عالم الشهادةِ من تلاوة النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهِ . . ما كان يشهدُهُ في عالمِ الغيب .

لطيفة

[في بيان حكمة لفظ الإحراق في حديث : « لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ »]

حكمةُ استعارة الإحراقِ لمحْوِ صفات الخلق : التنبيهُ علىٰ أن حقيقةَ الخلق ترابٌ ، وباقي صفات الخلق إنما هي أثرُ تجلِّيات الحقِّ بصفاته[3] ، فلو ظهرَتْ

---

(١) يعني : قبل حصول الإصغاء الآتي ذكرُهُ ، أو استفاد هٰذا المعنىٰ مما رواه مسلم (٢٤٦٤) عن مسروق قال : كنا نأتي عبد الله بن عمرو ، فنتحدث إليه ، فذكرنا يوماً عبد الله بن مسعود ، فقال : لقد ذكرتم رجلاً لا أزال أحبه بعد شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خذوا القرآنَ من أربعةٍ : من ابن أم عبد ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وسالم مولىٰ أبي حذيفة » ، وذلك من قول سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (فبدأ به) ، وإلا فبعد ما صحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنه الأقرأ . . فلا سبيل للاجتهاد في مثل هٰذا .

(٢) قال العلامة الطيبي في « شرح المشكاة » (٥/ ١٦٨٤) : (ولا نعلم أن أحداً شاركه في هٰذه المنقبة)

(٣) وأصل معنى التجلي : الظهور ، ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل : ٢] أي : =

صفاتُهُ رجع الخلقُ إلىٰ أصله تراباً ، كما أن النارَ أيَّ شيء أحرقته جعلَتْهُ رماداً ، وأزالَتْ جميعَ صفاته .

تربيـة[1]

[في معرفة قِبْلة التجلِّي وميقاته ومشرقه]

قد قدمنا أن قولَهُ تعالىٰ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ـ٢٧] ينبِّهُ علىٰ أن لوجهه الكريم تجليينِ : تجلٍّ بجلاله في حجاب النار ، وتجلٍّ بإكرامه في حجاب النور[2] ، فيحتاج أهلُ المراقبة إلىٰ معرفة قِبْلةِ هـٰذا التجلِّي وميقاتِهِ ومَشْرِقِهِ

فاعلمْ يا عبدَ الله : أن قِبْلَةَ هـٰذا التجلي : القلبُ ، وميقاتَهُ : الصلاةُ ، ومَشْرِقَ الجلال : سبحانَ الله ، ومَشْرِقَ الإكرام : الحمدُ لله .

فمن أراد شهود وجهِ ربِّهِ الباقي فليجعل قِبْلتَهُ قلبَهُ ، وميقاتَهُ صلاتَهُ ، ثم له حالانِ :

الأوَّلُ : أن يغلبَ علىٰ قلبه تنزيهُهُ ممَّا سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، فهـٰذا مشرقُهُ : (سبحانَ الله) ، ووجهُ ربِّهِ يتجلَّىٰ عليه بجلاله في حجاب النار ؛ كما

= ظهر ووضح ، وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وفي حديث مسلم (١٩١) : « فيتجلَّىٰ لهم يضحكُ » ، وفي حديث الترمذي (٣٢٣٣) : « فتجلَّىٰ لي كلُّ شيءٍ » ، فلا تحسب هـٰذه اللفظة من بدع القوم المحكية ، بل هي كلمة أثرية .

(١) كذا في النسخ المعتمدة ، وفي (ب) وحدها : (تنبيه) بدل (تربية) ، ولعله أراد بهـٰذا الاصطلاح ما ينطوي علىٰ تخلُّق وتأديب .

(٢) تقدم الحديث عن هـٰذا (ص ١٧٢) .

تجلَّىٰ علىٰ موسىٰ عليه السلامُ ؛ ولهٰذا أمرَ اللهُ تعالىٰ أتباعَهُ أن يقتدوا به في ذلكَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [يونس : ٨٧] ، فهٰذه القبلةُ والميقاتُ[١]

ونبَّهَ أيضاً : علىٰ تجلِّيه عليه في مشرقِ (سبحانَ الله) في حجاب النار بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٨ـ٩] .

والحالُ الثاني أن يغلبَ علىٰ قلبه شهودُ النِّعَمِ والفضلِ لله بلا شريك ، فهٰذا مَشْرِقُهُ : (الحمدُ لله) ، ووجهُ ربِّهِ يتجلَّىٰ عليه بإكرامه في حجاب النور ؛ كما تجلَّىٰ بإكرامه لإبراهيمَ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ، فكانَتْ قبلتُهُ قلبَهُ ؛ ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٤] ، وكان ميقاتُهُ صلاتَهُ ، ومشرقُهُ (الحمدُ لله) ؛ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل : ١٢٠ـ١٢١] ، وكان التجلِّي بالإكرام في حجاب النور ؛ وهي أنوارُ الكوكب والقمرِ والشمس ؛ فقال : ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام : ٧٦][٢].

---

(١) فذكر القبلة وأن بيوتهم قبلتُهم ؛ وأصل ذلك أنهم لمَّا خافوا أمَرَهم أن يتخذوا من بيوتهم مصلَّيات ، ثم لا تنسَ أن القوم شاع عنهم قولهم : (القلبُ بيت الرب) ، فالقلب هو القبلة هنا ، وكذا عند المتكلمين : القلب هو بيت معرفة الرب ؛ وهو مراد القوم ، والقلب هو محل الإيمان باتِّفاق من يعتدُّ بقوله ، وحقيقة القبلة وجه الله تعالىٰ ؛ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وذكر الميقات وأنه عند إقامة الصلاة

(٢) ويكون التقدير حسب ما يفيده السياق : هٰذا تجلِّي ربي .

إشارة

[إلىٰ تحقيق تجلي الإكرام لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام]

إذا أردتَ أن تعلمَ أن ربَّهُ تجلَّىٰ له بالإكرام : فتدبَّرْ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] ، فإذا كان ضيفُهُ بسببه مكرماً[1] . . فما ظنُّكَ به ؟!

وإذا أردت أن تعلمَ أن نظرَةُ كان لنور ربِّهِ ، لا للنجومِ والكواكب : فتدبَّرْ قوله تعالىٰ : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ [الصافات : ٨٨] ، جعل النجومَ ظرفاً للمرئي ، لا نفسَ المرئي[2] ، وكيف لا وقد أُرِيَ ملكوتَ السماوات والأرض ، و﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] ؟!

ومن جمعَ بين مشرقِ (سبحانَ الله) و(الحمدُ لله) . . تجلَّىٰ له ربُّهُ بكماله الجامعِ بين التجلِّيينِ ، وأراه آيتَهُ الكبرىٰ ؛ كما تجلَّىٰ لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء ؛ ونبَّهَ عليه قولُهُ تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ . . . ﴾ [الإسراء : ١] إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . . ﴾ الآيةَ [الإسراء : ١١١] .

ولمَّا تحقَّقَ صلى الله عليه وسلم بـ(سبحانَ الله) أولاً ، وبـ(الحمدُ لله) آخراً . . تجلَّىٰ له وجهُ ربِّهِ بكماله الجامع للجلال والإكرام في مشرقِ (لا إلـه

---

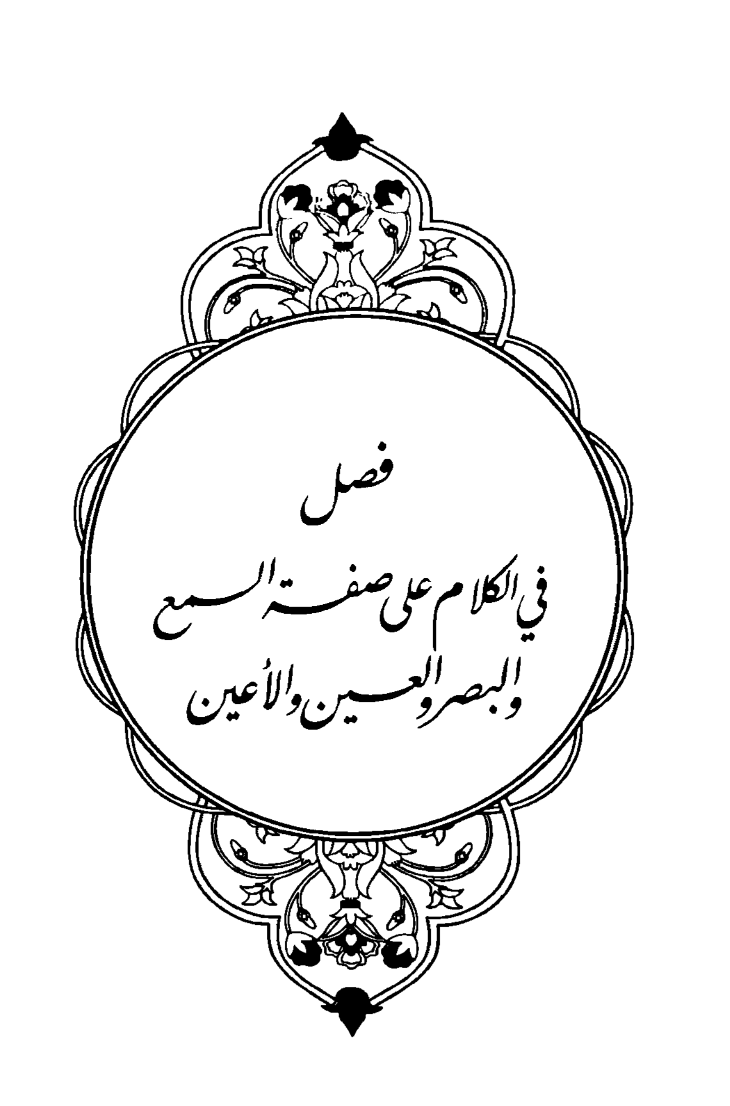
(١) الضيف : الضيوف ؛ وهم الملائكة الكرام الذين زاروه عليه وعليهم الصلاة والسلام .

(٢) فلم يقل سبحانه : (فنظر نظرة إلى النجوم) ، بل ظرَّف النظر بـ(في) ، فالمنظور إليه هنا هو المظروف المعنوي ، لا الظرف الحسي .

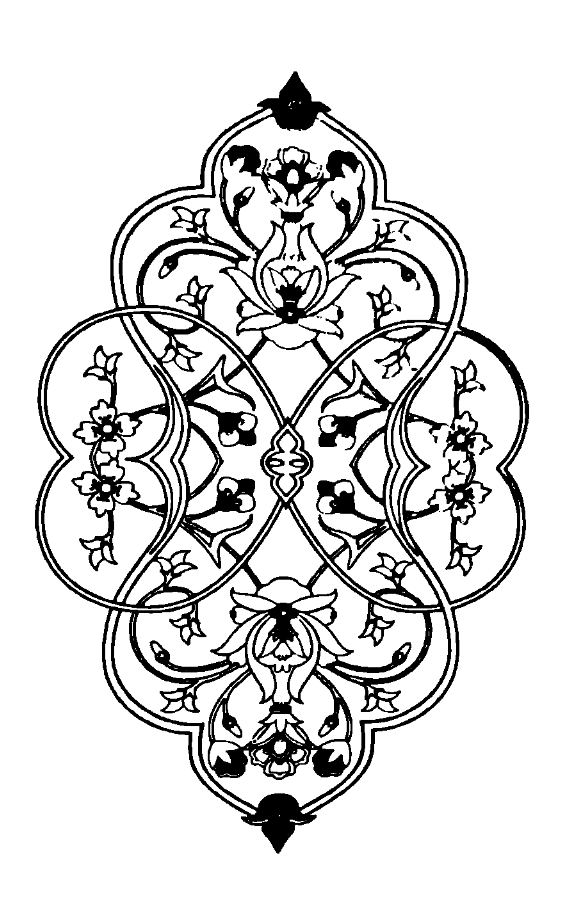
إلا الله) الجامعِ لـ (سبحانَ الله) و(الحمدُ لله) ، وهي آيةُ ربِّهِ الكبرىٰ ، ولهٰذا قال آخرَ السورة : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] ، وسيأتي لذلك مزيدُ بيانٍ في مسألة الإسراءِ إن شاء اللهُ تعالىٰ[١]

* * *

(١) انظر (ص ٢٦٩) وما بعدها .



فصل
في الكلام على صفة السمع والبصر والعين والأعين



فصل
في الكلام على صفة السمع والبصر والعين والأعين

ومن الآياتِ المتشابهات آياتُ السمع والبصرِ والإدراك[1] ، والعينِ والأعين :

وقد دلَّ الكتاب والسنة على أنهما قسمان : عاديٌّ ، وحقيقيٌّ

فالعاديُّ : سمعُ القلب بالأُذُنِ ، وإبصارُهُ بالعين ، وهو عامٌّ في المؤمن والكافر[2]

والحقيقيُّ بصرُ العينِ بالقلب ، وسمعُ الأُذُن به أيضاً[3] ، وقد نفاهُ الله سبحانه وتعالىٰ عن الكفَّار في غيرِ ما آيةٍ ؛ منها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢١] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٨] ، فأثبتَ لهم السمع والبصرَ

---

(١) قوله : (والإدراك) زيادة من (أ ، ج) ، ولم ترد آية ناصَّةٌ علىٰ صفة الإدراك ، والمراد بالإدراك على القول به : الشم والذوق واللمس ، وأثبته جماعة منهم إمام الحرمين الجويني ، والمختار فيه عند المحققين الوقف .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

(٣) وفرقٌ كبير بين أن تكون الأُذن والعين بالقلب فهما تبعٌ له ، فلهما منه فوق ظاهر مشاهدتهما العبرةُ والبصيرة الباطنة ، وبين أن يكون القلب بهما فهو تبعٌ لهما ، فلا نصيبَ له منهما إلا ظاهر مشاهدتهما ، وخيالات أقيستهما ، وأين من يسمع صوتاً ممَّن يدرك فهماً ؟! قال تعالىٰ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، وسبق للإمام المصنف أن أشار إلىٰ هـٰذا المعنىٰ (ص ١٧٨) .

العادينِ ، ونفىٰ عنهم الحقيقيَّ[1]

وبهٰذا يُفهمُ : قولُهُ تعالىٰ ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه ١٢٤ـ١٢٥] ، مع العلمِ بأن اللهَ سبحانه وتعالىٰ يعيدُهم بأبصارهم العاديَةِ كحالهم في الدنيا تحقيقاً ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء ١٠٤][2]

ولٰكنَّ الحكمَ في تلك الدارِ للأبصارِ الحقيقيَّة ، **المستفادةِ من نور صفاته بواسطةِ استجابة القلبِ لآياته**[3] ، **وتوجهِهِ بنورِها إلىٰ عالم الغيب** ، وقلبُ الكافر في الدنيا كانَ خالياً من نور التوحيد ، فكان بصرُهُ لا يرجعُ إلىٰ قلبه ؛ لأنه لا مددَ له إلا من نورِ حسِّهِ ، وهو أعمىٰ عن نورِ آياتِ التوحيد ؛ لا جرمَ أنه يحشرُ يومَ القيامة أعمىٰ كما كانَ في الدنيا ؛ ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] ، فلذلك إذا قال : ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ ﴾ ؟ قال : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا

---

(١) إذ العبرة تكون بإدراك الشيء علىٰ ما هو عليه في الحقيقة ؛ ولذلك قال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (١٧/ ٢٢٢) عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ الآية [هود : ٢٨] : (واعلم : أن الشيء إذا بقي مجهولاً محضاً أشبه المعمَّىٰ ؛ لأن العلم نور البصيرة الباطنة ، والإبصار نور البصر الظاهر ، فحسن جعل كل واحد منهما مجازاً عن الآخر)

(٢) وقد قال سبحانه : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] ، ولو أنهم أبصروا وسمعوا تحقيقاً ، وفقُهوا واعتبروا صدقاً . . لانتبهوا وادَّكروا ، ولا تغرَّنَّك كلماتُ الندم والعويل ؛ فهي ثرثرة حالٍ ، ظاهرُها صدق وباطنها كذب ونفاق ؛ قال مولانا جل وعز : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

(٣) لا يخفاك أنه اتفق المتكلمون والعارفون علىٰ أن نور الإيمان محلُّهُ القلب ، وأنه سبحانه يُعرف بحكيم أفعاله ، وآثارِ تجلِّياتِ صفاته ؛ فالعالَم عَلَمٌ عليه ؛ تتجلَّىٰ فيه صفاته التي نعتها المتكلمون بالعقلية ؛ وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة ، وتلازمها صفات التنزيه المعروفة عند المتكلمين بالسلبية ، وتعلوها صفة الوجود الحقيقي الذي لا يشوبه حدوث وإمكان .

﴿فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه ١٢٥ـ ١٢٦] أي : لا بصرَ لك في هٰذه الدار إلا من نورِ صفاتي ، المستفادةِ من الاستجابة لآياتي ؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] .

فـائدة

[من عرفَ السمع والبصر الحقيقيين فهمَ تنزُّهَهُ تعالىٰ عن الجوارح]

فإذا صحَّ لك أن السمعَ الحقيقي والبصر الحقيقيَّ عبارةٌ عن سمع القلب وبصره ، وأن الجوارح ـ وهي العينُ والأُذُن ـ تحتاجُ إليه ، وهو غنيٌّ عنها . . **أمكنك حينئذ أن تفهم إثباتَ السمع والبصر لله سبحانه وتعالىٰ ، وكذلك بقية الإدراك**[١] ، مع استغنائِهِ في ذلك عن الجوارحِ وتعاليه عنها[٢] .

[نسبة العين والأعين إليه سبحانه]

وأما نسبةُ العينِ إليه فهي اسمٌ لآياته المبصِرةِ ، التي بها ينظر سبحانه للمؤمنين ، وبها ينظرون إليه ، قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل : ١٣] ، فنسب البصرَ للآياتِ علىٰ سبيل المجاز تحقيقاً[٣] ؛ **لأنها المرادةُ بالعين**

---

(١) يعني : على القول بها ؛ وأدلَّتها قياسية ، وانظر ما تقدم تعليقاً قريباً (ص ١٨٩) .

(٢) إذ علمت أن الجوارحَ لا غَناء لها ؛ والعلمَ بها مبتور هزيل ناقص ، ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ١٠] ، وهي إلىٰ ذلك فينا وسائط ؛ والافتقار إليها مخرج عن الألوهية .

(٣) تقدم قريباً تعليقاً التنبيه علىٰ ذلك ، وقال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٢٤/ ١٨٤) : (قد جعل الإبصار لها ، وهو في الحقيقة لمتأمِّلها ؛ وذلك بسبب نظرهم وتفكُّرهم فيها ، أو جُعلت كأنها لظهورها تبصِرُ فتهتدي ، وقرأ علي بن الحسين وقتادة : « مَبْصَرَة » ، وهو نحو مجبنة ومبخلة ؛ أي : مكاناً يكثر فيه التبصُّر) .

المنسوبةِ إليه ، وقد قال تعالىٰ ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

وعلىٰ هـٰذا : يتنزَّلُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ ﴾ [الطور : ٤٨] أي : بآياتِنا ؛ تنظرُ بها إلينا ، وننظرُ بها إليك .

ويؤيِّدُ أن المرادَ بـ (الأعين) هنا الآياتُ : كونُهُ علَّلَ بها الصبرَ لحكم ربِّهِ ، وعلَّلَهُ بآيات القرآنِ صريحاً في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۞ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الإنسان : ٢٣ـ٢٤] .

وقال تعالىٰ في سفينةِ نوحٍ : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤] أي : بآياتِنا ؛ بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ ﴾ [هود : ٤١] .

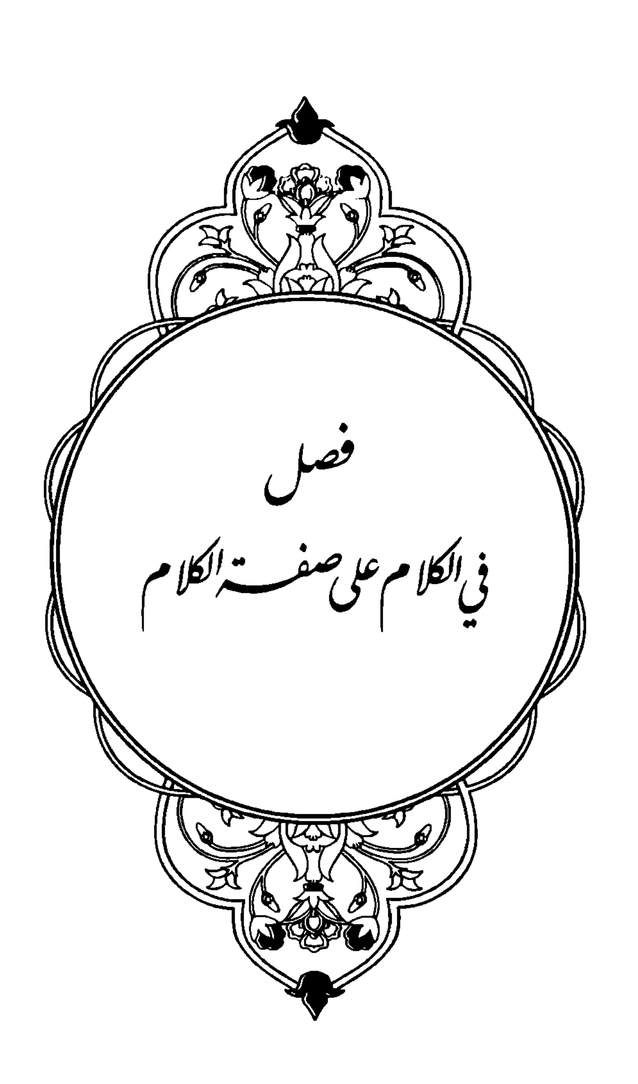
وقال تعالىٰ في موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : ٣٩] أي : علىٰ حكم آيتي التي أوحيتُها إلىٰ أمِّكَ ؛ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . . ﴾ الآيةَ [القصص : ٧] ، ويؤيِّدُ أن المرادَ ذلك : كونُهُ جعل ظرفَ صنعِهِ علىٰ عينِهِ[1] ؛ ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ ﴾ [طه : ٤٠] ، ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص: ١٣] .

فمَنْ تدبَّر ذلك علمَ صحَّة ما قلناه ، وفُتحَ له باب عظيمٌ في تفسير كتابِ الله بعضِهِ ببعضٍ .

* * *

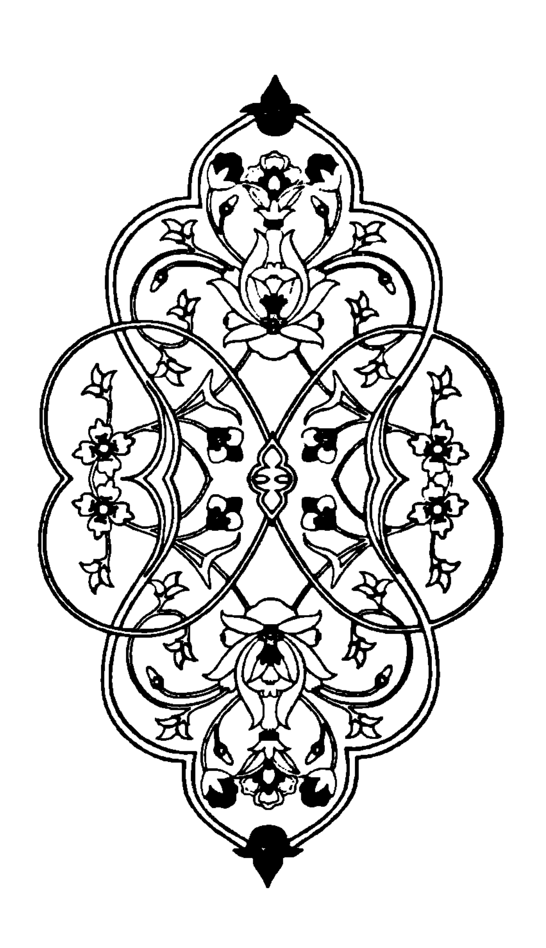
---

(١) قال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٢٢/ ٥٣) في تفسير هـٰذا المجاز : (لتُرَىٰ علىٰ عيني ؛ أي : علىٰ وفق إرادتي ، ومجاز هـٰذا : أن من صنع لإنسان شيئاً وهو حاضرٌ ينظر إليه . . صنعه له كما يحب ، ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه ، فكذا ها هنا) .



فصل

في الكلام على صفة الكلام



فصل
في الكلام على صفة الكلام

ومنها : صفةُ الكلام :

والمتشابهُ منها نسبةُ الصوتِ والحرف إلىٰ كلامِ الله سبحانه وتعالىٰ ، وقد وردَتْ آياتٌ وأحاديثُ توهمُ ذلك

فمنها : قولُهُ تعالىٰ ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] ، والمسموعُ إنما هو الحرفُ والصوت .

ومنها : سماعُ موسىٰ عليه السلام كلامَ الله تعالىٰ .

وما رُوِيَ من « أنَّ اللهَ تعالىٰ ينادي بصوتٍ يسمعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يسمعُهُ مَنْ قرُبَ »[1]

ومن قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قرأَ حرفاً مِنْ كتابِ اللهِ فلهُ حسنةٌ ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها ، لا أقولُ : (الٓمٓ) حرفٌ ، بل : ألفٌ حرفٌ ، ولامٌ حرفٌ ، وميمٌ حرفٌ »[2]

---

(١) علَّقه البخاري في « صحيحه » (٩/ ١٤١) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٣٧) من حديث سيدنا عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه ، وتمامه : « أنا الملكُ ، أنا الديَّان » ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١٠/ ٤٢٩) : (« فيناديهم » يقول لهم « بصوت » مخلوق غير قائم بذاته ، ويأمر تعالىٰ من ينادي ، ففيه مجاز الحذف) ، ثم قال : (ولم يثبت لفظ الصوت في حديث صحيح مرفوع غير حديثه) يعني : سيدنا أنيساً .

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٠) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وغيرُ ذلك من الأحاديث الثابتة ، وهي مسألةٌ مهمَّة ، بعيدةُ الغور ، تزلزلَتْ فيها أقدامُ المتكلِّمين

ومذهبُ أهل الحقِّ : أن للهِ تعالىٰ سبحانه كلاماً قديماً قائماً بذاتِهِ ، واحداً في حقيقتِهِ ، مخالفاً لصفتَي علمِهِ وإرادته ، منزَّهاً عن الحروف المرتَّبَة والأصواتِ المحدثة ، منزَّلاً علىٰ نبيِّهِ عليه السلام ، مقروءاً بالألسنةِ ، مكتوباً في المصاحفِ ، مسموعاً لموسىٰ عليه السلامُ حقيقةً[1] ولِمَنْ يريد اللهُ إسماعَهُ ، غيرَ مخلوقٍ في الشجرة ولا قائمٍ بالحوادث[2]

وموضعُ البراهينِ العقلية والسمعيَّة علىٰ كلِّ مقام من ذلك : الكتبُ الكلاميَّة .

والمقصودُ ها هنا : ما وقعَ من المتشابهِ في الكتاب والسنة من إيهامِ نسبة الصوتِ والحرف إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا بدَّ من ردِّها للمحكم من مراجعةِ مقدمة هـٰذا الكتاب[3]

وهو أن كلامَ الله سبحانه وتعالىٰ صفتُهُ[4] ، وصفة القديم قديمة تتقدَّسُ عن الحدوث ، والحروف في إفادةِ الكلام يلزمُها الترتيبُ ، وتقدُّمُ بعضِها علىٰ

---

(١) وهو قول عامة السادة الأشاعرة غير الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني ؛ إذ قوله كقول السادة الماتريدية .

(٢) خلافاً للسادة الماتريدية المانعين من سماع الكلام القديم مع إثباته صفةً لله سبحانه ، مخالفين بذلك المعتزلة النافين للكلام القديم ، والقائلين : إنه تعالىٰ متكلم ؛ بمعنىٰ : إيجاد الأصوات والحروف في محلها ، أو إيجاد أشكال الكتابة في اللوح المحفوظ .

(٣) انظر (ص ١٢٠) ، أراد التنبيه علىٰ أن لكلِّ صفة مظهرين ؛ جسماني حادث ، وروحاني حادث أيضاً لـٰكنه مجلىً للقديم .

(٤) هـٰذا شروع في تحقيق التنزيه ، ورد هـٰذا المتشابه إلى المحكم اللائق به .

بعض ، وذلك مستحيلٌ على القديم[1]

ولـٰكنَّا قدَّمنا أن لصفاتِهِ مظهرينِ ؛ وبه يُعلمُ أن لكلامه مظهرينِ :

مظهرٌ جسماني منسوبٌ للعباد : وهي الألسنةُ والأيدي والأقلام[2]

ومظهرٌ علويٌّ روحاني : وهو روحُ القُدُسِ ، وقلمُهُ العليُّ .

والحروفُ والأصوات من لوازم المظهرينِ[3] ، وكلامه منزَّهٌ عنهما[4] ؛ كتنزُّهِ القلب في كلامه عن الحروفِ اللسانية والأصواتِ الهوائية وإن كانَتْ مظاهرَ له[5]

وبهـٰذا يتَّضحُ لك جميعُ المتشابهِ ، وأنا أفصِّلُهُ لك :

فمنهُ : قولُهُ تعالىٰ ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] أي : بواسطةِ مظاهرِهِ الجسمانيَّةِ ؛ وهي أصواتُ العباد وحروفُهم ، وإطلاقُ كونِهِ سامعاً

---

(١) قال العلامة السعد في « شرح العقائد النسفية » (ص١٩٠) نقلاً عن شيخه العلامة العضد : (القرآنُ : اسم للفظ والمعنىٰ ، شاملٌ لهما ، وهو قديم ، لا كما زعمت الحنابلة من قدم النظم المؤلَّف المترتِّب الأجزاء ؛ فإنه بديهي الاستحالة ؛ للقطع بأنه لا يمكن التلفظ بالسين من « باسم الله » إلا بعد التلفظ بالباء ، بل بمعنىٰ أن اللفظ القائم بالنفس ليس مترتِّبَ الأجزاء في نفسه ؛ كالقائم بنفس الحافظ من غير ترتُّبِ الأجزاء وتقدُّمِ البعض على البعض ، والترتُّبُ إنما يحصل في التلفُّظِ والقراءة ؛ لعدم مساعدة الآلة ، وهـٰذا معنىٰ قولهم : المقروءُ قديم ، والقراءةُ حادثة ، وأما القائم بذات الله تعالىٰ فلا ترتُّبَ فيه ، حتىٰ إن من سمع كلامَهُ سمعَهُ غيرَ مترتِّب الأجزاء ؛ لعدم احتياجِهِ إلى الآلة) .

(٢) أما وجود الكلام ذهناً وتخيُّلاً فهو اعتباري .

(٣) نبَّهَ بذلك : علىٰ أن المظهر العلوي ليس المرادُ منه الصفة القديمةَ القائمة بذاته سبحانه ، بل تجلِّيها ، وقد علمت أن التجلِّيات حادثة ، فهو في الحدوث كالمظهر الجسماني .

(٤) الضمير في (عنهما) راجع إلى الحروف والأصوات كما لا يخفىٰ .

(٥) يعني : وإن كانت الحروف والأصوات مظاهر جسمانية ، والضمير في (له) عائد إلى القلب .

لكلام الله تعالىٰ بذلك . . مجازٌ ؛ لما قدَّمناهُ من أن المظاهرَ الجسمانية ليسَتْ منسوبة إلى الله سبحانه لغةً ولا شرعاً[١]

ومنهُ : في « صحيح » مسلم والبخاري وغيرِهما عن عائشةَ رضي الله تعالىٰ عنها : أن الحارثَ بن هشام سألَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيكَ الوحْيُ ؟ قال : « أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجرسِ ؛ وهو أشدُّهُ عليَّ ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ عنهُ ما قالَ ، وأحياناً يتمثَّلُ ليَ المَلَكُ رَجُلاً ، فيُكلِّمُني ، فأعي ما يقولُ »[٢]

وهـٰذا يحقِّقُ لك أن لكلامِ الله تعالىٰ في الروحانيّات مظهرينِ :

مظهرٌ عليٌّ : يتشكَّلُ بالمظاهرِ الجسمانية وأصواتِها وحروفها

ومظهرٌ آخرُ له حرفٌ وصوت خفيٌّ روحاني ؛ لأن الجَرْسَ في أصله : هو الصوتُ الخفيُّ[٣] ، والصلصلة : صوتُ اليابس الصلب إذا حُرِّكَ[٤]

وتصحُّ نسبةُ المسموع حينئذٍ إلى الله تعالىٰ بالتأويلِ الذي ذكرتُهُ لك .

وها هنا سؤالانِ :

أحدُهما : ما السرُّ في مناسبة الصوتِ المسموعِ للصلصلة ؟

الثاني : ما وجهُ اشتدادِهِ عليه ؟

والجوابُ عن الأول : أن المتنزِّلَ بالوحي هو الروحُ ، وهـٰذا الصوت ليس

---

(١) انظر (ص ١٢٠) .

(٢) صحيح البخاري (٢) ، صحيح مسلم (٢٣٣٣) ، سنن الترمذي (٣٦٣٤) .

(٣) قاله ابن دريد ، وانظر « تاج العروس » (ج ر س) .

(٤) أو صوت وقْعِ الحديد بعضه على بعض ، فيكون كالطنين الذي كأنه يُسمع من كل الجهات ، فيكون هـٰذا وجهَ الشَّبه .

هو صوتَ الروح ؛ وإنما الروحُ إذا تجلَّتْ للرؤية أفادَتْ لمن تجلَّتْ عليه الرؤيةَ في مظهرٍ تناسبُ قابليَّتَهُ واستعدادَهُ ، كما قدمناهُ في اختلاف الرائينَ علىٰ حسَبِ صور أخلاقِهم وأعمالهم[1] ، وكذلك إذا تجلَّتْ للأسماع أفادَتِ السمعَ بواسطة مظهرٍ يناسبُ قابليّة السامعِ

ومن المعلوم : أن الإنسانَ قبل نفْخِ الروح فيه كان أصلُهُ من صلصال ؛ وهي صورةُ طين يابس ، إذا نُقِرَ أو داخلَتْهُ الريح . . صلَّ وصوَّتَ[2] ، **ففُهِمَ بذلك أن الصوتَ والحرف المسموع عند تنزُّلِ روح الوحي إنما هو حادثٌ** مناسبٌ لصفة الإنسان[3] ، ظهرَ لتنزُّلِ روح الوحْيِ عليه ، وانفصامُهُ عنه ليس معناه انقطاعَهُ ؛ فإن كلامَ الله تعالىٰ قديمٌ لا يقبلُ الانقطاع[4] ، **وإنما انفصامُهُ غَيبةُ القلب عن تجلِّيهِ بحجاب الحسِّ** ، فهنالك يجدُ نفسه قد وعىٰ ؛ أي : جُمعَ له الوحْيُ بكتابة روحانيَّةٍ في لوح قلبه ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالىٰ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧]

وأما الجوابُ عن الثاني : فإنما كان ذلك أشدَّ الوحي ؛ لأن روحَ الإنسان لها تعلُّقٌ بالحسِّ ، وارتباطٌ به ارتباطاً جسمانيّاً ، فإذا جاء الوحيُ بواسطة المَلَكِ وهو علىٰ مثالِ الإنسان . . فقد تطوَّرَ الملكُ[5] ، وبرزَ بالوحي إلى الدائرة الإنسانيَّةِ ، فسهُلَ على الروح تلقيهِ ؛ لمناسبتِهِ للعالم الحسيِّ .

وإذا جاء الوحيُ روحاً مجرداً اقتضىٰ تجرُّدَ القابلِ له من علاقة الحسِّ ،

---

(١) انظر (ص ١٦٦) .
(٢) صلَّ : صوَّت صوتاً كصوت الصنج ، وهو صوت قريب من صوت الحديد إذا حُرِّك .
(٣) في (ب) وحدها : (إنما هما حادثانِ ؛ ليناسبَ صفة الإنسان) بدل (إنما هو . . .) .
(٤) وهو ما يعبر عنه المتكلمون بطروء السكوت أو الآفة ، تعالىٰ ربنا وجلَّ .
(٥) تطوَّر : تمثَّل في طور الإنسانية .

فاشتدَّ تلقِّيهِ كما يشتدُّ عليها التجرُّدُ من الجسد عند الموت[١]

ومن هٰذا : يُفهمُ السرُّ في قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها في عقب الوحي : « حدِّثِيني »[٢] ؛ لأنه يريدُ الرجوعَ بروحه إلىٰ عالم الحسِّ ؛ ليخفِّفَ علىٰ أمته تلقِّيَ ما يلقيهِ إليهم عند التبليغ

ومنهُ[٣] : في « البخاري » و« الترمذي » واللفظُ له : عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال[٤] : « إذا قضى اللهُ في السماءِ أمراً ضربَتِ الملائكةُ بأجنحتِها خُضْعاناً لقولِهِ ؛ كأنَّها سلسلةٌ علىٰ صفوانٍ ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا : ماذا قالَ ربُّكم ؟ قالوا : الحقَّ ، وهو العليُّ الكبيرُ »[٥]

وهٰذا يقتضي : أن هٰذا الصوتَ المسموع صوتُ أجنحة الملائكة .

---

(١) حتى الأنبياء ، وهي آخر الكُرب ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام في مرض موته لسيدتنا فاطمة رضي الله عنها حينما قالت وا كربَ أباه ، قال : « ليسَ علىٰ أبيك كربٌ بعد اليوم » ، رواه البخاري (٤٤٦٢) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) قوله هنا قريب مما في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٣٦٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧/ ٤٣٣) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً) ، وثبت في « الصحيحين » : أن الوحي أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو في ثوب سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ومن كلامه عليه الصلاة والسلام معها عقبَ تخفيف شدَّة الوحي : ما رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٣٢٤) أنها رضي الله عنها قالت : أُوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، فقمتُ فأجفتُ البابَ ، فلما رُفِّهَ عنه قال : « يا عائشةُ ؛ إنَّ جبريلَ يقرئُكِ السلامَ » .

(٣) عودٌ للحديث عن متشابه صفة الكلام ، ورده إلىٰ محكمه .

(٤) يعني : النبي عليه الصلاة والسلام .

(٥) صحيح البخاري (٤٧٠١) ، سنن الترمذي (٣٢٢٣) ، وخُضعاناً : مصدر بمعنىٰ خاضعين ؛ أي : منقادين طائعين ، وقوله : (كأنها سلسلة علىٰ صفوان) يعني : القولُ المسموع يشبهُ صوتَ وقعِ السلسلة علىٰ حجر أملس ، أو جرِّها كما سيأتي ، وفُزِّع عن قلوبهم : أزيل الخوفُ عنهم ، وانظر « إرشاد الساري » (٧/ ١٩٢) .

ولـٰكن في بعضِ الروايات ما يقتضي نسبتَهُ إلى الوحي ، وهو يتخرَّجُ علىٰ ما قررناهُ ؛ لأنه كما أن الوحيَ يسمعُهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم كصلصلة الجرس باعتبارِ قابليَّتِهِ . . فكذلك تسمعُهُ الملائكة كجرِّ السلسلة على الصفوان باعتبارِ قابليَّتِهم ، لا باعتبارِ نفسه .

وفيه تحقيقٌ : أن أجنحةَ الملائكة ليست كأجنحةِ الطير ، وإنما هي صفاتٌ روحانيَّةٌ كما قالَهُ السهيليُّ[1] ؛ وهي قُوىً تسترسلُ بها فيما يأذنُ الله تعالىٰ لها من التصريف ؛ ولهـٰذا جاء ذكرُ الأجنحة في سياقِ جعلِها رُسُلاً ؛ قال تعالىٰ : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [فاطر ١] ، وضربُها بها : إعدادُها لقبول ما يُلقىٰ عليها من روح الأمر[2] ، واسترسالُها في تنفيذِهِ ، وكأنه من (ضَرَبَ في الأرض) إذا سار

تنبيه

[علىٰ وجه الشبهِ بين رؤيا جدِّ النبي عليه الصلاة والسلام للسلسلة تخرج من ظهره وصوت السلسلة علىٰ صفوان]

من تشبيهِ ما تسمعُ الملائكة عند الوحيِ بالسلسلة . . تفهمُ المناسبةَ في رؤيا عبد المطَّلب قبل مولد النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنه خرجَ من ظهره سلسلةٌ

(١) وعبارته في « الروض الأنف » (٧/ ١٧٤) : (وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة : ليست كما يتوهَّمُ من أجنحة الطير ، ولـٰكنها صفاتٌ ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة) ، وهـٰذه المعاينة إما بخرق العادة للأولياء في الدنيا ، أو برؤيتهم قبيل الموت لكل أحدٍ ولو كان الرائي كافراً ؛ تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، أو تقع يوم القيامة ، جعلنا الله من المبشَّرين من قبلهم في الدنيا ويوم القيامة .

(٢) يعني : وضربُ الملائكة بأجنحتها إنما هو لتهيُّئها لقبول ما يُلقىٰ إليها من عالم الأمر ، وفي (و) : (استعدادها) بدل (إعدادها) .

لها طرفٌ بالمشرق وطرفٌ بالمغرب ، وطرفٌ في السماء وطرفٌ في الأرض ، ثم صارَتْ شجرةً لها ورقٌ من نور ، تعلَّقَ بها أهلُ المشرق والمغرب ، فأوَّلَهُ المعبِّرون بوَلَدٍ[١]

فانظر مناسبةَ هـٰذه الرؤيا للوحي

أما مناسبةُ السلسلة : فقد علمتَهُ[٢]

وأما مناسبةُ مصيرِهِ شجرةً للوحي : فخذْهُ من كلامِهِ سبحانه لموسىٰ عليه السلام ، وإسماعِهِ إيَّاه من الشجرة .

وحقيقةُ تلك الشجرةِ : هي الروحُ المحمديَّة القائمةُ بسرِّ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، المرادةُ بقوله تعالىٰ : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ . . . ﴾ الآية [النور : ٣٥] ، وهي الشجرةُ في قوله تعالىٰ : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ الآيةَ [إبراهيم : ٢٤] ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَشَجَرَةً تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٍ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٠] ، فالدهنُ : هو حقيقةُ الزيت الذي يكادُ يضيء ولو لم تمسسْهُ النارُ التي آنَسَها موسىٰ عليه السلام ، والصبغُ : هو حقيقةُ الصبغة في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

تنبيه

[علىٰ أن إفادة الشجرة لإسماعِ كلام الله تعالىٰ بمثابة اللسان]

إفادةُ الشجرة لإسماعِ كلامِ الله تعالىٰ كإفادة ألسنة القرَّاء ، وكلاهما في ذلك بمثابة القلم في إفادةِ المكتوب ، وإلىٰ هـٰذا السرِّ أشارَ قولُهُ تعالىٰ :

---

(١) نقلها العلامة السهيلي في « الروض الأنف » (٢/ ٩٥) ، وفي هامش (ج) : (والورق والنور : الهدى الذي هدى الله به جميع الأمة المحمدية) .

(٢) وهوسماع الملائكة للوحي بما يناسب جبلتهم ؛ وهو صوت السلسلة ، وفيه تهيُّؤهم لقبول الوحي ثم العمل به .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان ٢٧]

وإنما ينكشفُ لك ذلك بمعرفةِ سبب نزولِ هٰذه الآية ؛ **فإن سببَ نزولها** : أن اليهودَ قالوا : إنَّا أُوتينا التوراةَ ، فيها موعظةٌ وتفصيلٌ لكلِّ شيء ، فلا حاجةَ إلىٰ ما جاءَ به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأنزلَ الله تعالىٰ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ . . . ﴾ الآية ؛ أي : لو أن كلَّ ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ تفيدُ من كلام الله تعالىٰ ما أفادَتْهُ شجرةُ موسىٰ لموسىٰ عليه السلام . . ما نفِدَتْ كلماتُ الله تعالىٰ ، ولا حصلَ الاستغناءُ عنها

فانظر كيف أشارَ لشجرة الكلام الموسوية[1] ، وجعلَها بمثابة الأقلامِ في إفادة كلمات الربوبيَّة ، فكما أن المكتوب لا يحلُّ بالمكتوب فيه[2] ، ولا يكون صفةً له ، ولا ينتقلُ به عمَّن هو صفتُهُ ؛ كذلك الكلامُ المسموع لا يحلُّ بالألسنة ولا بالمصاحفِ ولا بالأقلامِ ، ولا يكونُ صفةً للقارئ ، ولا ينتقلُ بالقراءة والكتابة عن موصوفه تبارك وتعالىٰ .

فإن قلتَ : فما معنىٰ كونه منزَّلاً ؟

قلتُ : قد أجاب المتكلِّمون بأن الإنزالَ . . للكتاب والعبارة الدالَّينِ عليه[3] ، وفيه نظرٌ ؛ لأن المعتزلةَ وصفوه بأنه مخلوقٌ ؛ ففرَّ أهلُ السنة من ذلك إلىٰ وصفه بأنه منزَّلٌ ، فإذا كان الإنزالُ يرجعُ إلى الكتاب والعبارة الدالَّينِ عليه . . فالكتابُ والعبارة مخلوقةٌ أيضاً ؛ فلا فرقَ بين وصفِها بالخلق أو

---

(١) في (أ ، ج) : (الكلمات) بدل (الكلام) .

(٢) في (ب) ونسخة هامش (أ) : (بالقلم) بدل (بالمكتوب فيه) .

(٣) وهما حادثان ، فلا ضير علىٰ ذلك من اتصافهما بالإنزال الذي هو من صفات الحوادث ، والكتاب بمعنى الكتابة هنا .

الإنزال ، إلا إن رددتَ ذلك إلىٰ أمرٍ تعبُّديٍّ ، أو توقيفٍ سمعيٍّ !

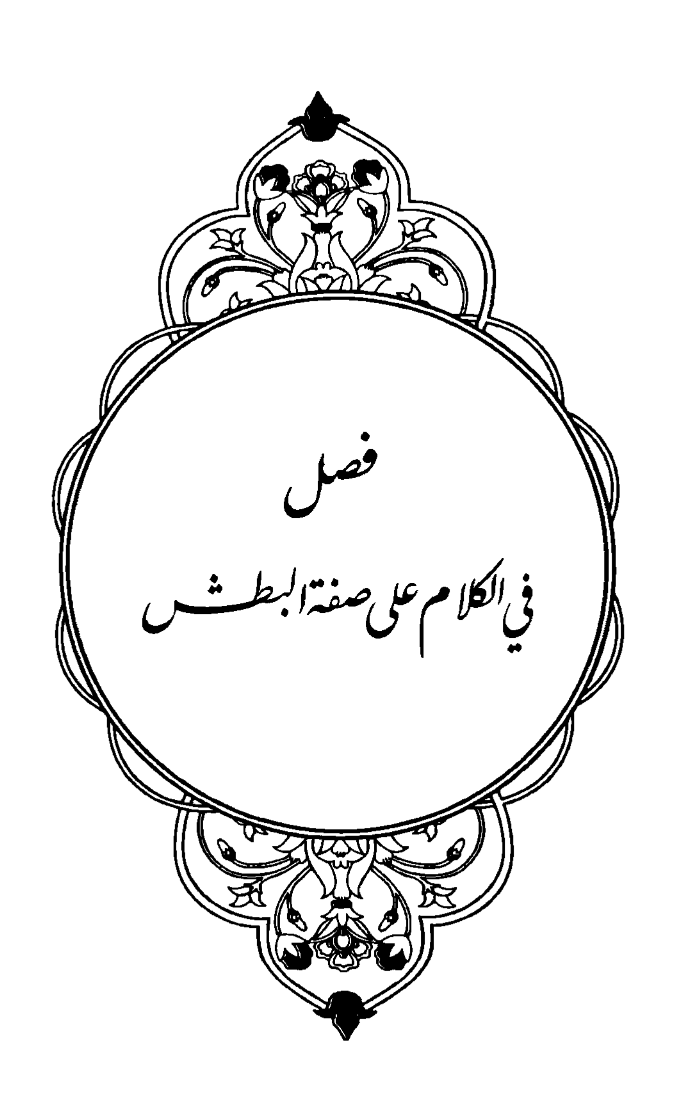
والتحقيقُ : أن وصفَهُ بالإنزال كوصفِهِ تعالىٰ بالنزول ، وأنه نزولٌ بروحِ أمره ، وكذلك إنزالُ القرآن إنزالٌ للروح المحمديَّة به ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾ [الطلاق : ١٠-١١] ، فأبدلَ الرسولَ من الذكر ، والمقصودُ بالعامل البدلُ ، وذلك نصٌّ في أن إنزالَ الذكر هو إنزالُ الرسولِ بالذكر .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل : ٢] ، فجعل الإنزالَ للملائكة بالروح ، وفسَّرَ الروح بكلامه ؛ وهو قولُهُ تعالىٰ : ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ ؛ ولهٰذا جاء بـ (أن) المفسِّرة ، وسيأتي لذلك مزيدُ بيان في صفة النزول إن شاء الله تعالىٰ[١]

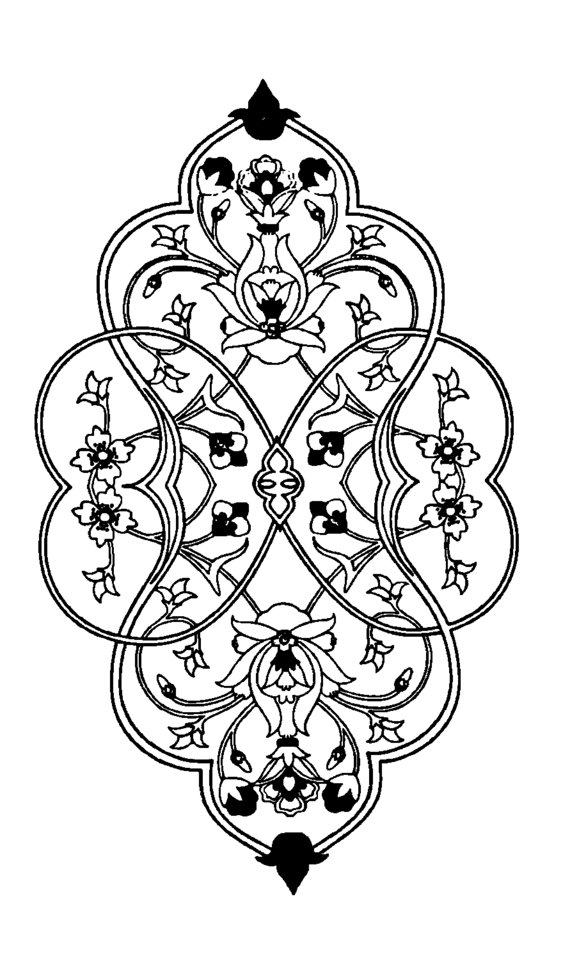
* * *

(١) انظر (ص ٢٨٥) .



فصل

في الكلام على صفة البطش



فصل

في الكلام على صفة البطش

ن صفاته[1] : بطشُهُ سبحانه :

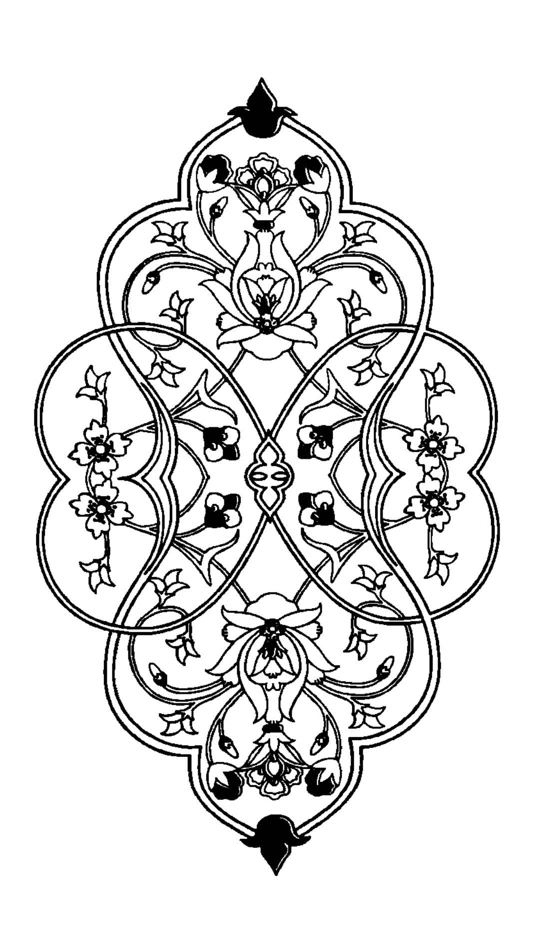
قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢-١٣] ، ا تشابهَ فيه ؛ لأن الآيةَ الثانيةَ تفسِّرُ الأولىٰ ؛ ولذلك جاءَ بها علىٰ وجه البدلِ ن غير عطف ؛ تنبيهاً علىٰ أن بطشَهُ عبارةٌ عن تصرُّفِهِ في بدئِهِ وإعادته[2]

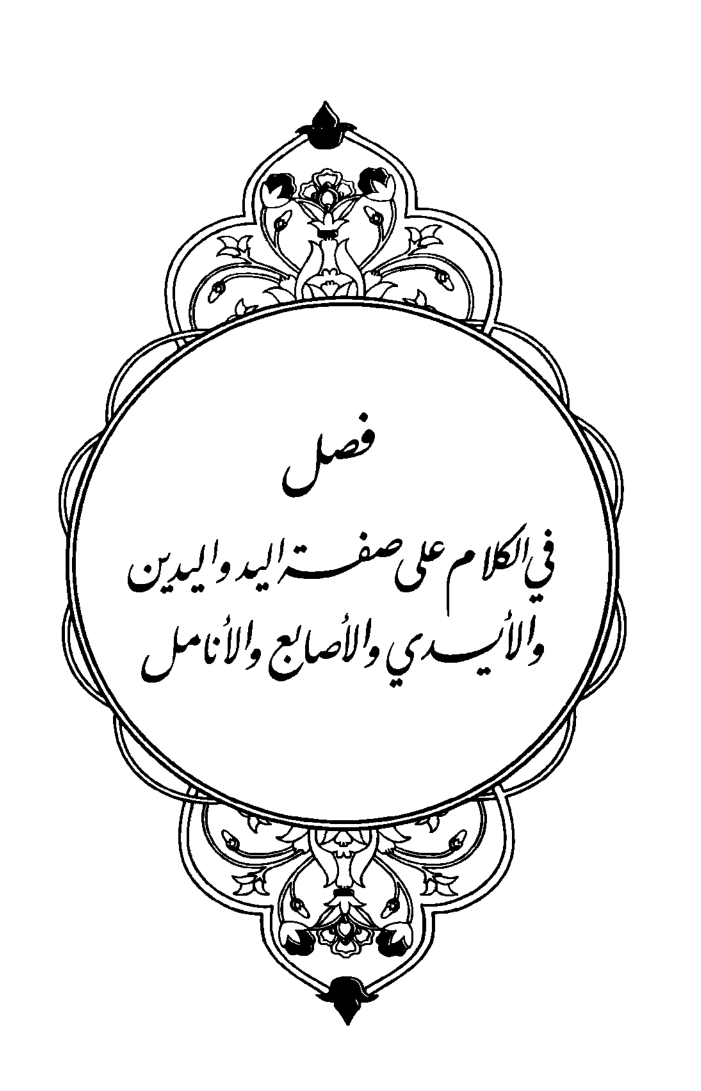
وما من شيءٍ من الكائنات جواهرِها وأعراضِها إلا وهي مفتقرةٌ إلىٰ بدئِهِ عادتِهِ ، فبطشُهُ تعالىٰ : اسم شاملٌ لجميع تصرُّفِهِ في مخلوقاته بدءاً وإعادةً .

* * *

لم يَذكر أنه من المتشابه ؛ لأنه سينصُّ علىٰ عدم التشابه فيه .

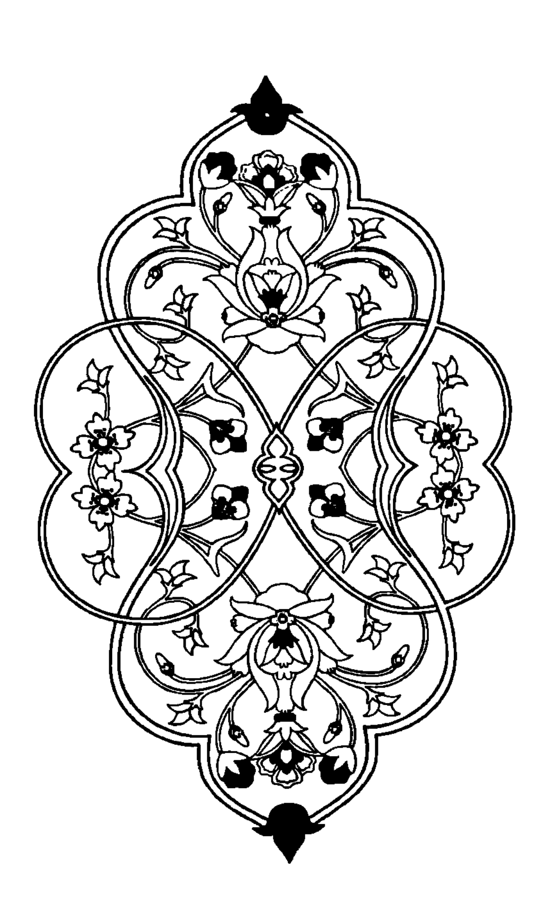
وعلى الجملة : علىٰ تولِّيه سبحانه الخلق والإيجاد ؛ قال حجة الإسلام الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٢٥٨) : (لكنِ الإيجادُ إذا لم يكن مسبوقاً بمثله . . سمي إبداءً ، وإذا كان مسبوقاً بمثله . . سمي إعادةً ، والله تعالىٰ بدأ خلق الإنسان ، ثم هو الذي يعيدهم ؛ أي : يحشرُهم ، والأشياء كلُّها منه بدأت وإليه تعود ، وبه بدأتْ وبه تعود) .





فصل

في الكلام على صفة اليد واليدين والأيدي والأصابع والأنامل



فصل

في الكلام على صفة اليد واليدين والأيدي والأصابع والأنامل

نسبةُ الأيدي إليه سبحانه[1] استعارةٌ لحقائق أنوارٍ علويَّة ، يظهرُ عنها تصرُّفُهُ وبطشُهُ بدءاً وإعادة[2] ، وتلك الأنوارُ متفاوتةٌ في روح القرب ، وعلىٰ حسَبِ تفاوتِها وسَعَةِ دوائرِها تكونُ رتبةُ التخصيص لما ظهرَ عنها

ألا ترىٰ قولَهُ تعالىٰ في حقِّ آدمَ عليه السلام : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [صٓ : ٧٥] كيف يُستفادُ منه تنويهٌ به وتشريفٌ وتكريم وتخصيصٌ ، ولا يستفادُ مثلُ ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا ﴾ [يسٓ : ٧١] ؟!

---

(١) كثير من المتكلمين المثبتين لوصفية هـٰذه الأخبار علىٰ أن اليد صفة ، وعلىٰ أن اليدين صفتان متباينتان بالمعنىٰ ، وعلىٰ أن الأيدي صفات متباينة بالمعنىٰ ، والإمام المصنف أرجعها جميعاً إلىٰ أنوار القدرة ، وهو ما يعبِّر عنه المتكلمون بتعلُّقات القدرة ؛ إذ القدرة إن تعلَّقت بإيجاد الإيمان والطاعات مثلاً . . سمِّيت توفيقاً ، وإن تعلَّقت بالرزق طعاماً وشراباً وكسوة . . سمِّيت إحساناً ، وكلُّ ذلك مشمول بالفضل ، وإن تعلَّقت بإيجاد الكفر والمعاصي مثلاً . . سمِّيت خذلاناً ، أو بالبلايا والرزايا والإهلاك . . سمِّيت انتقاماً ، وكلُّ ذلك مشمول بالعدل .

(٢) وإنما قال : (عنها) ولم يقل : (بها) لأن قدرة الله تعالىٰ تؤثِّرُ من غير علاج ، ومن غير احتياج إلى الوسائط والآلات ، وقد تكون الباء للملابسة الدالة على العناية .

فإن قلت : هل الخلق حاصل باليدين أو بالقدرة ؟

فالجواب : الخلق منه سبحانه بقدرته ، وسيأتي أن اليدين استعارةٌ لنور القدرة .

وما ذلك إلا لأن حقائقَ أنوارِ الأيدي الخالقة للأنعام ليسَتْ في روح القرب كحقائقِ اليدينِ اللتينِ خُلِقَ بهما آدم

فإن قلتَ : فما حقيقةُ اليدين اللتينِ خُلِقَ بهما آدم ؟[١]

قلتُ اللهُ أعلم بما أراد ؛ ولـٰكنِ الذي استثمرتُهُ من تدبُّر كتاب الله تعالىٰ أن اليدينِ استعارةٌ لنورِ قدرتِهِ سبحانه القائم بصفةِ فضله ، ولنورِها القائم بصفةِ عدلِهِ في عالم الغيب والشهادة[٢]

ويؤيِّدُ ذلك قولُهُ صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « يمينُ اللهِ ملأىٰ سحَّاءُ الليلَ والنهارَ ، لا تغيضُها نفقةٌ ، أرأيتم ما أنفقَ منذُ خلقَ السماواتِ والأرض ، فإنَّهُ لم يَغِضْ ما في يمينِهِ ، وعرشُهُ على الماءِ ، وبيدِهِ الأخرى الميزانُ يخفضُ ويرفعُ »[٣] ، فنبَّهَ علىٰ نورِ الفضل والسخاءِ بيمينِهِ السحَّاء المنفقة ، وعلىٰ نورِ العدل باليدِ الأخرىٰ صاحبةِ الميزان

ونبَّهَ تعالىٰ بقولِهِ عن آدمَ عليه السلام : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ . . علىٰ تخصيصِهِ له ، وتكريمِهِ إيَّاه ؛ بأن جمعَ له في خلقه بين فضلِهِ وعدله ، بمقتضىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : ٢٩] ، فتسويتُهُ من عدله ، ونفخُ روحه من فضله ؛ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٧٣] .

وممَّا يُحقِّقُ لك أن اسم اليدِ استعارةٌ لنورِهِ سبحانه : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤١-٤٢] ، فاستعارَ اليدينِ للقرآن ، ثم نبَّهَ علىٰ أنه استعارَهما لما اشتملَ عليه من نورِ الفضل ونورِ

---

(١) في (أ) : (في خلق آدم) بدل (اللتين خلق بهما آدم) .

(٢) قوله : (في عالم الغيب والشهادة) مثبت من (ب) .

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

العدل . . بقوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، فالحكيمُ : صاحبُ نور العدل ، والحميدُ : صاحبُ نور الفضل

ونبَّهَ بجمع الأيدي في خلق الأنعام : على أن اليدَ المنسوبةَ إليه ليست جارحةً ، وإلا لم تزد على يدينِ[١] ؛ لأن أفضلَ المخلوقات في الشاهدِ محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو على يدينِ[٢]

وفي الحديث : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ في الأرضِ »[٣] ، وذلك يفهمُ أن له يميناً سماويَّةً ؛ نسبتُها لأهل السماءِ كنسبة الحجرِ الأسود لأهلِ الأرض .

تنبيه

[على ما ورد من ذكر الأصابع والأنامل في حقِّه تعالى]

في « صحيح البخاري » وغيرِهِ في ذلك أحاديثُ[٤] ؛ منها : حديثُ عَبِيدةَ

---

(١) يعني : لو كانت جارحة لوجب القول بتثنيتها ؛ إذ التثنية في الأيدي هي الكمال في الوجود المقيد الحادث كما سينبِّه عليه جدلاً

(٢) إن قيل : لا مدخلَ للقياس في ذلك ، وإن لسيدنا جبريل مثلاً ستَّ مئة جناح .

فالجواب : ما استدلَّ به الإمام المصنف جارٍ على مذهبه بكون الصورة المحمدية على صاحبها أنمى الصلوات وأبرك التسليمات . . هي صورة حادثةٌ خلقها الله تعالى دالَّة على كمال تجلُّياته كما نبَّه على ذلك ، وأما بشأن سيدنا جبريل فالجناح غير اليد ، ومع التسليم فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلق على الإطلاق .

(٣) رواه ابن خزيمة في « صحيحه » (٢٧٣٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٧) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٤) كان من صنيع إمام المحدثين البخاري في ذكره لهـٰذه الصفات المتشابهات في « صحيحه » أنه رحمه الله تعالى اكتفى بالتبويب لها بنحو قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ ﴾) ، وقوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾) ، وقوله : (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا شخصَ أغيرُ من الله ») ، فيكتفي بحكايتها كعامة سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، وقد استشعر الإمام السنوسي سوء فهم بعض=

عن عبد الله رضي الله عنه قال جاءَ حبرٌ من الأحبار إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمدُ ؛ إنَّا نجدُ أن الله يجعل السماواتِ علىٰ إصبعٍ ، والأرضينَ علىٰ إصبعٍ ، والشجرَ علىٰ إصبعٍ ، والماءَ علىٰ إصبعٍ ، والثرىٰ علىٰ إصبعٍ ، وسائرَ الخلائق علىٰ إصبعٍ ، ويقول : أنا الملكُ ، قال : فضحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتىٰ بدَتْ نواجذُهُ ؛ تصديقاً لقول الحبرِ[1] ، ثم قرأَ : « ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٩١] »[2]

قلتُ : هٰذا الحديثُ شديدُ الاشتباه عند علماءِ الظاهر ، وهو محمولٌ عند بعضهم علىٰ أن اليهودَ مشبهةٌ[3] ، ويزعمون فيما أُنزلَ إليهم ألفاظاً تدخلُ في التشبيه[4] ، ليس القولُ بها من مذاهبِ المسلمين[5]

= الطلبة بل بعض المتصدرين لتدريس علم العقيدة في عصره فضلاً عن العامة . . لظواهر هٰذه الأحاديث ، فألَّف كتابه اللطيف : « **تأويل مشكلات البخاري** » ، فرحمه الله تعالىٰ وأحسن إليه .

(١) سيأتي عن الإمام الخطابي أن هٰذه العبارة من إدراج الراوي ، وتحقيق معناها من قبل الإمام المصنف علىٰ أن الأمر كذلك .

(٢) رواه البخاري (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) ، و**عَبِيدة** : هو ابن عمرو السلماني المرادي الكوفي ، و**عبد الله** : هو سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) وقد كان هٰذا الحبر يهودياً كما صُرِّح به في رواية للبخاري (٧٤١٤) ، ولا منازعةَ من الإمام المصنف في كون أكثر اليهود من المشبِّهة ، ومثلهم النصارىٰ ، وحسبُك بنسبة الأبوة الإضافية في حقه سبحانه المحكية في قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة ٣٠] .

(٤) **يعني** : كان من تحريفهم لكتاب الله التوراة أن جعلوا فيها ما هو صريح في التشبيه .

(٥) **اعلم** : أن من شبَّه الله تعالىٰ بخلقه تشبيهاً صريحاً . . فلا خلافَ في كفره ؛ وإنما الخلاف فيمن شبَّه لوجود نصٍّ متشابهٍ .

فمثال الأول : من يثبت لله تعالىٰ مثلاً القفا والشعر والركبة واللهاة والشفاه والأضراس والحدقة ونحو ذلك مما لا ورود له في النصوص الشرعية ، قال الإمام النووي في « شرح =

وبهـٰذا قال الخطابيُّ ، وقال (إنه روىٰ هـٰذا الحديثَ غيرُ واحد عن عبد الله من طريق عَبِيدةَ ، فلم يذكروا قولَهُ : « تصديقاً لقولِ الحبرِ » ، ولعلَّه من الراوي ظنٌّ وحِسبانٌ ؛ لأن ضحكَهُ صلى الله عليه وسلم يحتمل أنه لتعجُّبِهِ

= المهذب » (٤/ ٢٥٣) : (قد ذكرنا أن من يكفر ببدعته لا تصحُّ الصلاة وراءه ، ومن لا يكفر تصحُّ ؛ فممن يكفر : من يجسِّم تجسيماً صريحاً) .

ومثال الثاني من أثبت لله تعالىٰ يداً ثم قال : هي ليست كأيدينا في العظمية واللحمية والدموية ونحو ذلك ، لـٰكنها بعضه ! وهـٰذا علىٰ شفا هاوية الكفر ، ولا شكَّ أنه جاهل بربه .

وقوله : (ليس القول بها من مذاهب المسلمين) يعني : وإن انتسبوا للمسلمين ؛ قال الإمام الرازي في « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » (ص ٦٤) في التأريخ لظهور التشبيه بين صفوف المسلمين : (اعلم : أن اليهود أكثرهم مشبِّهة ، وكان بدء ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض ؛ مثل بنان بن سمعان الذي كان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح ، وهشام بن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقي ، ويونس بن عبد الرحمـٰن القمي ، وأبو جعفر الأحول الذي كان يُدعىٰ شيطانَ الطاق ، وهـٰؤلاء رؤساء علماء الروافض ، ثم تهافت في ذلك المحدِّثون ممَّن لم يكن لهم نصيبٌ من علم المعقولات) .

ولا تذهب هـٰذه العبارة الأخيرة بك للإساءة بالسادة المحدِّثين ؛ الذين حفظ الله تعالىٰ لنا بهم نصوصَ الدين ، وشرَّفوا مَنْ بعدهم بالانتساب إلىٰ سيد المرسلين ، وإنما أراد الإمام الرازي مَنِ اشتغل بالرواية وساءَ فهمُهُ لنصوصها ، وهـٰؤلاء لا نصيبَ لهم من الإمامة ؛ ولذلك قال (ص ٦٦) من هـٰذا الكتاب : (اعلمْ : أن جماعة من المعتزلة ينسبون التشبيهَ إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وإسحاق بن راهويه ويحيى بن معين ، وهـٰذا خطأ ؛ فإنهم منزَّهون في اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل ، لـٰكنهم كانوا لا يتكلَّمون في المتشابهات ، بل كانوا يقولون : آمنا وصدقنا ، مع أنهم كانوا يجزمون بأن الله تعالىٰ لا شبيهَ له وليس كمثله شيء ، ومعلوم أن هـٰذا الاعتقاد بعيدٌ جداً عن التشبيه)

وأحسب أنه أراد بالمحدِّثين : مَنْ ذكرَهم حجة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٦٦٤) بقوله وهو يتحدَّث عن الغرور : (وفرقة أخرى استغرقوا أوقاتَهم في علم الحديث ؛ أعني : في سماعه ، وجمع الروايات الكثيرة منه ، وطلب الأسانيد الغريبة العالية ، فهمَّةُ أحدهم : أن يدور في البلاد ويرى الشيوخَ ليقول : أنا أروي عن فلان ، ولقد رأيت فلاناً وفلاناً ، ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري) .

من كذب اليهود ، ويحتمل أنه لتعجُّبِهِ من صدقهم)[1]

وقد روى البخاري ومسلم في إثرِ هـٰذا حديثَ أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقبضُ اللهُ الأرضَ ويطوي السماواتِ بيمينِهِ ، ثم يقولُ : أنا الملكُ ، أينَ ملوكُ الأرضِ ؟! »[2].

قال الخطابيُّ : (فهـٰذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم ولفظُهُ ، وهو على وَفْقِ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٩١] ، وليس فيه ذكرُ الأصابع ، ولا تقسيمُ الخليقة)[3]

وقد رواه الترمذي عن ابن عباسٍ رضي الله تعالىٰ عنهما ؛ قال : مرَّ يهوديٌّ فقال : كيف تقولُ يا أبا القاسم إذا وضعَ اللهُ السماواتِ علىٰ ذِهْ ، والأرضَ علىٰ ذِهْ ، والماءَ علىٰ ذِهْ ، والجبالَ علىٰ ذِهْ ، وسائرَ الخلق علىٰ ذِهْ ؟ وأشار محمد بن الصلت بخنصره أوَّلاً[4] ، ثم بلغ إلى الإبهام ، فأنزلَ الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . . ﴾[5]

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أن ذكرَ الأصابع وإيهامَ التشبيهِ إنما جاءَ من لفظ اليهوديِّ ،

---

(١) انظر « أعلام الحديث » للإمام الخطابي (٣/ ١٨٩٩) وهو شرحه لـ « صحيح البخاري » ، والمصنف تصرَّف للاختصار في عبارته .

(٢) صحيح البخاري (٤٨١٢) ، ومسلم (٢٧٨٧) .

(٣) انظر « أعلام الحديث » (٣/ ١٩٠٣) ، وقال : (فدلَّ أن ذلك من تخليط اليهود وتحريفهم ، وأن ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان علىٰ معنى التعجُّب منه والتنكير له ، والله أعلم) .

(٤) أبو جعفر محمد بن الصلت أحد رواة سند الترمذي .

(٥) سنن الترمذي (٣٢٤٠) ، وقوله : (ذِهْ) أصله (ذي) إشارة للمفرد المؤنث ، ثم أُبدلت اليا هاء وبني على السكون ، ويجوز البناء على الكسر أيضاً ، والكسر باختلاس ، وانظر « همع الهوامع » (١/ ٢٩٥) .

وزاد في هـٰذه الروايةِ الإشارةَ إلىٰ أصابع الجارحة ، وأن اللهَ سبحانه وتعالىٰ أنزلَ بسببه قولَهُ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ ، وظاهرُهُ : أنه أنزلها للردِّ عليه ، وأنه تعالىٰ منزَّهٌ عن ذلك

وعلى الجملة : فقد جاء ذكرُ الأناملِ في حديث آخر عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ؛ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « أتاني الليلةَ ربِّي في أحسنِ صورةٍ ـ قال : أحسبُهُ في المنامِ[1] ـ قال يا محمدُ ؛ هل تدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلىٰ ؟ قال قلتُ : لا ، قالَ : فوضعَ يدَهُ بينَ كتفيَّ حتىٰ وجدتُ بردَها بينَ ثدييَّ ، فعلمتُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ »[2]

وفي رواية معاذِ بن جبل رضي الله عنه : « فرأيتُهُ وضعَ كفَّهُ بينَ كتفيَّ ، فوجدتُ بردَ أناملِهِ بينَ ثدييَّ ، فتجلَّىٰ لي كلُّ شيءٍ وعرفتُ »[3]

وأنت إذا جمعتَ بين هـٰذه الأحاديث تحقَّقْتَ عدمَ إرادة الجارحة ؛ لأنه يستحيلُ أن يكون كلُّ إصبع من يد واحدة جسمانية تسعُ السماواتِ والأرضينَ والجبال ونحوَ ذلك ، وهي مع هـٰذا العِظَمِ مجتمعُ أناملِها بين كتفيه صلى الله عليه وسلم حتىٰ يجدَ بردَها بين ثدييهِ[4]

---

(١) هو قول لأحد رواة هـٰذا الحديث .

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣) .

(٣) رواه الترمذي (٣٢٣٥) ، وفي الحديث إشارة بل تصريح بسَعَةِ العلم المحمدي ، وسيأتي للإمام المصنف أن هـٰذا العلم الحاصل هو علم التوحيد الذي هو أصل العلوم تحقيقاً .

(٤) يعني : إبقاء هـٰذه الألفاظ علىٰ ظواهرها يؤدي إلىٰ هـٰذا المحال ، أما إن تُؤُوِّلت ، وصرفت عن ظاهرها المخالف لصريح العقول التي أُنيط بها التكليف . . فلا حرج ، وفي اللغة سعة ، وعلىٰ محكم الشرع المعوَّل ، وعلى الله تعالىٰ في الفهم والإفهام المتَّكل .

وإنما المعوَّلُ عليه في ذلك : أن تخرِّجَهُ علىٰ ما نبَّهنا عليه ؛ وهو أن اليدَ حقيقةُ نورِ قدرته القائمِ بالعدل في إمساك مخلوقاتِهِ وتدبيرِ مُلْكه ، وهي من عالم الأمر الموصوفِ بصفة القيُّوميَّةِ

ويدلُّ علىٰ كونها من عالم الأمرِ : قولُهُ تعالىٰ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم ٢٥] .

وعلىٰ أنَّها من نورِ قدرته الموصوفِ بالقيُّوميَّة : مناسبةُ الاشتقاق ، وكونُها قُرِنَ حصولُ العلم بوضعها بين كتفيهِ صلى الله عليه وسلم حتىٰ علمَ ما في السماوات والأرض ، وعلمَ كلَّ شيء ، وهـٰذا العلمُ هو علم التوحيد ، الذي هو أصلُ العلوم كلِّها

وقد جعلَ اللهُ سبحانه شهودَ إلـٰهيَّتِهِ مقيداً بحال شهود قيُّوميَّتِهِ ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، فنصبَ (قائماً) على الحال ، والعاملُ فيه (شهدَ) ، والحال ظرفُ العاملِ ، فلا يصدقُ كونُهم أولي العلم بشهود التوحيد إلا في حال شهودِ قيُّوميَّتِهِ .

فإذا أوَّلنا اليدَ بنور القيُّوميَّة : علمتَ أن الحديث في معناه جاء موافقاً للقرآن ، وهو يرجعُ إلىٰ ما ذكرناهُ في تأويل اليدِ صاحبة الميزان التي تقدَّمَ ذكرها في الحديث(١)

ويُؤيِّدُ كونَها صاحبةَ العدل : أن السياقَ الذي ذُكرَ فيه : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . . ﴾ [الأنعام :٩١] إلىٰ آخره . . سياقُ قيامه تعالىٰ يومَ القيامة بفصلِ القضاء والعدل .

---

(١) انظر (ص ٢١٢) .

فإن قيلَ فقد سمَّاها باليمين في قولِهِ سبحانه ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، واليمينُ هي صاحبةُ الفضل المنفقةُ كما تقدم[١]

قلتُ : لا تنافيَ في ذلك ؛ لأن كلتا يديه يمينٌ[٢]

تنبيه

[علىٰ معنى الطيِّ باليمين]

قولُهُ تعالىٰ ﴿ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓ ﴾ [الزمر : ٦٧] **أشبهُ شيء ذكره المفسِّرون** في معنى الطيِّ أنه بمعنى الإخفاء ؛ أي : والسماواتُ قد خَفِيَتْ حقائقُها بيمينِهِ في نور تجلِّيها[٣] ، فليس لأهل الموقف سماءٌ إلا نورُها ، **ويؤيِّدُ ذلك** : قولُهُ سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : ٦٩] ، فلا سماءَ لأهل الموقف إلا حجابُ نوره ، ولا ظلَّ إلا ظلُّ عرشه[٤]

والطيُّ علىٰ هـٰذا موافقٌ لمعنى الكشْطِ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [التكوير : ١١] أي : كُشفَتْ وخفيَتْ تحت أشعة أنوارِ يمينه المقدَّسة .

---

(١) انظر (ص ٢١٢) .

(٢) روىٰ مسلم (١٨٢٧) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « إن المقسطينَ عند الله علىٰ منابرَ من نور ، عن يمين الرحمـٰن عز وجل ، وكلتا يديه يمينٌ ؛ الذين يعدلون في حكمِهم وأهليهم وما وَلُوا » ، ولا يشتبه علىٰ عاقل أن اليمين هنا لا يراد بها الجهة قطعاً ، وهي في اللغة غير مختصة بالجهة كذلك .

(٣) يعني : لأهل الموقف يومئذ مشاهدةً ، وإلا فهي مطويات بنور قدرته إفناءً وإبقاءً في كلِّ جزء زماني لا يتجزأ ، إلا أن حقيقتها الفناء ، والإبقاء عارض لها ، وبه تعلَّق القدرة عند المحقِّقين ؛ إذ لا التفاتَ إلى الفناء الأصلي من حيث القدرة الأزلية ، ولا يخفاك أنه لا تغيُّر في صفات الله سبحانه ، ألا ترىٰ أنه سبحانه قال : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، ثم الملك له بالأمس والآن والغد على السواء ؟!

(٤) ومثل الموقف تكون الجنة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٣] .

وأما استعارةُ الأناملِ والأصابعِ لها فاعلمْ أن حقيقةَ ذلك ترجعُ إلىٰ أنه ما من نورٍ من أنواره تعالىٰ إلا وله حجابٌ صوري ، يتعرَّفُ إلىٰ عباده بواسطتِهِ[1] ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ [النور ٣٥] ، فضربَ المشكاةَ والزجاجة والشجرةَ أمثلةً لحُجُبِ أنواره الصُّوريَّةِ ، وقد قدمنا عند ذكر الصورة ما يُفهمُ به معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « أتاني ربِّي في أحسنِ صورةٍ »[2]

وأن الصورةَ التي تجلَّىٰ لنبيِّهِ صلى الله عليه وسلم فيها ، وتجلَّىٰ فيها بنور يده العليا . . هي صاحبةُ الأنامل ؛ وهي ظُلَّةُ شريعتِهِ السمحة التي هي أحسنُ الشرائع ، وحقائقُ صفاتها كلُّها متنوعةٌ من روح (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) .

فيدُهُ العليا : هي صاحبةُ الخير في قوله تعالىٰ : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] ، وبقولِهِ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وأناملُها الخمسُ : هي الخمسُ التي بُنِيَ الإسلامُ عليها ، ومنها أنملةُ الشهادة ، وبهـٰذا يُفهمُ السرُّ في وضعها بين كتفيهِ ؛ وهو موضعُ خاتم النبوَّة ، وفي إثمارِها العلمَ بكلِّ شيء ؛ لأن جميعَ العلوم فروعٌ لعلمِ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، ويُفهمُ السرُّ في وجوده لبردِها بين ثدييه ؛ وهو صدرُهُ الزكيُّ الطاهر ؛ لانشراحه للإسلام[3] ، فهو علىٰ نورٍ من ربِّهِ ، وعلىٰ برد الرضا والتسليمِ للقضاء ، ولا امتناعَ في

---

(١) لا لاحتياج من قِبَلِهِ جلَّ شأنه ، بل لكون الحادث في رتبةٍ لا يمكنه أن يجاوزها ؛ فهو ملازم للإمكان دوماً ، وللحدوث وجوداً ، وأنَّىٰ للحادث الباطل الهالك أن يرقىٰ منصة القِدم الأزلية الأبدية ؟! فحظُّهُ من ربِّه هو تلك الحُجُب الصورية التعرُّفيّة ، بلَّغنا الله رضاه بخير وأمْنٍ وعافية .

(٢) انظر (ص ٢١٧) .

(٣) بنص قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الانشراح : ١] .

تجسُّدِها وتشكُّلِها علىٰ هيئة الصورة كما بيَّنّا[1]

وفي صورة هـٰذه اليد الإسلاميَّةِ[2] ظهرَتْ يدُ قيُّوميَّتِهِ بالسماوات والأرضِ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وفيها ظهرَ سرُّ المبايعة والعهدِ في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] .

وفيها ظهرَ سرُّ إجارته وعصمته بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] لأن من قال : (لا إلـٰه إلا اللهُ) . . عصمَ دمَهُ ومالَهُ[3]

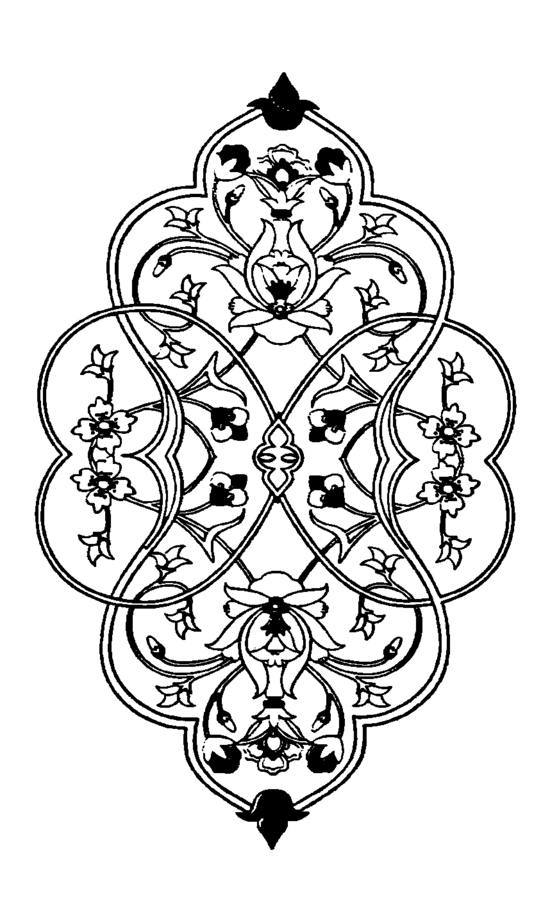
* * *

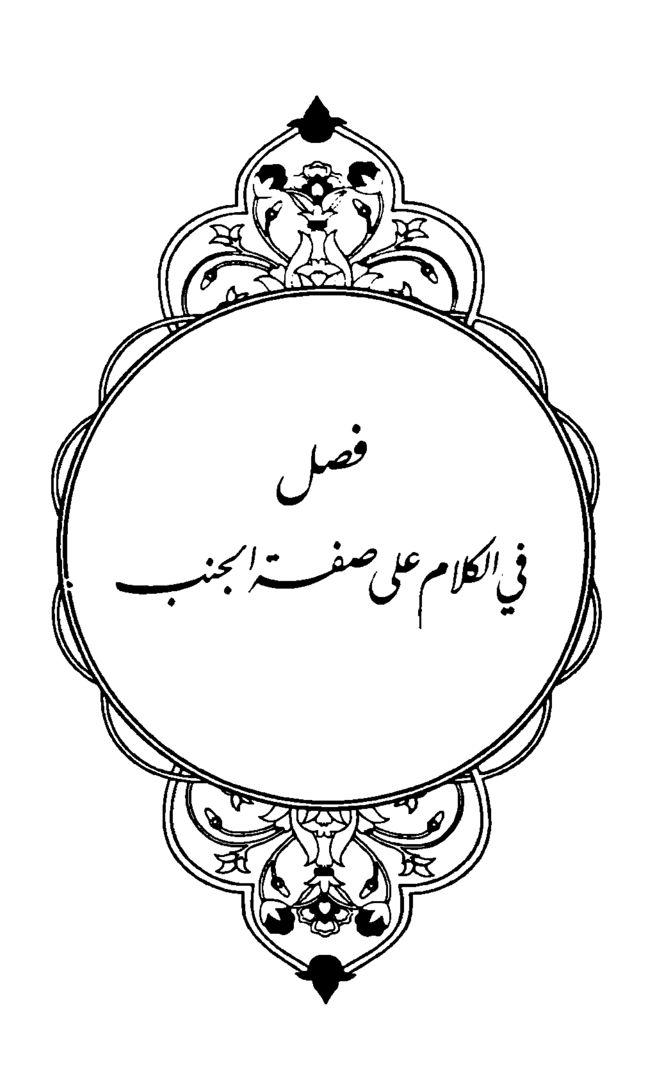
---

(١) ولا تنسَ أن الصورة مخلوقة ، وأنها نوع علم وإدراك بالنسبة للحادث ، وأن الذات القديمة جلَّت أن تحلَّ فيها ، وأنها راجعة لآيات الله سبحانه ، وأن من تمام المعرفة رؤيةَ الله فيها مع اعتقاد تنزُّهه عنها .

(٢) سمَّاها كذلك لرمزيَّة الأصابع الخمس لأركان الإسلام الخمسة .

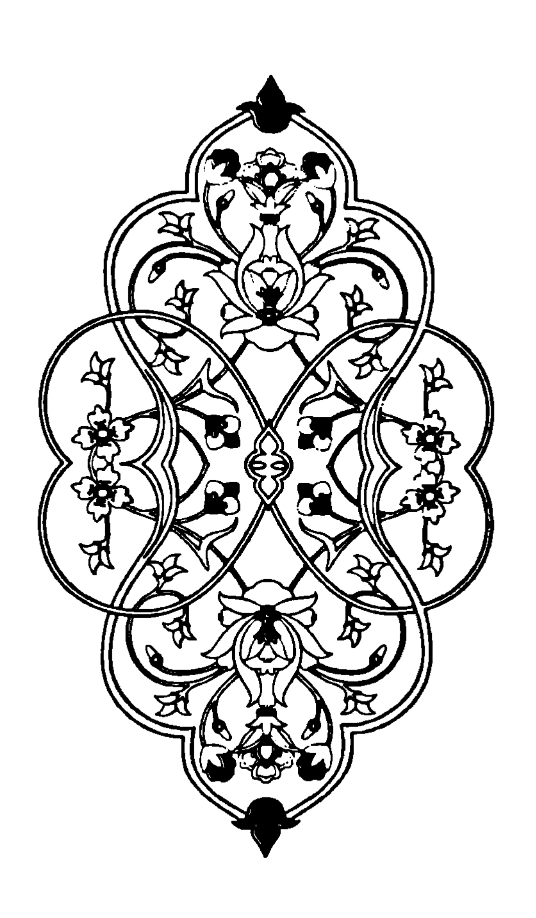
(٣) روى البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « أُمرتُ أن أقاتلَ الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّ الإسلام ، وحسابُهم على الله » .





فصل

في الكلام على صفة الجنب



فصل

[في الكلام على صفة الجنب]

ومن المتشابهِ : الجَنْبُ :

في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] ، وهو أيضاً يتخرَّجُ علىٰ ما مهَّدناهُ[١] ؛ وذلك أن الصورةَ إذا كانت ظُلَّةَ غمام الشريعة فرأسُها : كتابُ الله ، وجنبُها سنَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومظهرُها : متابعتُهُ ومتابعةُ خلفائِهِ الراشدين ، وعلماءِ الأمة المتقين .

وممَّا يدلُّكَ علىٰ ذلك قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر : ٥٥] ، مع قوله في أثناء السورة : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر : ٢٣] ، فعُلِم أنه كتابُ الله تعالىٰ ، وكذا سنةُ رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا ينطقُ عن الهوىٰ ؛ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٢] [النجم : ٤] .

فلمَّا مهَّدَ الأمرَ بالمتابعة لكتابِهِ وسنَّةِ رسوله.. حذَّرَ من إتيان عذابه قبلَ ذلك[٣] ؛ ومن قولِ النفس : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ ، وذلك كالصريحِ في أن الجنبَ هو سنةُ رسولِهِ وعلماءِ أمَّتِهِ المتقين ؛ لأنهم

---

(١) يعني : في مسألة الصورة ، وانظر (ص ١٤٣) .

(٢) ولما روى الدارمي في « سننه » (٦٠٨) عن حسان بن عطية رحمه الله تعالىٰ أنه قال : (كان جبريلُ ينزلُ على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزلُ عليه بالقرآن) .

(٣) وذاك في قوله سبحانه : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٥] .

كانوا يسخرون من الذين آمنوا في اتباعِهم لرسولِهِ صلى الله عليه وسلم[1] ، فلهـٰذا أردفَتْ حسرتَها بقولها : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴾ [الزمر ٥٦] ، وبقولها : ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر : ٥٧] ، فردَّ الله عليها بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٩][2]

تنبيه

[علىٰ رفعة المتَّبعين ، وحسرة الساخرين]

قد سبقَ في أثناء السورةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِى ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر ١٧ـ ١٨][3] ، ثم بيَّنَ

---

(١) يعني : كان هـٰؤلاء المتحسِّرون يومَ القيامة يسخرون في الدنيا من المؤمنين المتزيِّنين بالسنة ؛ وقد ذكرهم تعالىٰ بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين : ٢٩ـ ٣٢] ، وروىٰ مسلم (٢٦٢) عن سيدنا سلمانَ رضي الله عنه قال : قال لنا المشركون ـ يعني : بعضَهم وعلىٰ سبيل الاستهزاء ـ : إني أرىٰ صاحبكم يعلمكم حتىٰ يعلمكم الخِراءة ! فقال أجل ؛ إنه نهانا أن يستنجي أحدُنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة ، ونهىٰ عن الروث والعظام ، وقال : « لا يستنجي أحدُكم بدونِ ثلاثةِ أحجار » .

(٢) واعلم : أن ترك السنة ومتابعةِ الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم . . من أعظم أسباب التحسُّر يومَ القيامة كما قال الإمام المصنف ، وهو راجع لكفرٍ خفيٍّ أو حُمق جليٍّ كما قال الإمام الغزالي في « الأربعين » (ص ١٩٧) ، وقال في « إحياء علوم الدين » (١/ ٥٨٦) : (لا ينبغي أن يكون حظُّكَ من ممارسة الفقه أن تتميَّز لك السنةُ من الفرض ، فلا يعلقُ بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها ، فتتركها !) ، فمن تمسَّك بالسنن كلِّها ؛ مؤكَّدها ومستحبِّها ، في العبادات أو العادات بل في شؤونه جميعِها . . فقد تصوَّرَ بصورة الكمال الإمكاني الذي لا مرامَ لعبدٍ فيه من غير هـٰذا السبيل ، وحازَ مفتاحَ السعادة الأبدية بإكسيرِ الاقتداء والاتِّباع ، فنسأل الله تعالىٰ أن يعظِّمَ علينا المنَّة بالتلبُّس بالسنَّة .

(٣) قوله (عبادي) بإثبات الياء في جميع النسخ ، وهي قراءة السوسي ، وانظر « النشر في =

بأنهم الذين اتقوا بقوله : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ ، ثم بيَّنَ بقوله ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ ﴾ [الزمر : ٢٠] أن ذلك هو الذي وعدَهم به في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٢] لأنهم يكونون في الدركِ الأسفل ، والذين اتقوا في الغرف .

ولذلك حُقَّ لهم أن يتحسَّروا علىٰ ما فرَّطوا في جنب الله ؛ وهو صحبةُ رسوله صلى الله عليه وسلم ومتابعته ، حتىٰ يسعدوا به وبصحبته كما سعدَ به المتَّقون من أتباعه واهتدوا باتباعه ، وفي ذلك اليومِ تظهرُ لهم حقيقةُ سخريَّتهم في قولِهِ : ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد : ١٦ـ١٧][1] .

تبصرة

[في الصاحب الحسي والصاحب المعنوي]

إذا تقرَّرَ لك بهٰذا : أن الجنبَ جنبانِ : جنب حسيٌّ ، وجنب معنويٌّ حقيقي ؛ فكذلك الصاحبُ بالجنب صاحبانِ : صاحبٌ في السفر الحسي ، وصاحبٌ في السفر المعنوي الغيبيِّ القلبي[2] .

وبذلك فافهم السرَّ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ

= القراءات العشر » (٢/١٨٩) .

(١) والآيتان بتمامهما : ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ۞ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ .

(٢) في (أ ، ج) : (العلمي) بدل (القلبي) .

شَيْـًٔا . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النساء : ٣٦][1].

فإن تنزَّلتَ فاعتبرْ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم . . . ﴾ الآيةَ [النساء ٦٩] ، وإن ترقَّيتَ فاعتبرْ قولَهُ تعالىٰ عن رسولِهِ صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم : ٢] ، ثم اعتبرْ قولَ الرسول صلى الله عليه وسلم في سفره : « اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ ، والخليفةُ في الأهلِ »[2]

بيان
[في جلوسه صلى الله عليه وسلم علىٰ عرش الرحمٰن]

قد روىٰ أبو عبد الله الحكيمُ الترمذيُّ بسنده إلىٰ عبد الله بن سلام رضي الله عنه : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم يجلسُهُ اللهُ تعالىٰ معه على العرش[3]

---

(١) والآية بتمامها : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ .

(٢) رواه مسلم (١٣٤٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .
ووجه الاعتبار في ذلك : أن العبد اليَقِظَ في حال تنزُّله يكون مع الصديقين والشهداء والصالحين ، وفي حال ترقيه لا يني عن صحبة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ باتِّباع سنته إلىٰ رؤيته يقظةً ، ولا يغفُلُ عن صحبة الله جلَّ جلاله بمقام المراقبة إلىٰ مقام الشهود ، والله أعلم .

(٣) رواه في « نوادر الأصول » (١٣٧٩) بنحوه ، وقال قبل إيراده : (ولذلك قال مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، قال : يجلسه علىٰ عرشه ، وروي لنا : أنه يُنشِئ ناشئةً من العرش كهيئة الشجنة ، فيحملُهُ من الموقف إلى العرش ، حتىٰ ينظر إليه الخلق في تلك الوقفة ، فيتلهَّفون علىٰ ما فاتهم من أداء حقِّهِ إذا رأوا له تلك المنزلة عند ربه) ، والشجنة : الشعبة من كل شيء .
واعلم : أن عامة أئمة المسلمين قد أنكروا روايةَ جلوسه عليه الصلاة والسلام على العرش بلفظ المعية ؛ وأنه هو المقصود من المقام المحمود ؛ إذ أسانيدُها دون أسانيد تفسير

وذلك يتخرَّجُ علىٰ ما مهَّدناه[1] ؛ لأنَّنا بيَّنَّا أن الصورةَ التي يتجلَّى الله سبحانه وتعالىٰ فيها هي ظُلَّةُ غمامِهِ ؛ وهي أنوارُ آياته ، وفي تلك الصورة يتجلَّىٰ على العرش ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم يتجلَّىٰ لأمته في ظُلَّةِ سنته ، وكتابُ الله تعالىٰ وسنةُ رسولِهِ صلى الله عليه وسلم لا يفترقانِ ، كما لا تفارقُ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) (محمدٌ رسولُ اللهِ)[2]

= بالشفاعة ؛ فهـٰذه الأخيرة مستفيضة ، وبعضهم حسَّن الظنَّ براويها ، فتأوَّلها كما فعل الإمامُ المصنف هنا ، وقد قال الإمام القاضي عياض في « الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ » (ص ٢٧٣) : (وبذلك جاءت الشفاعة مفسَّرةً في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام ، وجاءت مقالةٌ في تفسيرها شاذَّةٌ عن بعض السلف يجب ألا تثبت ؛ إذ لم يعضدها صحيحُ أثر ولا سندُ نظر ، ولو صحَّتْ لكان لها تأويل غيرُ مستنكر ، لـٰكن ما فسَّرَهُ النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح الآثار يردُّهُ ، فلا يجب أن يلتفت إليه ، مع أنه لم يأتِ في كتاب ولا سنة ، ولا اتفق على المقال أمة ، وفي إطلاق ظاهره منكرٌ من القول وشُنْعة) .

(١) يعني : في مسألة الصورة ، وانظر (ص ١٤٣) .

(٢) ومتىٰ وُجدُ تردُّدٌ في فهم المعية والمجالسة ، بل وأيِّ نصٍّ متشابه . . فاعلمْ أن ذلك راجع لأمور :

الأول : أنه لا تزالُ في نفس المتردِّد بقيةُ تشبيهٍ : إذ هو يفهم من استواء الرحمـٰن على العرش ، أو جلوسه إن صحَّ بهـٰذا اللفظِ الخبرُ . . ما يفهم من استواء الحادث وجلوسه ؛ وجلَّ ربُّنا عمَّا تحكم به الأوهام .

الثاني : الهيبةُ من النصوص الشرعية الناطقةِ بهـٰذه المتشابهات : فهو يحكمُ بكثرتها وصرائحِ ظواهرها بأنها غالبةٌ على المعنى المُفاد من التأويل ؛ بحجة تقديم النقل على العقل ، وتقديم الحقيقة على المجاز .

وهـٰذه آفةٌ سببُها غلبةُ الوهم ، وانتشار فكر التشبيه في عصرٍ لم تعدْ فيه للعلماء كلمةٌ مسموعة ؛ وهـٰذه الشُّبهُ لا تتشبَّثُ إلا بخالي الفؤاد عن الاعتقاد ، أو خالي الوفاض عن العلم ؛ إذ مثالُ الممنوع من تقديم العقل على النقل : أن يُقدِّم أحدهم مدَّعياً المصلحة وملاءمةَ العصر حكماً وضعياً علىٰ حكم شرعي رصين ؛ كقول بعضهم : لليافع حقٌّ اختيار أي دين يشاء وإن كان ولداً للمسلم ، ومثالُ الممنوع من تقديم المجاز على الحقيقة : أن تدَّعيَ في ألفاظ النصِّ الشرعي معاني تخالف قطعيَّاته ، فتصيرَ إلى المجاز مع إمكان العمل=

= بالحقيقة لغةً وشرعاً ؛ كتأوُّل بعضهم قولَهُ تعالىٰ في تحريم الخمر ﴿فاجتنبوه﴾ أي : اجعلوه علىٰ جَنْبِكم ، وليس المراد تحريمه ! وهـٰذا عبثٌ وهزء ! ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة ٦٥]

ثم اعلم أنه ما هاب الشريعةَ وصاحبَها كما هابَهُما العلماءُ العاملون الربَّانيون ؛ إذ هم الذين جمعوا بين مُحكمها ومتشابِهها ، وجمعوا بين أسرار ظواهرها وبواطنها ؛ فأحسنوا الاعتقادَ بعقائدها ، وعملوا بأوامرها وانتهَوا عن نواهيها ، وهـٰكذا تكون الهيبةُ منها

الثالث : الحيرةُ في إثبات المعنى المراد فهو يصرف النصَّ عن ظاهره ، ولـٰكنه بعد ذلك تحدِّثه نفسه وتقول : إن لم يكن الظاهرُ هو المرادَ فما المرادُ إذاً ؟ وجوابها : وما عليكِ ألا تعلمي أمراً لم تكلِّفك الشريعة معرفته ؟ ! وإنما كُلِّفنا بردِّ ذلك إلى الله ورسوله ، فآمنتُ بهـٰذه النصوص علىٰ مراد الله ومرادِ رسوله ، وهـٰذا موفَّقٌ مؤيَّد .

وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٧٢٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه : أن عمر قرأ على المنبر ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس ٣١] ، ثم قال : هـٰذه الفاكهةُ قد عرفناها ، فما الأبُّ ؟ ثم رجع إلىٰ نفسه فقال : إن هـٰذا لهو التكلُّفُ يا عمر .

الرابع : مداراةُ الضعفاء الذين يُخشىٰ عليهم عند التأويل هجرُ الإيمان : قال حجةُ الإسلام الغزالي في « ميزان العمل » (ص ٣٠٦) : (إن وقعَ له مسترشدٌ تركيٌّ أو هندي أو رجلٌ بليدٌ جلفُ الطبع ، وعلم أنه لو ذُكرَ له أن الله تعالىٰ ليس ذاتُهُ في مكان ، وأنه ليس داخلَ العالم ولا خارجه ، ولا متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه ؛ لم يلبثْ أن ينكرَ وجود الله تعالىٰ ويكذِّبَ به . . فينبغي أن يقرَّرَ عنده : أن الله تعالىٰ على العرش ، وأنه ترضيه عبادة خلقه ويفرحُ بها ، فيثيبهم ويدخلُهم الجنة عوضاً وجزاء .

وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحقُّ المبين ويكشفَ . . فالمذهبُ بهـٰذا الاعتبار يتغيَّرُ ويختلف ، ويكون مع كل واحد علىٰ حسب ما يحتمله فهمه) ، وما أكثر الحاجةَ إلىٰ هـٰذا اليوم مع العامة ! وهـٰذا مأجورٌ إن صدقت نيَّته ، ورجَّحَ بعد تردُّده السيِّئ علىٰ ما هو أسوأ ، وسبحان من عمَّت رحمته كلَّ شيء .

الخامس : المداهنة والمصانعة : حيث ترىٰ بعض من سلمت عقيدته ، وعلم أن الحق ما قرَّره الراسخون في العلم ، وأن تلك المتشابهات ليست علىٰ ظواهرها . . يردِّدُ بين لسانه وقلبه ؛ فهو يصانعُ أهل الدنيا لدنياهم ، ويجاملُهم في اعتقاداتهم ، لا جمعاً للكلمة ، ولا حبّاً لترصيص الصفوف ، بل طمعاً في مالهم ، أو في جاههم ، وعبيدُ الجاه أكثرُ من عبيد المال . =

فمن ها هنا صحَّتِ المجالسةُ له مع ربِّهِ تعالىٰ علىٰ عرشه[1] ، كما وضحَ بهـٰذا حسرةُ النفوس التي شقيَتْ بمخالفته علىٰ تفريطِها في جنب الله ؛ لأنها تشهدُ هنالك حقيقةَ معيَّةِ ربِّهِ له ومجالسته .

اعتبار

[في لمعة من أسرار اتِّباع السنة]

ذكر أبو عبد الله الترمذي في « نوادر الأصول » له حديث رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهوال يوم القيامة ، وفيه : « ورأيتُ رجلاً مِنْ أمَّتي

= واعلم أن من الدنيا : رؤوساً متعمِّمة ، طاعَ له بعضُ العلم ، وحفظَتْ بعضَ الأخبار والآثار ، وعَدَتْ علىٰ صنعة الحديث فاحترفتها ، فكان لها وجاهةٌ بين الناس ، وقبولٌ عند بعض أهل التنفُّذ ، قد اتَّخذوا من أمثال هـٰؤلاء خولاً لهم ، عافانا الله وإياهم ، وردَّنا جميعاً إلىٰ ديننا ردّاً جميلاً

السادس : عدم إتقان علمي أصولِ الدين وأصولِ الفقه : فيتوهَّم غير الممارس لهما جوازَ وجود تعارضٍ بين العقل والنقل ، حتىٰ إنك ترىٰ بعضَ من له صلة بالتصوف ويدَّعيه يفهم من كلام الصوفية مثلَ هـٰذا ، ويدَّعي قصور العقل عمَّا أُمرَ به ! ولا نزاع في وجود طوريَّة وراء العقل ، ولـٰكن النزاع في هدم هـٰذه النعمة ، وإسقاط كرامة العقل باحتمالات طائشة لكلامٍ فضفاض حمَّال أوجه لبعض الصوفية ! فتراه يعتقد التجسيم في باطنه ، ويخاف المجاهرة به ، أو يتردَّد في ذلك ، ويحسب أنه بلغ رتبة معرفية قَصُرت العقول عن دركها ، ومن هزالة العلم أُتي ، ومحققو الصوفية وعلم الكلام علىٰ وفاق في سلامة الاعتقاد .

السابع : التقليد الأعمىٰ : وهو داءٌ استشرىٰ حين هانَ الدينُ علىٰ أهله ، فلم يعدْ في مقدمة ما يهتمُّون به ، مع أنه أهمُّ عند العاقل من النفس والأهل والمال ، والعجبُ أن كثيراً من أهل عصرنا يقلِّدون في الأصول ، ويجتهدون في الفروع ! مع أن التقليدَ للكتاب والسنة في الأصول حرام ، والاجتهادَ فيهما في الفروع لمن لم يحكم أدواته حرامٌ أيضاً ، ولا عجبَ بعد إخبار سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بكثرة الهالكين والمفتونين آخر الزمان ، لا جعلنا الله منهم ، ومنَّ علينا جميعاً بحفظه وكلاءته من كلِّ ما لا يرضيه سبحانه .

(1) فهي عنديَّة خاصَّة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، ومن علم أنه تعالىٰ منزَّهٌ عن الحدود في ذاته ، وعن الحدوث في صفاته . . لا يُشكل عليه فهمُ هـٰذه الأخبار إن صحَّت .

والنبيُّونَ حِلَقٌ حِلَقٌ ، كلَّما دنا إلىٰ حضرةٍ طُرِدَ ، فجاءَهُ غسلُهُ من الجنابة ، فأخذَ بيدِهِ فأقعدَهُ إلىٰ جنبي »[1]

وهو أيضاً يتخرَّجُ علىٰ ما مهَّدناهُ[2] ؛ لأن اتِّباعَ السنة تارةً يكون فيما يقتضي التنزيهَ ، وتارةً يكون فيما يقتضي الحمدَ ، وبهما تملأُ الميزان[3] ، كما ثبتَ في الصحيح : « الطُّهورُ شطرُ الإيمانِ ، والحمدُ لله تملأُ الميزانَ »[4] ، وصاحبُ غسلِ الجنابة إذا شهدَ نور المتابعةِ المحمديَّةِ في الغسل . . حصل له شطرُ الإيمان ؛ فلذلك فاز بصحبتِهِ للجنب المحمديِّ ومجالسته[5]

* * *

---

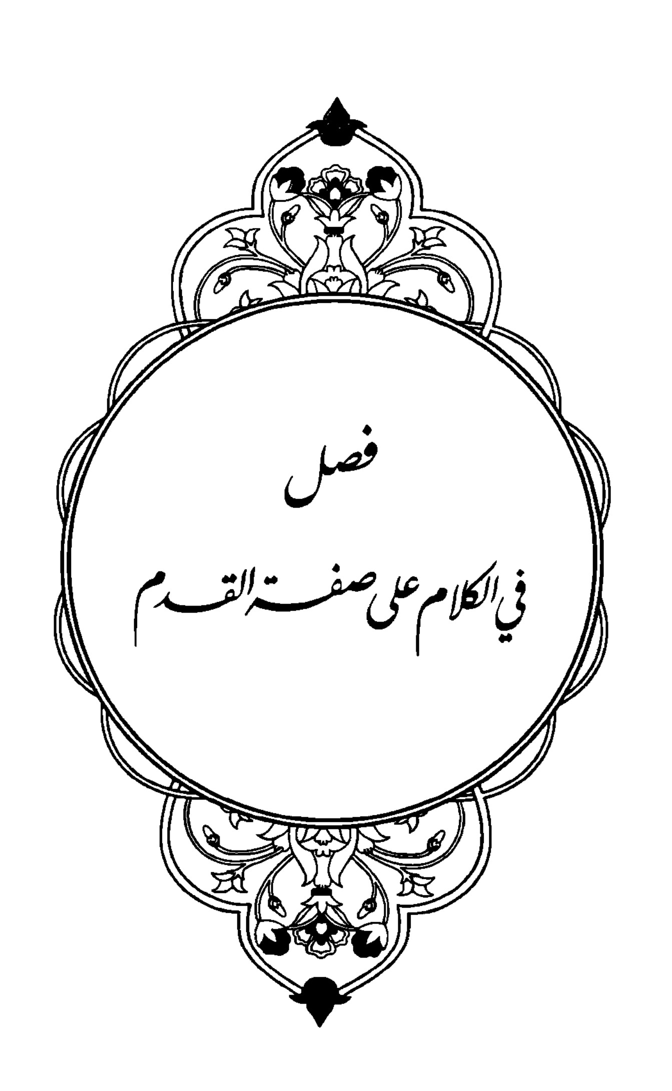
(١) نوادر الأصول (٦/ ٤٣) ، وهو قطعة من الحديث (١٣٢٤) .

(٢) يعني : في مسألة الصورة ، وانظر (ص ١٤٣) .

(٣) في (أ ، ج) : (يكمل) بدل (يملأ) .

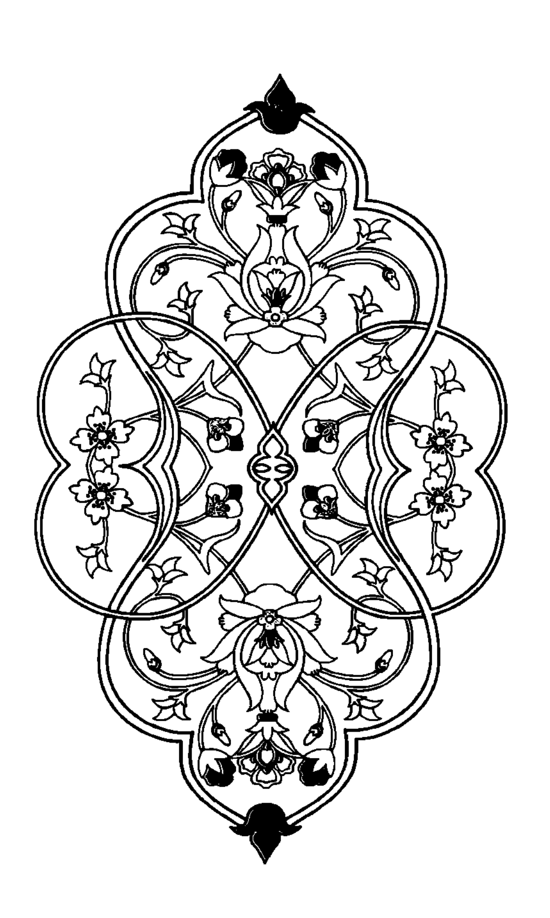
(٤) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٥) قال العلامة الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٦/ ٤٤) : (هٰذا الجُنُبُ لو لم يكن يغتسل في الدنيا لمنعه فقد طهارته عنهم ـ يعني : الأنبياء ـ ، فلما اغتسلَ في الدنيا صارت منزلته بطهارته بحيث صلح وجاز أن يقعد إلىٰ جانب سيد الرسل عليه السلام ، وبالطهارة وجد السبيل إلىٰ ذلك) .



فصل

في الكلام على صفة القدم



فصل

[في الكلام على صفة القَدَم]

ومن المتشابهِ : صفةُ القَدَمِ :

فإنه ثبتَ في « الصحيحين » من حديث أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « لا تزالُ جهنَّمُ تقولُ : هل مِنْ مزيدٍ . . حتىٰ يضعَ فيها ربُّ العزَّةِ قَدَمَهُ ، فتقولُ : قَطْ قَطْ وعزَّتِكَ »[1]

وهـٰذا أيضاً يرجعُ إلى المحكم ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] ، وقد مهَّدْنا أن الصورةَ المنسوبة إلى الله تعالىٰ هي ظُلَّةُ غمامِ الشريعة ، وأن وجهَهُ منها بارقُ نورِ التوحيد ، ومظهرَهُ : الإخلاص[2]

وعلىٰ هـٰذا : فالقَدَمُ منها[3] : هو نورُ الإيمان ، ومظهرُهُ : الصدق ، وهـٰذا هو القَدَمُ الذي تستغيثُ النارُ من نوره ؛ كما جاء في حديث أبي سميَّة

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٦١) ، وصحيح مسلم (٢٨٤٨) ، وتمامه : « ويُزوىٰ بعضُها إلىٰ بعض » ، وقوله : (قط قط) قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٩/ ٣٨٤) : (بسكون الطاءين وكسرهما مع التخفيف فيهما ، والتكرار للتأكيد ؛ أي : حسب حسب ، قد اكتفيت) .

(٢) انظر (ص ٢٢٥) .

(٣) يعني : من الصورة المنسوبة له سبحانه ، والراجعة لآياته .

قال سألتُ جابرَ بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنهما عن الورود ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول « الورودُ الدخولُ ، لا يبقىٰ برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلَها ، فتكونُ على المؤمنِ برداً وسلاماً كما كانَتْ علىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ، حتىٰ إنَّ للنارِ ضجيجاً مِنْ بردِهم »[1]

وفي حديث يعلىٰ قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ النارَ لتنادي : جُزْ يا مؤمنُ ؛ فقد أطفأَ نورُكَ لهبي » ، أخرجهما أبو عبد الله محمد الترمذيُّ الحكيم[2] ، وذكر القرطبيُّ حديثَ يعلىٰ عن أبي بكرٍ النجاد[3]

تحقيق

[في أن القَدَم راجع لنور الإيمان]

ممَّا يحقِّقُ أن القَدَمَ ما ذكرناه أمرانِ :

أحدُهما : أن نورَ الإيمان يكفِّرُ جميعَ أسباب الكفر والمعاصي[4] ؛ وهي أسبابُ النار ؛ فكما يطفئ أسبابَها في الدنيا ، فكذلك حقيقتُهُ تطفئ حقيقتَها في الآخرة .

الثاني : نسبتُهُ إلىٰ ربِّ العزَّة[5] ؛ وهو صاحب العزَّة ومالكُها ، والعزَّةُ وإن

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٢٨) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٩٩) ، وسيأتي أنه أخرجه بعد الحديث الآتي .

(٢) سبق بيان الأول ، والثاني رواه في « نوادر الأصول » (١٠١) من حديث سيدنا يعلى بن أمية رضي الله عنه ، ويقال له أيضاً : يعلى ابن منية بنت غزوان أخت عتبة بن غزوان .

(٣) انظر « التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة » (٢/ ٧٥٩) .

(٤) يكفِّرُ : يمحو ، وكذا شُكلت في (ج) ، وعلى التخفيف : يستر ويغطي ، وكلاهما صواب .

(٥) حيث استغاثت جهنم فقالت : (وعزَّتِك) .

كانت جميعاً لله تعالىٰ بمقتضىٰ قوله تعالىٰ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر ١٠] . . لـٰكنه قد نسبَها لرسولِهِ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بقوله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، فما من مؤمن إلا وهو صاحب العزَّة ، فإذا وضعَ قدمَهُ حُقَّ للنار أن تضجَّ منه وتنزويَ[1] ، وتنطفئَ نارُها بما له من نور العزَّة .

مـا عليـهِ مِـنْ نـارِهـا فهْـوَ نـورٌ هكذا النورُ [مخمدُ] النيرانِ[2]

فـائدة

[النبيُّ عليه الصلاة والسلام الأصلُ الجامع لكلِّ نور من أنوار صفاته تعالىٰ وأسمائه]

في « الشفا » للقاضي عياض : أن من أسمائِهِ صلى الله عليه وسلم : (قدمَ الصدقِ)[3] ، وهو يقتضي أنه الأصلُ الجامع لكلِّ نور من أنوار صفاتِهِ وأسمائه تعالىٰ .

تنبيه

[علىٰ معنى الرِّجْل]

جاءَ في حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه عند مسلم : « فأمَّا النارُ فلا تمتلئُ حتىٰ يضعَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ رِجْلَهُ ، فتقولُ : قَطْ قَطْ ، فهنالكَ تمتلئُ وينزوي

---

(١) تنزوي : تنكمش ويتقلَّص بعضها إلىٰ بعض .

(٢) البيت من الخفيف ، وأثبت من (ب) وحدها ، وفيها : (يخمد) بدل (مخمد) ، وهو للعارف الحاتمي في « ترجمان الأشواق » (ص ٢٤) ، ضمن قصيدة مطلعها :

مـرضـي مـن مـريضـة الأجفـان علـلانـي بـذكـرهـا علـلانـي

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم (ص ٢٩١) .

بعضُها إلىٰ بعضٍ ، فلا يظلمُ اللهُ مِنْ خلقِهِ أحداً . . . » وذكر الحديثَ[1]

وهو غيرُ منافٍ لما ذكرناه ، ومرجعُهُ للحديث الصحيح الذي قدَّمناه : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ . . . » إلىٰ قوله : « ورِجْلَهُ التي يمشي بها »[2] ؛ فإنه يقتضي تحقُّقَ رِجْلِ المؤمن بنورِ التوحيد ، حتىٰ تكونَ منسوبةً إلى الله تعالىٰ ، وحينئذٍ فهو موافقٌ لما تقدَّم في القدم[3]

وقوله : (فهنالكَ تمتلئ) ، أي : بأهلِها من المتكبِّرين

قوله : (وينزوي بعضُها إلىٰ بعضٍ) فيه حكمتانِ

إحداهما : أنها عندما تضجُّ بسبب نورِ العزَّةِ من أقدام المؤمنين ويخرجون منها . . تخلو مواضعُهم ، فلو بقيَتْ كذلك لما كانت مملوءةً ، وهو منافٍ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآيةَ [الأعراف : ١٨] ، **وأيضاً** : فربما كانَ في ذلك تخفيفاً علىٰ أهلها[4] ، فاقتضَتْ الحكمة الإلـٰهيَّةُ أنها حينئذٍ تنضمُّ وتجتمعُ علىٰ أهلها وتمتلئ بهم ؛ تحقيقاً للوعيد ، وزيادةً في العذاب[5]

والحكمةُ الثانية : أنها لو بقيَتْ مواضعُ أقدام المؤمنين خاليةً من النار . . لم يتمَّ لهم سرورُهم بالأمن منها ؛ لعلمِهم أن اللهَ سبحانه وتعالىٰ وعدَها أنه يملؤُها ، فربما توقَّعوا الإعادةَ فيها[6] ، فكان في انزوائِها وانضمامِها علىٰ

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٤٦) ، ورواه البخاري أيضاً (٤٨٥٠)

(٢) تقدم (ص ١٢١) .

(٣) انظر (ص ٢٣٥) .

(٤) يعني : بوجود السعة فيها ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان : ١٣] .

(٥) **تحقيق الوعيد** : بامتلائها ، **وزيادة العذاب** : بضيقها ، نسأل الله العافية .

(٦) للإمكان العقلي ، والنظر في حضرة الإطلاق ، مع الاستحالة الشرعية .

أهلها وامتلائِها بهم. تأمينٌ للمؤمنين ، كما ذُبِحَ الموت بين الفريقينِ تحقيقاً للخلود[1]

وقوله : (فلا يظلمُ اللهُ مِنْ خلقِهِ أحداً) أي : لا يملؤُها بغيرِ أهلها[2] ؛ تحقيقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٢٩-٣٠] .

تبصرة

[في علاقة القَدَم بالتثبيت]

بهٰذا القَدَمِ تفهمُ السرَّ في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ . . . ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : ١١][3] ، وفي قولِ الرِّبِّيين : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ [آل عمران : ١٤٧]

فنبَّهَ تعالىٰ علىٰ أن تثبيتَ الأقدامِ بالماء المطهَّر ، المنزَّل على القلب بروح نورِ التوحيد ؛ بدليل قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ؛ **وذلك الماءُ المطهَّرُ هو القرآن** ؛ بدليلِ قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] .

---

(١) انظر (ص ١٤٩) .

(٢) وما ورد بخلاف ذلك فالروايةُ فيه على القلب كما نبَّه عليه الشرّاح .

(٣) والآية بتمامها : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

فانظرْ كيف أُضيفَ الروحُ للقُدُسِ ـ وهو الطهارة ـ ، وجعلَها المثبِّتةَ بالقرآن لأقدامِ الذين آمنوا ، وهدىً وبشرىٰ لهم ؛ أي : بقدم الصدق ؛ بدليل تصريحِهِ به في سورة (يونس) كما قدمناه[1]

تنبيه

[على اختصاص سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ببرد النار ، وأُنْس سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام بالنار]

بهـٰذا القدمِ الصدْقِ الذي تستغيثُ النارُ من نوره . . تفهمُ السرَّ في تخصيص إبراهيم عليه السلام ببرد النار وسلامِها ؛ لإيمانِهِ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٨١ـ٨٢][2] .

وكذلك تفهمُ السرَّ في أُنسِ موسىٰ صلى الله عليه وسلم بالنار ، وقولِهِ تعالىٰ له : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : ١٢] لأنه كان له قدمُ الصدقِ الإيماني بمقتضىٰ قوله : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣][3] .

---

(١) انظر (ص ٢٣٥) ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] .

(٢) يعني : لحديثه عن إيمان نفسه وإظهاره له ، لا لانفراده فيه كما لا يخفىٰ ؛ إذ العلة يجب اطرادها وانعكاسها ، والأنبياء يشاركونه في هـٰذا الإيمان ، وعلىٰ أي حال فلا يُعرف نبيٌّ آذته النار ، وما ذكره الإمام المصنف هنا هو ما رمزَ له عصريُّهُ مولانا جلال الدين الرومي بقوله في « المثنوي » : (فلتجعلْ من نور إبراهيم أستاذاً لك) .

(٣) والخلاصة من هـٰذا التنبيه : أن أهل الإيمان الراسخ تستغيث منهم النار وتقول : جُزْ يا مؤمن ؛ فقد أطفأ نورُكَ لهبي ، ولا يكون بينهم وبين النار وحشة ؛ لانتفاء أذاها عنهم .

إشارة

[إلىٰ بيان معنى النعلين اللذينِ أُمرَ سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام بخلعهما]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ [طه ١٢] له ظاهرٌ وباطنٌ :

فأما الظاهرُ : فالحكمةُ في الأمر بخلع النعلين الظاهرينِ أن سيرَ الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام في الأرض كان سيرَ اعتبار وادِّكارٍ ونظر إلىٰ ما أُودعَ فيها من سرِّ البدْءِ والإعادة ؛ بمقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] ، **وكان المرادُ التعرُّفَ لموسىٰ بسرِّ الإعادة وقيامِ الساعة**[١] ؛ ولهـٰذا كانت مناجاتُهُ في الجانب الغربي ؛ لأن من أكبر آياتِ الساعة طلوعَ الشمسِ من مغربِها[٢] ، وقيل له في أوَّلِ المناجاة[٣] : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ [طه ١٤ـ١٥] .

ومن المعلوم : أن بعْثَ الخلائق وحشرَهم يكون من الأرض المقدسة ، وقد فُسِّرَ قوله تعالىٰ ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ [قٓ : ٤١] أي : من صخرةِ بيت المقدس[٤] ، فمِنْ ها هنا قيلَ لموسىٰ عندما سارَ بأهله ، وبلغَ بيتَ

---

(١) يعني : التعرُّف في هـٰذه الصورة ؛ من الوادي المقدس والجانب الغربي والنار النورانية .

(٢) روى البخاري (٤٦٣٥) ، ومسلم (١٥٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقومُ الساعةُ حتىٰ تطلعَ الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناسُ آمنَ من عليها ، فذاك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] » .

(٣) هـٰذا بيان وتأكيد لحصول التعرُّف في الصور المذكورة .

(٤) رُوي ذلك عن كعب وبريدة ويزيد بن جابر ، وانظر « الدر المنثور » (٧/ ٦١١) ، وقوله : (ينادي المنادي) هو بإثبات الياء فيهما ، وهي قراءة ابن كثير ، وانظر « الدر المصون » (١٠/ ٣٦) .

المقدس ، وكشفَ له عن سرِّ ما أُودعَ فيه من قيامِ الساعة ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ [طه : ١٢] تنبيهاً علىٰ أنه انتهىٰ سفرُكَ ، وبلغَ ما كان المرادُ بك من التعرُّف[1]

ولهـٰذا قيلَ له : ﴿ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِي ٱلۡمُقَدَّسِ ﴾ [طه : ١٢] أي هـٰذا هو الوادي المقدَّس الذي أُودعَ فيه سرُّ قيامِ الساعة[2] ، ورجوعِ الخلائق إلى الله تعالىٰ ، فاخلعْ نعليك وألقِ عصاك ؛ فإن لُبْسَ النعل وأخْذَ العصا . . من توابع السفر ، وخلْعَ النعل وإلقاءَ العصا . . من أعلام الإقامة ؛ قال الشاعر[3] [من الطويل]

فألقَتْ عصاها واطمأنَّ بها النوىٰ كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ

وأما الباطنُ : فإن حقيقةَ النعلِ ما يكون وقايةً لقَدَم الصدقِ من عوائقِ طريق القلب إلى الله تعالىٰ ، وما فيه من وَعرٍ وشوك[4] ، كما نبَّهَ عليه قوله صلى الله عليه وسلم « تعسَ عبدُ الدينارِ ، تعسَ عبدُ الدرهمِ ، تعسَ وانتكسَ ، وإذا شِيكَ فلا انتقشَ »[5] ، فنبَّهَ بهـٰذا علىٰ أن افتتانَ القلب بزينة الدنيا يَعوقُ قَدَمَ صدقِهِ عن السيرِ إلى الله تعالىٰ ، فإن عظُمَ في عينِهِ منها شيءٌ . . تعسَ به ، وإن احتقرَهُ واستهان به . . كان بمثابة الشوكِ يدخل في قدمِ السائر[6] ، فإن انتقشَ ـ أي : أخرجَهُ بمنقاش الاستغفار ، وألقاه بالزهد فيه ـ سَلِمَ ، وسارعَ بقَدَمِ

---

(١) وهـٰذا صار كالعرف في استقبال الكريم للضيف .

(٢) قوله : (بالوادي) هو بإثبات الياء في النسخ ، وهي قراءة يعقوب في الوقف ، انظر « البدور الزاهرة » (ص ٢٠٢) .

(٣) البيت لمعقر البارقي كما في « مجمع الأمثال » (١/ ٣٦٤) .

(٤) الوَعر بسكون العين وفتحها : المكان الحزن ذو الوعورة ، ضد السهل .

(٥) رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) في سياقه تنبيهٌ علىٰ أن عدم استعظام الأغيار لا يقضي باستحقارها ؛ إذ ما أخرجها الله تعالىٰ إلىٰ دائرة الوجود إلا لحكمة ؛ ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

صدقه إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وإن أهملَهُ كان بمثابة الشوكةِ التي يهملُها صاحبُها حتىٰ تتمكَّنَ ويفسُدَ بها الدمُ ، ويحصل المرضُ والوقوفُ عن السير[1] ، وربما تمكَّنَتْ فكانت سبباً للموت ، أو لزمانةِ القدم ، **والنعلانِ يقيانِ من ذلك ؛ وهما الرجاءُ للهِ ، والخوفُ منه .**

فموسىٰ عليه السلام لمَّا خرجَ خائفاً يترقَّبُ ، وقال عند التوجُّهِ ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٢] . . علم أنه انتعلَ الخوف والرجاء وركبَهما في سيره ؛ لأن من انتعلَ فقد ركب ؛ لحديث جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما في « صحيح مسلم » قال : كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ ، فقال : « أكثروا مِنَ النعالِ ؛ فإنَّ الرجلَ لا يزالُ راكباً ما انتعلَ »[2]

فلمَّا بلغ حضرةَ المناجاة والتأنيس ، وحلَّ في وادي التقديس . . قيلَ له : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ لأن الرجاء والخوف لأرباب السلوك ، لا لمَنْ وصل وخُصَّ بمجالسة الملوك .

ومما يُحقِّق لك أن الرجاء والخوفَ هما نعلا قَدَمِ الصدق . . حديثانِ :

أحدُهما : [ما] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم قال لبلال رضي الله عنه : « أخبرْني بأرجىٰ عملٍ عملتَهُ في الإسلام ؛ فإنِّي سمعتُ دَفَّ نعليكَ بينَ يديَّ في الجنَّةِ . . . » ، وذكر الحديثَ[3]

---

(١) في (ب) : (الضرر) بدل (المرض) .

(٢) صحيح مسلم (٢٠٩٦) .

(٣) صحيح البخاري (١١٤٩) ، والدَّفُّ : التحريك ، وتمام الحديث : قال : ما عملتُ عملاً أرجىٰ عندي أنِّي لم أتطهَّرْ طُهوراً في ساعةِ ليل أو نهار . . إلا صلَّيتُ بذلك الطُّهورِ ما كُتِبَ لي أن أصلي .

فأفْهَم بقوله « أخبرني بأرجى عملٍ » أن الرجاءَ هو نعلُ قَدَمِ الصدق ؛ ولهـٰذا قال « فإنِّي سمعتُ دَفَّ نعليكَ » فأتىٰ بـ (إنَّ) والفاء ، وهما يفيدانِ سببيَّةَ الوصفِ للحكم ؛ أي : أن سببَ سماعه دَفَّ نعليهِ هو رجاؤهُ لله بعمله .

الحديثُ الثاني ما رواه مسلم عن العباسِ رضي الله عنه قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « أهونُ أهلِ النارِ عذاباً أبو طالبٍ ، وإنَّ في قدميهِ لنعلينِ يغلي منهما دماغُهُ »[١]

وإنما خُصَّ بالنعلين ؛ لأنه كان له قَدَمٌ في تصديق محمد صلى الله عليه وسلم ومحبَّتِهِ ونصرته والذبِّ عنه ، ولـٰكنَّهُ كان لا يدينُ بدينِهِ خوفاً من سُبَّةِ العرب

ولهـٰذا قال لقريشٍ عند الموت في وصيتِهِ : (أوصيكم بمحمد خيراً ؛ فإنه الأمين في قريش ، والصِّدِّيق في العرب ، وقد جاء بأمرٍ قَبِلَهُ الجَنانُ ، وأنكرَهُ اللسان ؛ مخافةَ الشنآن) ، ثم قال في آخرِ كلامه : (واللهِ ؛ إن مَنْ سلك سبيلَهُ رشِدَ ، ومَنْ أخذَ بهديه سعِدَ)[٢]

فانظرْ كيف كانَ له قَدَمُ صدق في محبَّتِهِ وقبول أمره ، ولـٰكنَّهُ انتعلَ الخوفَ

---

(١) صحيح مسلم (٢١٢) ، ورواه البخاري (٣٨٨٥) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ مقارب .

(٢) أورد هـٰذه الوصية بطولها العلامة السهيلي في « الروض الأنف » (٤/ ٢١) حكاية عن هشام بن السائب أو ابنه ، وقوله : (وأنكره اللسان) يدلُّ أنه كان آبياً ، وحكم الآبي عند المحقِّقين : أنه مؤمنٌ عاصٍ ، وإنما النطق لإجراء أحكام الدنيا ، وهو ناجٍ عند الله تعالىٰ في الآخرة ، وهو ما استظهره إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٤٣٣) ، وقرَّره العلامة الرملي الكبير في « فتاويه » (٤/ ٣٩١) ، وعلىٰ فرض عدم صحة هـٰذا الخبر فإنَّ القرائن تدلُّ علىٰ أنه كان آبياً ، وحُسنُ الظنِّ في مثل هـٰذه المسائل أقربُ للتقوىٰ ، وأصونُ للدين واللسان ، والمسألة فقهية ، والخلاف فيها شهير .

من الخلق والرجاءَ لهم ، فظهرَتْ حقيقتُهُ له بعد الموت بنعلينِ من نار

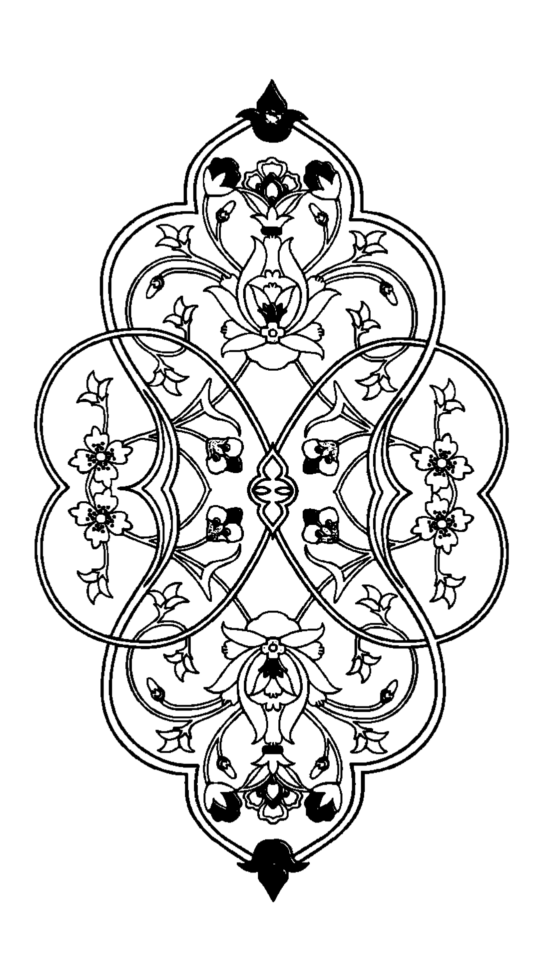
وأما الحكمةُ في كونِهما يغلي منهما دماغه فلأن في الصحيح : « ألا أخبرُكم برأسِ الأمرِ ، وعمودِهِ ، وذروةِ سَنامِهِ ؟ الجهادُ في سبيلِ اللهِ »[1]

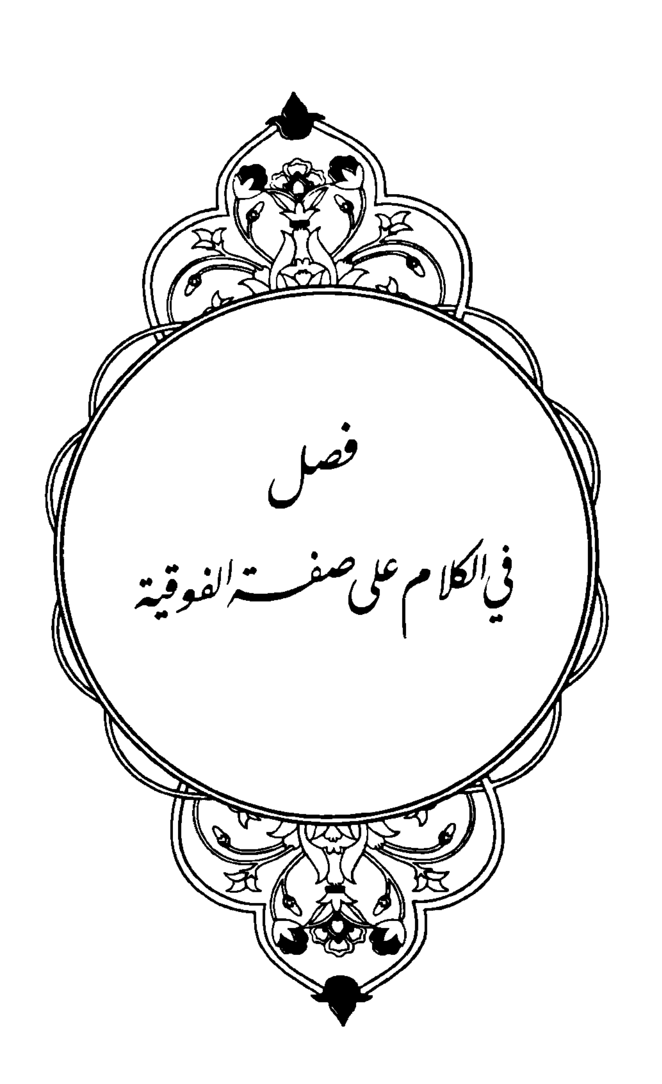
ومن المعلومِ : أن أبا طالبٍ كان أشدَّ الناس جهاداً عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولـٰكنَّهُ لم يتديَّنْ بدينه خشيةً من السُّبَّةِ ، فكان خوفُهُ لغير اللهِ سبباً لإحباطِ جهاده وإفسادِهِ ، وهـٰكذا تكونُ حقيقةُ خوفه لغير الله ـ وهي نعلُهُ في النار ـ سبباً لإذابة دماغِهِ ؛ وهو لبُّ رأسه ، وإحباطِهِ بالإذابة والإفسادِ .

* * *

---

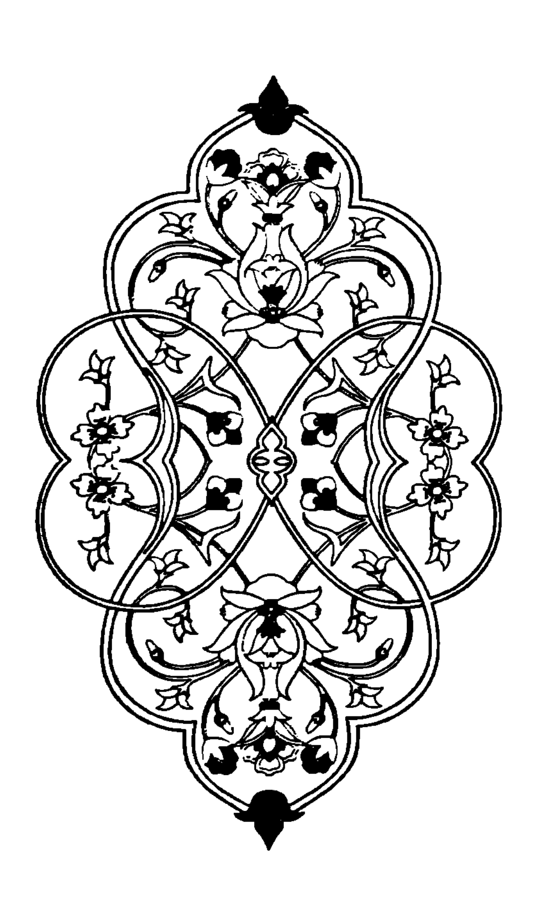
(١) رواه ابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ورواه الترمذي (٢٦١٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٣٣٠) ولفظه : « ألا أخبرُكَ برأس الأمر كلِّهِ ، وعموده ، وذروة سنامه ؟ » ، قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « رأسُ الأمر الإسلام ، وعمودُهُ الصلاة ، وذروةُ سنامه الجهاد » .





فصل

في الكلام على صفة الفوقية



فصل

في الكلام على صفة الفوقية

وأما صفةُ الفوقيّة :

فقد جاءَ بها الكتابُ والسنة ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] ، وقولِهِ تعالىٰ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وآياتٌ كثيرة وأحاديثُ ، وهو معدودٌ من المتشابهِ ؛ وذلك أن (فوق) كلمة موضوعةٌ لإفادة جهة العلو ، والله تعالىٰ منزَّهٌ عن الجهات[1] ، وإنما المرادُ منها حيث أُطلقَتْ في حقِّ ربِّنا سبحانه إفادةُ العلو الحقيقيِّ[2]

وممَّا يدلُّ علىٰ عدم اختصاصه بجهة فوق : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] .

وقولُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

وقولُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

وقولُهُ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ [ق : ١٦] .

---

(١) ولذلك نصَّ الإمام الغزالي في « إلجام العوام » (ص ٨٢) أنه متعيِّن المعنىٰ ، ولا شبهة فيه ؛ لأن الفوقية إما أن تكون حسيةً : وهي منفية بالدليل العقلي والمحكم النقلي ، أو معنويةً : وهي متعيِّنة هنا ؛ ولا ثالث لها .

(٢) والحقيقي : قسيم الإضافي ، والحسي من الإضافي ، وسيأتي بيان معنى العلو الحقيقي (ص ٢٥١) .

وقولُهُ ﴿ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ ﴾ [المجادلة : ٧] ، وآيات كثيرةٌ يطول ذكرُها[١] .

ولو كان في جهة العلو تعارضَتْ هـٰذه الآياتُ واختلفَتْ ، وهو منافٍ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وفي « مسلم » عن أبي هريرةَ رضي الله عنه : أنه عليه الصلاة والسلام قال « أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجدٌ »[٢] ، فنفىٰ تقييدَهُ بجهة فوق ، وهو لا ينطقُ عن الهوىٰ ، إن هو إلا وحي يوحىٰ .

والذي يجمعُ بين الآيات والأحاديثِ : أن تعلمَ أن العلوَّ له اعتباران : اعتبارٌ إضافي ، واعتبارٌ حقيقي .

فعلوُّ المخلوقات بعضِها علىٰ بعض إنما هو علوٌّ إضافي ؛ لأن ما من مخلوق له جهة علو إلا وهو مستفلٌ بالنسبة إلىٰ مخلوق آخرَ هو فوقه ، إلىٰ ما يشاء الله تعالىٰ .

---

(١) فضلاً عن وجود آيات جاءت فيها كلمة (فوق) لا بمعنى الجهة ؛ فمن ذلك : قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ﴾ [البقرة : ٢٦] ، وقوله : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ [البقرة : ٢١٢] ، وقوله : ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، وقوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ [النساء : ١١] ، وقوله : ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾ [المائدة : ٦٦] ، وقوله تعالىٰ حكاية عن فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ [الأنفال : ١٢] ، وقوله : ﴿ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : ٢] ، وما ضيّق اللغةَ ولا حجَّرَ الفهم إلا من هو ضيّقُ العطن قليلُ العلم .

(٢) صحيح مسلم (٤٨٢) .

وهٰذا العلوُّ الإضافيُّ قسمانِ

قسمٌ حسيٌّ وهو المفهومُ بالنسبة إلى الجهات المكانية ، المخصوص بالجواهر المفتقرة إلى الحيز

وقسمٌ معنويٌّ وهو المفهومُ بالنسبة إلىٰ درجاتِ الكمال العرفانيِّ لأرباب القلوب ، أو الكمال الوهميِّ لأرباب النفوس ؛ قال تعالىٰ ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف ٣٢] ، وقال ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء ٢١]، هٰذا كلُّهُ في العلوِّ الإضافي .

وأما العلوُّ الحقيقي : فإنما هو لله سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وعلوُّهُ هٰذا

- محقَّقٌ قبل الجهاتِ والأماكن .
- مفهومٌ بدون اعتبار النِّسَبِ والإضافات
- عامٌّ في جميع تجلِّياتِهِ علىٰ مخلوقاته بأسمائِهِ وصفاته .

وإنما يعرفُهُ ويشهدُهُ أربابُ البصائر والقلوب(١) ، ويتجلَّىٰ نورُ توحيده بعلوِّ فوقيَّةِ سُبُحاته(٢) ، وله حجابٌ ؛ فسبحتُهُ : صفةُ القهر ، وحجابُهُ : خلوصُ العبوديَّة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

تنبيه
[علىٰ تحقيق تنزيه فوقيَّته سبحانه عن الجهة والمكان]

إذا أردت أن تحقِّقَ أن فوقيتَهُ ليست فوقيةً مكانية ، وإنما هي الفوقيَّةُ

---

(١) العبارة في (ب) : (وإنما يعرفه مَنْ أُشهده ؛ يشهدُهُ أرباب البصائر والقلوب) .

(٢) انظر الحديث عن السبحات (ص ١٧٧) .

الحقيقية بقهرِ الربوبيَّة للعبوديَّة فَتفكَّرْ في أنه تعالىٰ كان ولا شيءَ معَهُ[1] ، ولم يتجدَّدْ له بخَلْقِهِ السماواتِ علوٌّ ، ولا بخلقِهِ الأرض نزولٌ ، ولا بخلقِهِ العرشَ استواءٌ وجلوس[2] ، وإنما عن تجلِّي أسمائه وصفاتِهِ[3] . . نشأَتْ أعدادُ مخلوقاته غيرَ مماسَّةٍ له ، ولا منتسبةٍ إليه بفوق ولا تحت ولا شيءٍ من الجهات ؛ قال تعالىٰ : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ : ١-٢] .

فوصْفُهُ بالأعلىٰ حالَ اتصافه بالخَلْقِ يدلُّ علىٰ أن علوَّه محقَّقٌ قبل الخلق ؛ ولذا قال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ [الزمر : ٦٧] ، ووصفَ نفسَهُ آخرَ الآيةِ بالعلوِّ والتنزيه في قولِهِ تعالىٰ بعد ذكرِهِ قبضَةُ للأرض وطيَّهُ للسماء[4] ، فدلَّ علىٰ أن علوَّهُ علوٌّ حقيقي ، لا مكانيٌّ .

وتأمَّلْ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٦١] مع قولِ فرعونَ عن بني إسرائيلَ : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، فهل يفهمُ أحدٌ أن فرعون ادَّعىٰ أنه فوق بني إسرائيل بالمكانِ أو الجهة ؟!

---

(١) روى البخاري (٣١٩١) من حديث سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما مرفوعاً : « كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُهُ » ، ومن جملة ما لم يكن معه : العماء المذكور في حديث الترمذي (٣١٠٩) : « كان في عماءٍ ، ما تحتَهُ هواء ، وما فوقَهُ هواء ، وخلق عرشَهُ على الماء » ، ونقل عن يزيد بن هارون : العماء ؛ أي : ليس معه شيء .

(٢) قوله : (وجلوس) ليس في (ب) ، وتقدم الحديث عن المجالسة (ص ٢٣١) ، وانظر « شرح العقيدة الطحاوية » للعلامة الغنيمي (ص ٥٦) ؛ حيث قال : (« ما زال » سبحانه وتعالىٰ « بصفاته » أي : معها « قديماً » من « قبل خلقه » الخلْقَ « لم يزدد بكونهم » أي : بسبب وجودهم « شيئاً لم يكن قبلهم » أي : قبل وجودهم « من صفاته ») .

(٣) في (ب) : (وإنما هو تجلي . . .) ، وحرف الجر متعلق بقوله بعدُ : (نشأت) .

(٤) والآية بتمامها هي : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، فقوله : (سبحانه) للتنزيه ، وقوله : (وتعالىٰ) للعلو ، فهو سبحانه عليٌّ قبل الخلق ، ولم يزده خلْقُهُ الخلْقَ صفة لم تكن له قبلُ .

وإنما لَمَّا ادَّعى الربوبية بقوله ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] . . كان من لازم دعواه ادعاءُ الفوقيَّةِ اللائقة بالربوبيَّة وهي الفوقية الحقيقيَّةُ بالقهر ؛ فلذلك قال : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ ، لا جرمَ كذَّبَهُ الله سبحانه وتعالىٰ في الأمرينِ :

فكذَّبَهُ في قوله ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ بقوله سبحانه لموسىٰ : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٨][1]

وكذَّبَهُ في قهرِهِ بقوله ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٨ـ٧٩]

تنبيـــه
[علىٰ معنىٰ رفيع الدرجات]

قولُهُ تعالىٰ ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ [غافر : ١٥] يرجعُ إلى العلوِّ والفوقية الحقيقيَّةِ ، وليس المراد أن العلوَّ الحقيقي له درجاتٌ وتفاوت ، وإنما المرادُ : أن للعباد في ترقِّيهم إلىٰ معرفتِهِ وخُلوص التحقُّق به . . درجاتٍ :

الأولىٰ : درجةُ الإيمان .

الثانيةُ : درجةُ التقوىٰ .

الثالثةُ : درجةُ الاتِّباع .

الرابعةُ : درجةُ العلم[2]

قالَ اللهُ تعالىٰ ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

---

(١) وإنما كان علوُّ سيدنا موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام . . بالمعجزة المشتملة على الحُجَّة والبرهان .

(٢) والآياتُ الآتيات أدلَّةُ هـٰذه الدرجات علىٰ حسَبِ ترتيبها .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [البقرة ٢١٢]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ [آل عمران ٥٥] .

وقالَ تعالىٰ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف ٧٦]

تنبيه

[علىٰ معنى البيوت في قوله تعالىٰ : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾]

قولُهُ تعالىٰ ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ . . . ﴾ الآيةَ [النور : ٣٦] ، قد فُسِّرَتْ بالمساجد[1] ، وفُسِّرَتْ بالقلوب[2] ، وكيفما كان فرفعُها تحقُّقُها[3] ، واشتمالُها علىٰ ما ذكرناهُ من الدرجات المذكورة ، وتمامُ الآية يحقِّق ذلك[4]

فائدة[5]

[في الردِّ علىٰ فرعون حين ادَّعى الألوهية واعتقد الجهة]

لمَّا ادَّعىٰ فرعونُ الربوبيةَ ، واعتقد الجهةَ لله سبحانه وتعالىٰ . . قال : ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر : ٣٦ ـ ٣٧][6] ، فردَّ الله تعالىٰ عليه ،

---

(١) هو قول ابن عباس والحسن ومجاهد ، وانظر « المحرر الوجيز » (٤/ ١٨٥) .

(٢) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/ ٦١٤) : (المساجدُ بيوت العبادة ، والقلوبُ بيوت الإرادة ؛ فالعابد يصل بعبادته إلىٰ ثواب الله ، والقاصد يصل بإرادته إلى الله).

(٣) في (أ) : (تحقيقاً) ، وفي (ج) : (تحقيقها) بدل (تحقُّقها) .

(٤) والآية بتمامها : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ [النور : ٣٦] .

(٥) في (أ ، ج) : (تنبيه) بدل (فائدة) .

(٦) في (أ ، ج) : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص : ٣٨] .

وسخّفَ سوءَ رأيِهِ . . بقوله جل جلاله ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [غافر ٣٧] أي عدلَ عن سبيل القرب والدنو من إلـه موسىٰ ؛ فإنه تعالىٰ يتنزَّهُ عن علوِّ المكان ، وإنما يصعدُ إليه الكلمُ الطيب ، والعملُ الصالح يرفعُهُ

أين هو من قولِ موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه ٨٤]؟! مع أنه لم يُبْنَ له صرحٌ ، ولا احتاجَ في الدنوِّ والقربِ إلىٰ صعود السماء

وكذلك إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام حيث جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سليم ، ووَهِبَ له لسانُ صدق عليٍّ ، فكان مجيئُهُ إليه ووصوله وعلوُّهُ . . بسلامةِ القلب وصدْقِ اللسان ، لا بالتسوُّرِ والصعود للمكان

وقد ثبتَ إيواءُ الله تعالىٰ للمؤمنين في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وفي « صحيح البخاري » عن أبي واقدٍ الليثي : أن ثلاثةً حضروا لحَلْقةِ ذكر ، فدخلَ أحدُهم الحلقةَ ، والثاني جلسَ خلفَهم ، والثالثُ أدبرَ ذاهباً ، فقالَ عليه الصلاةُ والسلام : « أمَّا أحدُهم فأوىٰ إلى اللهِ فآواهُ اللهُ ، والآخرُ استحيا فاستحيا اللهُ منهُ ، والآخرُ أعرضَ فأعرضَ اللهُ عنهُ »[1]

فنبَّهَ صلى الله عليه وسلم علىٰ أن الداخلَ أوىٰ إلى الله فآواهُ الله ، **مع العلمِ بأنه ليس الإيواءُ في الآية والحديثِ باعتبارِ مكانٍ .**

وفي « صحيح مسلم » وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأىٰ نخامةً في القبلة ، فقال : « ما بالُ أحدِكم يقومُ

---

(١) صحيح البخاري (٦٦) ، ورواه مسلم (٢١٧٦) أيضاً .

مستقبلَ ربِّهِ فيتنخَّعُ أمامَهُ ؟! أيحبُّ أحدُكم أنْ يُستقبلَ فيُتنخَّعَ في وجهِهِ ؟! »[1]

فدلَّ علىٰ أنه ليسَ مخصوصاً بجهةِ فوق ، وإلا لما كانَ قبلةَ المصلِّي وأمامَهُ .

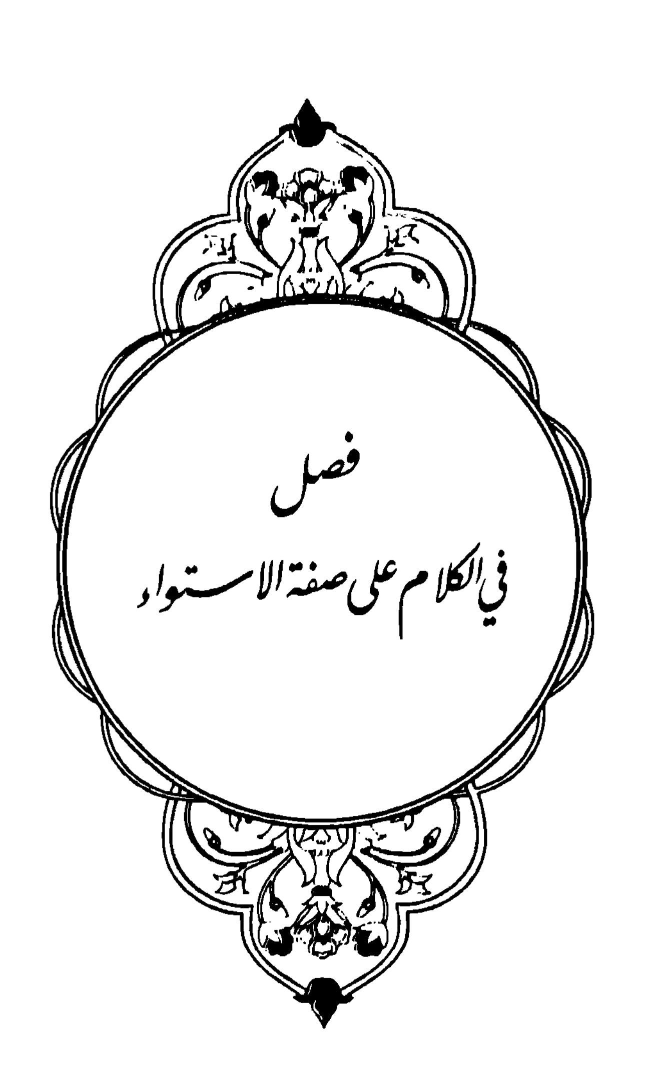
وبالجملةِ : فالأحاديثُ الدالَّةُ علىٰ عموم إحاطةِ ربِّنا بجميع الجهاتِ ، وعدمِ اختصاصه . . كثيرةٌ ، والقصدُ قد حصلَ بما ذكرناهُ[2]

* * *

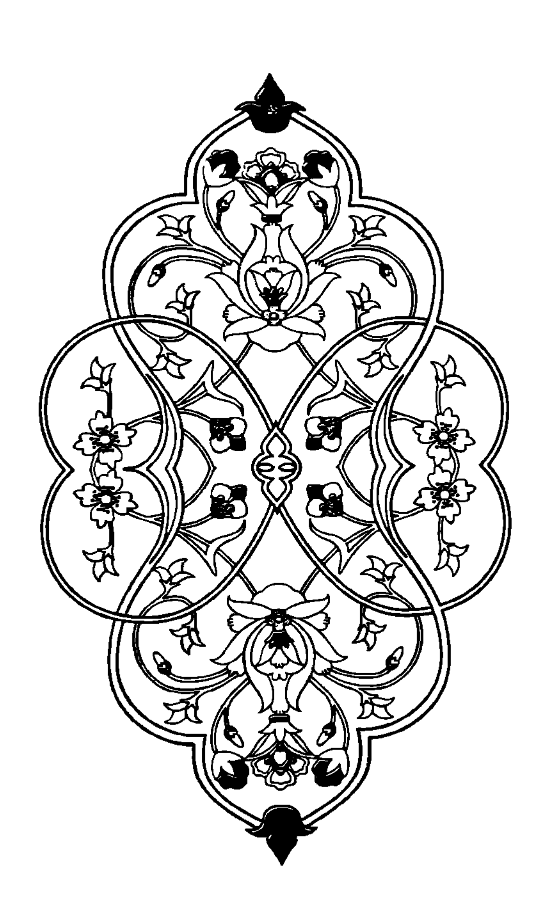
---

(١) صحيح مسلم (٥٥٠) ، وفي هامش (ج) : (بلغ مقابلة)

(٢) قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (١/ ٢٦٤) : (إنما أُمرَتِ الملائكةُ والخلقُ أجمعون بالسجود ، وجعل معه القربة ؛ فقال : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من الله في سجوده » . . ليعلموا أن الحقَّ في نسبة الفوق إليه من قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، و﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ كنسبة التحت إليه ؛ فإن السجود طلب السفل بوجهه ، كما أن القيام يطلب الفوق إذا رفع وجهه بالدعاء ويديه ، وقد جعل الله السجود حالة القرب من الله ، فلم يقيِّده سبحانه الفوقُ عن التحت ، ولا التحتُ عن الفوق ؛ فإنه خالق الفوق والتحت ، كما لم يقيده الاستواء على العرش عن النزول إلى السماء الدنيا ، ولم يقيده النزول إلى السماء الدنيا عن الاستواء على العرش ، كما لم يقيده سبحانه الاستواء والنزول عن أن يكون معنا أينما كنا ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ بالمعنى الذي يليق به ، وعلى الوجه الذي أراده ، كما قال أيضاً : « ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي » ، كما قال عنه هود عليه السلام : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ ، وقال تعالىٰ أيضاً في حق الميت : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ، فنسب القرب إليه من الميت ، وقال أيضا عز وجل : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يعني : الإنسان ، مع قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾) ، وهو كلام في غاية التحقيق .



فصل
في الكلام على صفة الاستواء



فصل [1]

في الكلام على صفة الاستواء

ومن الآياتِ المتشابهة : آياتُ الاستواء والأحاديثُ الواردة فيه ومرجعُها عند المحقِّقينَ إلى الآياتِ المحكمات .

وأوَّلُ ما ينبغي تقديمُهُ : معنى الاستواء لغةً : وأصلُهُ افتعال من السواء ، والسواءُ في اللغة : العدلُ والوسط ، وله وجوهٌ في الاستعمال ترجعُ إلىٰ ذلك :

منها : استوىٰ بمعنىٰ أقبلَ ، نقلَهُ الهرويُّ عن الفراء ، قال : (العربُ تقول : استوىٰ إليَّ يخاصمُني ؛ أي : أقبل عليَّ)[2]

الثاني : بمعنىٰ قصدَ ، قاله الهرويُّ[3]

الثالثُ : بمعنى استولىٰ[4]

الرابعُ : بمعنى اعتدلَ[5]

---

(١) في (ب) زيادة : (ذكر الاستواء) ، وفي هامش (ج) : (بلغ مقابلة) .

(٢) انظر « الغريبين » (٣/ ٩٥٧) ، و« معاني القرآن » للفراء (١/ ٢٥) .

(٣) نقله في « الغريبين » (٣/ ٩٥٧) .

(٤) قاله الإمام الزجاج في « معاني القرآن » (٣/ ٣٥٠) .

(٥) حكاه الجوهري في « الصحاح » (س وا) ، وهو من خصائص الجسماني ؛ إذ هو قريب من معنى استقام ، وقد جمع بينهما العلامة الكفوي في « الكليات » (ص ١٠٩) إذ قال : (الاستواء : هو إذا لم يتعدَّ بـ « إلىٰ » يكون بمعنى الاعتدال والاستقامة ؛ وإذا عدي بها صار بمعنىٰ قصد الاستواء فيه ، وهو مختص بالأجسام) ، ولكن سيأتي (ص ٢٦٣) أن الإمام المصنف سيختار أن (اعتدل) بمعنى العدل ، وهو صفة معنىً لا ضيرَ من وصفه تعالىٰ بها .

الخامسُ : بمعنى استقام[1]

السادسُ : بمعنىٰ علا[2] ، قال الشاعر[3] [من الطويل]

ولمَّا علونا واستوينا عليهمُ ... تركناهمُ صرعىٰ لنَسْرٍ وكاسرِ

قاله الحسنُ ابن سهل[4]

وإذا عُلمَ أصلُ الوضع وتصاريفُ الاستعمال . . فنزِّلْ علىٰ ذلك الاستواءَ المنسوب إلىٰ ربِّنا سبحانه وتعالىٰ .

وقد فسَّرَهُ الهروي بالقصد[5] ، وفسَّرَهُ ابن عرفة بالإقبال كما نقل عن الفراء[6] ، وفسَّرَهُ بعضُهم بالاستيلاء[7] ، وأنكرَهُ ابنُ الأعرابي وقال :

---

(١) قاله العسكري في « الوجوه والنظائر » (ص ١١٦) ، وذكر أن الاستواء أكثر ما يستعمل في الاستقامة .

(٢) حكاه الجوهري في « الصحاح » (س و ا) ، وحكاه العسكري في « الوجوه والنظائر » (ص ١١٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما كما سيأتي قريباً

(٣) أورد هـٰذا البيت إمامُ الحرمين الجويني في « الشامل » (ص ٥٥٣) ، إلا أنه ساقه علىٰ أن معنى (استوى) : الاقتدارُ والقهر والغلبة ، فيحمل كلام الإمام المصنف على العلو بهـٰذا المعنىٰ ، ولا سيما مع وجود كلمة (علونا) ، والأصل في العطف أن يكون للمغايرة ، والله أعلم

(٤) يعني : الإمام أبا هلال العسكري في « الوجوه والنظائر في القرآن الكريم » (ص ١١٧) ، وحمله علىٰ معنى الاستيلاء .
ويستعمل الاستواء أيضاً بمعنىٰ : التساوي ، والتوسط ، والتسطُّح ، والغلبة والقهر ، وبلوغ الأمر نهايته ، والاستقرار ، والتماثل ، وكمال الصورة ، ولا تعسر شواهدها .

(٥) كما تقدم قريباً .

(٦) انظر « الغريبين » (٣/ ٩٥٧) ، وقال : (قال ابن عرفة : الاستواءُ من الله : الإقبال على الشيء ، والقصد له) ، ومن ذلك قولك : (إذا صليتُ الفجر استويتُ إليك) ، وانظر « مشارق الأنوار » (٢/ ٢٣١) للقاضي عياض .

(٧) كما تقدم عن أبي هلال العسكري قريباً تعليقاً .

(العربُ لا تقولُ « استولىٰ » إلا لمنْ له مضاددٌ)[1] ، وفيما قاله نظرٌ ؛ لأن الاستيلاءَ من الوَلْيِ ؛ وهو القُرْبُ ، أو من الولايةِ[2] ، وكلاهما لا يفتقرُ إطلاقُهُ لمضادِدٍ .

ونقل الحسنُ ابن سهلٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما : أنه فسَّرَ قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [فصلت : ١١] قال : (علا أمرُهُ)[3]

وهٰذه التفاسيرُ كلها محتملة ، وهي علىٰ وَفْقِ اللغة والمعاني اللائقة بربِّنا سبحانه[4]

وأما (استوىٰ) بمعنى (استقرَّ) ؛ ومنه قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [هود : ٤٤]، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ . . . ﴾ الآيةَ [الزخرف : ١٣] : فلا يليقُ نسبةُ مثلِهِ إلى استواء ربِّنا سبحانه على العرش ، مع أنَّا نقولُ : قد علمتَ أصلَ اشتقاق الاستواء ، ولا مدخلَ فيه لمعنى الاستقرار ، وإنما الحقُّ أن معنى (استوىٰ على الدابة) جاءَ على الأصل ، ويكون معناهُ (اعتدلَ) ، أو (علا عليها) ، والاستقرارُ من لازم ذلك بحسب خصوصيَّة المحلِّ ؛ لا أنَّ للاستقرار مدخلاً في معنى اللفظ مطلقاً ، وحينئذٍ فلا يصحُّ نسبةُ مثلِهِ إليه تعالىٰ ؛ لاستحالتِهِ في حقِّهِ ، وعدم وضْعِ اللفظ له[5]

---

(١) انظر « الغريبين » (٣/٩٥٨) ، وقوله : (مضادد) كذا بالفكِّ هنا وفيما سيأتي في جميع النسخ .

(٢) انظر « تاج العروس » (و ل ي) .

(٣) انظر « الوجوه والنظائر في القرآن الكريم » للعسكري (ص ١١٦) .

(٤) في (ب) وحدها : (العظمة) بدل (اللغة) .

(٥) وهٰذه الفقرة من بدائع هٰذا الكتاب ، ومن تحقيقات مصنفه رحمه الله تعالىٰ ؛ إذ بيَّن أن حمل لفظ (الاستواء) على (الاستقرار) هجرٌ للحقيقة ؛ إذ الاستقرار مجازٌ منه مستفادٌ من المحل المضاف إليه ؛ كظهر الدابة المشار إليه في الآية الكريمة ، وتعالي المولىٰ عن المكان=

وقد ثبتَ عن الإمام مالكٍ رحمه الله أنه سُئِلَ كيف استوىٰ ؟ فقال (« كيف » غيرُ معقول[1] ، والاستواءُ غيرُ مجهول ، والإيمانُ به واجبٌ ، والسؤالُ عنه بدعةٌ)[2]

فقولُهُ : (« كيف » غيرُ معقول) أي : (كيف) من صفاتِ الحوادث[3] ، وكلُّ ما كان من صفاتِ الحوادث فإثباتُهُ في صفات الله تعالىٰ ينافي ما يقتضيهِ العقل ؛ للجزمِ بنفيِهِ عن الله تعالىٰ[4]

وقولُهُ : (والاستواءُ غير مجهول) أي أنه معلومُ المعنىٰ عند أهل اللغة، والإيمانُ به على الوجه اللائقِ به تعالىٰ واجبٌ؛ لأنه من الإيمان باللهِ وبكتبِهِ[5] .

= يُبقي اللفظ علىٰ أصل معناه الاشتقاقي .

وقد قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (١/ ٤٤) : (والاستواء : حقيقةٌ معقولة معنوية ، تنسبُ إلىٰ كلِّ ذات بحسب ما تعطيه حقيقةُ تلك الذات ، ولا حاجةَ لنا إلى التكلُّف في صرف الاستواء عن ظاهره ؛ فهـٰذا غلط بيِّنٌ لا خفاءَ به ، وأما المجسمة فلم يكن ينبغي لهم أن يتجاوزوا باللفظ الوارد إلىٰ أحدِ محتملاتِهِ مع إيمانهم ووقوفهم مع قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾) .

(١) في نسخة هامش (ج) : (الكيف) بدل (كيف) .

(٢) رواه ابن المقرئ في « معجمه » (١٠٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢٥)

(٣) يعني : يُسأل بها عن الحادث ؛ لعدم انفكاكه عن مقولة الكيف ؛ حتىٰ على القول بالمجرَّدات ؛ إذ لها أعراضٌ مجرَّدة لائقة بها هي من تكيُّفاتها .

(٤) في (أ ، ج) : (فيجزم) بدل (للجزم) ، قال حجة الإسلام الغزالي في « قانون التأويل » (ص ١٩) : (ومن كذَّب العقل فقد كذَّب الشرع ؛ إذ بالعقل عُرف صدق الشرع ، ولولا صدقُ دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي ، والصادق والكاذب ، وكيف يُكذَّب العقل بالشرع وما ثبت الشرع إلا بالعقل ؟!) ، وقال فيه أيضاً (ص ٢١) : (والوصية الثانية : ألا يُكذِّب برهانَ العقل أصلاً ؛ فإن العقل لا يكذِبُ ؛ ولو كذب العقل فلعله كذب في إثبات الشرع ؛ إذ به عرفنا الشرع) .

(٥) في (ب) زيادة : (ورسله) .

(والسؤالُ عنه بدعة) أي حادثٌ ؛ لأن الصحابةَ رضي الله تعالىٰ عنهم كانوا عالمينَ بمعناه اللائقِ بحسَبِ اللغة ، فلم يحتاجوا للسؤال عنه ، فلمَّا جاءَ من لم يُحِطْ بأوضاع لغتهم ، ولا له نورٌ كنورهم يهديه لصفات ربِّهِ تعالىٰ . . شرعَ يسألُ عن ذلك ، فكان سؤالُهُ سبيلاً لاشتباهِهِ على الناس[1] ، وزيغِهم عن المراد ، وتعيَّنَ على العلماء حينئذٍ ألا يهملوا البيانَ ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

ولا بدَّ في إيضاح البيان من زيادة ، فنقول : قد قرَّرنا أن (استوى) افتعلَ من السواء ، وأصلُهُ العدل[2] ، وحينئذٍ فالاستواءُ المنسوب إلىٰ ربِّنا تعالىٰ في كتابه بمعنى (اعتدل) أي قام بالعدل[3] ، وأصلُهُ من قولِهِ تعالىٰ : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ إلىٰ قوله ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران : ١٨][4] ، فقيامُهُ بالقسط والعدلِ هو استواؤُهُ ، ويرجعُ معناهُ إلىٰ أنه أعطىٰ بعزَّتِهِ كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ[5] ، موزوناً بحكمتِهِ البالغة في التعرُّفِ لخلقِهِ بوحدانيَّته ؛ ولذلك

---

(١) في (ب) ونسخة هامش (ج) : (سبباً) بدل (سبيلاً)

(٢) وذاك قوله (ص ٢٥٩) : (معنى الاستواء لغةً : وأصلُهُ افتعال من السواء ، والسواءُ في اللغة : العدلُ والوسط) .

(٣) نقل هـٰذه العبارةَ العلامةُ الكفوي في « الكليات » (ص ١٠٩) عن الإمام المصنف ابن اللبَّان .

(٤) والآية بتمامها : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

(٥) إشارة لقوله سبحانه حكاية عن سيدنا موسىٰ : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] ، ومعنىٰ (خَلْقَهُ) : قال العلامة الواحدي في « الوجيز » (ص ٦٩٦) : (الهيئة التي بها ينتفع ، والتي هي أصلحُ وأحكمُ لما يُراد منه) ، والمراد : عين كمال كلِّ شيء ؛ ألا ترىٰ أن الإبرة كمالُها في أن تكون مخرومة الرأس ؟!

قرنَهُ بقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1]

والاستواءُ المذكور في كتابه استواءانِ استواءٌ سماوي ، واستواءٌ عرشي .

فالأوّلُ[2] : معدّىً بـ (إلىٰ) ، قالَ تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : ١١] .

ومعناهُ والله أعلم : اعتدلَ ؛ أي : قام بقسطه وتسويتِهِ إلى السماء ، فسواهن سبعَ سماوات ، ونبّهَ علىٰ أن استواءَهُ هـٰذا هو قيامُهُ بميزان الحكمة ، وتسويتَهُ بقوله تعالىٰ أوّلاً عن الأرض : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : ١٠] ، وبقولِهِ تعالىٰ آخراً : ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

وأما الاستواءُ العرشيُّ : فهو أنه تعالىٰ قامَ بالقسط متعرِّفاً بوحدانيّتِهِ في عالمينِ : عالم الخلق وعالم الأمر ؛ وهو عالمُ التدبير ؛ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وكان استواؤُهُ على العرش للتدبيرِ بعدَ انتهاء عالمِ الخلق ؛ لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ ﴾ [يونس : ٣] ، وبهـٰذا يُفهمُ سرُّ تعدية الاستواء العرشي بـ(علىٰ) لأن التدبيرَ للأمرِ لا بدَّ فيه من استعلاءٍ واستيلاء .

---

(١) فأشار باسمه الحكيم إلىٰ أن شيئاً من خلقه لا ينفكُّ عن حكمة ، فصار مشيراً لوحدانية الصانع .

(٢) يعني : الاستواء السماوي .

اعتبار
[في أحوال الإنسان الكامل]

اعتبرْ بعد فهمِ هـٰذا قولَهُ تعالىٰ في خطابِهِ لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار ٦ـ٨] (١)

واعتبرْ ما أثمرَتْهُ هـٰذه التسويةُ والتعديل بقوله تعالىٰ عنه ليلةَ الإسراء : ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم : ٦ـ٧] ، مع قوله صلى الله عليه وسلم : « بلغْتُ إلىٰ مستوىً أسمعُ فيه صريفَ الأقلامِ »(٢) ، ومن المعلوم أن القلمَ إنَّما جرىٰ بالقدرِ ؛ كما ثبتَ في حديث عبادةَ بن الصامت رضي الله عنه : « إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللهُ القلمُ ، فقالَ لهُ : اكتبْ ، قالَ وما أكتبُ ؟ قالَ : اكتبِ القدرَ ؛ ما كانَ وما هو كائنٌ إلى الأبدِ »(٣)

---

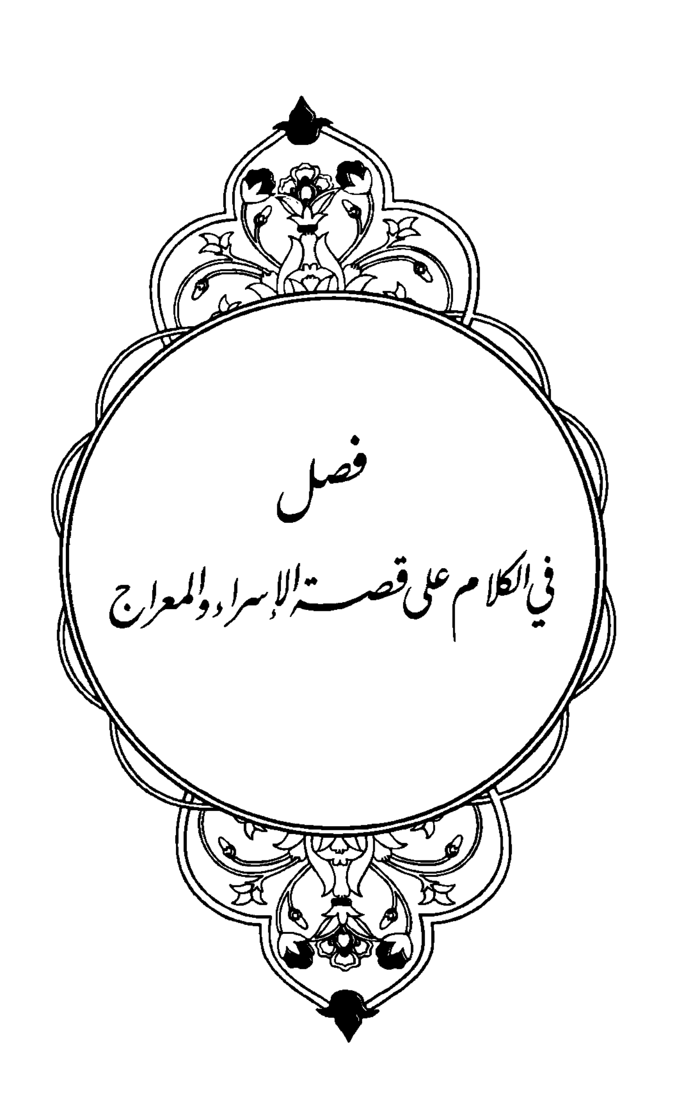
(١) ووجه الاعتبار : أن الإنسان بعد التسوية والتعديل قد تهيَّأ لمعرفة مولاه سبحانه ، ثم نُفخ فيه سرُّ الروح الإلـٰهي ، فتصوَّر في صورة الإنسان الكامل الذي له خلافةُ الله في أرضه ، فما كلَّفه معرفتَهُ وخلافته إلا بعد تعديل صورته ، فرجع ذلك لمعنى الاستواء بمعنى التعديل والتسوية ، والله أعلم .

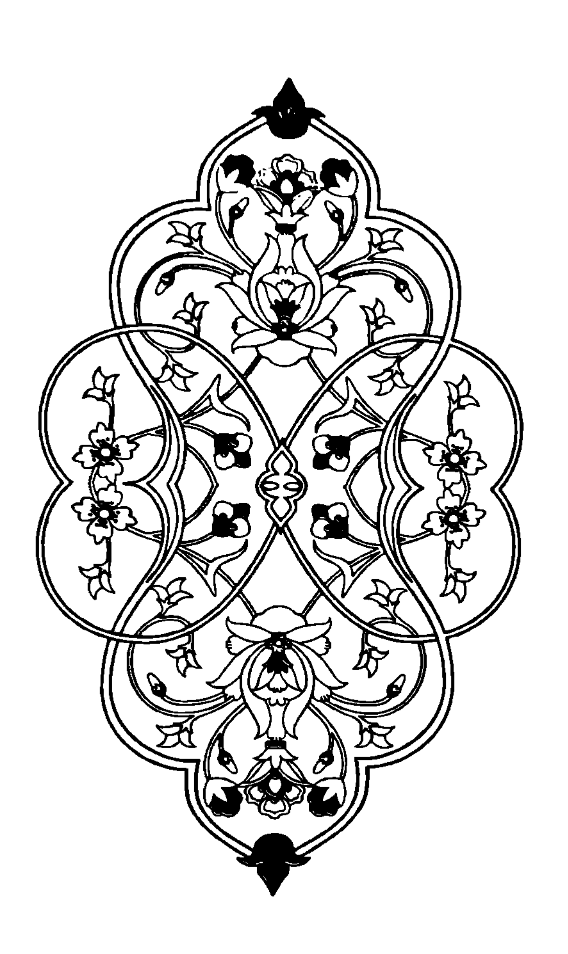
(٢) رواه البخاري (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داود (٤٧٠٠) ، والترمذي (٢١٥٥) ، ووجه الاعتبار : أن هـٰذا الإنسان الكامل كان له نصيب من رتبة الاستواء ؛ إذ صار إلىٰ محلٍّ علوي هو محلُّ التصريف والتدبير والأمر ؛ إذ الأقلام تكتبُ الأقدار، وقد قال الإمام الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٥١): (والأنبياءُ إذا بلغ معراجُهم المبلغَ الأقصىٰ ، وأشرفوا منه إلى السفل ، ونظروا من فوق إلىٰ تحت.. اطَّلعوا أيضاً علىٰ قلوب العباد ، وأشرفوا علىٰ جملة من علوم الغيب ؛ إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله تعالىٰ ؛ ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام : ٥٩] أي : من عندها تتنزلُ أسبابُ الموجودات في عالم الشهادة) ، والله أعلم .

وبهٰذا الاعتبارِ تعلمُ أن الاستواءَ عبارةٌ عمَّا قرَّرناهُ لك من أن استواءَهُ قيامُهُ بالقسط ، وتقديرُ المقادير في عالم خلقِهِ وعالمِ أمره .

* * *


فصل
في الكلام على قصة الإسراء والمعراج



فصل

في الكلام على قصة الإسراء والمعراج

قصَّةُ الإسراء وإن كانَتْ مشتملةً على الترقِّي بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى السماوات ، فليسَتْ منافيةً لما ذكرناهُ ، ولا مستلزمةً لإثبات الجهة[1] ، ويدلُّ على ذلك أمورٌ :

منها : افتتاحُ السورة بـ ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ المقتضي للتَّنزيهِ ؛ تنبيهاً على تعاليه عن التحيُّزِ بالجهات ، وعلى عدمِ اختصاصِهِ بجهة .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ١] ، فأتى بباء الإلصاق المفيدةِ للمصاحبة في تعديةِ الفعل[2] ؛ تنبيهاً على مصاحبتِهِ له في حالةِ إسرائه ، وأنه ليس نائياً ولا بعيداً عنه فيُحتاجَ في قربه إلى قطعِ مسافةٍ مكانية ، وتحقيقاً لقولِهِ صلى الله عليه وسلم : « اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ »[3]

الثالثُ : قولُهُ تعالى : ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ تنبيهاً على أنه على حسَبِ التحقُّق بخضوعِ العبودية[4] ؛ يكونُ الترقِّي إلى حضرةِ الربوبية .

---

(١) في (أ ، ج) : (ملتزمة) بدل (مستلزمة) .

(٢) ومعنى الإلصاق لا ينفكُّ عن الباء في العربية .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٢٨) .

(٤) قوله : (التحقق) كذا في (و) وحدها ، وفي سائر النسخ : (التحقيق) .

الرابعُ قولُهُ تعالىٰ ﴿ لَيْلًا ﴾ وإن كان لفظُ الإسراء مفيداً لذلك[1] ؛ تنبيهاً علىٰ أن كلَّ ما تضمَّنَهُ الإسراء كان خارجاً عن العادة في مثلِهِ ؛ فإنه جعلَ العلَّةَ فيه أن يريَهُ من آياته ، والإراءةُ العاديَّةُ سلطانُها النهار ، فقال ﴿ لَيْلًا ﴾ ليُعلِمَ أن الرؤيةَ المقصودة ليسَتْ عاديةً ، بل هي رؤيةٌ بنور ربَّاني سلطانُهُ الليلُ دون النهار .

الخامسُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١] نبَّهَ به علىٰ أن الإسراءَ لو كان لضرورة رؤيةِ ربِّهِ عز وجل لكونه مخصوصاً بجهة العلو . . لم تكن حاجةٌ بالذهاب إلى المسجد الأقصىٰ ، ولأمكنَ الترقِّي من مكةَ إلى السماء ، فدلَّ علىٰ أن الإسراء والترقِّيَ من مكان لمكان . . لحكمةٍ وراءَ ما زعم مثبتُ الجهة .

والسرُّ فيه وفي كونه ذكرَهُ تعالىٰ في كتابه التنبيهُ علىٰ أن العبدَ لا يصلُ إلى الله تعالىٰ إلا فرداً ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٥] ، ولا يتحقَّقُ له الفرديَّةُ إلا بعد مفارقةِ الحوادث وتجرُّدِهِ عنها ، فهنالك يصلُ إلىٰ حضرة عنديَّتِهِ[2]

وقد جاء الكتابُ العزيز بالتنبيهِ علىٰ أن حضرةَ عنديَّتِهِ وراءَ دوائر السماواتِ والأرض ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٩] ، فعطفَ (من عنده) علىٰ (من في السماوات والأرض) ، والعطفُ يقتضي المغايرة ، فدلَّ علىٰ أن حضرةَ العنديَّةِ وراءَ السماوات والأرض ؛ وهي مع ذلك محيطةٌ بحضراتِ السماوات والأرضِ كإحاطة ربِّنا بذلك كلِّهِ ، مباينةٌ لها

---

(١) إذ الإسراء لا يكون إلا بليل ، ومع هـٰذا ذكر الليل للحكمة الآتية .

(٢) انظر الكلام على العندية (ص ٣١١) .

كمباينتِهِ[١] ، فمن أرادَها فعليه بفُرْقةِ الحوادث ومباينتِهِ لها[٢]

ثم اعلمْ : أن الفُرقة فُرقتانِ فُرقة قلبيَّةٌ غيبيَّة[٣] ، وفُرقة حسيَّة .

فإن فارقَها بقلبه وصلَ إلى الله سبحانه بقلبه ، وإن فارقها بحسِّهِ تبعاً لقلبِهِ وصلَ إلى الله سبحانه بحسِّهِ وقلبه ؛ فلذلك كان الإسراءُ مرَّتين مرَّةً بالروح ، ومرَّةً بالجسد[٤] ؛ تنبيهاً علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم شرعَ لأمَّته فراقَ الحوادث مرَّتين ؛ مرَّةً بالروح ؛ وهو الإسراءُ الأول ، ومرَّةً بالجسد حسّاً ؛ وهو الإسراءُ الثاني ، ومن المعلوم أنه لا تحقُّقَ بفُرْقة الحوادثِ حسّاً إلا بمجاوزة دوائرِ الأفلاك كلِّها ؛ كما ثبتَ ليلةَ الإسراء

وأما ترتيبُ نُقْلتِهِ وترقِّيه في توجُّهه : ففيه أسرارٌ بديعة ؛ أظهرُها وأجلاها : أنَّ فرضَ الصلاة كان ليلةَ الإسراء[٥] ، والصلاة حضرةُ القرب والمناجاةِ والمراقبة المثمِّرةِ لنعيم الرؤية .

---

(١) فلا توصف تلك الحضرة بأنها داخلَ العالم ولا خارجه ، ولا أنها متصلةٌ به ولا منفصلة عنه .

(٢) وليقع بعضُ تفهيمٍ لما هنا ، وتمهيدٌ لما سيأتي . . بنقل ما ذكره حجةُ الإسلام في « مشكاة الأنوار » (ص ٥٠) إذ قال : (لا تظنَّ أنَّا نعني بالعالم العلويِّ السماواتِ ؛ فإنها علوٌّ وفوقٌ في حقِّ عالم الشهادة والحسِّ ، ويشاركُ في إدراكه البهائمُ ، وأما العبدُ فلا يفتحُ له بابُ الملكوت ولا يصيرُ ملكوتياً إلا ويبدَّل في حقِّهِ الأرضُ غير الأرض والسماوات ؛ فيصير كلُّ داخلٍ تحت الحسِّ والخيال أرضَهُ ومن [جملته] السماوات ، وكلُّ ما ارتفع عن الحسِّ فهو سماؤه ، وهٰذا هو المعراج الأول لكلِّ سالك ابتدأ سفرَهُ إلىٰ قرب الحضرة الربوبية ، فالإنسان مردودٌ إلىٰ أسفل السافلين ، ومنه يترقَّىٰ إلى العالم الأعلىٰ ، وأما الملائكة فإنهم [من] جملة عالم الملكوت ، عاكفون في حضرة القدُّوس ، ومنها يشرفون إلى العالم الأسفل) .

(٣) غيبية : نسبة لعالم الغيب ، لا نسبة للغَيْبة .

(٤) انظر « شرف المصطفىٰ » للخركوشي (٢/ ١٣٩) ، و« فتح الباري » (٧/ ١٩٧) .

(٥) رواه البخاري (٣٤٩) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

ومن المعلوم : أن التوجُّهَ توجُّهانِ : روحانيٌّ وحسِّيٌّ[(١)]

فقبلة التوجُّه الروحانيِّ وجْهُ الله سبحانه وتعالىٰ ، ولا اختصاصَ له بمكان .

وأما التوجُّهُ الحسِّيُّ فله قبلتانِ[(٢)] بيتُ المقدسِ والكعبةُ ؛ فبيتُ المقدس هو قبلةُ الأنبياء ، والكعبةُ هي قبلةُ إبراهيمَ عليه السلام .

فجاء الإسراءُ الروحانيُّ أولاً تأسيساً للشريعة في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة : ١١٥]

وجاء الإسراءُ الحسِّيُّ مبدوءاً بالتوجُّهِ إلىٰ بيت المقدس ، ثم إلى السماء[(٣)] ، ثم بالرجوع إلى الكعبة . . تأسيساً للشريعة في التوجُّه الحسيِّ في الصلاة أوَّلاً لبيتِ المقدس ، ثم للسماء في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، ثم بالرجوع إلىٰ قبلة مكةَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

---

(١) وهٰذا باعتبار وجود عالمي الغيب والشهادة ؛ وقد قال حجة الإسلام في « مشكاة الأنوار » (ص ٦٥) وهو يتحدَّث عن انقسام العالمِ علىٰ عالمينِ ؛ روحاني وجسماني : (إن شئت قلت : حسِّي وعقلي ، وإن شئت : علوي وسفلي ، والكلُّ متقارب ، وإنما تختلف باختلاف الاعتبارات ؛ فإذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت : جسماني وروحاني ، وإن اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت : حسِّي وعقلي ، وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت : علوي وسفلي ، وربما سميت أحدهما : عالم الملك والشهادة ، والآخر : عالم الغيب والملكوت) .

(٢) باعتبار جميع الشرائع والشريعة الإسلامية قبل النسخ وبعده ، وإلا فثَمَّ تفصيل لا داعيَ لذكره .

(٣) روى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٨٣) عن ابن سيرين : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلَّىٰ رفع بصرَهُ إلى السماء ، فنزلت آية إن لم تكن : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢] . . فلا أدري أيُّ آية هي .

إشارة

[إلىٰ أسرار التوجُّه في ترتيب التبليغ على التلقي]

لمَّا كان توجُّهُهُ ليلةَ الإسراء إلىٰ مكةَ بعد خروجِهِ من حضرة القُرْب في التلقِّي إلىٰ حضرة القُرْب في التبليغ . . جاء التشريعُ في التوجُّه إلى الكعبة علىٰ وَفْقِ المناسبة ؛ فقال فيه ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٤٩] .

ومن هٰذا يُفهمُ السرُّ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : ٧٩ ـ ٨٠] ، وهٰذا المُخْرَجُ للدعوة والتبليغ هو المُخرَجُ الذي ورثَتْهُ عنه أمَّتُهُ في قوله تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . ﴾ الآية [آل عمران : ١١٠] .

تنبيه

[علىٰ دنوِّ التجلي والكشف]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨ ـ ٩] إيَّاكَ أن تَهمَ أن ذلك يشعرُ بتحديدٍ في القرب ، أو تخصيصٍ في جهة ، وإنما هو دنوُّ تجلٍّ وكشف ؛ لأنه ذكرَهُ في قصَّةِ الإسراء بالروح ؛ ألا ترىٰ قولَهُ بعدَهُ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] ؟! ثم ذكرَ بعدَهُ الإسراء الحسيَّ فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٣ـ١٨] .

فإذا عُلم أنه دنوُّ تجلٍّ روحانيٍّ وكشفٍ عرفاني . . فهمتَ سرَّ قوله تعالىٰ :

من قوله تعالىٰ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ ﴾ [فصلت ٥٣] ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم : ٧] فكان أُفُقُهُ في الرؤية وبيانِ الحقِّ هو الأفقَ الأعلىٰ[١] ، ثم دنا عن الأفق الأعلىٰ في نعيم الرؤيةِ وفي بيان الحقِّ فكان ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي : قدرَ قوسين ، والقوسُ في اللغة : يستعملُ للذراع ، وما يُقدَّرُ ويُقاسُ به ؛ وهو المرادُ هنا ، ومن قولِهِ في « الصحيح » : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ حينَ يذكرُني . . . » الحديثَ ، وفيه : « فإنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً ، وإنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعاً تقرَّبْتُ منهُ باعاً »[٢] ، وليس المرادُ فيهما ذراعاً حسيّاً محدوداً ، وإنما المراد تمثيلُ التقريب لدنوِّ الذاكر من المذكور في مجالسِ النجوىٰ والذكر ، وتجلِّي سرِّ المعيَّة للقلب .

وأدنى الرُّتَبِ في ذلك[٣] تحقُّقُ القلب بسرِّ (سبحانَ الله) وسرِّ (الحمدُ لله) ، وكذلك كانَ صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء ، وإذا أردتَ التحقيقَ لذلك فخذْهُ من افتتاحِ سورةِ (الإسراء) بـ ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ ، واختتامِها بقوله : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الإسراء : ١١١] .

ثم نبَّهَ على انتفاء التقديرِ في دنوِّهِ بقوله : ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ وهو التحقُّقُ بالتوحيد في نعيم الرؤية للآية الكبرىٰ[٤] ؛ وهي : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ولذلك وصفَهُ بقوله آخرَ سورةِ (الإسراء) : ﴿ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . . ﴾ [الإسراء : ١١١] إلىٰ قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] تحقيقاً لقولِهِ عليه الصلاة والسلام : « وما بينَهم

---

(١) قوله : (وبيان الحق) مفادٌ من تتمة الآية ؛ وهي : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ .
(٢) انظر تخريجه (ص ١٣٦) .
(٣) في (ب) : (وأدنىٰ ـ يعني : أقرب ـ الرتب في ذلك) .
(٤) في (ج) : (التوجُّه) بدل (التوحيد) .

وبينَ أنْ ينظروا إلىٰ ربِّهم إلا رداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهِهِ في جنَّةِ عَدْنٍ » كما قدمناهُ[1]

إيضاح

[لسرِّ التدلِّي]

إذا أردتَ أن تفهمَ سرَّ التدلِّي في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ . . فتأمَّلْ ما رواه أبو عيسى الترمذيُّ من حديث العَنانِ ، وفيه ذكر الأرضينَ السبعِ ، وأن بين كلِّ أرض وأرضٍ كما بين السماءِ والأرض ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لو دُلِّيَ أحدُكم بحبلٍ لوقعَ على اللهِ »[2]

فنبَّهَ صلى الله عليه وسلم علىٰ عدم تحيُّزِهِ تعالىٰ في السماء ، وأنه ليس مختصّاً بجهةٍ[3] ؛ كما نبَّهَ علىٰ ذلك قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ ؛ فإن الإسراءَ كان للعلوِّ ، فربما توهَّمَ المحجوبُ أن الدنوَّ في قوله تعالىٰ : ﴿ دَنَا ﴾ زيادةُ العلوِّ ، فنبَّهَ بقوله تعالىٰ ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ علىٰ أن قربَهُ ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ . . كان ثمرةَ التدلِّي المشعِرِ بالتنزُّل ، وأنه تعالىٰ لا يختصُّ قربُهُ بجهة العلوِّ ، بل المُتدلِّي

---

(١) انظر (ص ١٦٨) .

(٢) سنن الترمذي (٣٢٩٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٧٢) ثم قال (والذي روي في آخر هـٰذا الحديث إشارة إلىٰ نفي المكان عن الله تعالىٰ ، وأن العبد أينما كان فهو في القرب والبعد من الله تعالىٰ سواء ، وأنه الظاهر ؛ فيصح إدراكه بالأدلة ، الباطن ؛ فلا يصح إدراكه بالكون في مكان).

(٣) فهو سبحانه استوىٰ علىٰ عرشه كما أخبر ، ومع ذلك لو دلِّيَ حبلٌ إلى الأرض السابعة لهبطَ على الله تعالىٰ وجلَّ كما في لفظ رواية الترمذي ؛ لأن التدلي خضوع وهبوط ، فأشبهَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] .

إليه بالخضوع أقربُ ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالىٰ ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] ، وفي الحديث : « أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجدٌ »(١)

تبصرة

[في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : « لوقعَ على اللهِ »]

قولُهُ : « لو دُلِّيَ أحدُكم بحبلٍ لوقعَ على اللهِ » له تأويلانِ : ظاهر وباطن .

فالظاهرُ : التنبيهُ علىٰ إحاطته سبحانه بكلِّ شيء ، وعلىٰ إحاطةِ حضرتِهِ كما قدمناهُ في الإسراء(٢)

وأما الباطنُ : فالحبلُ حبلانِ : حادث وقديم .

فالحادثُ : حبلُ الوريد ، وهو الحديثُ النفسانيُّ والنورُ العقلي(٣) ، فلو دَلَّى المتفكِّرُ حبلَ شعاعِ عقلِهِ إلىٰ منتهى المخلوقاتِ السفليّة(٤) . . لوقعَ في كلِّ حضرة من حضرات مدركاتِهِ على الله سبحانه وتعالىٰ ؛ لأنه أقربُ إليه من كلِّ شيء ؛ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [قٓ : ١٦] .

وأما الباطنُ : فهو حبلُ الله المتين ، وكتابُهُ المبين ، فمَنْ تمسَّكَ به شهدَ سرَّ تنزُّلِهِ علىٰ أرض القلوب ، ووقعَ حبلُ أشعتِهِ على الله فيها ؛ لأن القلبَ بيتُ الربِّ(٥) ؛ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) انظر (ص ٢٧٠) .
(٣) أراد حديث المرءِ نفسَهُ ساعة التفكُّر في مخلوقات الله تعالىٰ .
(٤) في (أ ، ج ، د ، هـ) : (قلبه) بدل (عقله) .
(٥) وتحقيق هـٰذه الإضافة : إنما يكون بالنظر إلىٰ عمل القلب وتعلُّقه بالأشياء ؛ وإذا علمت أن=

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ . . . ﴾ إلىٰ قوله ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴾[1] [الواقعة : ٧٤ـ ٨٥] .

تبصرة

[في زيادة تحقيق نفي الجهة عن الله تعالىٰ]

إذا أردتَ زيادةَ التبصُّرِ بأن الإسراءَ ، وعروجَ الملائكة ، ورفعَ عيسىٰ وإدريس عليهم السلام إلى السماء ؛ لا يدلُّ علىٰ أن الله تعالىٰ مخصوصٌ بجهة السماء . . فاعتبرْ فرْضَ الحجِّ على العباد إلىٰ بيت الله الحرام ، وأمْرَ اللهِ تعالى الناسَ بالتوجُّهِ إليه من جميعِ الجهات ، وجعْلَ سكانِهِ جيرانَ الله سبحانه ، وحجَّاجِهِ وفدَهُ وضيفانَهُ ، والحجرِ الأسودِ يمينَهُ ؛ مع أن نسبةَ البيت وغيرِهِ إلى الله سبحانه باعتبار المسافة . . نسبةٌ واحدة[2] .

فعُلِمَ أن القصدَ بالسير إلى البيت ليسَ لأنَّ السيرَ يقتضي القربَ في الوصول

= عمله المعرفة أو الجهل ، والحب أو البغض ، إلىٰ غير ذلك من التعلقات . . علمت أنه بيت المعرفة بالله ، ومحبته سبحانه ، والإيمان به ، والتصديق بما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا تُعبِّس ولا تنقبض عند سماعك لنحو هٰذه العبائر من عبارات القوم المحقِّقين ؛ فهم أقدرُ منَّا ـ نحن الغرقىٰ بشهواتنا ـ على الجري في حَلَبات ميادين المعرفة الإلٰهية ، والنقولُ الشرعية شاهدة لهم بذلك .

(١) انظر الحديث عن هٰذه الآية (ص ٣٠٤) .

(٢) إذ ليس بعضُ الحوادث من حيث المسافةُ أقربَ إليه سبحانه من بعض ؛ لأنه سبحانه يتعالىٰ عن المقادير والمسافات والأبعاد ، فهو أقربُ إلىٰ كلِّ شيء من كلِّ شيء ، بل من الشيء إلىٰ نفسه ، فلمَّا أخبرنا سبحانه بأقربية بعض خلقه إليه من بعض مع علمنا بأنه قال : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [قٓ : ١٦] . . علمنا أن ثَمَّ أقربيةً غير حسية ، وهي ما سيحدِّث عنه الإمام المصنف .

إليه بالمكان[1] ، وإنما للهِ سبحانه وتعالىٰ تعبُّداتٌ وأسرارٌ في ضمن مشروعاتٍ يقتضيها من عباده لحِكَمٍ ظاهرة وخفيّةٍ[2] ، ألا تراهُ كيف ناجىٰ موسىٰ بالوادي المقدَّس ، وأسمعَهُ كلامه من الشجرة ، ووصفَهُ بالقُرْب إلىٰ مجلس حضرتِهِ ونجواه[3] ؟! مع الاتفاقِ علىٰ : أنه تعالىٰ لا يختصُّ بجهة الوادي المقدَّس ، ولا يَحُلُّ كلامُهُ وهو صفتُهُ بالشجرة ، وأن موسىٰ قَرُبَ إليه مع كونِهِ بالأرض ، وسمع نداءَ ربِّهِ من جانب الطور ، ولم يكنْ ربُّهُ بجانب الطور ، وإنما لتجلّياتِهِ مظاهرُ وحُجُبٌ روحانية وجسمانية لا يشهدُها إلا مَنْ فتقَ الله رتْقَ قلبه ، وفلقَ إصباحَ ليلِهِ ، ونوَّرَ مصباحَ مشكاته بزيت شجرةِ توحيده ؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور ٤٠] .

تشكيك[4]

[بذكر آياتٍ وأحاديثَ ظواهرُها تفيد الجهةَ والفوقية في حقِّ المتعالي سبحانه]

قد يُورَدُ علىٰ ذلك نحوُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك : ١٦] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ

---

(١) في (ب) وحدها : (فعُلِمَ أن القصدَ بالسير إلى البيت ليس هو لمجرَّدِ البيت ؛ لأن السير . . .) ، والصواب المثبت .

(٢) في (ج ، د ، هـ) : (صور) بدل (ضمن) .

(٣) حيث قال تعالىٰ : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم : ٥٢] .

(٤) هو ما نعبِّرُ عنه بقولنا : (تحريجة ، إيرادة . . .) ، وتكون بإيراد قضية أو قضايا تحرِّجُ الخصمَ ؛ في نحو عدم تعميم ما ذهب إليه ، وعدم اطِّراد ما قعَّده ؛ طلباً لهدم قوله ، وتارةً تُصاغ بصيغة (الفنقلة) ، ويولع بإيرادها أهل العلم المحقِّقون ؛ تمكيناً لأقوالهم ؛ وذلك لأن المراد لا يدفع الإيراد ، فلا بدَّ من البيان .

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة ٥] وأمثال ذلك ، وقولِهِ صلى الله عليه وسلم للجارية « أينَ اللهُ ؟ » ، فقالت : في السماء ، قال : « أعتقْها ؛ فإنَّها مؤمنةٌ »[1]

والجوابُ أنه قد قرَّرنا أن تجلِّياتِهِ تعالىٰ بأسمائه وصفاته محيطةٌ بدوائر السماوات والأرضِ ، وأن لها في تصرُّفِها وسائطَ سفليَّة منسوبةً للعباد ، ووسائطَ علويَّة منسوبةً له تعالىٰ[2] ، فأطلقَ علىٰ نفسِهِ تعالىٰ أنه في السماء باعتبارِ الوسائط ومظاهرِ تجلِّياتِهِ العلويَّة ، وأنه في الأرض باعتبار المظاهرِ والوسائط السفليَّة ؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، وقال اللهُ تعالىٰ : ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل : ٥١] .

فإذا كان المقصودُ بالسياق تحذيرَ أهل الأرض وتفخيمَ الأمرِ : جاء التعبير بـ ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ فإن مظاهرَهُ السماويةَ هي القائمةُ بالتصرُّفات الغيبيةِ المنسوبة إليه كما قررناه[3]

وأما تنزُّلُ التدبير وعروجُهُ : فهو عروجٌ روحاني ، وسرٌّ رحماني ، وكشفٌ عرفاني ، وقد تقدَّم ذكرُهُ في مسألة الاستواءِ[4]

وأما تقريرُ الجارية علىٰ أن اللهَ تعالىٰ في السماء ، ووصفُها بأنها مؤمنةٌ : فالحقُّ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يعتمدْ في إيمانها وتقريرها ظاهرَ لفظها ، فإن لفظَها ليس مفيداً لتوحيدِ الله تعالىٰ ؛ لا علىٰ مذهب القائلين بالجهة ، ولا غيرهم .

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) من حديث سيدنا معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

(٢) انظر (ص ١٩٧) .

(٣) انظر (ص ٢١١) .

(٤) انظر (ص ٢٦٤) .

أما عند من لا يثبتُ الجهة : فواضحٌ[١]

وأما عند مثبتِ الجهة : فلأنَّهم موافقون على أنه قد عُبدَتِ الملائكةُ والشمس والكواكب وهي في السماء ، وعُبدَ عيسىٰ وهو حين الإخبارِ في السماء ، وليس في لفظِها ما يخرِجُ هـٰؤلاء عن الإلـٰهيَّة[٢] ، ولا ما يقتضي وصفَها بالإيمان .

وأقربُ احتمالٍ في ذلك : أن الجاريةَ أشرقَ لبصيرتها نورُ التوحيد في الآفاقِ السماويَّة ؛ تحقيقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ . . . ﴾ الآيتينِ [فصلت : ٥٣ ـ ٥٤][٣] ، فلمَّا قال لها : « أينَ اللهُ ؟ » ، قالت : في السماء ؛ أي : ظهرَ نورُ توحيدِهِ في السماء ، فقال « أعتقْها ؛ فإنَّها مؤمنةٌ »[٤]

---

(١) إذ المفيد للتوحيد والإسلام هو قولُها : (لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله) ، واعلم : أن الرواية المجوَّدة لهـٰذا الحديث هو ما رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٧٧) عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود مرسلاً ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٤٥١) : أن رجلاً من الأنصار جاء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بجارية له سوداءَ ، فقال : يا رسول الله ؛ إن عليَّ رقبةً مؤمنة ، فإن كنتَ تراها مؤمنة أعتقتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتشهدينَ أن لا إلـٰهَ إلا اللهُ ؟ » قالت : نعم ، قال : « أتشهدينَ أنَّ محمداً رسولُ الله » ، قالت : نعم ، قال : « أتوقنينَ بالبعثِ بعدَ الموتِ ؟ » ، قالت : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعتقْها » ، وما عُهد عنه عليه الصلاة والسلام أن الإيمان مفتاحُهُ في جواب (أين الله) .

(٢) في (ب) : (العبادة) بدل (الإلـٰهية) .

(٣) والآيتان بتمامهما : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۞ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ .

(٤) وهـٰذا توجيهٌ علىٰ طريقة أصحاب الأشائر ، وله شواهدُه من الكتاب والسنة ، وعلىٰ طريقة أهل الظاهر : أن هـٰذه الجارية رضي الله عنها كانت خرساء ، ولم يتوجَّه لها من حضرة النبي عليه الصلاة والسلام السؤالُ بـ (أين) أصلاً ، بل بـ « أتشهدينَ أن لا إلـٰهَ إلا اللهُ ؟ » كما =

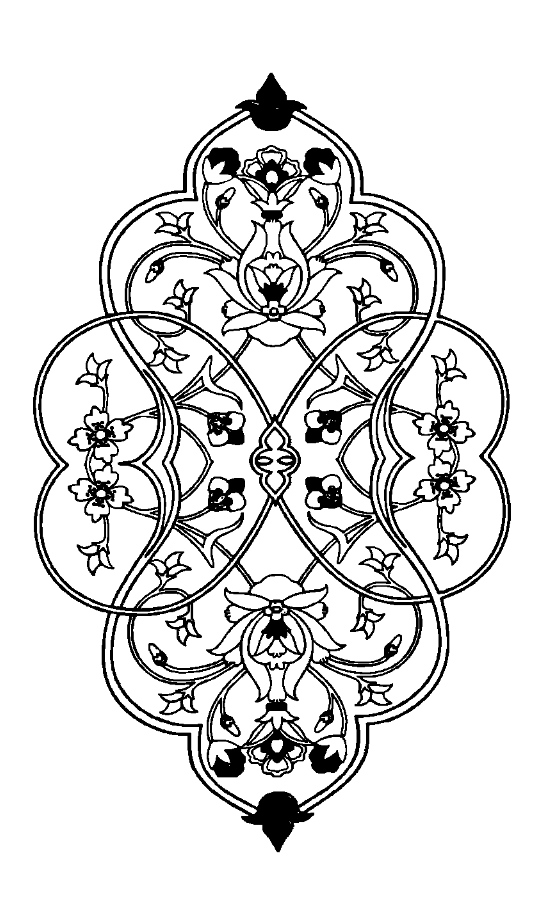
ويُحقِّقُ ذلك : كونُهُ لم يقل (فإنها مسلمةٌ) لأن الإسلام تتعلَّقُ أحكامُهُ باللسان والجوارح الظاهرة ، ولم يكن ظهرَ منها شيء من ذلك يعتمدُ عليه ، وقال : « فإنَّها مؤمنةٌ » ، والإيمانُ من لوازم القلوب ، فدلَّ علىٰ أن اعتمادَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في تقريرها كان علىٰ أمرٍ شهدَهُ منها يرجعُ إلىٰ قلبِها ، لا إلىٰ لفظِها[1] ، مع احتمالِ لفظها له ، فلذلك أقرَّها عليه[2]

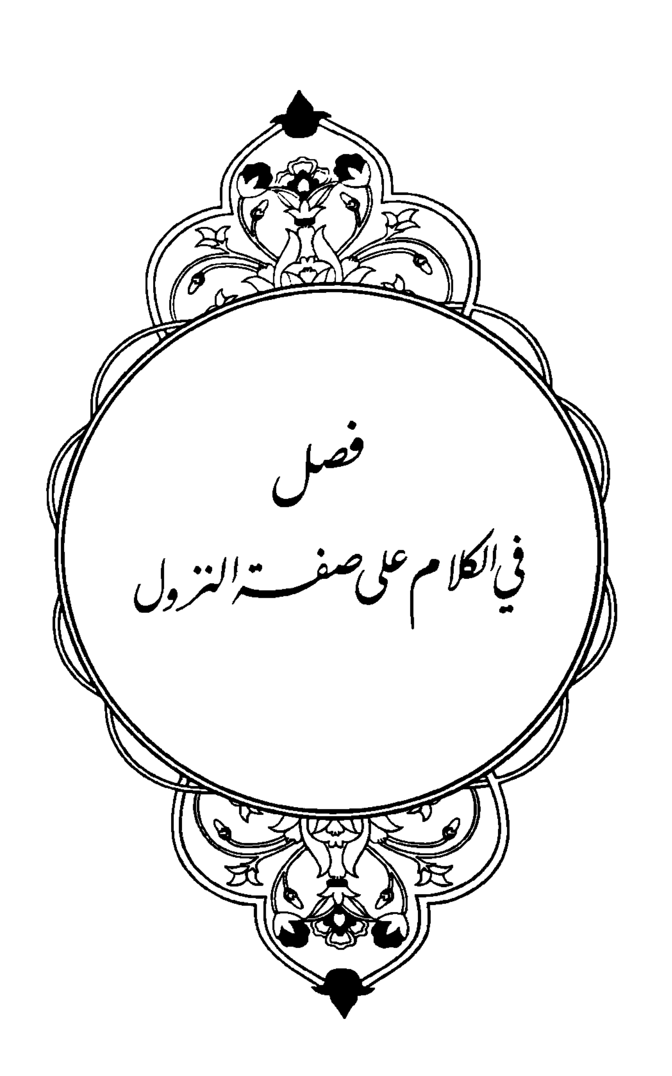
* * *

= علمت ؛ وقوله في الحديث : (قالت : نعم) يعني : أشارت برأسها بما يفيد ذلك ، وهٰذا التوجيه واجبٌ اقتضاه الجمعُ بين روايات هٰذا الأثر ، وعروُّ السنة عن مثله في إثبات الإيمان ؛ إذ لا يُعرفُ عنه عليه الصلاة والسلام ولا عن أصحابه الكرام أنهم كانوا يمتحنون من يدَّعي الإسلام أو يهمُّ بالدخول فيه.. بسؤاله : (أين الله ؟) ، بل هو بدعةٌ شنيعة أحدثَها أهل التشبيه والتجسيم .

(1) وتفهم هٰذا من عكس هٰذه الصورة ؛ وهو ما رواه البخاري (٢٧) ، ومسلم (١٥٠) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قَسماً ، فقلتُ : يا رسولَ الله ؛ أعطِ فلاناً ؛ فإنه مؤمنٌ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أو مسلمٌ » ، أقولها ثلاثاً ، ويردِّدُها عليَّ ثلاثاً : « أو مسلمٌ » ، ثم قال : « إني لأعطي الرجلَ وغيرُهُ أحبُّ إليَّ منهُ ؛ مخافةَ أنْ يكبَّهُ اللهُ في النارِ » .

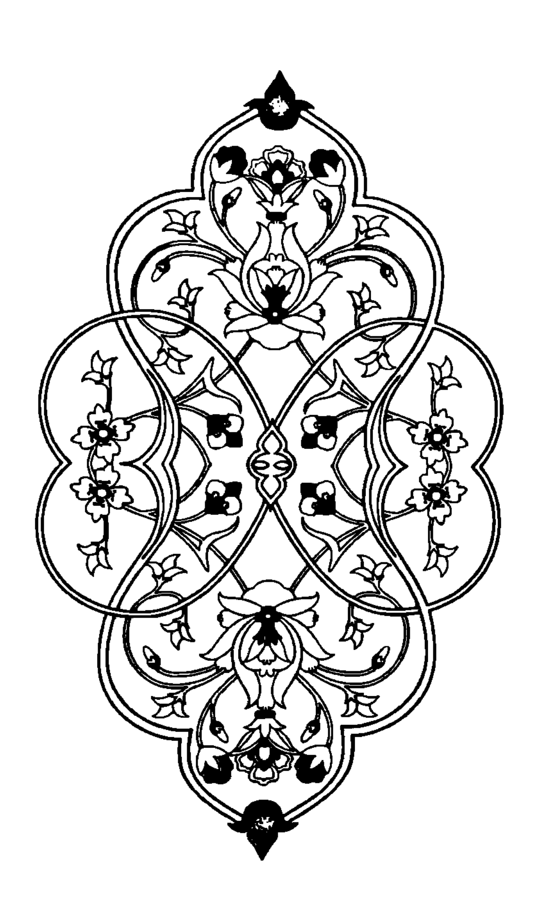
(2) والاحتمال في مثل هٰذا معتبر ، تعصم به الدماء والأموال .





فصل

في الكلام على صفة النزول



فصل

في الكلام على صفة النزول

ومن الأحاديثِ المتشابهة : أحاديثُ نزولِهِ سبحانه وتعالىٰ كلَّ ليلة إلىٰ سماءِ الدنيا :

وهو لا ينافي ما ذكرناهُ ، ولا يستلزمُ إثباتَ الجهة ، ولا اتصافَهُ تعالىٰ بالحركة والنُّقْلة ؛ فإنها عَرَضٌ ، والأعراضُ يلزمُها الحَدَثُ ، والحدثُ على القديم محالٌ علىٰ ما هو مقرَّرٌ في الكتب الكلامية ، ولسنا لهُ الآنَ[1] ، وإنما

(١) وروى الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٨٦) كلاماً جامعاً بين طريقتي المتكلمين والصوفية في هـٰذا ، عن الحسين بن منصور قال : (ألزمِ الكلَّ الحَدَثَ ؛ لأن القدمَ له ، فالذي بالجسم ظهورُهُ فالعرضُ يلزمه ، والذي بالأدوات اجتماعُهُ فقواها تمسكُهُ ، والذي يؤلِّفُهُ وقت يفرِّقُهُ وقت ، والذي يقيمُهُ غيره فالضرورةُ تمَسُّهُ ، والذي الوهم يظفرُ به فالتصويرُ يرتقي إليه ، ومن آواه محلٌّ أدركه أينٌ ، ومن كان له جنسٌ طالبُهُ مكيِّفٌ .
إنه سبحانه لا يظلُّهُ فوقٌ ، ولا يقلُّهُ تحتٌ ، ولا يقابلُهُ حدٌّ ، ولا يزاحمُهُ عندٌ ، ولا يأخذُهُ خلفٌ ، ولا يحدُّهُ أمامٌ ، ولم يُظهِرْهُ قبلٌ ، ولم يفنِهِ بعدٌ ، ولم يجمعْهُ كلٌّ ، ولم يوجدْهُ كانَ ، ولم يفقدْهُ ليسَ .
وصفُهُ لا صفةَ له ، وفعلُهُ لا علَّةَ له ، وكونُهُ لا أمدَ له ، تنزَّهَ من أحوال خلقه ، ليس له من خلقِهِ مزاجٌ ، ولا في فعله علاج ، باينَهم بقِدَمِهِ كما باينوهُ بحدوثهم .
إن قلت : « متىٰ » فقد سبق الوقتَ كونُهُ ، وإن قلت : « هو » فالهاء والواو خلقُهُ ، وإن قلت : « أين » فقد تقدم المكانَ وجودُهُ ، فالحروفُ آياته ، ووجوده إثباته ، ومعرفتُهُ توحيده ، وتوحيده تمييزُهُ من خلقه ، ما تصورَ في الأوهام فهو بخلافه .
كيف يحلُّ به ما منه بدا ، أو يعود إليه ما هو أنشأهُ ؟! لا تماقلُهُ العيون ، ولا تقابلُهُ الظنون .
قربُهُ كرامته ، وبعدُهُ إهانته ، علوُّهُ من غير توقُّل ، ومجيئُهُ من غير تنقُّل ، هو الأولُ =

المقصودُ تخريجُ صفة النزول على ما يوافقُ القواعدَ التي مهَّدناها في صفاتِهِ سبحانه وتعالىٰ[١]

وقد أوَّلَ بعضُهم نزولَهُ بنزول علمِهِ أو قدرته ونحوه ، وهو غيرُ مُنْجٍ[٢] ؛ فإن علمه وقدرتَهُ صفاتٌ ؛ **فإن أُريدَ نزولها نفسِها** فهو محالٌ[٣] ؛ لأن الصفة قائمةٌ بالموصوف ، فإذا لم يجزْ علىٰ موصوفِها النزولُ فصفتُهُ أولىٰ ، **وإن أُريدَ بنزولها تعلُّقُها بما في سماء الدنيا** فتعلُّقُ علمِهِ وقدرته بالموجودات كلِّها لم يزلْ ولا يزال[٤] ، فكيف تختصُّ بجزءٍ من الليل أو غيره ؟!

هـٰذا مع القطعِ بأنه تعالىٰ يمسكُ السماوات والأرضَ أن تزولا[٥] ، فمَنْ قبضتُهُ لا تزالُ محيطةً بالسماوات كلِّها . . كيف يحتاجُ إلى النزول إليها ، أو يختصُّ تعلُّقُ قدرته وعلمِهِ بها بزمان دون غيره ؟!

وإنما الجاري على القواعدِ والآيات المحكمةِ قد بيَّنَهُ الله تعالىٰ في كتابه بمَثَلينِ : مثلٍ فيك ، ومثلٍ خارجٍ عنك

= والآخر ، والظاهرُ والباطن ، القريبُ البعيد ، الذي ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السميع البصير) .

(١) انظر (ص ١١٩) .

(٢) في نسخة هامش (ج) : (متَّجه) بدل (منجٍ) .

(٣) في (ب) العبارة : (وقدرته وهما صفتان له تعالىٰ فإن أريد نزولهما نفسهما فهو) بدل (أو قدرته ونحوه ، وهو غير منجٍ ؛ فإن علمه وقدرته صفات ، فإن أريد نزولها نفسها فهو محال) .

(٤) العبارة علىٰ ظاهرها متَّجهةٌ علىٰ قول السادة الماتريدية المثبتين لصفة التكوين ، وإلا فالتعلُّق التنجيزي لصفة القدرة علىٰ قول السادة الأشاعرة إنما هو فيما لا يزال ، لا في الأزل ؛ إذ التعلقات حادثة ، ولا يضرُّ حدوثها لكونها اعتبارية ؛ إلا إن أراد الإمام المصنف شمول التعلقات للصُّلُوحي منها .

(٥) إشارة إلىٰ صفة القيومية ؛ وهي عند المتكلمين راجعة إلىٰ دوام التعلقات التنجيزية للقدرة الأزلية ؛ قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : ٤١] .

الأوّلُ[1] قولُهُ تعالى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ[2] [النور : ٣٥] ، ومن المعلوم أن النورَ إذا جُعِلَ محيطاً بدوائرَ شفافة سبعةٍ أو ثمانية بعضُها محيطٌ ببعضٍ . . فأوّلُ ما يظهرُ أثرُهُ في أدناها إليه وأوسعِها دائرةً ، فيراه أهلُها ، ثم ينفذُ شعاعُهُ إلى الثانية فيظهرُ فيها على حسَبِ صفائِها ، ثم هٰكذا إلىٰ ثالثة ورابعةٍ إلى السابعة ، وكلُّ من كان في دائرة منها يرى النورَ قد نزلَ إلىٰ دائرتِهِ ، وهو نزولُ ظهور وتجلٍّ ، لا نزولُ حركةٍ ونُقْلة

فعلىٰ مثل هٰذا تُخرَّجُ صفةُ نزولِهِ سبحانه مع تنزُّهِهِ عن تفاوت نِسَبِ دوائر الأفلاكِ إليه ، وعن بُعدِهِ عن بعض وقربِهِ من بعض ، بل هو أقربُ إلىٰ كلِّ شيء من نفسه .

ولا بدَّ لك حينئذٍ من مراجعة ما تقدَّمَ في الاستواء على العرشِ ، فتعلمُ أن صفةَ النزول من لوازم صفةِ الاستواء ، وقد تقدم أن صفةَ الاستواء هو قيامُهُ تعالىٰ في عالم الأمر بسرِّ التدبير[3] ، فنزولُهُ حينئذٍ هو نزولُ روحِ الأمر بسرِّ التدبير من حضرةِ الاستواء وهو العرشُ . . إلىٰ سائر دوائر الكائنات بحكمةِ التعرُّفِ ؛ قالَ تعالىٰ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس : ٣] ، وقالَ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ، ثم بيَّنَ أن ذلك التنزُّلَ لحكمة التعرُّفِ بقوله : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

---

(١) وهو المثل الخارج عنك .

(٢) والآية بتمامها : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

(٣) انظر (ص ٢٦٤) .

تنبيه

[علىٰ تعليل نسبة النزول له سبحانه]

إنما نُسبَ النزولُ إليه سبحانه ؛ لأن روحَ الأمر هي مظهرُ نور التوحيد ؛ قال تعالىٰ ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [النحل ٢] ، وقد بيَّنَّا أن نور توحيده هو وجهُهُ سبحانه ؛ فلهـٰذا جُعلَ نزولُ روحِ أمره بمثابة نزوله ، ومعرفتُها بمثابة معرفتِهِ تحقيقاً ؛ لأنَّ مَنْ عرف نفسَهُ عرف ربَّهُ[1]

تبصرة

[في اعتبار النزول في العالم الأصغر]

إذا علمتَ معنىٰ نزولِهِ في العالم الأكبر ، فاعتبرْ بذلك استواءَهُ ونزولَهُ في عالم الإنسان ؛ وهو العالمُ الأصغر كما سيأتي بيانُهُ[2]

المثلُ الثاني[3] : قولُهُ تبارك وتعالىٰ : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ١ـ ٤][4] ، فلا تعتقدْ أن المرادَ منك أن تُرجعَ بصرَكَ في طباق السماوات ؛ فإن اللهَ تعالىٰ يعلم أنك لا تدركُ ببصرك ذلك ؛ لضعفِهِ

---

(١) انظر الحديث عن هـٰذا (ص ١٦١) ، وهـٰذه العبارة كلمة للعارف بالله يحيى بن معاذ ستأتي (ص ٣٢٤) .

(٢) انظر (ص ٢٨٩) .

(٣) وهو المثل الذي فيك .

(٤) والآيات بتمامها : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

وشدة البعد ، وتأمَّلْ قوله تعالىٰ ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أي : أن الرحمـٰن خلقَكَ وخلقَ السماوات ؛ قال تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن ١ـ٤] ، فكما خلقَ السماواتِ خلق فيك أمثلةً لها ، لا تفاوتَ بين تلك الأمثلةِ وبينَها

فارجعْ بصرَكَ في تلك الأمثلة تعلمْ أنه سبحانه ضربَ قلبَكَ لنفسه مثلاً ؛ وذلك أن قلبَكَ هو صاحبُ دوائر أطوارِكَ ، وله في استوائه عالمانِ : عالمُ خلْقٍ وهو عالم حسِّكَ ، وعالمُ أمرٍ وهو عالم غيبِكَ[(١)]

فإذا أراد تدبيرَ عالم الحسِّ تنزَّلَ بروح أمره[(٢)] ؛ وهو نورُ البصر ، ومن المعلوم عند علماءِ التشريح أن للروح الباصر سبعَ طِباقٍ ، يتنزَّلُ بينها إلىٰ أن يصلَ إلىٰ عالم الحسِّ ، وأنت إذا اعتبرتَ ذلك حكمتَ بسببه أن نزولَهُ تعالىٰ منزَّهٌ عن النُّقْلة والحركة ؛ ألا ترىٰ أن القلبَ يدرك بالبصر ، ويدرك به البصرُ الشيءَ البعيد حسّاً في آنٍ واحد ، من غير تنقُّلٍ ولا فطورٍ في طِباقه التي ينفذُ من بعضِها إلىٰ بعض ، ولا مهلةَ في تنزُّله ورجوعِهِ إليه ، ولا تفاوتَ في نسبتِهِ إليها ؟!

وقد قال المحقِّقون من أهل النظر : (إن العين مرآةُ القلب) أي : مَنْ نظرَ إلىٰ عين رجلٍ رأىٰ منها حقيقةَ قلبه[(٣)] ، ولتحقُّقِ الروح الباصرِ بالقلب اشتبهَ

---

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ١٩) : (شبَّهَ سهل التُّسْتَريُّ القلبَ بالعرش ، والصدرَ بالكرسي ؛ فقال : « القلب هو العرش ، والصدر هو الكرسي » ، ولا تظنَّ به أنه يرىٰ أنه عرش الله وكرسيه ؛ فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكتُهُ ، والمجرى الأول لتدبيرِهِ وتصرُّفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالىٰ ، ولا يستقيمُ هـٰذا التشبيه أيضاً إلا من بعض الوجوه) .

(٢) الفاعل في قوله : (أراد) ضمير راجع للقلب .

(٣) روى البخاري (١٣٠٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن العينَ تدمعُ ، =

علىٰ كثيرٍ من العقلاء ، فاعتقدوا أن البصرَ ليس حسّاً مغايراً للقلب ، وكذا باقي الحواس ، بل هي بمثابةِ الشبابيكِ ، والقلبُ هو المدرِكُ منها لما في عالم الحسِّ[1] .

وهٰذا كلُّهُ يكشفُ لك سرَّ نسبة النزول إلىٰ ربِّنا سبحانه ؛ بنزولِ روحِ أمره ، وكونِهِ من أكبر آياتِ توحيده .

تذكرة

[في استواء حال النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته]

في الحديث « ما مِنْ مسلمٍ يسلِّمُ عليَّ إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتىٰ أردَّ عليهِ السلامَ »[2] ، وقد نبَّهتُ على الإشكال المتعلِّق بهٰذا وعلىٰ جوابه في كتاب « الأمالي »[3] ، والقصدُ بذكره هنا مناسبتُهُ لما نحن فيه ؛ فإن للعبد مع الله تعالىٰ حالينِ

حالاً يجمعُ روحَهُ عليه ؛ تحقيقاً لتوحيده ، وتكميلاً لشهوده .

وحالاً يردُّ روحَهُ إليه ؛ هدايةً لخلقه ، وتوفيةً لحقِّهِ .

وهٰذا الجمعُ والردُّ من الأسرار الإلٰهية ، نبَّهَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ أن حالَهُ في مماته كحالِهِ في حياته ؛ لا يزالُ بروحِهِ عند اللهِ تعالىٰ ، وإذا

= والقلبَ يحزنُ » ، ولا يخفىٰ أن الغضب والمكر ، والفرح والحزن ، والرضا والسخط ، والدهاء والسذاجة ، واليقظة والغفلة ، والتصميم والتسيُّب ، والخوف والوجل ، والشجاعة والإقدام . تُعرفُ من نظرةٍ لعينَي صاحبها ، وقد اختصروا ما ذُكر وما لم يُذكر بقولهم : (العينان مرآة القلب) .

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٥/ ٧٤) ، علماً أن الإمام الغزالي قائل بالتفريق .

(٢) رواه أبو داود (٢٠٤١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) في (أ ، ج ، هـ ، و) : (الأمالي) بدل (كتاب الأمالي) .

سلَّمَ عليه مُسلِّمٌ ، أو جاءه زائرٌ . . ردَّ الله تعالىٰ إليه روحَهُ كما كان يردُّها في حياته .

وفيما ذكرناهُ من الروح الباصر كشفٌ لحقيقة ذلك ؛ فإنه ما من نفس إلا ويجمعُ الله فيه الروحَ الباصر إلى القلب مؤدِّياً إليه ما يراهُ في عالم الحسِّ[1] ، ثم يردُّ للعين من غير شعورٍ بنُقْلة ولا كيفيَّةٍ ولا زمان

فلو حلف حالفٌ أن روحَهُ الباصر ما زايلَ قلبه . . لم يحنث ، ولو حلف حالفٌ أنه ما زايل عينَهُ . . لم يحنث كذلك ؛ لا يلزمُ من ردِّ روحه إليه لردِّ سلام المُسَلِّم عليه ألا تكونَ باقيةً عند ربِّها ، ولا من بقائِها عنده ألا تكونَ مردودةً إلىٰ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم

تبصرة

[في أن النزول لا ينحصر بعالم الحسِّ]

إذا سمعتَ : « ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ . . . » الحديثَ[2] . . فلا يكن حظُّكَ منه النزولَ في عوالم الحسِّ ، واعتبرْ بذلك نزولَهُ سبحانه بروح ذكرِهِ إلىٰ سماءِ قلبِكَ ، ألا تراهُ كيف نبَّهكَ علىٰ هـٰذا بقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا . . . ﴾ الآيةَ [الطلاق : ١٠ـ ١١] ، ثم قال بعدَهُ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ . . . ﴾ الآيةَ [الطلاق : ١٢] ، فبدأَ بآيةِ نزول ذكرِهِ قبل آيةِ

---

(١) في (أ ، هـ ، ز) : (ينجمع) ، وفي (ج) : (تتجمع) ، وفي (و) : (يتجمع) بدل (يجمع الله) .

(٢) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو بتمام لفظه : « ينزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ الليل الآخرِ ، يقول : من يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يسألُني فأعطيَهُ ؟ من يستغفرُني فأغفرَ له ؟ » .

نزول أمره ؛ تنبيهاً على الاهتمام بالأوَّل ، وقال في الأوَّل ﴿ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق ١١] ، وقال في الثاني : ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق ١٢][1] ، وذلك يقتضي أن نزولَهُ بروح الذكرِ يثمرُ النور والهدايةَ ، وأن الله يتولَّىٰ إخراجَ العبد من ظلمتِهِ ، ولا يكلُهُ إلىٰ نفسه ، وأن نزولَهُ بروح الأمر يثمرُ الدَّلالةَ والتكليفَ بالعلم ، وكم بين من دُلَّ وبين من نُوِّرَ ، وبين من حُمِلَ وأُخرجَ وبين من حُمِّلَ وكُلِّفَ ؟!

تنبيه

[على اختصاص النزول بالثلث الأخير من الليل]

اختصاصُ نزولِهِ بالثلث الآخرِ من الليل له ظاهرٌ وباطن :

فأما الظاهرُ : فلأن الليلَ محلُّ النوم ، وتوفِّي الأنفس ، وترقِّيها إلى الله تعالىٰ ، وقد ذكرَ أربابُ العلم الطبيعيِّ أن النومَ المعتبرَ في صلاحِ البدن ثمانِ ساعات[2] ؛ وهي ثلثا الليل[3] ، فاقتضَتِ حكمة الربوبيَّة تخصيصَ النزول

(١) والمراد من الآيات قوله سبحانه : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .

(٢) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٢/ ٤٩٣) : (والحدُّ في النوم : أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، فالاعتدال في نومه ثماني ساعات في الليل والنهار جميعاً ، فإن نام هـٰذا القدر بالليل فلا معنىٰ للنوم بالنهار ، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار ، فحسْبُ ابنِ آدم إن عاش ستينَ سنةً أن ينقصَ من عمره عشرون سنة ؛ ومهما نام ثماني ساعات وهو الثلث فقد نقصَ من عمره الثلث) .

(٣) يعني : في بلاد الاستواء وما يقرب منها ؛ حيث الليل يساوي النهار ؛ كلٌّ منهما اثنا عشرة ساعة .

بالثلث الآخر ؛ رحمةً للعباد ، وتلطُّفاً بهم ؛ حتىٰ يكونوا قد تيقَّظوا ، وتأهَّبوا لقبول ما ينزلُ علىٰ قلوبهم من بركات نزولِهِ سبحانه

وأما الباطنُ : فلأن الحجاب هو ليلُ القلوب ، وهو ناشئٌ عن نوم القلب ، وفي الحديث : « يعقدُ الشيطانُ علىٰ قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا نامَ ثلاثَ عُقدٍ ، فإذا قامَ فذكرَ اللهَ انحلَّتْ عقدةٌ ، فإذا توضَّأَ انحلَّتْ عقدتانِ ، فإذا صلَّى انحلَّتْ ثلاثُ عقدٍ »[١]

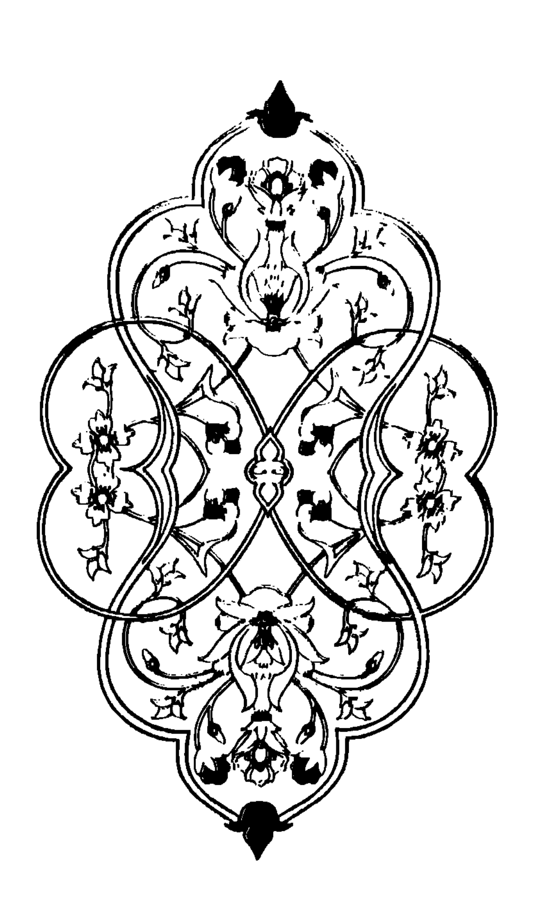
فالقلبُ إذا نامَ فليلُهُ عُقَدُ الشيطان[٢] ، فإذا تيقَّظَ فذكرَ الله تعالى انحلَّتْ عقدة ، فذهب ثلثُ ليله ، فإذا توضَّأَ انحلَّتْ عقدتانِ ، فذهبَ ثلثا ليلِهِ ، ووضوءُهُ استغفارُهُ[٣] ؛ قال تعالىٰ في قصَّةِ نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح : ١٠ـ١١] ، فإذا صلَّى انحلَّتْ عقدةٌ ؛ وهي العقدةُ الثالثة ، وهي ثلث ليلِ الحجاب الآخِرِ ، وهنالك يكون نزولُ روحِ الذكر عليه ، فتنحلُّ عقدُهُ كلُّها ، ويكشفُ له عن حقيقةِ أن الصلاةَ صلةٌ بين العبد وربِّهِ ، وعلامةُ الوصلة : كشفُ ليل الحجاب ، والتلذُّذُ بِرَوْحِ الخطاب .

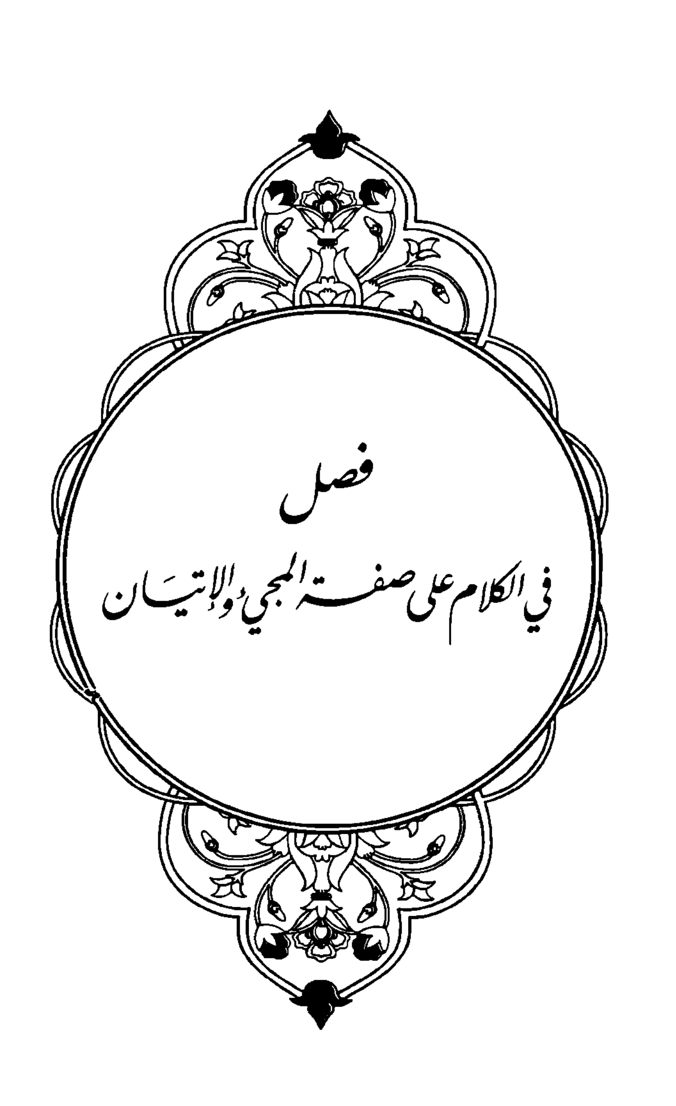
* * *

(١) رواه البخاري (١١٤٢) ، ومسلم (٧٧٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه : « فأصبحَ نشيطاً طيِّبَ النفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النفس كسلانَ » .

(٢) ولمَّا كان الشيطان لا تسلُّط له على الأنبياء قال عليه الصلاة والسلام : « تنامُ عيني ولا ينامُ قلبي » ، رواه البخاري (٣٥٦٩) ، ومسلم (٧٣٨) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

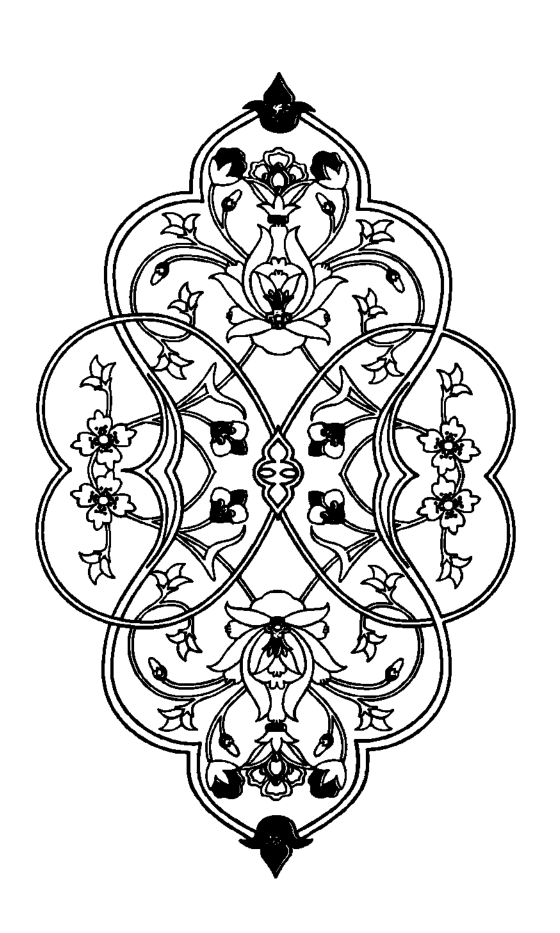
(٣) الجملة جواب عن سؤال مقدَّر ؛ تقديره : ربط الأثرُ حلَّ العقدة الثانية بالوضوء ، فما وضوء القلب ؟





فصل

في الكلام على صفة المجيء والإتيان



فصل

في الكلام على صفة المجيء والإتيان

ومن المتشابه : صفةُ مجيئِهِ سبحانه وتعالىٰ وإتيانِهِ

في نحو قولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ١٥٨] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] .

وهو أيضاً يرجعُ إلىٰ معنى المحكم ولا ينافيه ؛ لأن من المحكم قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ [النبأ : ٣٨] ، فإذا رددتَ إليه قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] . . علمتَ أنه يتجلّىٰ بوحدانيته في الروح ، وأن المجيءَ للروح ، ونسبةُ إليه تعالىٰ كما نسبَ نزول الروح إليه ؛ لتجلّيهِ فيه .

وتحقيقُهُ : أن الروحَ هو من عالم الأمر ، وقال تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وقد تقدَّمَ ذكرُ إتيانه في ظُلَلٍ من الغمام ، فلا حاجةَ لإعادته[1]

تحقيق

[في الكلام على الروح الجامع]

اعلمْ : أن الروح الأصليَّ الجامع لحقائق الصفاتِ في عالم الأمر في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾ . . هو روح القدس المحمَّدي ؛ استواءً ونزولاً ،

(١) انظر (ص ١٤٤) .

ومجيئاً وإتياناً ، وهو صاحبُ التجلّي بنور التوحيد في مظاهرِ السماواتِ والأرض ، وفي ظُلَلِ غمام الشرائع وصورِ الأعمال كما تقدمَ[1] ، وهو صاحبُ الرَّحِمِ الإيمانية ، والنَّسَبِ المحمَّدي ؛ بدليل قولِهِ تعالىٰ للرحم : « ألا ترضينَ أنَّ مَنْ وصلَكِ وصلتُهُ ، ومَنْ قطعَكِ بتتُّهُ ؟! »[2] ، مع قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « كلُّ نَسَبٍ يومَ القيامةِ منقطعٌ إلا نسبي »[3]

وإلىٰ رحمِهِ المتعلِّقة بالعرش تعرجُ الأرواحُ كلَّ ليلة عند النوم ؛ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . . ﴾ الآيةَ [الزمر ٤٢] ، فما كان منها طاهراً سجدَ تحت العرش كما في الحديث[4] ، فسجودُهُ وصلتُهُ لها[5] ، وبسيماها يُعرفُ ؛

(١) انظر (ص ١٦١) ، قال إمامنا الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٦٦) : (وربما سمَّينا الروحَ البشريَّ الذي هو مجرىٰ لوائح القدس الواديَ المقدَّس ، ثم هـٰذه الحظيرة فيها حظائرُ بعضُها أشدُّ إمعاناً في معاني القدس ، ولـٰكن لفظ الحظيرة يحيط بجميع طبقاتها ، فلا تظُنَّنَّ أن هـٰذه الألفاظ طاماتٌ غير معقولة عند أرباب البصائر) .

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٨) ، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي (ب) : (أن أصِلَ من وصلك ، وأقطعَ من قطعك) بدل (أن من وصلك وصلته ، ومن قطعك بتتُّهُ) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٢٧٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، قال الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٦/ ١٤٤) عند الحديث عن المقام المحمود : (وروي لنا : أنه يُنشِئ ناشئةً من العرش كهيئة الشجنة ، فيحملُهُ من الموقف إلى العرش) .

(٤) روى الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٣١٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (تعرجُ الأرواح إلى الله في منامها ؛ فما كان طاهراً سجد تحت العرش ، وما لم يكن طاهراً سجد قاصياً) يعني : عن العرش .
وروىٰ أيضاً (١٣١٣) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (إن النفوس تعرجُ إلى الله في منامها ؛ فما كان طاهراً سجد تحت العرش ، وما كان غيرَ طاهر تباعد في سجوده ، وما كان جُنباً لم يؤذن لها) .

(٥) الضمير في (لها) راجع إلى الرحم المتعلقة بالعرش .

بدليل قولِهِ تعالىٰ في المتَّصلين بالمعيَّةِ المحمَّدية ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح ٢٩] ، وما كان منها غير طاهرٍ ؛ بسبب التمريجِ الذي حصلَ له من الشيطان المخلوق من مارجٍ من نار . . لم يؤذنْ له ؛ لأنه قطعَها باتِّباع العدوِّ ، فيسجدُ قاصياً ، فبُعْدُهُ عنها ثمرةُ قطعِهِ لها ، وعدمُ الإذن له هو قطعُ الله تعالىٰ له[1]

تنبيه

[علىٰ أن أسماء العباد الحَسَنة راجعة إلىٰ أسمائه تعالى الحُسْنىٰ]

هـٰذه هي الرَّحِمُ التي اشتُقَّ لها اسمٌ من اسمه (الرحمـٰن) صاحبِ الأسماء الحسنىٰ في قوله تعالىٰ ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، فما مِنْ اسم حَسَنٍ للعبد إلا وهو مشتقٌّ من أسمائه تعالى الحسنىٰ ، وإليها مرجعُهُ ، واشتقاقُهُ منها علىٰ حسَبِ صلتِهِ للرحم الإيمانيَّةِ المحمَّدية .

وعلامةُ صلتِهِ لها : صدقُ مودَّته لإخوانِهِ المؤمنين ، وقوَّةُ أُلْفتِهِ بهم وانجماعُهُ عليهم .

وعلامةُ قطعِهِ لها : مفارقتُهُ لهم ، وإليه أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ . . . ﴾ الآيةَ [آل عمران : ١٠٥] ، مع قولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

فانظر سببَ التفرُّقِ كيف قطعَ عنهم نسبةُ المحمَّديِّ بقوله تعالىٰ : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ ﴾ ، ونبَّهَ علىٰ أنهم قد قُطعوا عن الله تعالىٰ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) في (ب) زيادة : (والله أعلم) ، وهـٰذا موطن من مواطن أسرار اتِّباع السنة التي أُشير إليها تعليقاً (ص ٢٣٢) .

ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فتحقَّقَ بذلك قولُهُ : « مَنْ قطعَكِ بَتَتُّهُ »[١]

إشارة

[إلىٰ صلة الرحم للروح المحمَّدية]

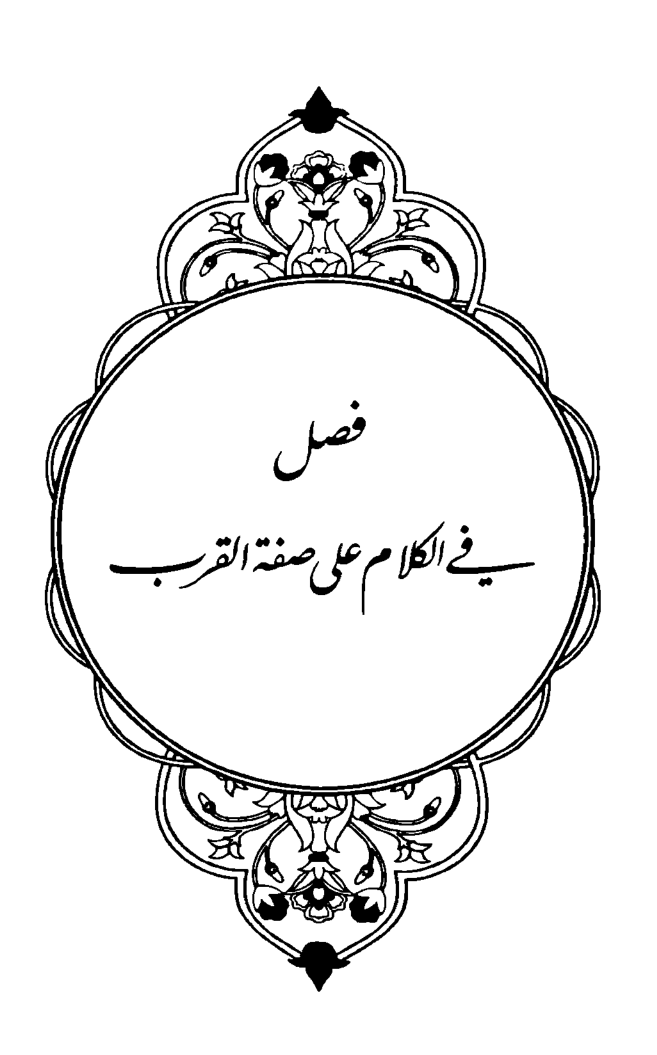
وصلةُ الرحم للروح المحمدية ، والرحم الإيمانية ، وسجودُها علىٰ حسَبِ ما فُطرَتْ عليه في أصل نشأتها . . من سرِّ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، ورثَتْهُ من نورِها .

وإرثُها من نورها **تارةً يكون بسبب** ؛ وهو القيامُ بحقِّها ، **وتارةً يكون بنَسَبٍ** ؛ وهو امتزاجُها بالروح الإيمانيَّةِ في قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة : ٢٢]

فمن قامَ بحقِّ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) فهو أحقُّ بها ، وهو صاحبُ سبب ، ومن أُيِّدَ بروحِها فهو صاحبُ نسب ، وقد ذكرَهما الله تعالىٰ في قوله : ﴿ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾ [الفتح : ٢٦] .

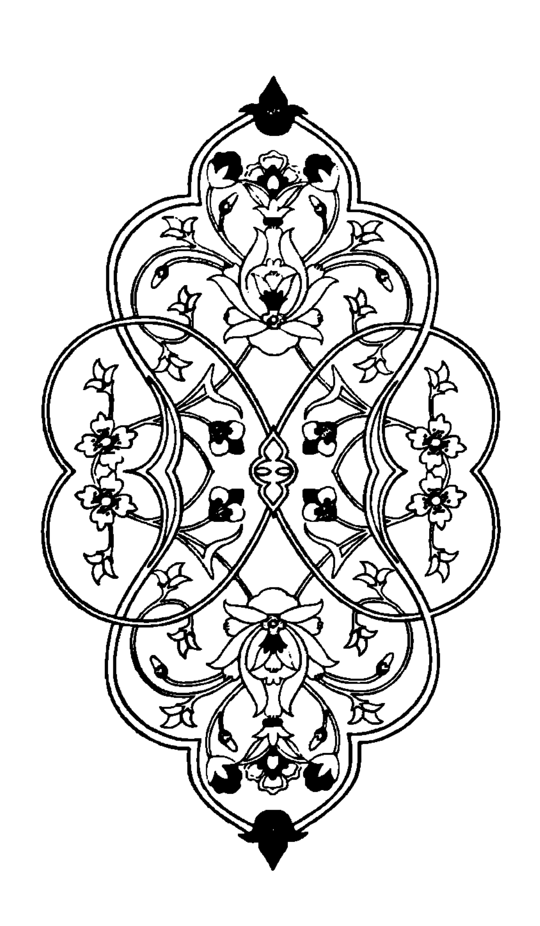
* * *

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٩٨) .



فصل

في الكلام على صفة القرب



فصل

في الكلام على صفة القرب

ومنها : صفةُ القرب :

في قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق ١٦] ونحوه ، يفهمُكَ أن قولَهُ تعالىٰ : « وإنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً »[١] . . ليس علىٰ ظاهره ؛ لأن قربَهُ سبحانه من العبد لا يُزالُ[٢] ، ولا تتفاوتُ درجاتُهُ ، وإنَّما البعدُ صفةُ العبد ، وبعدُهُ من الله تعالىٰ : هو حجابُهُ عن شهود قُربِ الله تعالىٰ منه ، وشهودُ قربِهِ علىٰ حسَبِ نور الإيمانِ والاستجابة ، وبهٰذا يكون تقرُّبُ العبد إلىٰ ربِّهِ عز وجل .

وأما تقرُّبُ الربِّ سبحانه إلى العبد : فإرشادُهُ لنوره بنورِهِ .

وقد جمعَ اللهُ تعالىٰ ذلك كلَّهُ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

---

(١) انظر تخريجه (ص ١٣٦ـ١٣٧) .

(٢) كذا ضُبطت الكلمة في (ج) أي : لا يرتفع ، فهو باقٍ ؛ إذ صفاته تعالىٰ كذاته ، لا يجوز فيها التغيُّر أو التبدُّل ، وكذا معيَّته تعالىٰ لا تغيُّر فيها ولا تبدُّلَ أيضاً ، وإنما تختلف بالنسبة للعبد ؛ فهو تعالىٰ مع المؤمنين بالنصرة والتأييد ، والأُنس والطمأنينة ، ومع غيرهم بالإبعاد والخذلان والاستدراج ، والقلق والإيحاش ، أو أن تقرأ (لا يَزال) بمعنى البقاء ، ولٰكن هٰذا مخالف لاصطلاحهم في مقابلة البقاء بما لا يزال .

تنبيه

[على حقيقة القُرب منه سبحانه]

قولهُ تعالىٰ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة ٨٥] يدلُّ على أن قربَهُ سبحانه من عبده قربٌ حقيقيٌّ ، مع تعاليهِ عن المكان ؛ لأنه لو كان القُربُ يُرادُ به قربُهُ بعلمه أو قدرتِهِ وصفاته.. لقالَ (ولٰكن لا تعلمون) ، ونحوه .

فقولُهُ : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ يدلُّ على القرب الحقيقيِّ المدرَكِ بالبصر[1] ،

---

(١) في (ب) : (بالبصيرة) ، وسقط منها قوله : (يدلُّ على أن قربَهُ سبحانه من عبده قربٌ حقيقيٌّ...) ، ولعله تصرُّف في العبارة ؛ لخوف التصريح بالإبصار ، مع أنه تقدم للمصنف أن إبصار العبد لربه لا يكون لحقيقة ذاته ، وأن رؤيته تعالىٰ مخلوقة في قلب العبد ؛ إذ هي راجعة إلىٰ معنى الإدراك ، ومن أدرك هٰذا لم يتهيَّب أن يقول : هو معنا سبحانه بذاته ؛ لأن هٰذه المعية لا توصف بقرب مكان أصلاً

فإن قيل : القرب هنا بالعلم ، وهو كالمعية ، وقد أجمعوا علىٰ أنها بالعلم .

فالجواب : المأثور في تفسير الأقربية أنها علىٰ حالها بما يليق بجلال الله تعالىٰ ، فاقطعْ أنها ليست قرب مكان ، وبعد ذلك تألَّهْ في فهمها ؛ قال الإمام السيوطي في « الدر المنثور » (٧/ ٥٩٢) : (أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نزلَ اللهُ من ابن آدم أرفعَ المنازل ؛ هو أقربُ إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا »

وأخرج ابن المنذر عن جويبر قال : سألت الضحاك عن قوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، قال : ليس شيءٌ أقربَ إلى ابن آدم من حبل الوريد ، والله أقربُ إليه منه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ قال : عرقُ العنق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ قال : نياطُ القلب وما حمل) .

ثم ما صحَّ نقلاً وعن العلماء أنه تعالىٰ معنا بعلمه لا شك فيه ، وقد قرَّر المناطقة : أن القضية=

والبصرُ لا تعلُّق لإدراكه بالصفات المعنوية[1] ، وإنَّما يتعلَّق بالحقائق المرئية[2] .

وكذا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [قَ : ١٦] يدلُّ علىٰ ذلك ؛ لأن (أفعل من) يدلُّ على الاشتراكِ في القُرب[3] ، ولا اشتراكَ بين قُربِ الصفات وقُربِ حبل الوريد[4] .

وعلىٰ هٰذا : فالقُرب قربٌ حقيقيٌّ روحاني ؛ بدليلِ قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : من الذين يُكشفُ لهم عن نعيم القربِ الربَّاني . . ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٩] ، فجعلَ قُربَهم وجدانَهم للروح والريحان ، وقد قُرِئَ بضمِّ الراء وفتحها[5] ، وقد تقدَّمَ في حقيقة الرؤيةِ

الجزئية الصادقة لا تكذِّبُ القضية الكلية لها ؛ فكونه معنا بعلمه لا ينفي معيَّته بإرادته وسمعه وبصره وقدرته ، كما لا ينفي معيَّته بذاته الجليلة علىٰ ما يليق به تعالىٰ ، وبه تعلم قصور نظر من يقول : علمه تعالىٰ صفة كاشفة يُتصور فيها أنها متعلقة ولا تنفك عنه ! خلافاً لغيرها من صفات الذات ، وهٰذا جهل بالله تعالىٰ ، وهٰذا القائل شبَّه من حيث ظنَّ أنه نزَّهَ .

وحاذر أن تظنَّ أن علمه سبحانه ناشئ عن سمعه للأشياء وبصره لها ، وأن علمه بها تولَّد عنهما ، بل علمُهُ وسمعه وبصره وإحاطته كلُّ ذلك في رتبة واحدة تليق بالقديم .

(١) **والصفة المعنوية هنا** : الأقربية ؛ وهي كونه تعالىٰ قريباً ، علىٰ اعتبار القُرب صفة معنىً .

(٢) اتفق المتكلمون القائلون بإثبات الصفات علىٰ أن تعلُّق السمع والبصر هو بالموجود المسموع المبصَر ، ولا يجوز تعلُّقها بالمعدوم ولا المعتبر ؛ إذ لا وجود حقيقيَّ لهما ، ويزيد المعتبر على المعدوم بنسبة الثبوت فقط .

(٣) **يعني** : في أصل استعماله الحقيقي ، ولٰكن يستعمل مجازاً من غير اشتراط الاشتراك ؛ كقولك : العسل أحلىٰ من الخل ، والصيف أحرُّ من الشتاء ، وانظر « همع الهوامع » (٣/ ٩٨) .

(٤) قال العلامة إبراهيم الشاذلي في تعليل ذلك ؛ كما نقل عنه الإمام الشعراني في « اليواقيت والجواهر » (١/ ٦١) : (لأن قرب الصفات معنويٌّ ، وقرب حبل الوريد حسي ؛ ففي نسبة أقربيَّتِهِ تعالىٰ إلى الإنسان من حبل الوريد الذي هو حقيقيٌّ . . دليلٌ علىٰ أن قربه تعالىٰ حقيقيٌّ ؛ أي : بالذات اللازم لها الصفات) .

(٥) قال العلامة أبو حيان في « البحر المحيط » (٨/ ٢١٥) : (وقرأ الجمهور : فرَوْحٌ ، بفتح=

ما يكشفُ عن معنى الإدراك للقُرب بالبصر[1]

تبصرة

[في حكمة مجيء الأقربية من حبل الوريد في هـٰذه الآية الكريمة]

حكمةُ مجيء التفضيلِ لقُربه علىٰ حبل الوريد : أنه تقدَّمَ ذكرُ الوساوس ، ووساوسُ النفس من إلقاءِ الشيطان ، ومجراهُ الأوردةُ ؛ بدليل قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الشيطانَ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدمِ »[2] ، ومجرى الدمِ : هو عروقُ الأوردة ونحوها ، فنبَّهَ بقوله سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] علىٰ أنه سبحانه أقربُ إليه من مجرى الوساوس[3]

= الراء ، وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ونوح القارئ ، والضحاك ، والأشهب ، وشعيب بن الحبحاب ، وسليمان التيمي ، والربيع بن خثيم ، ومحمد بن علي ، وأبو عمران الجوني ، والكلبي ، وفياض ، وعبيد ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ، ويعقوب بن صيان ، وزيد ، ورويس عنه : بضمها .
قال الحسن : الروح : الرحمة ؛ لأنها كالحياة للمرحوم ، وقال أيضاً : روحه تخرج في ريحان ، وقيل : الروح : البقاء ؛ أي : فهـٰذان له معاً ؛ وهو الخلود مع الرزق) .

(١) انظر (ص ١٦٥) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) من حديث سيدتنا صفية بنت حيي رضي الله عنها .

(٣) واستكمالاً للبحث : أضع بين يديك هـٰذه القطعة النفيسة ، والتي تضمَّنت النقلَ عن الإمام المصنف واستُشهد فيها بقوله ؛ وهي مناظرةٌ وقعت سنة (٩٠٥ هـ) بين الشيخ بدر الدين العلائي الحنفي وبين الشيخ إبراهيم المواهبي الشاذلي ، وألَّف فيها رسالة نقلها الإمام الشعراني في كتابه « اليواقيت والجواهر » (١/ ٦٠) ، قال : (وأنا أذكر لك عيونَها لتحيط بها علماً ، فأقول وبالله التوفيق ، ومن خطه نقلتُ :
قال الشيخ بدر الدين العلائي الحنفي والشيخ زكريا والشيخ برهان الدين بن أبي شريف وجماعة : الله تعالىٰ معنا بأسمائه وصفاته ، لا بذاته ، فقال الشيخ إبراهيم : بل هو معنا بذاته وبصفاته . =

فقالوا له ما الدليلُ على ذلك ؟ فقال قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ ، ومعلومٌ أن « الله » عَلَمٌ على الذات ، فيجبُ اعتقادُ المعية الذاتية ذوقاً وعقلاً ؛ لثبوتها نقلاً وعقلاً
فقالوا له أوضحْ لنا ذلك ، فقال : حقيقةُ المعية : مصاحبةُ شيء لآخر ، سواءٌ أكانا واجبين ؛ كذات الله تعالىٰ مع صفاته ، أو جائزين ؛ كالإنسان مع مثله ، أو واجباً وجائزاً ؛ وهو معيةُ الله تعالىٰ لخلقه بذاته وصفاته المفهومة من قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ ، ومن نحو ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ؛ وذلك لما قدمناه من أن مدلول الاسم الكريم « الله » إنما هو الذات اللازمة لها الصفات المتعيِّنة ؛ لتعلقها بجميع الممكنات ، وليست كمعيةِ متحيزين ؛ لعدم مماثلتِهِ سبحانه وتعالىٰ لخلقه الموصوفين بالجسمية المفتقرة للوازمها الضرورية ؛ كالحلول في الجهة الأينيَّة الزمانية والمكانية ، فتعالت معيتُهُ تبارك وتعالىٰ عن الشبيه والنظير ؛ لكماله تعالىٰ وارتفاعه عن صفات خلقه ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾
قال : وبهٰذا الذي قررناه انتفى القول بلزوم الحلول في حيِّز الكائنات على القول بمعية الذات، مع أنه لا يلزمُ من معية الصفات دون الذات انفكاكُ الصفات عن الذات ولا بُعدها وتحيزها وسائر لوازمها ، وحينئذٍ فيلزم من معية الصفات لشيء معيةُ الذات له وعكسه ؛ لتلازمهما مع تعاليهما عن المكان ولوازم الإمكان ؛ لأنه تعالىٰ مباينٌ لصفات خلقه تبايناً مطلقاً
وقد قال العلامة القونوي في « شرح عقائد النسفي » : إن قول المعتزلة وجمهور النجارية : إن الحق تعالىٰ بكلِّ مكان بعلمه وقدرته وتدبيره دون ذاته . . باطلٌ ؛ لأنه لا يلزمُ من علم مكاناً أن يكون في ذلك المكان بالعلم فقط إلا إن كانت صفاته تنفكُّ عن ذاته كما هو صفة علم الخلق ، لا علم الحق . انتهىٰ .
علىٰ أنه يلزمُ من القول بأن الله تعالىٰ معنا بالعلم فقط دون الذات . . استقلالُ الصفات بأنفسها دون الذات ، وذلك غير معقول .
فقالوا له : فهل وافقك أحدٌ غيرُ القونوي في ذلك ؟ فقال : نعم ، ذكر شيخُ الإسلام ابن اللبَّان رحمه الله في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أن في هٰذه الآية دليلاً علىٰ أن أقربيَّتَهُ تعالىٰ من عبده قربٌ حقيقي . . .) ، ونقل كلام المصنف هنا
ثم قال الإمام الشعراني في تمام نقل هٰذه المناظرة : (قال الشيخ إبراهيم : وبما قررناه لكم انتفىٰ أن يكون المراد قربه تعالىٰ منَّا بصفاته دون ذاته ، وأن الحقَّ الصريح هو قربه منَّا بالذات أيضاً ؛ إذ الصفات لا تعقلُ مجرَّدة عن الذات المتعالي كما مرَّ .
فقال له العلائيُّ : فما قولكم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ؟ فإنه يوهمُ أن الله =

وقد قلتُ في ذلك [من المتقارب]

تشاغلَ عنَّا بوسواسِهِ ... وكانَ قديماً لنا يطلبُ
محبٌّ تناسىٰ عهودَ الهوىٰ ... وأصبحَ في غيرِنا يرغبُ
ونحنُ نراهُ ونملي لهُ ... ويحسبُنا أنَّنا غُيَّبُ
ونحنُ إلى العبدِ مِنْ نفسِهِ ... ووسواسِ شيطانِهِ أقربُ

* * *

= تعالىٰ في مكان .

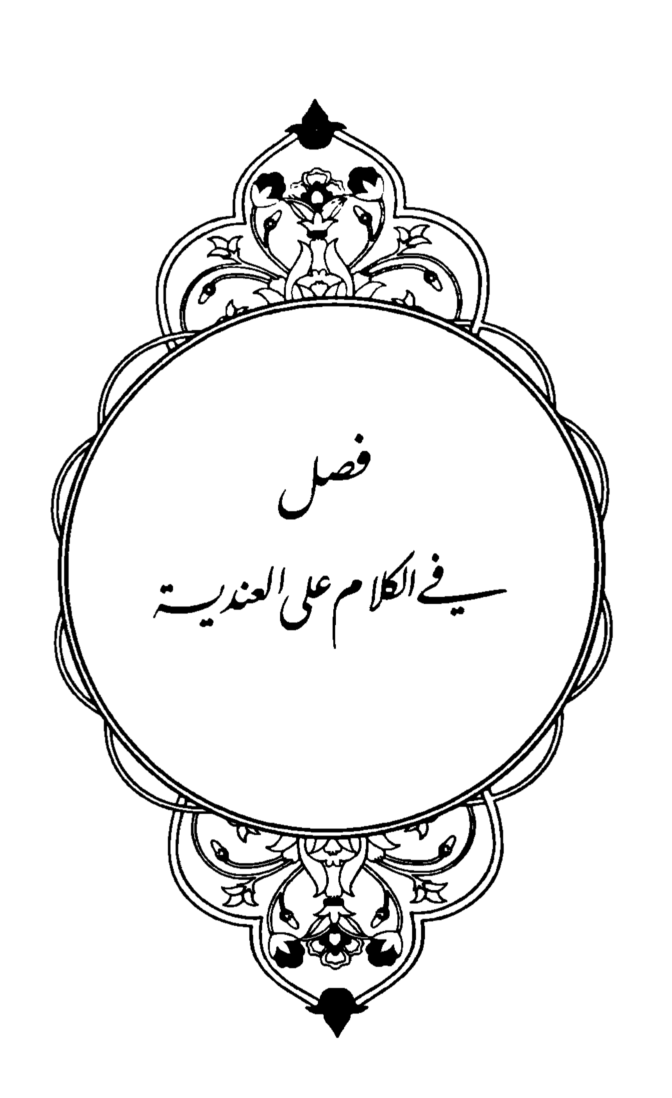
فقال الشيخ إبراهيم : لا يلزمُ من ذلك في حقِّهِ تعالى المكان ؛ لأن « أين » في الآية إنما أطلقَتْ لإفادة معيّةِ الله تعالىٰ للمخاطبين في الأين اللازمِ لهم ، لا له تعالىٰ كما قدمنا ، فهو مع صاحبِ كلِّ أينٍ بلا أين . انتهىٰ .

فدخل عليهم الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي ، فقال ما جمعَكم هنا ؟ فذكروا له المسألة ، فقال : تريدون علمَ هـٰذا الأمر ذوقاً أو سماعاً ؟ فقالوا : سماعاً

فقال معيتُهُ تعالىٰ أزليّةٌ ليس لها ابتداء ، وكانت الأشياء كلُّها ثابتةً في علمه أزلاً تعيُّناً بلا بداية ؛ لأنها متعلقة به تعلُّقاً يستحيلُ عليه العدم ؛ لاستحالة وجود علمه الواجب وجودُهُ بغير معلوم ، واستحالة طريان تعلُّقِهِ بها ؛ لما يلزمُ عليه من حدوث علمه تعالىٰ بعد أن لم يكن ، وكما أن معيَّتَهُ تعالىٰ أزلية كذلك هي أبديَّةٌ ليس لها انتهاء ، فهو تعالىٰ معها بعد حدوثها من العدم عيناً علىٰ وَفْقِ ما في العلم تعيُّناً ، وهـٰكذا يكون الحال أينما كانت في عوالم بساطتها وتركيبها ، وإضافتها وتجريدها ، من الأزل إلىٰ ما لا نهاية له .

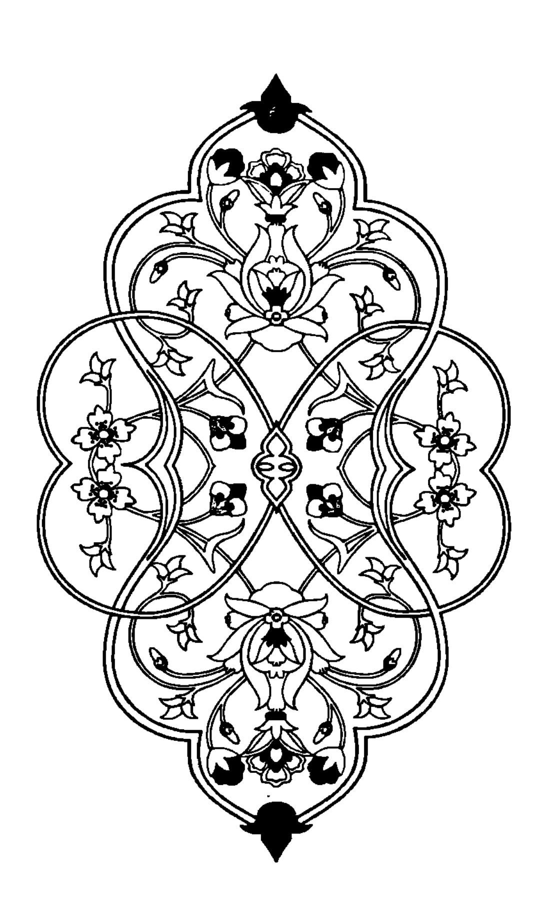
فأدهشَ الحاضرين بما قاله ، فقال لهم : اعتقدوا ما قرَّرتُهُ لكم في المعية واعتمدوه ، ودعوا ما ينافيه . . تكونوا منزِّهينَ لمولاكم حقَّ التنزيه ، ومخلِّصينَ لعقولكم من شبهات التشبيه ، وإن أراد أحدُكم أن يعرف هـٰذه المسألة ذوقاً . . فليسلِّمْ قيادَهُ لي أخرجْهُ عن وظائفه وثيابه وماله وأولاده وأدخلْهُ الخلوة وأمنعْهُ النوم وأكل الشهوات ، وأنا أضمنُ له وصولَهُ إلىٰ علم هـٰذه المسألة ذوقاً وكشفاً .

قال الشيخ إبراهيم : فما تجرَّأَ أحدٌ أن يدخل معه في ذلك العهد ، ثم قام الشيخ زكريا والشيخ برهان الدين والجماعة فقبّلوا يدَهُ وانصرفوا . انتهىٰ) .



فصل

في الكلام على العندية



فصل

في الكلام على العندية

ومن المتشابه : لفظةُ (عند) :

وقد جاءَتْ منسوبةً إلى الله تعالىٰ في الكتاب والسنة كثيراً ، وهي في اللغة تستعملُ لإفادة الملكِ ، ولإفادة الحضور(1) ، ولا اشتباهَ في استعمالها لله تعالىٰ لإفادة الملك ، وإنما الاشتباهُ في إفادتِها للحضور .

واعلمْ : أن حضرةَ الله سبحانه ليست حضرةً مكانية ؛ لتعاليه عن المكانِ كما تقدم ، بل حضرتُهُ وراء حضراتِ السماوات والأرضِ ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٩] ، فعطفَ ﴿ مَنْ عِندَهُۥ ﴾ علىٰ ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ ، والعطفُ يقتضي المغايرة ، وهي مع كونها وراء السماوات والأرض فهي مهيمنةٌ علىٰ حضراتِ السماوات والأرض ، ومحيطةٌ بها ، فما من حضرة مكانيَّةٍ إلا وحضرةُ الله محيطةٌ بها ؛ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] .

وإذا تقرَّرَ ذلك : فعنديتُهُ سبحانه متعدِّدةٌ بحسَبِ الإضافة ، متَّحدةٌ بحسب الحقيقة .

---

(1) ثم الحضورُ : إما أن يكون حسياً ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ [النمل : ٤٠] ، أو معنوياً ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النمل : ٤٠] ، كذا قال العلامة المحقق ابن هشام في « مغني اللبيب » (١/٢١٣) ، وزاد أنها تكون للقرب ؛ ومثَّل له بقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [صٓ : ٤٧] .

فأما تعدُّدُها فلأنه ما من اسمٍ من أسمائه تعالىٰ إلا وله في تجلِّيهِ عنديَّةٌ تخصُّهُ ، يشهدُها أربابُ القلوب الذاكرةِ له ، وفيها مجالسُ المناجاة لهم ، ويخلعُ عليهم فيها خلعَ الرضا منه[1] ، ومن سلطانِ ذلك الاسمِ تخرج الربوبيَّةُ لأهله ، وتواقيعُ الولاية بذكره[2]

وأما اتحادُها بحسب الحقيقة : فـ (عندُ اللهِ)[3] هو موطنُ استقرارِ عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

ومعنىٰ ذلك : أن عنديَّةَ الله ما زالَتْ ولا تزالُ محيطةً بعبده[4] ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ، ولـٰكنْ رُبَّ عبدٍ دام له هـٰذا الشهود ، فهو لا يزالُ مستقرّاً عند الله في محياهُ ومماتِهِ ، ومبدئِهِ وعَوْده ، وإن اختلفَتْ عليه الأحوال ، ومعنىٰ (تَوَفِّي هـٰذا العبد بالموت إلى الله) : ترقِّيهِ

---

(١) في (هـ ، و) : (عنه) بدل (منه) .

(٢) في (هـ ، و) : (تخرج الربوبية لأهله فيها ، وتواقيع الولاية بذكرها) ، وفي (ج) : (تُخْرِجُ الربوبيةُ لأهله تواقيعَ الولاية بذكره) .
وقوله : (تخرج الربوبية لأهله) يعني : أولياءه سبحانه ، وفيه إشارة لمقام التصريف بإذن الله علىٰ حسب تجلِّي كلِّ اسمٍ ، وهو من مظاهر خلافة الإنسان الكامل في الأرض .
وقوله : (تواقيع الولاية) عبارة تفهم بقول الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله تعالى : (الذكرُ منشور الولاية ؛ فمن وُفِّقَ للذكر فقد أُعطيَ المنشور ، ومن سُلبَ الذكرَ فقد عُزِلَ) ، رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٩٩) .

(٣) قوله : (عندُ الله) المرادُ حكاية لفظة (عند) ، وهي هنا في موضع الرفع على الابتداء ؛ قال العلامة المحقق ابن هشام في « مغني اللبيب » (١/ ٢١٣) : (كلُّ كلمة ذُكرت مراداً بها لفظُها . . فسائغٌ أن تتصرَّفَ تصرُّفَ الأسماء ، وأن تعربَ ويُحكىٰ أصلُها) .

(٤) فهـٰذه العنديات الراجعة لتجلِّيات الأسماء الحسنىٰ أزلاً وأبداً . . موجودة ، وعند العارفِ البصير مشهودة ، فالغفلةُ عن شهودها لا تدلُّ علىٰ عدمها ، ولا يخفاك أن شهودَها راجعٌ لصفة القدرة ؛ إذ هو معنىً يخلقُهُ الله تعالىٰ في قلب العبد يدرك به تلك الحقيقةَ السرمدية .

في مراتبِ التجلِّي ، وحقائقِ الكشف ، وتعاقبِ مظاهر العنديَّة على روحِهِ مظهراً بعد مظهر .

ورُبَّ عبدٍ شهدَ في البدء عنديَّةَ الله له ، ثم حُجبَ عنه مكانُهُ من الله بسبب كثرةِ تخليطه وظلمةِ اكتسابه ، فذلك مستودعٌ استودعَهُ اللهُ لرُسُلِ أنبيائه وملائكتِهِ الموكَّلين به[1] ، فلا يزالُ محجوباً إلى الأجلِ المقدَّر له ، فيُردُّ إلى الله ؛ كما قيل[2] : [من الطويل]

وما المالُ والأهلونَ إلا وديعةٌ ... ولا بدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ

وترجعُ حقيقة الردِّ إلى كشف الحجاب ، وتجلِّي إحاطةِ الله به ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ١٦-٢٢] ، هنالك يشهدُ أنه لا مستقرَّ إلا عندَ الله .

وقد نظمتُ في ذلك : [من البسيط]

قد كنتُ أحسبُ أنِّي عن فِنائِكُمُ ... نـاءٍ وأنَّ بـأرضِ اللهِ مُتَّسَعـا

ولم يزلْ لطفُكم بي تحتَ حُجْبِكُمُ ... حتى رفعتُم حجابَ العزِّ فارتفعا

فلاحَ أنِّي مقيمٌ ما برحتُ على الـ ... أبوابِ عبداً وأنَّ اللطفَ ما انقطعا

---

(١) في (أ ، ب ، هـ) : (أسبابه) بدل (أنبيائه) قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

(٢) البيت لسيدنا لبيد العامري رضي الله عنه في رثاء أخيه أربد ، ومطلع قصيدة البيت :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وانظر « ديوانه » بشرح الطوسي (ص ١١٠) .

إشارة

[إلىٰ أهل العندية وأهل الحجب]

قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام ٦١] تنبيهٌ على العباد المخصوصينَ من أهل العنديَّةِ والاستقرار

وقوله : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : ٦١] خطابٌ للمحجوبينَ من المستودعين للحفظة(١) ؛ ولهـٰذا قال ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ ﴾ [الأنعام : ٦١ـ٦٢] .

ثم حذَّرَ المكذِّبَ بذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام ٦٦ـ٦٧] ، نبَّهَ علىٰ أن مستقرَّ الأنباء عنده ، وأنه يظهرُ بزوال حجابِ البصيرة . . بقوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ٧ـ١٣] .

تنبيه

[علىٰ ما ينفد وما يبقىٰ]

قوله تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] **له ظاهرٌ وحقيقة :**

فظاهرُهُ : أن ما عندَ العبدِ من المال والولد وزينة الدنيا . . بصدد الزوالِ والنفاد ، وما عندَ اللهِ من الجزاء علىٰ تقديرِ إنفاقه . . باقٍ لا ينفدُ .

وأما حقيقتُهُ : فكلُّ شيء له نسبتانِ : نسبةٌ عارضة ؛ وهي نسبتُهُ للعبيد ، ونسبةٌ أصليّة ؛ وهي نسبتُهُ لله ؛ فمعنىٰ كونِهِ عند العبد : هو نسبتُهُ إليه ؛ وهو فانٍ زائل ، ومعنىٰ كونِهِ عند الله : هو نسبتُهُ إليه ؛ وهو باقٍ لا يزولُ .

---

(١) في (أ ، ج) : (حجاب) بدل (خطاب) .

والمرادُ : أن العبد يخرِجُ الأشياءَ كلَّها عنه ، ويمحو نسبتها إليه بنسبتِها إلى الله وقد بقيَتْ له ، ومتىٰ نسبَها إلىٰ نفسه وقدرتِهِ نفدتْ ؛ قال تعالىٰ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا. . . ﴾ الآيةَ [يونس : ٢٤] ، فعند ظنِّ القدرة عليها أُخذَتْ وزالت

وقال تعالىٰ في ضدِّهِ ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [القصص : ٧] ، فأرشدَها عند الخوف أن تلقيَهُ من يدها ، وتخرجَهُ عن حفظِها ؛ فإن الله حينئذٍ يتولاه بحفظِهِ ، ويقيهِ برحمته

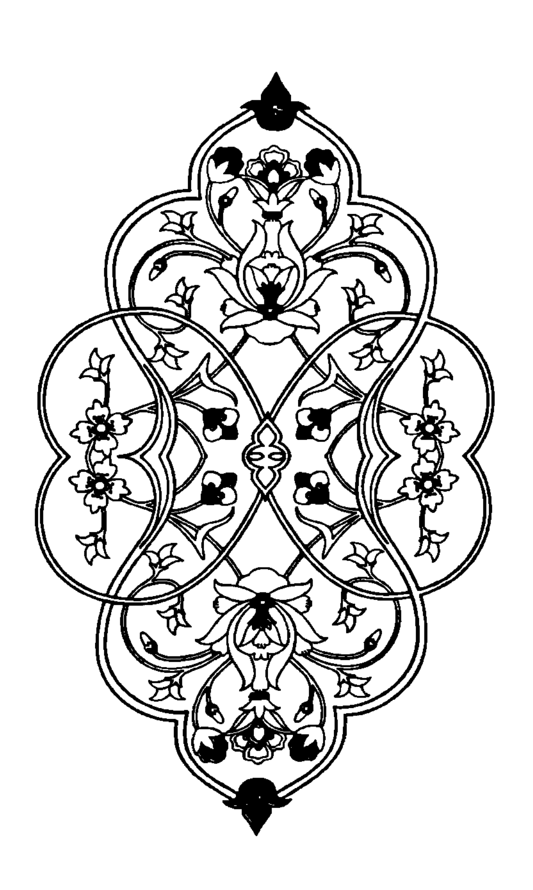
تربية

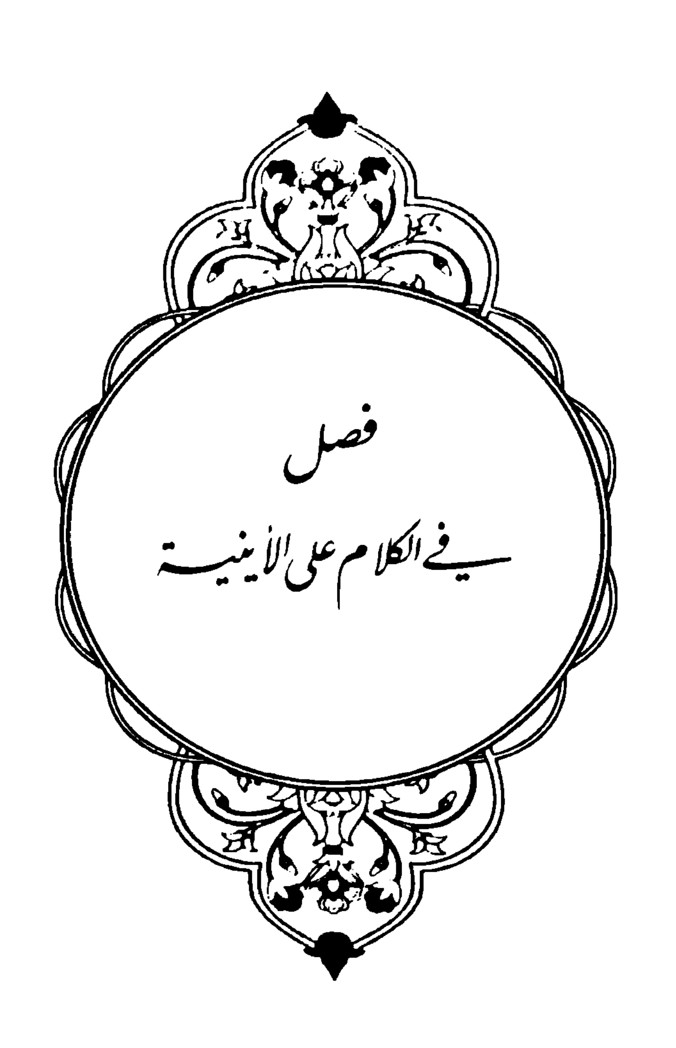
[للعبد بحسن إقباله علىٰ مولاه تعالىٰ]

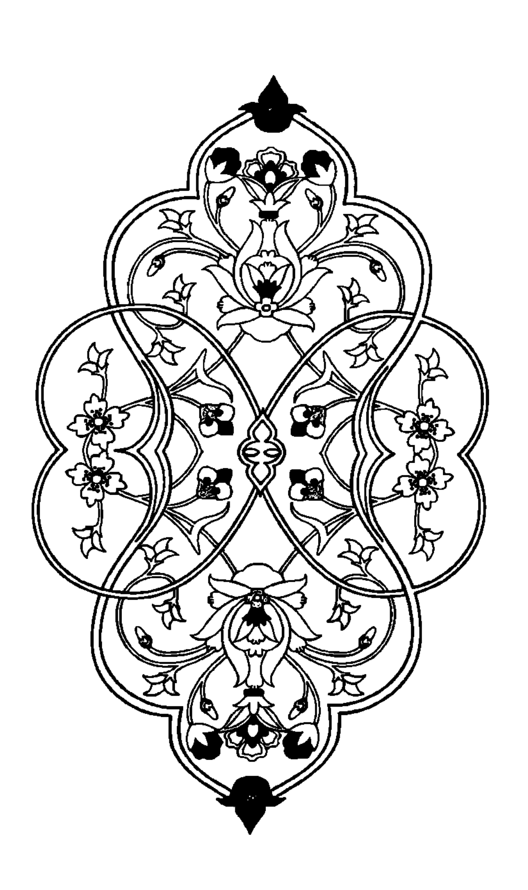
قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت : ١٧] فيه تلطُّفٌ بعبده في استدعائه للإقبال عليه بالإعراضِ عن سواه ؛ لأن العبدَ مجبولٌ على الافتقار للرزق ، وإيثارِهِ بالطلب ، فلو جُعلَ الرزقُ لا يُكتسبُ إلا بالإقبال على الأسباب . . شغلَهُ ذلك عن الله ، فكان من لُطفِ الله بعبده أنه جعلَ ابتغاءَ الرزق بالإقبال عليه ؛ إقبالاً يشهدُ به العبدُ قُربَ الله منه ، وإحاطتَهُ به ، فيكون العبدُ بذلك في حضرتِهِ وعنده .

ومتىٰ بلغ العبدُ إلىٰ هـٰذا جاءَهُ الرزق من حيث لا يحتسبُ ، ومن حيث لا يكتسبُ ؛ ألا ترىٰ مريمَ لمَّا تركت الأسبابَ ، وأقبلَتْ على الله بلزوم المحراب . . كان زكريا عليه السلام كلَّما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنىٰ لك هـٰذا ؟! قالت : هو من عند الله ؛ إن الله يرزقُ من يشاء بغير حساب .

* * *




فصل
في الكلام على الآنية



فصل

في الكلام على الأينية

ومن المتشابه : لفظةُ (أينَ) :

وهي كلمةٌ يستفهمُ بها عن الحيِّز المكاني ، وقد وردَ بها الكتابُ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، والسنةُ في قوله صلى الله عليه وسلم للجارية « أينَ اللهُ ؟ » ، فقالت في السماء[١] ، ومن المعلوم أن التحيُّزَ على الله محال .

فأمّا (أين) في الآية فإنها أُطلقَتْ لإفادة معيَّة الله للمخاطبينَ في الأين اللازمِ لهم ، لا له سبحانه ، فهو مع صاحبِ كلِّ أينِ بلا أينِ .

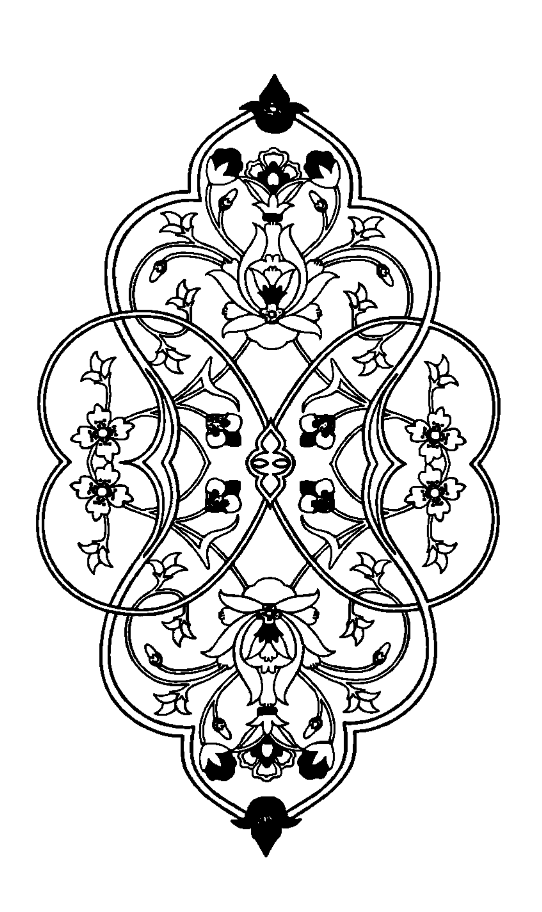
وأما إطلاقه في حديث الجارية : فقد تقدم الكلام عليه في فصل (الكلام على الجهة) و(الإسراء)[٢]

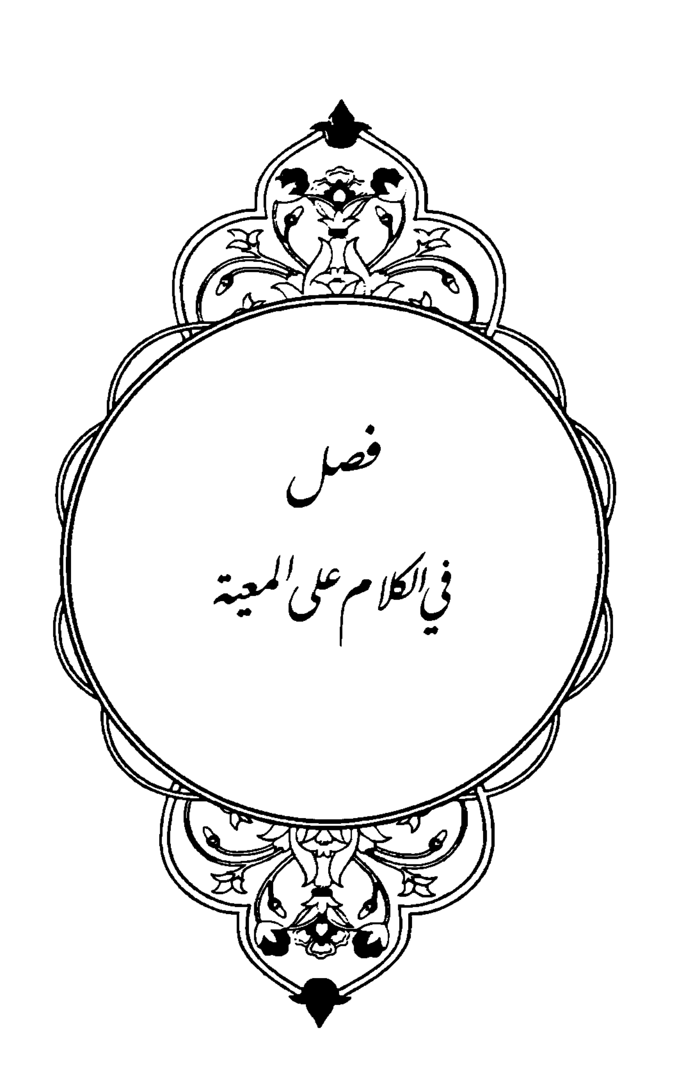
* * *

---

(١) تقدم تخريجه والحديث عنه (ص ٢٧٩) .

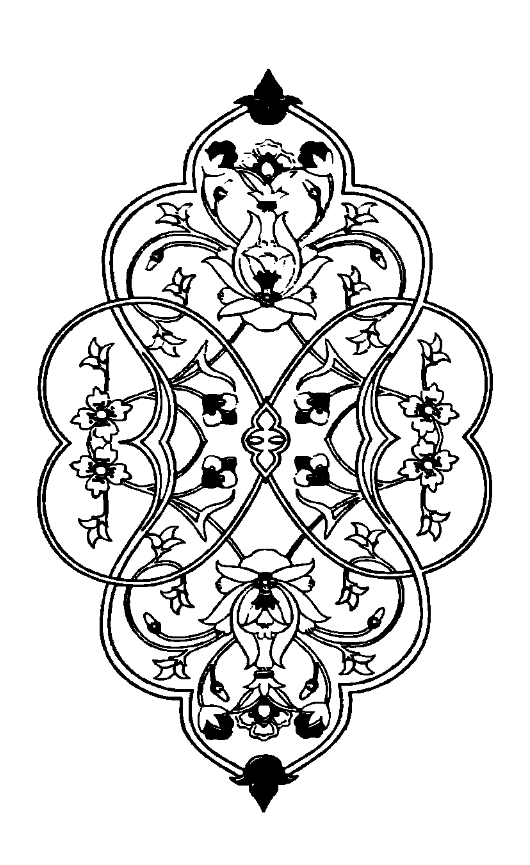
(٢) انظر (ص ٢٥١) و(ص ٢٧٧) .





فصل

في الكلام على المعية



فصل

في الكلام على المعية

في الحديث « كانَ اللهُ ولم يكنْ معَهُ شيءٌ غيرُهُ ، وكانَ عرشُهُ على الماءِ ، وكتبَ في الذكرِ كلَّ شيءٍ » ، أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين(١)

وقد كثُرَ ذكرُ معيَّة الله لعبده في مواضعَ من الكتابِ والسنَّة ، وهو من المتشابهِ ، ورجوعُهُ إلى المحكم بأن تعلمَ : بأن اللهَ سبحانه في الموجودات قد ضربَ لنفسه مثلاً بالواحدِ في الأعداد ، ومن المعلوم أن ما من عددٍ إلا وهو في الحقيقة يرجعُ إلى الواحد ؛ فالاثنانِ من شهود الواحد مرَّة ومرَّة ، والثلاثةُ من شهود الواحد مرَّة ومرَّة ومرَّة ، وهٰكذا جميعُ الأعداد ، فلو طلبْتَ لعدد من الأعداد حقيقةً مجرَّدة عن الواحد . . لم تجدْها .

وبسبب ذلك كانت الأعدادُ لا تتناهىٰ ؛ لأن تجلِّيات الواحد لا تتناهىٰ ، ولولا معيَّةُ الواحد للواحد ما ثبتَتِ الشفعيَّةُ ، ولولا إحاطتُهُ بالشفعيَّة ما ثبتَتِ الوتريَّةُ ؛ ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ [الحديد : ٣] ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . . . ﴾ الآيةَ [المجادلة : ٧] .

فمَنْ أشهدَهُ اللهُ آخريَّةَ معيَّتِهِ له فقد شَفَعَهُ ، فإن أشهدَهُ مع ذلك أوَّليَّةَ معيَّتِهِ

---

(١) صحيح البخاري (٣١٩١) .

فقد أوترَهُ ؛ « إنَّ اللهَ وترٌ يحبُّ الوترَ »[1] ، ومن أشهده سر وحدانيته في نفسه ورجوع الأعداد إليه فقد وحَّدَهُ

ما وحَّدَ الواحدَ إلا الواحدُ .[2]

وبهٰذا يُفهمُ السرُّ في قولِهم : (مَنْ عرفَ نفسَهُ فقد عرفَ ربَّهُ)[3]

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٠) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) صدر بيت من أبيات ثلاثة ختم بها أبو إسماعيل الهروي الأنصاري كتابه « منازل السائرين » ، وهي بتمامها : (من السريع)

ما وحَّدَ الواحدَ من واحدٍ ... إذْ كلُّ من وحده جاحدُ
توحيدُ من ينطقُ عن نعته ... عاريةٌ أبطلها الواحدُ
توحيدُهُ إيَّاه توحيده ... ونعتُ من ينعته لاحدُ

وهٰذا التوحيد هو المنزل الأخير الذي يصل إليه السالك ، وانظر « تاريخ ابن خلدون » (١/ ٦٢١) .

وأبو إسماعيل الهروي قال فيه الإمام ابنُ السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٤/ ٢٧٢) : (كان رجلاً كثير العبادة ، محدِّثاً ، إلا أنه يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من أهل السنة ، وقد بالغ في كتابه « ذم الكلام » حتىٰ ذكر أن ذبائحَ الأشعرية لا تحلُّ ، وكنت أرى الشيخ الإمام ـ يعني والده التقي السبكي ـ يضربُ علىٰ مواضع من كتاب « ذم الكلام » ، وينهىٰ عن النظر فيه) .

وقال أيضاً (٤/ ٢٧٣) : (وأنا لا أعتقد فيه أنه يعتقد الاتحاد ، وإنما أعتقد أنه يعتقد التشبيهَ ، وأنه ينال من الأشاعرة ؛ وأن ذلك بجهله بعلم الكلام وبعقيدة الأشعرية ؛ فقد رأيت أقواماً أُتُوا من ذلك) .

وعامةُ الصوفية إن وقفوا علىٰ عبارة منثورة ، أو نظم رائق ، فوجدوا فيها مطيَّةً تحمل عنهم مواجيدهم ، وتحكي لواعج أفئدتهم . . فلا يبالون بقائلها ؛ فلا تعجب أن تراهم يترنَّمون ببيتٍ لأحد المجَّان ، ويناجون مولاهم بآخر لأحد المتغزِّلين ، ويعرِّفون عن حقائق وجدوها بمثل هٰذه الأبيات التي أمامك ؛ فالعبرة بما قيل ، لا بمن قال ، وقد قيل : (من الوافر)

كلانا ناظرٌ قمراً ولٰكن ... رأيتُ بعينها ورأَتْ بعيني

وقيل : (من المنسرح)

نحن بما عندنا وأنتَ بما ... عندَكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ

(٣) كلمة ذائعة للعارف بالله القدوة يحيى بن معاذ الرازي ، وانظر « القول الأشبه في حديث : =

تنبيه

[علىٰ معية الله بصفاته العلية]

اعلمْ أنه تعالىٰ كما أنه واحدٌ في ذاته فهو واحدٌ في صفاته ، وذاتُهُ سبحانه منزَّهةٌ عن المعيَّة ، فليسَتْ مع شيء ، ولا معها شيءٌ ، ولـٰكنه مع كلِّ شيء بصفاتِهِ[1] .

وكذلك العبد الذي وحَّدَهُ ، وأشهدَهُ سرَّ الوحدانية في ذاته بتجلِّي ذاته المقدَّسة علىٰ سرِّهِ .

فقد ظهرَ لك بهـٰذا : أن المعيَّةَ من أحكام الصفات ، فرُبَّ عبدٍ يشهِدُهُ الله معيَّتَهُ له بصفة وصفتينِ ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] ، ورُبَّ عبد يشهدُهُ الله معيَّتَهُ له مطلقاً ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : « لا تحزنْ ؛ إنَّ اللهَ معَنا »[2] .

ومعيَّةُ الصفات عامَّةٌ لجميع المخلوقات ، وإنما اختصاصُ الأنبياء والأولياء بالشهود ، والتأييد بالروح منها ؛ كما حُكِيَ عن أحد أصحابِ الشيخ أبي النجاء رحمه الله أنه كانَ يقول[3] : (قال لي ، وقلتُ له) ، ويكثرُ من

= من عرف نفسه فقد عرف ربه » للإمام السيوطي ضمن « الحاوي للفتاوي » (٢/ ٢٨٨) .

(١) الظاهر من هـٰذا السياق : التفريق بين الأقربية والمعية ؛ فقد ذكر (ص ٣٠٤) أن أقربيته سبحانه بذاته ، وهنا خصَّ المعية بالصفات .

(٢) رواه البخاري (٣٦١٥) ، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

(٣) الشيخ أبو النجاء الأندلسي ؛ قال المؤرخ ابن العديم في « بغية الطلب » (١٠/ ٤٦٣٩) : =

ذلك ، فقيل له من هو الذي تقولُ له ويقولُ لك ؟ قال الله ، قالوا : اللهُ يقول لك ؟! قال : نعم ، ويأخذ بيدي كلَّما قمتُ وقعدتُ ، قالوا : أهٰذا لك خاصَّة ؟ قال : لا ، بل للناس عامَّة ، ولٰكنِّي أشهدُ ، وهم لا يشهدون[1]

تبصرة

[في أن شهود المعيَّة قد يتعدَّىٰ لغير صاحبها وقد لا يتعدَّىٰ]

رُبَّ عبدٍ يُخصُّ بشهود المعيَّة ، ولا يتعدَّىٰ ذلك منه إلىٰ أتباعه ؛ كقول موسىٰ عليه السلام لبني إسرائيل ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، ورُبَّ عبد يتعدَّىٰ منه نورُهُ إلىٰ أتباعه ، فيشهدون به سرَّ المعية ؛ كقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ولم يقل : معي ؛ لأنه أَمَدَّ أبا بكر بنورِهِ ، فشهد سرَّ المعية

ومن هنا يُفهمُ سرُّ إنزال السكينة علىٰ قلب أبي بكرٍ رضي الله عنه ، وإلا لم يثبتْ تحت أعباءِ هٰذا التجلِّي والشهود ، وأين معيَّةُ الربوبيَّة في قصَّة موسىٰ عليه السلام من معيَّة الإلٰهية في قصَّة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ؟!

تربية

[للعبد في تحصيل شهود نور المعيَّة]

إذا أردتَ شهودَ نورِ المعيَّة فعليك بتزكيةِ النفس ؛ قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩][2]

= (من المشايخ الزهاد الصالحين الأولياء المعروفين) ، وذكر أنه اجتمع في الموصل بالعارف بالله قضيب البان ، وأنه توفي سنة (٥٧٠هـ) .

(١) وعلىٰ هٰذه الطريقة بنى العارف بالله محمدُ بن عبد الجبار النِّفَّري كتابه « المواقف والمخاطبات » .

(٢) الآية صغرىٰ قياس محذوف ، وكبراه : كلُّ مفلح فهو شاهدٌ للمعية .

وفي حديثٍ رواه أبو عبد الله الترمذيُّ الحكيم في « نوادر الأصول » بسنده إلىٰ عبدِ الله بن معاوية الغاضريِّ رضي الله عنه قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثٌ مَنْ فعلَهُنَّ طَعِمَ طعمَ الإيمانِ مَنْ عبدَ اللهَ وحدَهُ بأنَّهُ لا إلـٰهَ إلا هو ، وأعطىٰ زكاةَ مالِهِ طيِّبةً بها نفسُهُ ، ولم يعطِ الهَرِمةَ ولا الدرنةَ ولا المريضةَ ، ولـٰكنْ مِنْ أوسطِ أموالِكم ، وزكَّىٰ نفسَهُ » ، فقال رجل وما تزكيةُ نفسه ؟ قال : « أنْ يعلمَ أنَّ اللهَ معَهُ حيثُ كانَ »[1]

فانظرْ كيف نبَّهَ علىٰ أن تزكية النفس تثمِّرُ العلم بمعيَّة الله .

فإن قلتَ : بماذا تكونُ تزكيةُ النفس ؟

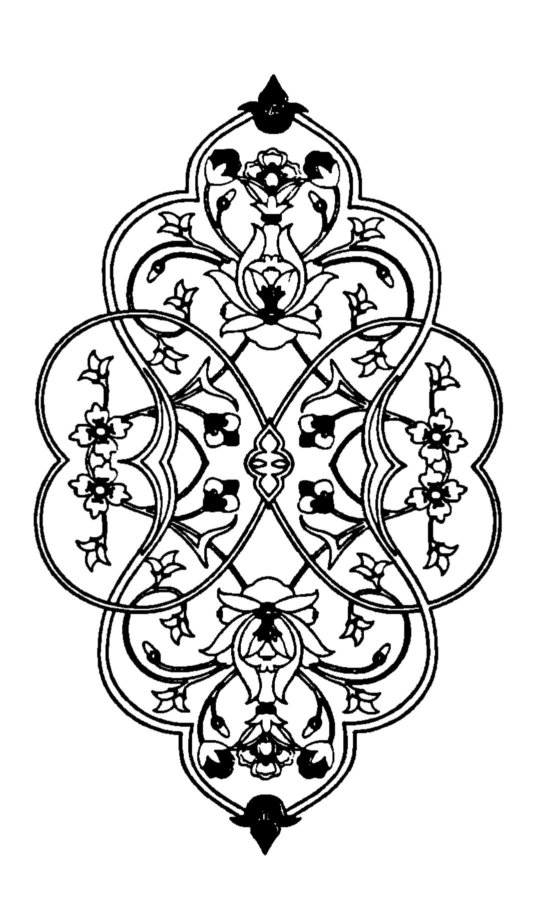
قلتُ : بلزومِ الذكر ؛ قال اللهُ تعالىٰ في الحديث : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ حينَ يذكرُني »[2] ، فعلىٰ حسَبِ الذكر يكون تطهيرُ النفس وتزكيتُها

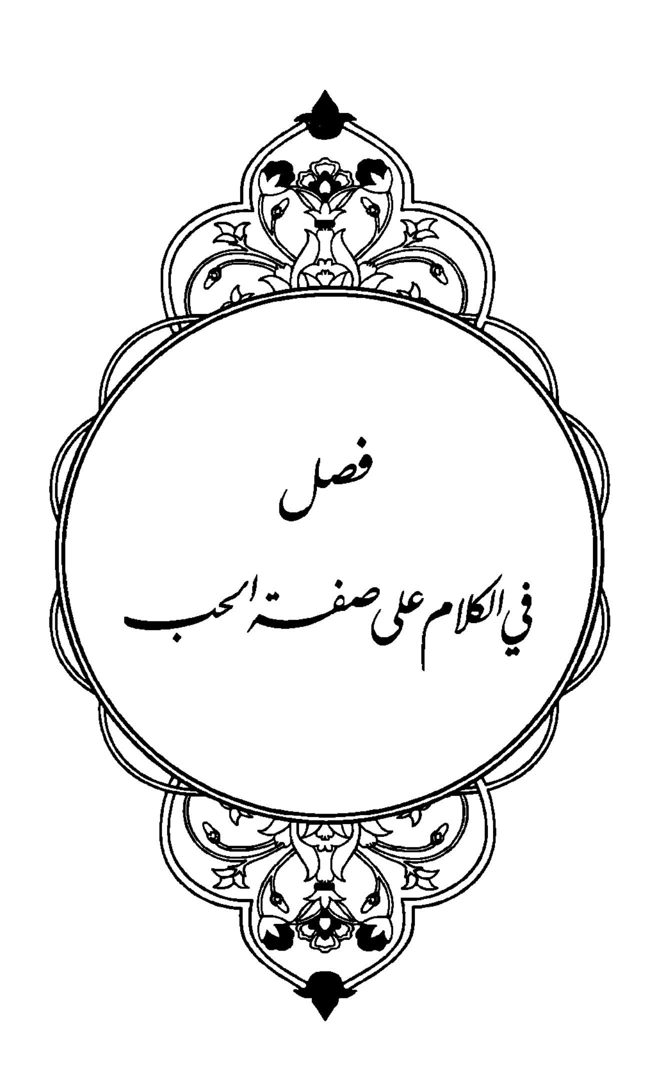
وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ : ١٤ـ١٥] ، وعلىٰ حسَبِ التزكية يكون شهودُ المعيَّة .

* * *

(١) « نوادر الأصول » (٩٨٤) ، ورواه أيضاً أبو داود (١٥٨٢) ، وقد قال الحكيم الترمذي عقب روايته له : (فهـٰذه الثلاث كلُّها زكاة ؛ فزكاة القلب : لا إلـٰه إلا الله ، وزكاة المال : إخراج ما افترض الله فيه منه ، وزكاة النفس : علمها بأن الله معه حيثما كان ، فإذا علم ذلك استوت سريرته وعلانيته ، فهابَهُ في كلِّ مكان ووقت ، واستحيا اللهُ منه في كلِّ مكان ووقت) .

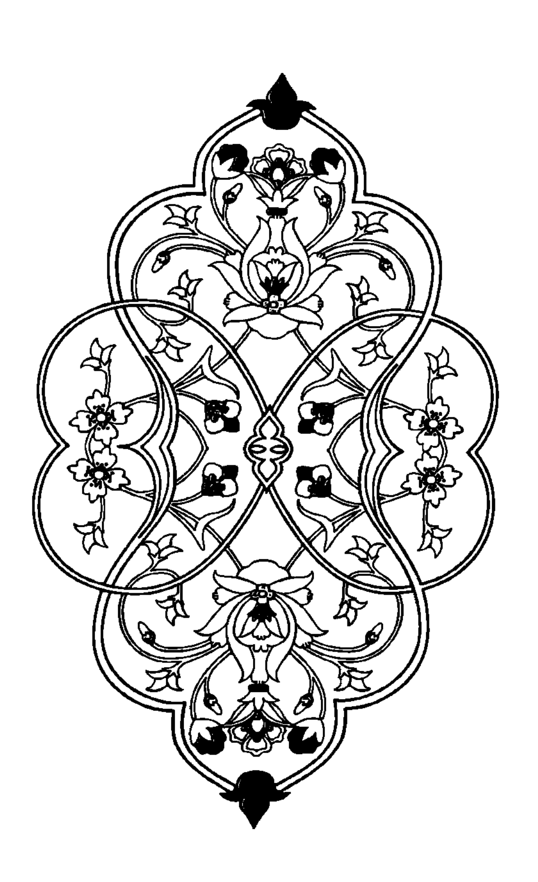
(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .





فصل

في الكلام على صفة الحب



فصل

في الكلام على صفة الحب

ومن الصفات المتشابهة : صفةُ الحبِّ :

وقد نُسبَتْ في الكتاب إلى الله تعالىٰ بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وبقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران ٣١] ، وكذا في السنة في أحاديثَ(١)

وقد اختلفَ علماءُ الظاهر والباطن في تأويله ، **والمعوّل عليه عندهم** : أنه يرجعُ إلى التعبير بالشيء عن ثمراته ، **فحبُّ العبد لله** محبةُ إدامتِهِ لذكره ،

---

(١) **فمن ذلك** : ما رواه البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه مرفوعاً في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لأعطين الرايةَ غداً رجلاً يُفتح علىٰ يديه ، يحبُّ اللهَ ورسوله ، ويحبُّهُ اللهُ ورسوله » .

وما رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً : « من أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه ، ومن كرهَ لقاء الله كرهَ اللهُ لقاءه » .

وما رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّهُ » .

وما رواه ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ ، فقال : يا رسول الله ؛ دلَّني علىٰ عمل إذا أنا عملتُهُ أحبَّني الله وأحبَّني الناس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ازهدْ في الدنيا يحبَّكَ الله ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبوك » .

وإقامتِهِ لطاعته ، وحبُّ الله لعبده إقبالُهُ بوجه إحسانِهِ ورحمته إليه ، وإفاضتُهُ سوابغَ نعمِهِ وجودِهِ عليه[(١)]

وهٰذا فيه تعطيلٌ لحقيقة الوصف[(٢)] ، والذي حملَهم علىٰ ذلك أن الحبَّ في الشاهد عبارةٌ عن ميل القلب ، وهو مستحيلٌ على الله سبحانه ؛ لتعاليهِ عن الحوادث

والتحقيقُ : أن الحبَّ ترجع حقيقتُهُ مطلقاً إلىٰ سرٍّ روحاني ، يجمع اللهُ به المتفرِّق ، ويوحِّدُ المتعدِّدَ ، وذلك أن اللهَ نوَّرَ السماواتِ والأرضَ ، فما من شيءٍ من الكائنات إلا وفيه سرٌّ من الواحد قائمٌ به ، كما تقدم تحقيق ذلك في (فصل المعية)[(٣)]

ومن المعلوم : أن المخلوقاتِ مختلفةٌ من حيث الأسماءُ والصور ، ومرادُ الله منها : ائتلافُها في الرجوع إلىٰ واحد ؛ ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وإنما تأتلفُ الصور والأسماء المختلفةُ من حيث ذلك السرُّ القائم بها من تجلِّي الواحد[(٤)] ، وليسَتْ كلُّها متساوية ، بل هي متفاوتةٌ علىٰ حسَبِ قابليَّتِها لتجلِّيه .

وقد جعل الله الحبَّ سرّاً يكشفُ حجابَ الاختلافِ بالصورة والاسمِ عمَّا

---

(١) في (ج) : (ووجوده) بدل (وجوده) .

(٢) لم يقل : (فيه تعطيل للوصف) إذ تأويلهم المذكور لا يقتضي التعطيل ، وإنما الحقيقة المشار إليها لم يجزم بها المتكلمون ؛ فلذا اختاروا ما هو أعمُّ وأرحب في المعنىٰ ، وأوفقُ لقواعد اللغة والبيان العربي ، وعملوا بقياس الغائب على الشاهد نفياً ؛ طلباً للتنزيه ، ولو أنك أتيتهم بهٰذه التأويلات التي اختارها الإمام المصنف . . فما كانوا لينكروها ، غير أنهم قد يسكتون عن ترجيحها .

(٣) انظر (ص ٣٢٣) .

(٤) قوله : (من تجلي الواحد) متعلق بالفعل (تأتلف) .

قامَ بهما من السرِّ المتَّفق ، فيأتلفُ السرُّ مع السرِّ بواسطة التعارف

وفي الحديث « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ ، فما تعارفَ منها ائتلفَ ، وما تناكرَ منها اختلفَ »[1]

فإن حصل الكشفُ من الجانبين حصلَ التحابُبُ من الجانبين ؛ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، وإن حصلَ من أحد الجانبين اختُصَّ بالمحبة ؛ ولهـٰذا تجدُ بعضَ الناس يحبُّ مَنْ لا يَظْهَرُ عليه أنه يحبُّهُ ؛ لأن المحبَّ كُشِفَ له عن سرِّ التوحيد المناسبِ له القائمِ بمحبوبه فأَلِفَهُ ، ولم يُكْشفْ لمحبوبِهِ عن السرِّ القائم بمُحبِّه[2]

وجملةُ الأمر : أن لا محبوبَ في الوجود إلا اللهُ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٩) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٦٣٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) **وبهـٰذا السياق تعلم** : أن الحبَّ الحادث كشفٌ عن سرِّ التوحيد المودع في كلِّ ما سواه تعالىٰ عن طريق التجلِّي ، وأن البغض راجعٌ لستر هـٰذا السرِّ وحجبه ، ولو كُشفَ للزم وجود الحبِّ ، وعند وجود الحبِّ يحصل عرضُ الميل للمحبوب ؛ فليس الميلُ هو الحبَّ .

وليس الشأن أن تعلم ، بل أن ترىٰ وتشهد ؛ فذاك السرُّ الذي يحدِّث عنه القوم **ألطفُ من أن تراه أعينٌ غشَّاها حبُّ الفانيات من حيث فناؤها** ؛ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، ذاك السرُّ الذي جهدَ أهلُ الكلام رضي الله عنهم في تفهيم بصيصٍ من نوره عند الحديث عن وحدة الأفعال ، وأن لا مؤثِّر في الوجود إلا الله ، وجهدَ أهلُ العرفان في إلعاقِ قُصَّادهم بعضَ دسومة ما أُفيض عليهم عند حديثهم عن التوحيد والتوكل ، والمحبة والإخلاص ، والشوق والأُنس والرضا ، وهيهاتَ هيهات أن تحيط النفوس خُبراً بما يُلوِّحوا به ما لم تتطهَّر من درنِ محبة الدنيا كما تتطهَّرُ للقاء الله في الصلاة في اليوم خمس مرات !

(٣) وهـٰذا المعنىٰ هو ما عناه العارف بالله يحيى بن معاذ الرازي حينما أنشد : (من الرمل)

كـلُّ محبـوب سـوى اللهِ سـرفْ   وهمـومٌ وغمـومٌ وأسـفْ =

ولقد أحسنَ بعضُهم في التنبيهِ علىٰ ذلك إجمالاً ؛ فقال في محبوبِهِ[1] : [من الكامل]

شيءٌ بهِ تُسبى القلوبُ سوى الذي   يُدعى الجمالَ ولستُ أعلمُ ما هو

وقال بعضُهم[2] [من الدوبيت الخالص]

البلبـلُ يـا صـاحِ يشـدو بفَنَـنْ   والوُرْقُ تنوحُ يا تُرى العشقُ لمَنْ
والكـونُ جميعُـهُ غـرامٌ وشَجَـنْ   شاباشكَ يا مَنْ هُوَ الكلَّ فتنْ[3]

= كـلُّ محبـوب فمنـهُ خَلَـفٌ   ما خلا الرحمٰنَ ما منه خلفْ

انظر « مصارع العشاق » (٢/ ٤٥)

إن قلت : فأين محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فالجواب : ما قاله الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٣٨٧) : (حب الرسول صلى الله عليه وسلم محمودٌ ؛ لأنه عينُ حبِّ الله تعالىٰ ، وكذا حبُّ العلماء والأتقياء ؛ لأن محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ ، ورسولَ المحبوب محبوب ، ومحبَّ المحبوب محبوب ، وكلُّ ذلك يرجع إلىٰ حبِّ الأصل ، فلا يجاوزُهُ إلىٰ غيره ، فلا محبوبَ بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالىٰ ، ولا مستحقَّ للمحبة سواه) ، وانظر حكاية في ذلك (ص ٣٣٧) .

(١) البيت في « ديوان الصبابة » (ص ٣٩) من غير نسبة .

(٢) معنىٰ هٰذا الدوبيت : البلابل تغرِّدُ على الغصون ، والحمائم تهدل وتقول : إن الحبَّ قد فاض في قلوبنا الصغيرة ، غير أننا نعشق ونحب ولا أحد يدري من هو محبوبنا الذي نصدح له ، بل إن الكون كلَّه طافحٌ بالعشق والتعلُّق بالمحبوب ، دام مجدُك يا من جماله أسرَ كلَّ ما سواه .

وهٰذا الدوبيت شبيهٌ بما رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٧٣) عن الإمام الشبلي إذ قال : (من الرمل)

صـحَّ عنـد النـاسِ أنِّـي عـاشـقٌ   غيرَ أن لم يعلموا عشقي لمَنْ

(٣) كذا في نسخ الاستئناس ، وفي غيرها : (يا من الكل فتن) بإسقاط (هو) ، وقوله : (شاباشك) اضطرب رسمها في النسخ ، وفي هامش (أ) : (شاباش) وهي كلمة فارسية معناها : مرحىٰ ، أو أحسنت ، وهي مخففة من كلمة (شادباش) ومعناها : (كن مسروراً) ، ولعل المعنىٰ هنا يرجع للثناء على الله سبحانه ، قريب من قولك : دام مجدك .

فقد ظهرَ أن الحبَّ سرٌّ يكشف حجابَ الحوادث عن أسرارِ التوحيد ، فيجتمع متفرِّقُها ، ويتَّحدُ عددُها ، ومن توهَّمَ أنه الميلُ أو الإرادة ، أو بعضُ الآثار الحادثة التي يجدُها المحبُّ . . فليس علىٰ حقيقةٍ من أمره ، وإنما التبسَ عليه الأعراضُ المنفعلةُ عن الحبِّ بالحب .

واعلمْ : أنه لا يطلقُ على العبد أنه يحبُّ الله إلا إذا كُشِفَ له عن أسرار التوحيد مجرَّداً عن الحوادث فأحبَّهُ[1] ، وأما إذا أحبَّ السرَّ متوهِّماً أنه أحبَّ مظهرَهُ من الحوادث . . فلا ، وبهـٰذا حصل الالتباسُ في حقيقة الحبِّ ، وفي إطلاقِهِ علىٰ غيرِ الله ، وفي صحَّة إطلاقِهِ عليه[2]

تنبيه

[علىٰ معنىٰ صدق حبِّ العبد لمولاه]

قولُنا : (لا يصدقُ حبُّ الله إلا بالكشفِ عن سرِّ التوحيد مجرَّداً عن الحوادث) مجملٌ له تفصيلٌ ؛ وهو أن كشفَ تجريدِهِ تارةً يكون عِياناً ، وتارةً يكون إيماناً .

فالعِيانُ : كحال إبراهيمَ عليه السلام حيث توجَّهَ إليه في الكوكب ، ثم في القمر ، ثم في الشمس ، ثم توجَّهَ إليه مجرَّداً فقال : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٧٩] .

ونبَّهَ علىٰ تجريد حبِّهِ عن الحادث بقوله : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] .

---

(١) سيأتي في التنبيه الآتي بيان معنىٰ هـٰذا التجريد .

(٢) قال الأستاذ القشيري في « رسالته » (ص ٦٤٩) : (المحبة حالةٌ شريفة شهدَ الحقُّ سبحانه بها للعبد ، وأخبر عن محبَّتِهِ للعبد ، فالحقُّ سبحانه يُوصفُ بأنه يحب العبد ، والعبدُ يُوصفُ بأنه يحب الحق) .

والإيمانُ : كحال من أخبرهُ الصادق (إن السرَّ في هـٰذا المظهر) ، فنشأ له بنور التصديق والإيمان به حبٌّ كَشَفَ له عن ذلك السرِّ كشفاً إيمانياً

ومنه قولهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فنبَّهَ علىٰ أن سرَّ التوحيد المأذونِ في محبَّتِهِ له مظهرٌ[1] ؛ وهو ظُلَّةُ غمام شريعتِهِ[2] ، واتِّباعُهُ فيها يستلزمُ اتصافَهم بها ، وهو بمثابة تعرُّض المحبِّ للمواطن التي يظهرُ له فيها محبوبُهُ ، ومن شأن المتعرِّضِ لمواطن الحبيب : أن يراقبَ وجهَ محبوبه عند تجلِّيه فيها ، فلهـٰذا أُمِرَ العبدُ بالمراقبة في قوله صلى الله عليه وسلم : « الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »[3]

تبصرة

[في تأكيد أن سرَّ التوحيد الجامع هو مظهرُ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام]

ومن هـٰذا قولهُ تعالىٰ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، ونحوُهُ من الآيات التي تتضمَّنُ الإخبار للعباد أن سرَّ التوحيد الجامع مظهرُهُ محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أحبَّهُ فقد أحبَّ الله .

فمن الأَتْباع من كُشفَ له عن تجرُّدِ ذلك السرِّ عياناً ؛ كحال أبي بكر رضي الله عنه في قوله بعد موته : (من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد ماتَ ،

(١) وبهـٰذا السياق تعلم : أن من المظاهر ما لم يأذن المصوِّرُ سبحانه بحبِّها ، بل لم يأذن بالنظر إليها أو التعلق بها ، وعلم أنها تناديه من باطنها : لا تنظر إليَّ .

(٢) تقدم الحديث عن ذلك (ص ١٤٤) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٧٩) .

ومن كان يعبدُ اللهَ فإن الله حيٌّ لا يموتُ)[1]

ولشهود ذلك السر كان يسجد له : الحجر والبعير ، ويسعىٰ إليه الشجر .

ومن الأتْباع من حُجبَ عن تجرُّدِهِ ، حتىٰ أخبرَ به في قوله تعالىٰ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ...﴾ إلىٰ قوله : ﴿ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٦٤] .

ويُحكىٰ عن بعض الشيوخ أنه رآهُ صلى الله عليه وسلم في نومه[2] ، فقال له : اعذرني يا رسولَ الله ؛ فإن محبّةَ الله شغلتني عن محبّتِكَ ، فقال له : ويحكَ ! يا مباركُ ؛ من أحبَّني فقد أحبَّ الله ، ومن أحبَّ الله فقد أحبَّني[3]

تحقيق

[في أسرار : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ »]

قولُهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . . » الحديثَ[4] ، فيه أسرارٌ :

منها : التنبيهُ علىٰ أن الحبَّ سرٌّ يجمعُ المتفرِّق ، ويوحِّدُ المتعدِّد : كما ذكرناه ، ومن كلام المحقِّقين : الحبيبُ أنتَ ، إلا أنَّكَ غيرُه !

ومنها : التنبيهُ علىٰ أن العبدَ يكون تارةً محباً متقرِّباً ، وتارةً يكون محبوباً : وترجعُ حقيقة التقسيم إلىٰ شهود العبد وحظِّهِ من تجلِّي قولِهِ تعالىٰ[5] : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] .

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٨) .

(٢) الرائي له عليه الصلاة والسلام : هو العارفُ بالله أبو سعيد الخراز .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٦٢) .

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٢١) .

(٥) في (ج) : (إلىٰ شهودِ العبدِ حظَّهُ . . .) .

فإن شهدَ ما منه إلى الله فقد شهدَ رجوعَ الأمر بسرِّ التوحيد منه إلى الله ، فهو محبٌّ ، وعلامتُهُ : دوامُ ذكره وتوجُّهِهِ بالتقرُّب بالنوافل ، وغلبةُ الشوق والقلق والهيمان ونحوِهِ .

وإن شهدَ ما من الله إليه فقد شهدَ بدءَ الأمر من الله ، وتنزُّلَهُ بروح التوحيد إليه ، فهو محبوبٌ ، وعلامتُهُ : السكونُ والاستسلام ، ودوامُ المراقبة .

ومنها التنبيهُ علىٰ أن المحبوبَ قسمانِ : قسمٌ يفنىٰ بمحبوبه ، وقسمٌ يبقىٰ به .

فنبَّهَ علىٰ حال الأوَّلِ بقوله « كنتُ سمعَهُ » ، ونبَّهَ علىٰ حال الثاني بقوله « الذي يسمعُ بهِ » ، ونبَّهَ بهما علىٰ أنه لا بقاءَ إلا بعد فناء ، ومنه قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال ١٧] ، فنبَّهَ على الفناء بقوله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ ، وعلى البقاء بقولِهِ : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ ، وعلىٰ تحقُّقِ المحبِّ بالحبيب بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

دقيقة
[في كسوة الصفات]

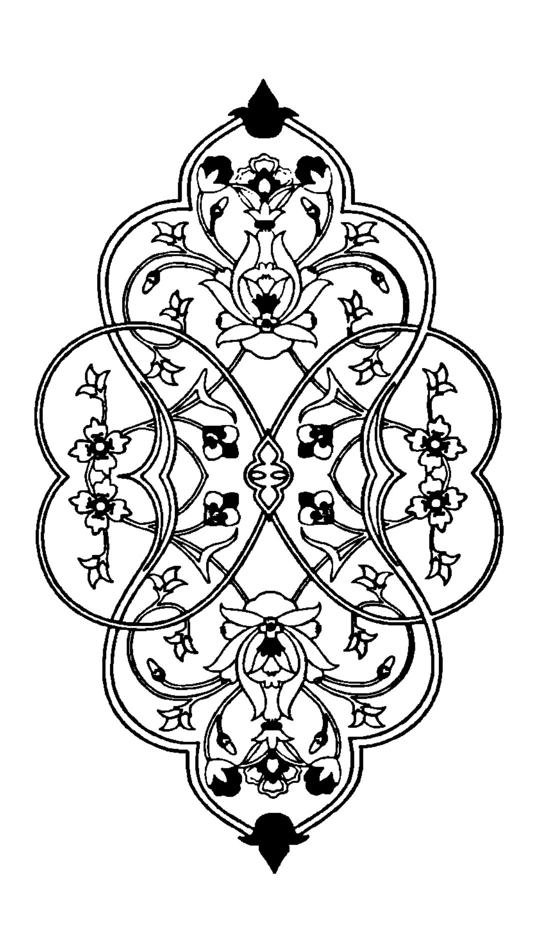
ومن ذلك قولُهُ تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا . . . ﴾ إلىٰ قوله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والسميعُ البصير هو الحبيبُ .

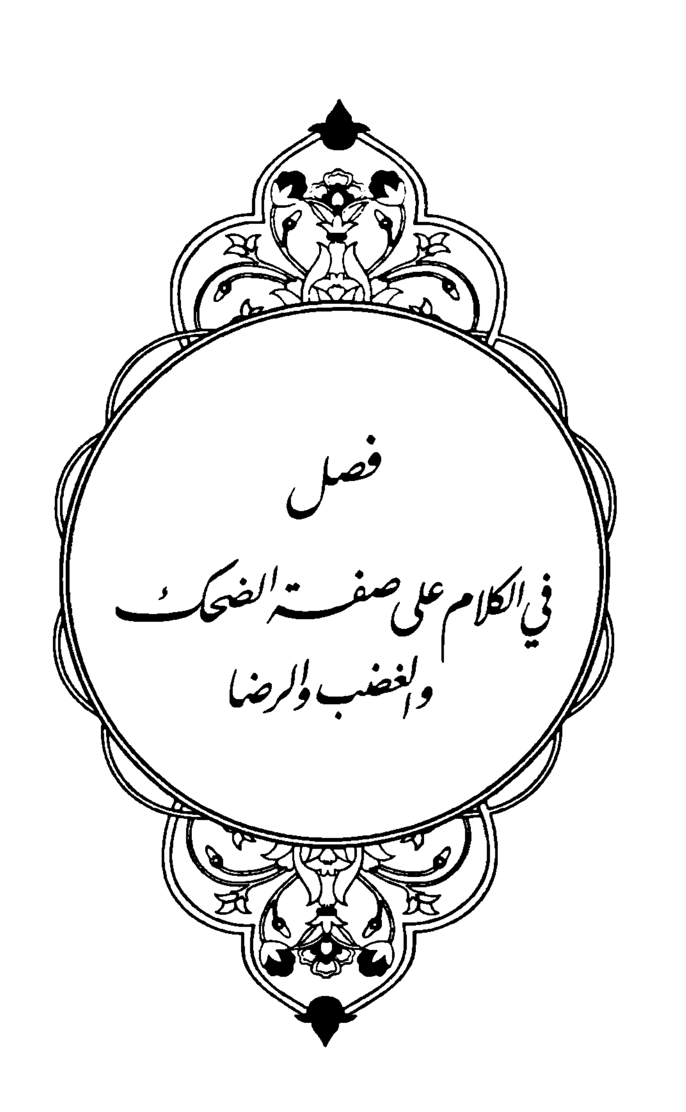
رأَتْ قمـرَ السمـاءِ فـأذكـرَتْني ... ليـالـيَ وصلِنـا بـالـرقمتيـنِ
كـلانـا نـاظـرٌ قمـراً ولكـنْ ... رأيـتُ بعينِهـا ورأَتْ بعينـي[1]

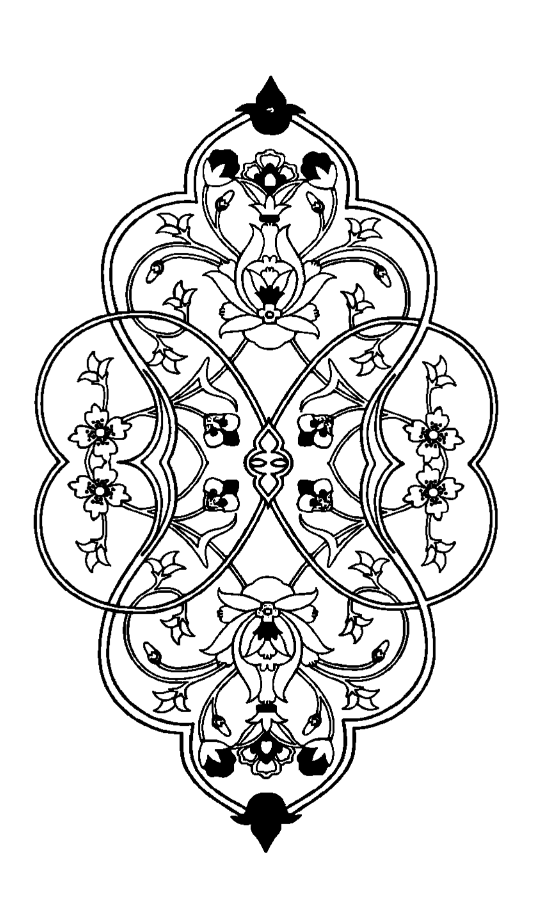
(١) البيتان من الوافر ، ونسبهما ابن أبي حجلة في « ديوان الصبابة » (ص ٢٣٠) لابن المستوفي الإربلي .

وإنما يتَّضحُ قصدُ الشاعر بتخريجِهِ على ما نحن فيه ؛ وهو أنه يشيرُ إلىٰ أن قمر السماء من عشَّاق محبوبتِهِ ، وأن محبوبته رأَتْهُ ذاتَ ليلة ، فكسَتْهُ برؤيتها له نورَ جمالها ومحاسنَ صفاتها ، وألقَتْ عليه شَبَهَها ، وأعارَتْهُ اسمها ، فأذكرَتْ هـٰذا العاشقَ بتلك الليالي التي وصلته بالرقمتينِ ؛ فإنها بوصلها له أفنَتْهُ عن صفاته ، وغلبَتْ عليه بصفاتها ، حتىٰ صارَتْ معه كالقمر الواحد ، وكلاهما ينظرُهُ ؛ ولهـٰذا قال : (كلانا ناظرٌ قمراً) أي : قمراً واحداً تعدَّدَ مظهَرُهُ ، لـٰكنها تنظرُهُ بعينه وهي عين المحبة ؛ لأن المحبَّ صار محبوباً ، وهو ينظرُ بعينها ؛ لأنها أعارَتْهُ عيناً رآها بها ، فكان البصرُ لها نفسِها .

* * *




فصل
في الكلام على صفة الضحك
والغضب والرضا



فصل
في الكلام على صفة الضحك والغضب والرضا

ومن المتشابه : صفةُ الضحك والغضبِ والرضا

وقد وردَ الغضبُ والرضا في الكتاب والسنة[١] ، وورد الضحكُ في السنة في أحاديث[٢]

وقد اختلفَ أهل الحقائق في معنى الرضا في الشاهد ، وهل هو حالٌ أو مقام[٣] ،

---

(١) فمن الكتاب العزيز : قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٦٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : ١٨] .
ومن السنة الشريفة : ما رواه مسلم (١٧٩٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قوم فعلوا هـٰذا برسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وهو حينئذ يشير إلىٰ رَباعيته ، وما رواه البخاري (٦٤٧٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن العبد ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً ، يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلَّمُ بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً ، يهوي بها في جهنم » .

(٢) من ذلك : ما رواه البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً في خبرِ آخر من يدخل الجنة ، وفيه : « ويلكَ يا بنَ آدمَ ما أغدرك ! فيقول : أي ربِّ ؛ لا أكونُ أشقىٰ خلقك ، فلا يزالُ يدعو الله حتىٰ يضحكَ اللهُ تبارك وتعالىٰ منه ، فإذا ضحك اللهُ منه قال : ادخلِ الجنة » .

(٣) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٤٥٣) : (وقد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا : هل هو من الأحوال ، أو من المقامات ؟
فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات ؛ وهو نهايةُ التوكل ، ومعناه يؤول إلىٰ أنه ممَّا يتوصَّلُ إليه العبد باكتسابه .
وأما العراقيون : فإنهم قالوا : الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسباً للعبد ، بل هو =

وأيّاً ما كان فهو من مقولةِ الكيف الحادثة[1] ، وهو مستحيلٌ على اللهِ سبحانه .

والضحكُ في الشاهد معروف ، وامتناعُهُ على الله بالنسبة لذاتِهِ ضروريٌّ[2] ؛ فلذلك كان من المتشابهِ ، ورجوعُهُ للمحكم بما قدَّمناهُ في الصورة[3] ، فيكونُ ظهور الضحكِ في الصورة التي يتجلَّىٰ فيها ربُّنا علىٰ عبدِهِ ، ولا اشتباهَ في ذلك ؛ فإن أصلَ الضحك عند الحكماءِ ينشأُ من إقبال القلب إلىٰ جهةِ الصدر ، فينفعلُ لإقباله البدنُ بالكيفيَّةِ التي تُسمَّىٰ ضحكاً

والفاعلُ في الحقيقة في ذلك كلِّهِ هو الله ، فلا إشكالَ أنه إذا أقبلَ بروح توحيدِهِ علىٰ عبده في الصورة المتشكِّلةِ من عملِهِ ؛ أنه يُظْهِرُ علىٰ تلك الصورة بإقباله هيئةَ الضحك المناسبة للضحك المعتاد بإقبالِ القلب ، ويُنسبُ ذلك الضحكُ إليه كنسبة الصورة والوجهِ إليه بالمعنى الذي قدَّمناهُ[4] ، ويتضاعفُ بذلك نعيمُ الرؤية للمؤمن ، وإفاضة جوائزِ الكرم عليه .

وقد ثبتَ أنه تعالىٰ يلقى المؤمنَ إذا مات برَوْحٍ وريحان وربٍّ غيرِ غضبانَ[5] ، فانظرْ كيف جعلَ مظهرَ لقائه له الروحَ ، وفي الروح يظهرُ لذلك

= نازلةٌ تحلُّ بالقلب كسائر الأحوال .

ويمكن الجمعُ بين اللسانين فيقال : بدايةُ الرضا مكتسبةٌ للعبد ، وهي من المقامات ، ونهايتُهُ من جملة الأحوال ، وليست بمكتسبة) .

(١) يعني : من المقولات العشرة المعروفة ، ويمكن تصوره من مقولة الانفعال أيضاً ، وإن شئت قلت : هو من جملة الأعراض ، وهو سبحانه منزَّهٌ عن الاتصاف بها .

(٢) لملازمته للتغيُّر ، ولاحتياجه إلىٰ أبعاضٍ في الحادث .

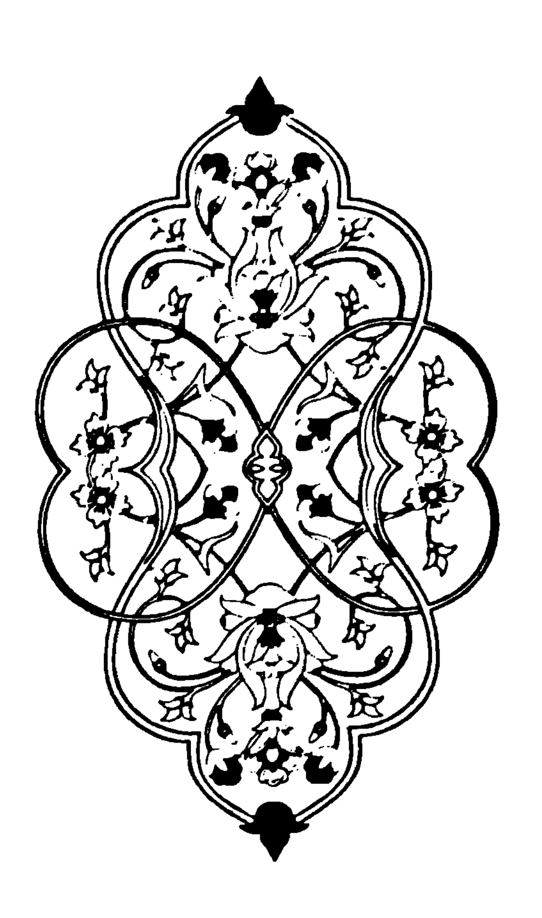
(٣) انظر (ص ١٤٤) .

(٤) انظر (ص ١٦ ، ١٤٤) .

(٥) روى النسائي (٤/٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا حُضِرَ المؤمنُ أتته ملائكةُ الرحمة بحريرة بيضاءَ ، فيقولون : اخرجي راضيةً مرضياً عنكِ إلىٰ روح الله وريحان ، وربٍّ غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريحِ المسك . . . » الحديث .

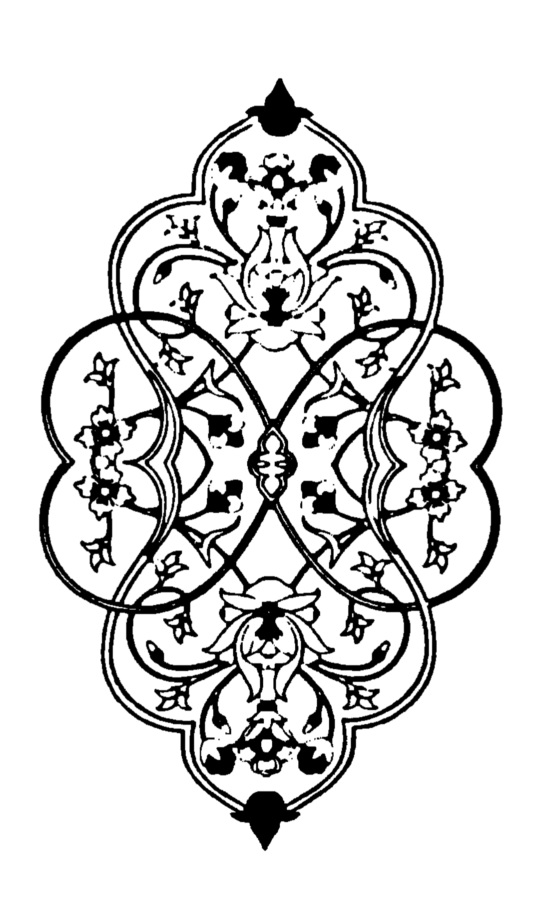
العبدِ رضاه وضحكُهُ وعدمُ غضبه ، وحقّقْ بقوله : « وربٌّ غيرِ غضبانَ » أن الروحَ مظهرُ الربوبيّة ، وأن العبدَ بلقاء الروحِ يلاقي ربَّهُ ، ولولا ذلك لأشكلَ علىٰ قواعد العربية ؛ لأنه عطفَ الربَّ على الروح ، وشرَّكَ بينهما في تعدِّي الفعل إليه بالباء علىٰ وجْهِ تعدِّيه للمفعول ، وذلك ينافي كونَ الربِّ فاعلاً للقاء ، وإذا أنت خرَّجْتَهُ على المعنى الذي ذكرناه . . لم يبقَ فيه إشكالٌ .

* * *





خواتيم النسخ الخطية



خاتمة النسخة (أ)

تمَّتِ الرسالة المباركة بحمد الله ومنِّهِ وتوفيقه .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والتسليم علىٰ خير خلقه محمد خاتم النبيين ، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين ، ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان الفراغ من نسخه بالمدينة الشريفة النبوية ، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بدار أبي أيوب الأنصاري المعروفة بمبرك الناقة ، في يوم الأربعاء ، ثالث عشر شهر جمادى الأولىٰ ، سنة سبع وستين وثمان مئة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

خاتمة النسخة (ب)

والله تعالىٰ أعلم ، وأجلُّ وأكرم ، وأعطف وأرحم .

تمَّ بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، في يوم السبت المبارك ، ثامن عشر جمادى الآخرة ، سنة (. . .) عشرة وتسع مئة ، من كتابة الفقير إبراهيم بن محمد بن إسماعيل المجولي[1]

(١) وعلى الورقة الأولىٰ زيادة لقب : الرفاعي .

خاتمة النسخة (ج)

تمت .

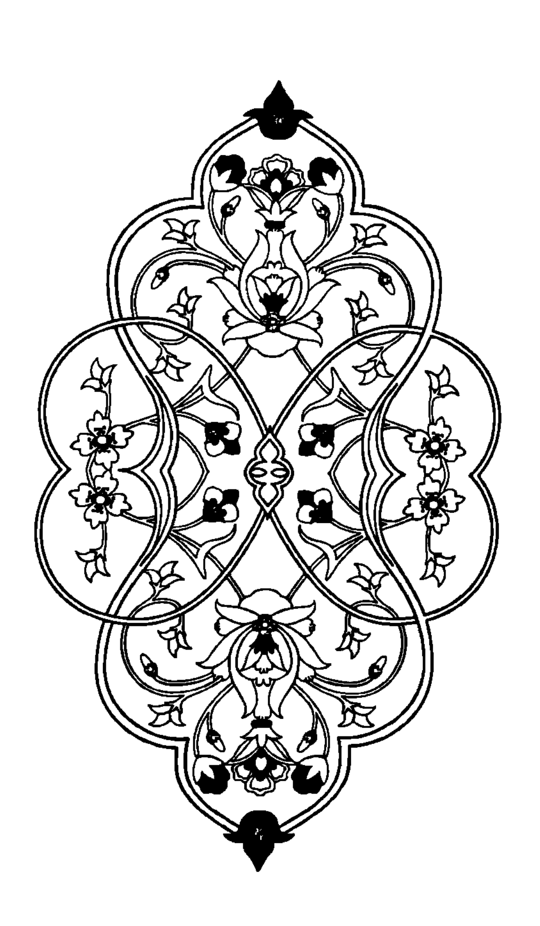
وكان الفراغ من نساخته ضحوةَ يوم الأحد ، الرابع والعشرون من شهر رمضان الذي هو أحد شهور سنة (٩٨٩) من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين[1]

* * *

(١) وفي هامش هـٰذه الخاتمة : (بلغ مقابلة بحسب ما أمكن ، علىٰ أمٍّ نسخت منها الموجودة ، وقوبلت عليها ، وصحّت إن شاء الله تعالىٰ) .

رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة على طريقة السادة الصوفية

تأليف
شيخ الإسلام
الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن
الإسعردي الشافعي المعروف بـ (ابن اللبان)
رحمه الله تعالى
(٦٧٩-٧٤٩هـ)



بسم الله الرحمن الرحيم

ما يقولُ السادة العلماءُ رضي الله عنهم وأرضاهم : عمَّا يفعلُهُ بعضُ الفقراءِ المنتسبين إلىٰ بعض الشيوخ[١] ؛ مِنْ أخذِ العهد علىٰ بعض المريدين[٢] ؛ ممَّنْ

---

(١) قول السائل : (الفقراء) صار علماً بالغلبة على السادة الصوفية أهل العلم والعمل ، وأصل هذه التسمية يرجع لتحقُّقهم بالعبودية للمولىٰ سبحانه ؛ إذ قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، والصورة المتحدَّثُ عنها : أن بعض الفقراء من الصوفية يحثُّ بعض الناس علىٰ أخذ العهد منه مباشرة ، دون الرجوع إلى الشيخ الأصيل المربِّي ، ودون إذنٍ منه كما يظهر من السياق ، والله أعلم .

(٢) العهد عند الصوفية : التزامُ عقدٍ معنويٌّ اتفاقي ، بين الشيخ المربِّي الكامل ومريدِ التحقُّق بالسنة وآدابها وأحوالها ، يلتزم فيه المريد اتِّباع ما يأمره به الشيخ ؛ ليخرجه من ظلمات الطبع والعادة ، ويزجَّ به في أنوار الشريعة ، ويحقِّقَهُ بالمعارف الكمالية .
فقولنا : (اتفاقي) يفهم منه : أن ما يتفرَّعُ عنه من طاعة الشيخ نشأ عن اتفاق ، لا لكون الشيخ واجب الطاعة في ذاته .
وقولنا : (الكامل) خرج به : كلُّ من لا كمالَ له ممَّا يفوِّت أهليَّة التربية والتسليك ؛ فلا يجوز الأخذ عمَّن فسد اعتقاده ، أو رقَّ دينه ؛ فعُرف بسوء الخلق ، أو انتعال زيِّ المشيخة لتحقيق مآرب ، بل هذا حقُّهُ أن يتوب ويبحث عمَّن يخرجه من أخلاقه السوء .
وقولنا : (ومريد التحقق بالسنة وآدابها وأحوالها) فهذا صاحب مطالبَ شريفة عالية ؛ إذ هذا التحقُّق إن حصل فهو الكمال الإمكانيُّ لكلِّ مكلَّف ، وهو سببُ السعادة التي لا مطمعَ فوقها ، والحقُّ : أن الشيخ مذكِّرٌ ومنبِّه لعهد الله تعالىٰ وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما الذكرىٰ تنفع المؤمنين .
وقولنا : (يلتزم فيه المريد) هو التزامٌ وضعي ، أقرَّتهُ أصول الشريعة ، واستحبَّهُ أهل العلم .
وقولنا : (الطبع والعادة) إذ غيرهما من أدواء الذنوب يجب التوبة منها بإجماع العلماء ، ولا تحتاج إلىٰ وجود شيخ تربية ، وإن كان مثله أعون على الفطام عنها من غيره .
وقولنا : (ويزجَّ به في أنوار الشريعة) فيحلِّي أعضاءه بالطاعات ، ويفطمه عن العجز والكسل والتواكل.
وقولنا : (ويحقِّقَهُ بالمعارف الكمالية) فينقِّي عن فؤاده شوائبَ الظنون والشكوك والأوهام ، ويؤهِّله لخواطر الحق ، ثم يكلُ أمرَهُ إلى الله تعالىٰ ، نعْمَ المولىٰ ونعْمَ الربُّ سبحانه .
ولهذا العهد شروط : منها ما يكون قبله ؛ كصدق المريد في استيفاء مطلبه ، وكمال الشيخ المربِّي اعتقاداً وعبادةً وحالاً ، ومنها ما يكون بعده ؛ كالالتزام بأوامر الشيخ ، وترك الاعتراض عليه ، والتوبة مع كل غفلة .

يريد ربطَهُ بالنسبة إليه ، واستنابتَهُ إليه[١] ، والالتزامَ به ؛ بالاقتداءِ به وبشيخه ، وإلباسه الخِرْقة هل هذا ممَّا يحمدُ فاعلُهُ ، ويُنسبُ إلى الأخذ بالنسبة فيه أم لا ؟[٢]

فأجابَ سيدي الشيخ الإمامُ القطب العارف ؛ سيدي شمسُ الدين أبو عبد الله محمدُ بن اللَّبَّان

أحمدُ اللهَ ، وأسألُهُ التوفيق

الفقير الصادق : [مَنْ] لا يرىٰ لنفسِهِ عهداً[٣] ، ولا تراهُ في حركاته وسكناته إلا عبداً ، لا يسبقُ معبودَهُ بقولٍ ، ولا يتقدَّم أمرَهُ بفعلٍ[٤]

قد فهمَ سرَّ النهْيِ عن النذر كونه لآيات يُحير[٥] ، وتأدَّب بالتأديبِ المحمدي : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣ ـ ٢٤] .

وأكرمَهُ ربُّهُ بصدق العبودية في شهودِ الربوبية ؛ فلم يسبقْهُ بقول ، وعلم أن فعلَهُ مخلوق لغيره ، فلم يتعرَّض للمقْت ؛ بأن يقول ما لا يفعل[٦]

واللائقُ بالداعي إلى الله سبحانه وتعالىٰ : أن يستعينَ بلسان حالِهِ عن قالِهِ ،

---

(١) الاستنابة : الرجوع ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٤] أي : ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص ، والمعنىٰ : جعله نائباً عنه .
(٢) من خير ما أُلِّف في هذا الموضوع ، مسبوكاً بلغة العلم والفقه : كتاب « عدة المريد الصادق » للعلامة ابن زروق المالكي رحمه الله تعالىٰ .
(٣) في الأصل : (ما) بدل (من) .
(٤) هاتان الجملتان من صفات الملائكة الكرام ؛ قال سبحانه : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٧] .
(٥) كذا العبارة في الأصل ، وهي قلقة تحتاج إلىٰ تأمل .
(٦) فخالق الأفعال وموجدها : هو الله سبحانه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦] ، وتأمل في اسميه سبحانه الواحد والقهار في سياق هذه الآية الكريمة ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ـ٣] .

وبالسِّحْرِ الحلال من لَحْظِهِ عن لفظه[1] ؛ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨]

فأسلمَ صلى الله عليه وسلم أتباعه إليه ، ولم يكلْهم إلىٰ نفسه

وحسْبُ المريد عهدُ الله وعهدُ رسوله ، ولا بأسَ بتذكير الشيخ له به ؛ فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين ، وهو وإن كان إليه نسبةٌ إيمانية ؛ فتحَ الله قلبه علىٰ يديه ، وجمعَ تفرُّقَهُ إليه ، والنسبةُ لا تصحُّ بالالتزام ، إنما هي بروابطَ إيمانيةٍ ، وأسرارٍ عرفانيةٍ ، أُحكمَتْ آياته [بالتوحيد][2] ، ثم فُصِّلَتْ بأنوار الدعوة المحمدية ، وأُرسلَتْ علىٰ أراضي القلوب ؛ مفاتيحُ الأنوار الرشُّ[3] ؛ فكان منها أرضٌ طيبةٌ قبلت وأنبتت ، وأرضٌ أمسكت ، فسقى الناس واستقوا[4] ، قد علم كلُّ أناسٍ مشربهم ، وحقَّقَ الله له باتصاله يومَ القيامة نسبَهم ، ولعنَ من انتسبَ إلىٰ غير أبيه وهو يعلمُ[5] ، واستعاذ الصِّدِّيقُ أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده[6]

---

(١) هذه سبيلٌ شاذلية ؛ فقد قال العارف بالله تعالى ابن عطاء الله الإسكندري في « تاج العروس » (ص ٧٨) : (ليس الرجل من يُربيك لفظُهُ ، إنما الرجلُ من يُربِّيك لحظُهُ ؛ عن الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه أنه قال : إذا كانت السلحفاة تُربي فراخَها بالنظر . كذلك الشيخ يربِّي مريده بالنظر ؛ لأن السلحفاة تبيض في البرِّ ، وتتوجَّهُ إلىٰ جانب النهر ، وتنظر إلىٰ بيضها ، فيربِّيهم الله تعالىٰ لها بنظرها إليهم) .

(٢) في الأصل : (التوحيد) بدل (بالتوحيد) .

(٣) روى الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٥٥٥) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله تعالىٰ خلق الخلق في ظلمة ، ثم رَشَّ عليهم من نوره ؛ فمَنْ أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضلَّ » .

(٤) إشارة للحديث الذي أخرجه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) من طريق سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٥) روى مسلم (١٣٧٠) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه مرفوعاً : « ومن ادَّعىٰ إلىٰ غير أبيه ، أو انتمىٰ إلىٰ غير مواليه . . فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » .

(٦) الصديق : هو سيدنا يوسف علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ؛ وذاك فيما حكى المولىٰ عنه : =

فاللائقُ [بالداعي] إلى الله سبحانه وتعالىٰ[1] أن يذكِّر [تذكرةً] عامة[2]

فإن كان لبصيرته نفوذٌ أخذَ أصحابه من الغيب[3] ، وتعرَّفَ إليهم تعرفاً روحانياً تحيا بواطنُهم بأسراره ، وتتجمَّلُ ظواهرهم بأنواره

وإن لم يكن له نفوذٌ اعتمد في أصحابه علىٰ ما يلقيهِ الله سبحانه وتعالىٰ من محبَّتِهِ في قلوبهم[4] ، ويظهرُ من بركات دعوته علىٰ هياكلِهم

ولا يعتمد ما يعتمدُهُ أرباب الدكاكين ؛ الذين اتخذوا ذلك معيشةً ، ويحدِّدون عليه بآكدِ العنادِ والشقاق ، وظهور علامات النفاق[5] ، ويعرِّضونه [للعنةِ] الله ورسوله[6] ؛ بالانتساب إلىٰ غير أبيه ، والانتماء إلىٰ غير مواليه ، ويكسونه وهو من البركة عُرْيان[7] ، ويؤسِّسون بنيانَهُ وهو علىٰ غير تقوىٰ من الله ورضوان ، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر : ١٤] .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلّم تسليماً كثيراً

= ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٧٩] .

(١) في الأصل : (والداعي) بدل (بالداعي) .

(٢) في الأصل : (بذكره) بدل (تذكرة) .

(٣) جاء عند الحافظ الفقيه الإمام ابن الملقن في « طبقات الأولياء » (ص ٤٧٩) في ترجمة العارف بالله تعالىٰ ياقوت العرشي : (واستأذن الإمام العارف بالله أبا الحسن الشاذلي في الاقتداء به ، ففكَّرَ وقال : وجدت اسمك في أصحاب أصحابي ؛ أبي العباس المرسي ؛ في الطبقة الثانية) .

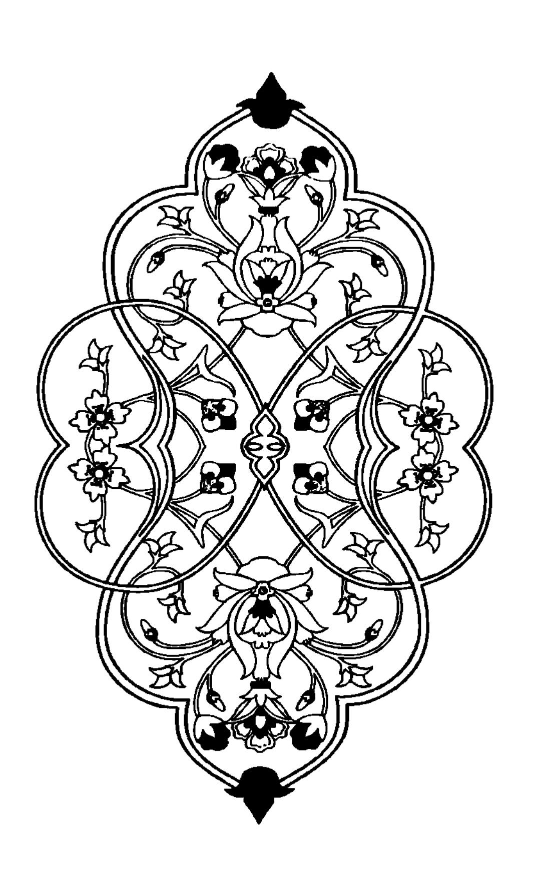
(٤) فهذه المحبة مدعاة للطاعة ، فيتفرَّس الشيخ في وجوههم ؛ فمن وجده مائلاً إليه ، وعنوان المحبة عليه . . رضي منه بأخذ العهد ، وللمؤلف في تفسير المحبة مقالة ونظر . انظر (ص ٣٣١) .

(٥) يعني : يحدِّدون على المريد حدوداً إن جاوزها وصفوه بهذه الأوصاف الشنيعة .

(٦) في الأصل : (لعنة) بدل (للعنة) .

(٧) هذا إن أطاعهم ، وأظهر عليه فضلهم .


الفهارس العامّة



فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾	١٩	١٤٧
﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾	٢٥	١١٨
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا . . . ﴾	٢٩	٢٦٤
﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾	١١٥	١٦٢
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾	١١٥	١٧٦، ١٨٥، ٢٤٩، ٢٧٢
﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾	١٣٨	٢٠٢
﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾	١٤٤	٢٧٢
﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾	١٤٤	٢٧٢
﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾	١٤٩	٢٧٣
﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾	١٥٢	١٧٨
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾	١٨٦	٣٠٣
﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾	١٨٦	٣٠٣
﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾	٢١٠	١٤٤
﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾	٢١٢	٢٢٧
﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾	٢١٢	٢٥٤
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾	٢٥٣	١٣١
﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . . . ﴾	٢٥٥	٢٥١
﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾	٢٦١	١٧٦
سورة آل عمران		
﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾	٧	٧٩
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ . . . ﴾	٧	١٣٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾	١٨	١١٨، ٢٦٣
﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾	٢٦	٢٢٠
﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾	٢٨	٢٩٩
﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾	٣٠	١٣٥
﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾	٣١	٣٣١
﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾	٥٥	٢٥٤
﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾	٧٣	٢١٢
﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	٨٣	٢٢١
﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾	١٠١	١١٢
﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾	١٠٤	٢٢٠
﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا . . . ﴾	١٠٥	٢٩٩
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . ﴾	١١٠	٢٧٣
﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾	١٤٧	٢٣٩
﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾	١٨٧	٧٩، ٢٦٣

سورة النساء

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . . . ﴾	٣٦	٢٢٧
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ . . . ﴾	٦٤	٣٣٧
﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم . . . ﴾	٦٩	٢٢٨
﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾	٨٠	٣٣٦
﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾	٨٢	١١٢، ٢٥٠

سورة المائدة

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . . . ﴾	١٥-١٦	١٧٤
﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾	٥٤	٣٣١
﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾	١١٦	١٢٩، ١٣١
﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ . . . ﴾	١١٧	١٣١
﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ . . . ﴾	١١٨	١٣٤

سورة الأنعام

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾	٣	١١٨، ٢٤٩، ٣١١
﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾	١٨	٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢
﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾	٥٢	١٦١
﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾	٦١	٢٥٢، ٣١٤
﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾	٦١	٣١٤
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا . . .﴾	٦١_٦٢	٣١٤
﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ . . .﴾	٦٦_٦٧	٣١٤
﴿هَٰذَا رَبِّي﴾	٧٦	١٨٤
﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾	٧٦	٣٣٥
﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ . . .﴾	٧٩	٣٣٥
﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ . . .﴾	٨١_٨٢	٢٤٠
﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ . . .﴾	٩١	٢١٤، ٢١٦، ٢١٨
﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞ﴾	٩٨	٣١٢
﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦ . . .﴾	١٠٤	١٩٢
﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ . . .﴾	١٥٨	٢٩٧
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾	١٥٩	٢٩٩

سورة الأعراف

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . .﴾	١٨	٢٣٨
﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾	٥٤	٢٦٤
﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾	١٢٧	٢٥٢
﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾	١٤٣	٢٤٠
﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾	١٥٧	٢٠٤
﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾	١٩٨	١٨٩

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الأنفال		
﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ . . . ﴾	١١	٢٣٩
﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾	١٧	١٢١، ٣٣٨
﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾	٢١	١٨٩
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ . . . ﴾	٢٦	٢٥٥
سورة التوبة		
﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾	٦	١٩٥، ١٩٧
﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾	١٤	١٢٠، ١٢٣
﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾	٤٠	٣٢٦
﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ . . . ﴾	١٠٣ـ١٠٤	١٢١
سورة يونس		
﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾	٢	٢٣٥
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ . . . ﴾	٣	٢٦٤، ٢٨٧
﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ . . . ﴾	٢٤	٣١٥
﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾	٨٧	١٨٤
سورة هود		
﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ . . . ﴾	١ـ٣	١٣٠
﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾	٤١	١٩٢
﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾	٤٤	٢٦١
﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ . . . ﴾	١٢٣	١١٨، ٣٣٢
سورة يوسف		
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾	٧٦	٢٥٤
سورة الرعد		
﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾	٧	٦٦
﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾	٢٨	٥٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة إبراهيم		
﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء...﴾	٢٤_٢٥	١١١
﴿مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾	٢٤	٢٠٢
﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾	٢٧	٢٣٩
﴿لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾	٤٣	١٩٠
سورة الحجر		
﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾	٢٩	٢١٢
سورة النحل		
﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره...﴾	٢	١٢٤، ٢٨٨ ٢٠٤
﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾	٤٠	١٣٢
﴿فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾	٤٣	٨
﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾	٥٠	٢٤٩
﴿لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾	٥١	٢٧٩
﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾	٩٦	٣١٤
﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق...﴾	١٠٢	٢٣٩
﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا...﴾	١٢٠_١٢١	١٨٤
سورة الإسراء		
﴿سبحان الذي أسرى بعبده...﴾	١	١٨٥، ٢٦٩ ٣٣٨
﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا﴾	١	٢٧٠
﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض...﴾	٢١	٢٥١
﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك...﴾	٧٩_٨٠	٢٧٣
﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن...﴾	١١٠	٢٩٩
﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا﴾	١١١	١٨٥، ٢٧٤
﴿وكبره تكبيرا﴾	١١١	١٨٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الكهف		
﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾	٤٩	١٣٦
﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾	٦٥	٤٧، ٦٨
سورة طه		
﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾	١٢	٢٤٠، ٢٤١ ٢٤٢
﴿ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ ﴾	١٢	٢٤٢
﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى . . . ﴾	١٤، ١٥	٢٤١
﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾	٣٩	١٩٢
﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ . . . ﴾	٤٠	١٩٢
﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾	٤٦	٣٢٥
﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾	٦٨	٢٥٣
﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ . . . ﴾	٧٨ـ٧٩	٢٥٣
﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾	٨٤	٢٥٥
﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾	١٢٣	١٧٤
﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ . . . ﴾	١٢٤ـ١٢٥	١٩٠
﴿ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ . . . ﴾	١٢٥ـ١٢٦	١٩٠
سورة الأنبياء		
﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾	١٩	٢٧٠، ٣١١
﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾	٢٣	١١٩، ١٣٣ ١٣٥، ١٧٤
﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾	١٠٤	١٩٠
سورة المؤمنون		
﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ . . . ﴾	٢٠	٢٠٢
﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ . . . ﴾	٨٨	٢٢١

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة النور		
﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . ﴾	٣٥	١٧٦، ١٨٥، ٢٢٠، ٢٨٧
﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ . . . ﴾	٣٥	٢٠٢
﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ . . . ﴾	٣٦	٢٥٤
﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾	٤٠	١٩١، ٢٧٨
سورة الشعراء		
﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾	٦٢	٣٢٦
﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾	١٨٩	١٤٧
سورة النمل		
﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا . . . ﴾	٨ـ٩	١٨٤
﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾	١٣	١٩١
سورة القصص		
﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ . . . ﴾	٧	١٩٢، ٣١٥
﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾	٢٢	٢٤٣
﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾	٨٨	١٦١
سورة العنكبوت		
﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾	١٧	٣١٥
﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ . . . ﴾	٢٠	٢٤١
سورة الروم		
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾	٢٥	٢١٨
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ . . . ﴾	٣٠	١٦١
سورة لقمان		
﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ . . . ﴾	٢٧	٢٠٣

الصفحة	رقم الآية	الآية
		سورة السجدة
٢٧٨، ٣٣٧	٥	﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾
		سورة الأحزاب
١٥٦	٦	﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ ﴾
		سورة فاطر
٢٠١	١	﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ . . . ﴾
٢٣٧	١٠	﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ﴾
		سورة يس
٢١١	٧١	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا ﴾
٥٨	٨٢	﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾
		سورة الصافات
١٨٤	٨٤	﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾
١٨٥	٨٨	﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾
		سورة ص
٢١١	٧٥	﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ ﴾
		سورة الزمر
٢٢٦	١٧ـ١٨	﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ . . . ﴾
٢٢٧	٢٠	﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ . . . ﴾
٢٢٥	٢٣	﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾
٢٩٨	٤٢	﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . . ﴾
٢٢٥	٥٥	﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾
٢٢٥	٥٦	﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾
٢٢٦	٥٦	﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴾
٢٢٦	٥٧	﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا . . . ﴾	٥٩	٢٢٦
﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾	٦٧	٢١٩
﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ . . . ﴾	٦٧	٢٥٢
﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾	٦٩	٢١٩
سورة غافر		
﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾	١٥	٢٥٣
﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ . . . ﴾	٣٦ـ٣٧	٢٥٤
﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾	٣٧	٢٥٥
سورة فصلت		
﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾	١٠	٢٦٤
﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ . . . ﴾	١١	٥٨، ٢٦١
		٢٦٤
﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾	١٢	٢٦٤
﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ . . . ﴾	٤١ـ٤٢	٢١٢
﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾	٤٢	٢١٣
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ . . . ﴾	٥٣ـ٥٤	٢٧٤، ٢٨٠
سورة الشورى		
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾	١١	١١٦
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . . . ﴾	٥٢	١٤٧
سورة الزخرف		
﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ . . . ﴾	١٣	٢٦١
﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾	٣٢	٢٥١
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾	٨٤	٢٧٩
سورة محمد		
﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ . . . ﴾	١٦ـ١٧	٢٢٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ . . . ﴾	١٩	١٣٠
سورة الفتح		
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ . . . ﴾	١٠	٥٠، ٥٩، ١٢١، ٢٢١، ٣٣٦
﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾	٢٩	٢٩٩
﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾	٢٦	٣٠٠
سورة قٓ		
﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . . . ﴾	١٦ـ٢٢	٢٤٩، ٣١٣، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٢
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ . . . ﴾	١٦	١٦٦، ٢٧٦
﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . . . ﴾	٢٩ـ ٣٠	٢٣٩
﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾	٣٠	٥٨
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾	٣٧	٧٥
﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾	٤١	٢٤١
سورة الذاريات		
﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾	٢٤	١٨٥
سورة الطور		
﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾	٤٨	١٩٢
سورة النجم		
﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾	٢	٢٢٨
﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾	٤	٢٢٥
﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾	٦ـ٧	٢٦٥، ٢٧٤
﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . . . ﴾	٨ ـ ٩	٢٧٣
﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾	١١	٢٧٣

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . . . ﴾	١٣ـ١٨	٢٧٣
سورة القمر		
﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾	١٤	١٩٢
سورة الرحمن		
﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ . . . ﴾	١ـ٤	٢٨٩
﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾	٤	٦٨
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . . . ﴾	٢٦ـ٢٧	١٨٠، ١٨٣
سورة الواقعة		
﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . . . ﴾	٧٤ـ٨٥	٢٧٦
﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾	٨٥	٣٠٤
﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . . . ﴾	٨٩	٣٠٥
سورة الحديد		
﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾	٣	٣٢٣
﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾	٤	٣١٩
سورة المجادلة		
﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . . . ﴾	٧	٣٢٣
﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾	٧	٢٥٠
﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ . . . ﴾	١١	٢٥٣
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . . ﴾	٢٢	١٣٢
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾	٢٢	٣٠٠
سورة المنافقون		
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٨	٢٣٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الطلاق		
﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا﴾	١٠_١١	٢٠٤
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ. . .﴾	١٠_١١	٢٩١
﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. . .﴾	١١	٢٩٢
﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	١٢	٢٩٢
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ. . .﴾	١٢	٢٨٧، ٢٩١
سورة الصف		
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ. . .﴾	٨	٦٢
سورة الملك		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ. . .﴾	١_٤	٢٨٨
﴿مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا. . .﴾	١٦	٢٧٨
سورة نوح		
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. . .﴾	١٠_١١	٢٩٣
سورة القيامة		
﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾	١٧	١٩٩
﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ. . .﴾	٧_١٣	٣١٤
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. . .﴾	٢٢ _ ٢٣	٦٠، ١١٨ ١٦٧
سورة الإنسان		
﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾	٩	١٦١
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا. . .﴾	٢٣_٢٤	١٩٢
سورة النبأ		
﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾	٣٨	٢٩٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة النازعات		
﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾	٢٤	٢٥٣
سورة التكوير		
﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾	١١	٢١٩
سورة الانفطار		
﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . . .﴾	٦ـ٨	٢٦٥
سورة المطففين		
﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . . .﴾	١٤ـ١٥	١٧٤
سورة البروج		
﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . . .﴾	١٢ـ١٣	٢٠٧
سورة الأعلى		
﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . . .﴾	٢	٢٥٢
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . . .﴾	١٤ـ١٥	٣٢٧
سورة الفجر		
﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾	٢٢	٢٩٧
سورة الشمس		
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾	٩	٣٢٦
سورة الليل		
﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾	٢٠	١٦١
سورة العلق		
﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾	١٩	٢٧٦
سورة البينة		
﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . . .﴾	١ـ٣	١٨٢

فهرس أطراف الأحاديث والآثار[1]

طرف الحديث	اسم الراوي	رقم الصفحة
ـ أتاني الليلة ربي في أحسن صورة	عبد الله بن عباس، معاذ بن جبل	٢١٧، ٢٢٠
ـ الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه (جواب النبي ﷺ لجبريل عندما سأله: ما الإحسان؟)	عمر بن الخطاب	١٧٩، ٣٣٦
ـ أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس (قاله ﷺ جواباً لسؤال الحارث بن هشام: كيف يأتيك الوحي؟)	عائشة	١٩٨
ـ أخبرني بأرجى عمل عملته في الإسلام (سؤال من رسول الله ﷺ لبلال)	أبو هريرة	٢٤٣
ـ إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا	أنس بن مالك	١٧١
ـ إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها	أبو هريرة	٢٠٠
ـ الأرواح جنود مجندة	عائشة، أبو هريرة	٣٣٣
ـ أعوذ بوجهك الذي أشرقت به الظلمات	عبد الله بن جعفر	١٦٢
ـ أطولكن يداً (قاله ﷺ لأزواجه عندما سألنه: أينا أسرع بك لحوقاً؟)	عائشة	٦٩
ـ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد	أبو هريرة	٢٥٠، ٢٧٦
ـ أقرؤكم أُبَيّ	أنس بن مالك	١٨١
ـ أكثروا من النعال	جابر بن عبد الله	٢٤٣
ـ ألا أخبركم برأس الأمر وعموده	معاذ بن جبل	٢٤٥
ـ ألا ترضين أن من وصلك وصلته	أبو هريرة	٢٩٨، ٣٠٠
ـ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله (قاله النبي ﷺ في ثلاثة حضروا حلقة ذكر)	أبو واقد الليثي	٢٥٥
ـ أمر الله رسوله أن يقرأ (لم يكن) على أُبَيّ	أنس بن مالك	١٨١
ـ أنا عند ظن عبدي بي	أبو هريرة	١٣٦، ١٧٨، ٢٧٤، ٣٠٣، ٣٢٧

(١) الأثر الذي رمز له بـ(ف) هو حديث موقوف.

طرف الحديث	اسم الراوي	رقم الصفحة
ـ أن القرآن يأتي يوم القيامة تقدمه (البقرة) و(آل عمران)	النواس بن سمعان	١٤٤
ـ أن الله تعالى خلق آدم على صورته	أبو هريرة	١٥٣
ـ أن الله تعالى ينادي بصوت يسمعه من بعد	عبد الله بن أنيس	١٩٥
ـ أن الميت المؤمن يفسح له مد بصره	البراء بن عازب	١٤٩
ـ أن غراس الجنة: سبحان الله، والحمد لله	عبد الله بن مسعود	١٧١
ـ أن النبي ﷺ يجلسه الله تعالى معه على العرش	عبد الله بن سلام (ف)	٢٢٨
ـ إن السكينة تنزلت للقرآن (قاله النبي ﷺ لأسيد بن حضير عندما أخبره بما جرى معه من قراءة سورة «الكهف»)	البراء بن عازب	١٤٦
ـ إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	صفية بنت حيي	٣٠٦
ـ إن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن		٧٦
ـ إن الله وتر يحب الوتر	أبو هريرة	٣٢٤
ـ إن النار لتنادي: جز يا مؤمن	يعلى بن أمية	٢٣٦
ـ إن أول ما خلق الله القلم	عبادة بن الصامت	٢٦٥
ـ إن في الجنة سوقاً، ما فيها بيع ولا شراء	علي بن أبي طالب	١٥٥
ـ إن لله سبعين حجاباً من نور	أنس بن مالك	١٧٥
ـ إن مثلي ومثل ما بعثت به من الهدى والعلم	أبو موسى الأشعري	١٤٨
ـ أنه تعالى يلقى المؤمن إذا مات بروح وريحان	أبو هريرة	٣٤٤
ـ أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة	قبيصة بن برمة الأسدي	١٦٢
ـ أهون أهل النار عذاباً أبو طالب	أبو سعيد الخدري	٢٤٤
ـ أوصيكم بمحمد خيراً	أبو طالب	٢٤٤
ـ أين الله؟ (سؤال من النبي ﷺ للجارية)	معاوية بن الحكم	٢٧٩، ٣١٩
ـ بلغت إلى مستوىً أسمع فيه صريف الأقلام	أبو ذر الغفاري	٢٦٥
ـ تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم	أبو هريرة	٢٤٢
ـ ثلاث من فعلهن طعم طعم الإيمان	عبد الله بن معاوية الغاضري	٣٢٧
ـ جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما	أبو موسى الأشعري	٢٧٤ ـ ١٦٨
ـ حجابه النور، وفي رواية حجابه النار	أبو موسى الأشعري	١٧٢، ١٧٥ ١٧٧، ١٧٩

طرف الحديث	اسم الراوي	رقم الصفحة
ـ الحجر الأسود يمين الله في الأرض	عبد الله بن عمرو	٢١٣
ـ حدثيني (قاله النبي ﷺ للسيدة عائشة عقب نزول الوحي عليه)	عائشة	٢٠٠
ـ حدثوا الناس بما يعرفون	علي بن أبي طالب (ف)	٨٠
ـ رأيت نوراً (قاله النبي ﷺ عندما سئل: هل رأيت ربك؟)	أبو ذر الغفاري	١٧٣
ـ علا أمره (تفسير لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾)	عبد الله بن عباس (ف)	٢٦١
ـ الطهور شطر الإيمان	أبو مالك الأشعري	٢٣٢
ـ فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله	أبو هريرة	٢٣٧
ـ فوالذي لا إله غيره؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة	ابن مسعود	١٣٦
ـ فيأتيهم ربهم في غير الصورة التي يعرفون	أبو هريرة	١٤٣، ١٦٢
ـ كان الله ولم يكن معه شيء غيره	عمران بن حصين	٣٢٣
ـ كل نسب يوم القيامة منقطع إلا نسبي	عمر بن الخطاب	٢٩٨
ـ كيف غير معقول (جواب الإمام مالك لمن سأله: كيف استوى؟)	مالك بن أنس (ع)	٢٦٢
ـ اللهم؛ اجعل في قلبي نوراً	عبد الله بن عباس	١٧٤
ـ اللهم؛ أنت الصاحب في السفر	عبد الله بن عمر	٢٢٨، ٢٦٩
ـ لا تحزن؛ إن الله معنا (كلام رسول الله ﷺ لأبي بكر عندما كانا في الغار)	البراء بن عازب	٣٢٥
ـ لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد	أنس بن مالك	٢٣٥
ـ لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت من ليل أو نهار (أوصى به النبي ﷺ بني عبد المطلب وبني عبد مناف)	عبد الله بن عمر	٣١
ـ لا، إلا كتاب الله (قاله علي بن أبي طالب لأبي جحيفة عندما سأله: هل عندكم كتاب؟)	علي بن أبي طالب(ف)	١١٣
ـ لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون	أبو هريرة	٦٨
ـ ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه (قاله النبي ﷺ عندما رأى نخامة في القبلة)	أبو هريرة	٢٥٥

طرف الحديث	اسم الراوي	رقم الصفحة
ـ ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله علي روحي	أبو هريرة	٢٩٠
ـ من أتاني يسعى أتيته هرولة		٧٥
ـ من عرف نفسه فقد عرف ربه	يحيى بن معاذ الرازي (ع)	٣٢٤
ـ من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة	عبد الله بن مسعود	١٩٥
ـ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات (قاله أبو بكر بعد انتقال سيدنا محمد ﷺ).	أبو بكر الصديق (ف)	٣٣٦
ـ من هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات	عبد الله بن عباس	١٧٧
ـ هل تمارون في رؤية القمر، وفي رواية: الشمس	أبو هريرة	١٦٥
ـ الورود: الدخول (جواب عن سؤال معنى الورود)	جابر بن عبد الله	٢٣٦
ـ والذي نفسي بيده؛ لو دلي أحدكم بحبل لوقع على الله	أبو هريرة	٢٧٥
ـ ورأيت رجلاً من أمتي والنبيون حلق حلق (حديث في وصف أهوال يوم القيامة)		٢٣١
ـ ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه	أبو هريرة	١٢١، ١٧٨، ١٨١، ٢٣٨
ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (قرأ النبي ﷺ هذه الآية عندما أتاه حبر وقال: إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع...)	عبد الله بن مسعود	٢١٤
ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (نزلت هذه الآية عندما مر يهودي وقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه...)	عبد الله بن عباس	٢١٦
ـ يا حار؛ إنك ملبوس عليك (قال له ذلك عندما سأله: أتراني أظن أن طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل؟!)	علي بن أبي طالب (ف)	٤١
ـ يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا نام ثلاث عقد	أبو هريرة	٢٩٣
ـ يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه	أبو هريرة	٢١٦
ـ يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار	أبو هريرة	٢١٢
ـ ينزل ربنا كل ليلة	أبو هريرة	٢٩١

* * *

فهرس الأشعار

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
		الباء المضمومة		
تشاغل عنا بوسواسه	يطلب	المتقارب	ابن اللبان	٣٢، ٣٠٨
محب تناسى عهود الهوى	يرغب	المتقارب	ابن اللبان	٣٢، ٣٠٨
ونحن نراه ونملي له	غيب	المتقارب	ابن اللبان	٣٢، ٣٠٨
ونحن إلى العبد من نفسه	أقرب	المتقارب	ابن اللبان	٣٢، ٣٠٨
		التاء المكسورة		
ألا بعد حمد الله باري البرية	وسنة	الطويل	ابن اللبان	٣٣
بأفضل مبعوث إلى خير أمة	تحية	الطويل	ابن اللبان	٣٣
فإن صحيحاً كون ما شاء ربنا	مشيئة	الطويل	ابن اللبان	٣٣
وحيلة من لم يهده الله أنه	لحظة	الطويل	ابن اللبان	٣٣
ولم يرض كفر العبد أي لا يحبه	بمدحة	الطويل	ابن اللبان	٣٣
ويجهد كل الجهد في قصد ربه	وحرقة	الطويل	ابن اللبان	٣٣
وينفي القذى عن عين فكرته ولا	محجة	الطويل	ابن اللبان	٣٣
		الدال المضمومة		
ما وحد الواحد إلا الواحد	جاحد	الرجز	الهروي	٣٢٤
وفي كل شيء له آية	واحد	المتقارب	أبو العتاهية	١٧٥
		الراء المضمومة		
فألقت عصاها واطمأن بها النوى	المسافر	الطويل	معقر البارقي	٢٤٢
		الراء المكسورة		
ولما علونا واستوينا عليهم	وكاسر	الطويل	أبو هلال العسكري	٢٦٠
		العين المضمومة		
وما المال والأهلون إلا وديعةً	الودائع	الطويل	لبيد العامري	٣١٣

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة

العين المفتوحة

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
فلاح أني مقيم ما برحت على الـ	انقطعا	البسيط	ابن اللبان	٣٣، ٣١٣
قد كنت أحسب أني عن فنائكم	متسعا	البسيط	ابن اللبان	٣٣، ٣١٣
ولم يزل لطفكم بي تحت حجبكم	فارتفعا	البسيط	ابن اللبان	٣٣، ٣١٣

اللام المضمومة

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
له حق وليس عليه حق	الجميل	الوافر	عبد الله بن مصعب الزبيري	١٣٤

الميم المضمومة

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
أحبة قلبي أنتم وحياتكم	بسواكم	الطويل	ابن اللبان	٣٢
إذا كنتم روح الوجود بأسره	جفاكم	الطويل	ابن اللبان	٣٢
أموت إذا غبتم وأنشر عندما	بلقاكم	الطويل	ابن اللبان	٣٢
فإن كان ذنبي حال بيني وبين ما	قراكم	الطويل	ابن اللبان	٣٢
وما لي سوى أني بكم قد أتيتكم	أتاكم	الطويل	ابن اللبان	٣٢

النون المكسورة

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
رأت قمر السماء فأذكرتني	بالرقمتين	الوافر	ابن المستوفي الإربلي	٣٣٨
كلانا ناظر قمراً ولكن	بعيني	الوافر	ابن المستوفي الإربلي	٣٣٨
ما عليه من نارها فهو نور	النيران	الخفيف	محيي الدين بن عربي	٢٣٧

النون الساكنة

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
البلبل يا صاح يشدو بفنن	لمن	الدوبيت الخالص	—	٣٣٤
والكون جميعه غرام وشجن	فتن	الدوبيت الخالص	—	٣٣٤

الهاء المفتوحة

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
رأى ليلى فأعرض عن سواها	سواها	الوافر	مجنون ليلى	١٨٠
لقد ظفرت يداه ونال ملكاً	يراها	الوافر	مجنون ليلى	١٨٠

الواو المفتوحة

الصدر	كلمة القافية	البحر	القائل	الصفحة
شيء به تسبى القلوب سوى الذي	هو	الكامل	—	٣٣٤

* * *

فهرس أهم مصادر ومراجع التحقيق

- **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، للإمام المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر **الرازي** (ت٦٠٦هـ)، تحقيق علي سامي النشار، طبع سنة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م)، دار التقوى، دمشق، سورية.

- **إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين**، للإمام الحافظ أبي الفيض محمد بن محمد مرتضى **الزَّبيدي** الحسيني (ت١٢٠٥هـ)، ط١، (١٤١٤هـ)، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- **الإتقان في علوم القرآن**، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع سنة (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، مصر.

- **إحياء علوم الدين**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **أدب الدين والدنيا**، للإمام الفقيه القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب **الماوردي** (ت٤٥٠هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **الأدب المفرد**، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري** (ت٢٥٦هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، (١٤٠٩هـ)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.

- **الأربعين في أصول الدين**، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٩هـ)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد **القسطلاني** (ت٩٢٣هـ)، ط٧، (١٣٢٣هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، مصر.

- **أعلام الحديث**، للإمام أبي سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم **الخطابي** (ت٣٨٨هـ)، تحقيق محمد بن سعد آل سعود، ط١، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م)، جامعة أم القرى مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، السعودية.

- **أعيان العصر وأعوان النصر**، للأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك **الصفدي** (ت٧٦٤هـ)، تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبو عشمة ومحمد موعد ومحمود سالم محمد، ط١، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م)، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان. دار الفكر، دمشق، سورية.

- **الأغاني**، للإمام الأديب اللغوي أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأموي **الأصفهاني** (ت٣٥٦هـ)، تحقيق سمير جابر، ط٢، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- **إلجام العوام عن علم الكلام**، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **إنباء الغمر بأبناء العمر**، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي **ابن حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ)، تحقيق حسن حبشي، طبع سنة (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م)، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر.

- **أنساب الأشراف**، للإمام المؤرخ النسابة أحمد بن يحيى بن جابر بن داود **البلاذري** (ت٢٧٩هـ)، تحقيق محمد باقر المحمودي، ط١، (١٣٩٤هـ - ١٩٧٧م)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

- **البحر المحيط**، للإمام أثير الدين **أبي حيان** محمد بن يوسف ابن حيان **الأندلسي** (ت٧٤٥هـ)، تحقيق صدقي جميل، ط١، (١٤٢٠هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- **البحر المحيط في أصول الفقه**، للإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله **الزركشي** (ت٧٩٤هـ)، تحقيق عمر سليمان الأشقر، ط٢، (١٤١٣هـ)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

- **البداية والنهاية**، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن **كثير الدمشقي** (ت٧٧٤هـ)، طبع سنة (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- **بغية الطلب في تاريخ حلب**، للإمام كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي المشهور بابن العديم (ت٦٦٠هـ)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، للإمام الشريف الحافظ المحدث المسند اللغوي أبي الفيض محمد بن محمد مرتضى الزَّبيدي الحسيني (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وجماعة من المحققين، ط١، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، ط٢، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- **تأسيس التقديس**، للإمام المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي وأحمد محمد خير الخطيب، ط١، (٢٠١١م)، دار نور الصباح، دمشق، سورية.
- **تبصرة الأدلة في أصول الدين**، للإمام أبي المعين ميمون بن محمد النسفي (ت٥٠٨هـ)، تحقيق كلود سلامة، ط١، (١٩٩٠م)، نشر المعهد العالي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، سورية.
- **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري**، لإمام الدنيا الحافظ ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله **ابن عساكر** الدمشقي (ت٥٧١هـ)، ومعه مقدمة العلامة المحقق محمد زاهد الكوثري، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م)، دار التقوى، دمشق، سورية.
- **التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة**، للإمام المفسر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر **القرطبي** (ت٦٧١هـ)، تحقيق الصادق بن محمد بن إبراهيم، ط١، (١٤٢٥هـ)، مكتبة دار المنهاج، الرياض، السعودية.
- **تقويم البلدان**، للملك المؤيَّد عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف **بأبي الفداء** (ت٧٣٢هـ)، اعتناء رينود وماك كوكين، طبع سنة (١٨٤٠م)، طبعة مصوَّرة لدى دار صادر ببيروت عن طبعة دار الطباعة السلطانية، باريس، فرنسا.
- **التلخيص في أصول الفقه**، للإمام الفقيه الأصولي المتكلم **إمام الحرمين** أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف **الجويني** (ت٤٧٨هـ)، تحقيق عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري، ط١، (١٤١٧هـ)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.

- **تهذيب اللغة**، للإمام اللغوي أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي (ت٣٧٠هـ)، تحقيق محمد عوض مرعب، ط١، (٢٠٠١م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- **الحاوي للفتاوي**، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، طبع سنة (١٤٢٤هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، للإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، ط٥، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م)، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧هـ) لدى دار الريان للتراث، القاهرة، مصر. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- **درء تعارض العقل والنقل**، للعلامة تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ)، تحقيق محمد رشاد سالم، ط٢، (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية.

- **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ط٢، (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.

- **ديوان أبي العتاهية**، للشاعر العباسي الزاهد أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم العنزي (ت٢١١هـ)، تحقيق شكري فيصل، طبع سنة (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م)، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، سورية.

- **ديوان الصبابة**، للأديب الفاضل شهاب الدين أحمد بن حجلة المغربي المعروف بابن أبي حجلة، طبع سنة (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

- **ديوان لبيد بن ربيعة**، للصحابي الجليل الشاعر أبي عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري (ت٤١هـ)، وعليه شرح الطوسي، تحقيق حنا نصر الحتي، ط١، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

- **الرسالة القشيرية**، للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت٥٨١هـ)، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، ط١، (١٤٢١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، للإمام المؤرخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت٨٤٥هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **سنن ابن ماجه**، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت٢٧٣هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (١٣٧٣هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.
- **سنن أبي داود**، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- **سنن الترمذي**، للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، ط٢، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.
- **سنن الدارمي**، المسمى: «مسند الدارمي»، للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت٢٥٥هـ)، تحقيق حسين سليم أسد، ط١، (١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م)، دار المغني، الرياض، السعودية.
- **السنن الكبرى**، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق حسن شلبي، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- **السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، ط١، (١٣٤٤هـ)، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- **سنن النسائي الصغرى**، المسمى: «المجتبى من السنن»، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سورية.
- **الشامل في أصول الدين**، للإمام الفقيه الأصولي المتكلم إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت٤٧٨هـ)، تحقيق علي سامي النشار وفيصل بدير عون وسهير محمد مختار، (١٩٦٩م)، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.

- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، للإمام المؤرخ أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، تحقيق محمود الأرنؤوط، ط١، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، دار ابن كثير، دمشق، سورية. دار ابن كثير، بيروت، لبنان.

- **شرح العقائد النسفية**، للإمام النحرير سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٤١هـ - ٢٠١٩م)، دار التقوى، دمشق، سورية.

- **شرح العقيدة الطحاوية**، المسماة: «بيان السنة والجماعة»، للإمام الحافظ محدث الديار المصرية وفقيهها أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي المصري (ت٣٢١هـ)، تحقيق محمد مطيع الحافظ ومحمد رياض المالح، ط٢، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، دار الفكر، دمشق، سورية. بيروت، لبنان.

- **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح**، المسمى: «الكاشف عن حقائق السنن»، للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي (ت٧٤٣هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط١، (١٤١٧هـ)، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، السعودية.

- **شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، للإمام محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (ت١١٢٢هـ)، ط١، (١٤١٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **شرح صغرى الصغرى**، للإمام المتكلم المحدث محمد بن يوسف بن عمر السنوسي الحسني (ت٨٩٥هـ)، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي، ط١، (١٤٤١هـ - ٢٠١٩م)، دار التقوى، دمشق، سورية.

- **شرف المصطفى**، للإمام الزاهد عبد الملك بن محمد إبراهيم النيسابوري الخركوشي (ت٤٠٧هـ)، تحقيق نبيل بن هاشم الغمري، ط١، (٢٠٠٣م) دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.

- **الجامع لشعب الإيمان**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق عبد العلي حامد، ط١، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية. الدار السلفية، بومباي، الهند.

- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ**، للإمام الحافظ القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، تحقيق عبده كوشك، ط١، (١٤٣٤هـ - ٢٠٠٣م)، دار الفيحاء، دمشق، سورية. مكتبة الغزالي، دمشق، سورية.

- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، للإمام اللغوي أبي نصر إسماعيل بن حماد **الجوهري** الفارابي (ت٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

- **صحيح ابن خزيمة**، المسمى: «مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي ﷺ، بنقل العدل عن العدل موصولاً إليه ﷺ، من غير قطع في أثناء الإسناد، ولا جرح في ناقلي الأخبار»، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن إسحاق **ابن خزيمة** النيسابوري (ت٣١١هـ)، تحقيق محمد الأعظمي، ط٣، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

- **صحيح البخاري**، المسمى: «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه»، (الطبعة السلطانية اليونينية)، لإمام الحفاظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري** (ت٢٥٦هـ)، عني به محمد زهير بن ناصر الناصر، ط٣، (١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م)، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان. دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **صحيح مسلم**، المسمى: «المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ»، للإمام الحافظ أبي الحسين **مسلم** بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، المطبعة العامرة، القاهرة، مصر، وتم اعتماد ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي في تحقيقه لطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- **طبقات الأولياء**، للإمام الحافظ سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد **ابن الملقن** المصري (ت٨٠٤هـ)، تحقيق نور الدين شريبه، ط٢، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

- **طبقات الشافعية**، للإمام الأصولي الفقيه جمال الدين أبي محمد عبد الرحيم بن الحسن بن علي **الإسنوي** (ت٧٧٢هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، (٢٠٠٢م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **طبقات الشافعية**، للإمام الفقيه المؤرخ تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر **ابن قاضي شهبة** الأسدي (ت٨٥١هـ)، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، ط١، (١٤٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

- **طبقات الشافعية الكبرى**، للإمام الأصولي قاضي القضاة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي **السبكي** (ت٧٧١هـ)، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ط٢، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

- **الطبقات الكبرى**، المسماة: «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار»، للإمام الفقيه الصوفي المربي أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت٩٧٣هـ)، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، مصر.
- **طبقات المفسرين**، للعالم أحمد بن محمد الأدنه وي - من علماء القرن الحادي عشر -، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، ط١، (١٤١٧هـ)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية.
- **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، للإمام القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المالكي (ت٥٤٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **عقلاء المجانين**، للإمام الأديب الواعظ المفسر أبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت٤٠٦هـ)، تحقيق عمر الأسعد، ط١، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، دار النفائس، بيروت، لبنان.
- **غاية النهاية في طبقات القراء**، لإمام القراء الحافظ شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، طبعة مصورة عن نسخة براجسترسر سنة (١٣٥١هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر.
- **الغريبين في القرآن والحديث**، للإمام اللغوي أبي عُبيد أحمد بن محمد الهروي (ت٤٠١هـ)، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط١، (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، السعودية.
- **فتاوى الرملي**، للإمام الفقيه المفتي المحقق شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حمزة الأنصاري الرملي (ت٩٥٧هـ)، ط١، (١٣٠٨هـ - ١٨٨٨م)، طبعة مصورة لدى المكتبة الإسلامية عن الطبعة الميمنية بمصر، ديار بكر، تركيا.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، بعناية محب الدين الخطيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة السلفية لدى مكتبة الغزالي، دمشق، سورية.
- **الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية**، للإمام محمد بن علان الصديقي (ت١٠٥٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- **الفتوحات المكية**، لسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي ابن عربي الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ)، طبعة مصورة لدى دار صادرعن دار الكتب العربية الكبرى بمصر، بيروت، لبنان.

- **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **فيض الباري على صحيح البخاري**، من أمالي العالم العلامة محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي (ت١٣٥٣هـ)، جمع وتحرير محمد بدر عالم الميرتهي، ط١، (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، للإمام الفقيه الحافظ زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين القاهري المناوي (ت١٠٣١هـ)، ط١، (١٣٥٦هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر.

- **الكامل في اللغة والأدب**، لإمام العربية أبي العباس محمد بن يزيد المبرِّد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، للمؤرخ البحاثة مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي حاجي خليفة التركي (ت١٠٦٧هـ)، طبع سنة (١٩٤١م)، مكتبة المثنى، بغداد، العراق.

- **الكليات**، للإمام النحوي اللغوي المتفنن الشريف أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ط٢، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

- **لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ**، للإمام الفقيه المؤرخ تقي الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن محمد ابن فهد الهاشمي (ت٨٧١هـ)، ط١، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **لطائف الإشارات**، للأستاذ الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، ط٣، (٢٠٠٠م)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

- **مجمع الأمثال**، للإمام اللغوي أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (ت٥١٨هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- **المجموع شرح المهذب**، لشيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، ومعه «تكملة المجموع» للإمام تقي الدين السبكي والشيخ محمد نجيب المطيعي، تحقيق وتكميل محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية.

- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، للإمام المفسر أبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية المحاربي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، للإمام الحافظ عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني (ت٧٦٨هـ)، تحقيق خليل منصور، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، للإمام الفقيه المحدث نور الدين أبي الحسن ملا علي القاري بن سلطان محمد الهروي (ت١٠١٤هـ)، ط١، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، للإمام القاضي الأديب الكاتب المؤرخ أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العدوي العمري (ت٧٤٩هـ)، تحقيق ثلة من المحققين، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، الإمارات.
- **المستدرك على الصحيحين**، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن البيِّع الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، ط١، (١٣٤٢هـ)، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- **مسند الإمام أحمد**، للإمام الحافظ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، طبع سنة (١٣١٣هـ)، المطبعة الميمنية، القاهرة، مصر.
- **مسند البزار**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت٢٩٢هـ)، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، ط١، (٢٠٠٩م)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية.
- **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، للإمام الحافظ القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، طبع سنة (١٩٨٧م)، المكتبة العتيقة، تونس. دار التراث، القاهرة، مصر.
- **مشكاة الأنوار**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق أبو العلا عفيفي، طبع سنة (١٣٩٣هـ - ١٩٦٤م)، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
- **مصارع العشاق**، للإمام المحدث الشاعر أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارئ البغدادي (ت٥٠٠هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان.

- **المصنف**، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة العبسي الكوفي (ت٢٣٥هـ)، تحقيق محمد عوامة، ط١، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، دار القبلة، جدة، السعودية. مؤسسة علوم القرآن، دمشق، سورية.

- **معاني القرآن وإعرابه**، للإمام النحوي أبي إسحاق إبراهيم بن السري **الزجاج** (ت٣١١هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، ط١، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

- **معاني القرآن**، للإمام النحوي اللغوي أبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله **الفراء الديلمي** (ت٢٠٧هـ)، تحقيق أحمد النجاتي ومحمد النجار وعبد الفتاح الشلبي، ط١، دار المصرية، القاهرة، مصر.

- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ)، ط١، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- **المعجم**، للحافظ المحدث أبي بكر محمد بن إبراهيم بن علي **ابن المقري الأصبهاني** (ت٣٨١هـ)، تحقيق عادل بن سعد، ط١، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية.

- **المعجم الأوسط**، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب **الطبراني** (ت٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن الحسيني، طبع سنة (١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، دار الحرمين، القاهرة، مصر.

- **المعجم الكبير**، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب **الطبراني** (ت٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر.

- **معجم المؤلفين**، للأستاذ البحاثة عمر بن رضا بن محمد بن راغب **كحالة** (ت١٤٠٨هـ)، ط١، (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

- **معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم المخطوطات والمطبوعات**، للأستاذين علي الرضا قره بلوط وأحمد طوران قره بلوط، ط١، (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، دار العقبة، قيصري، تركيا.

- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، للإمام النحوي جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق صلاح عبد العزيز السيد، ط٢، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)، دار السلام، القاهرة، مصر.

- تفسير الرازي، المسمى: «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب»، للإمام المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، ط١، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- مقامات الحريري، للإمام النحوي اللغوي الأديب أبي محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري (ت٥١٦هـ)، بإشراف اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، للإمام المؤرخ ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الإشبيلي (ت٨٠٨هـ)، تحقيق خليل شحادة، ط٢، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، بإشراف اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- المقفى الكبير، للإمام المؤرخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت٨٤٥هـ)، تحقيق محمد اليعلاوي، ط٢، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

- المنقذ من الضلال، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٤٠هـ)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- المواقف في علم الكلام، للإمام المتكلم عضد الدين القاضي عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت٧٥٦هـ)، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

- **الموطأ**، لإمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت١٧٩هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع سنة (١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- **ميزان العمل**، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١، (١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م)، دار المنهاج، جدة، السعودية.

- **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**، للإمام الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق حمدي السلفي، ط٢، (١٤١٥هـ)، دار ابن كثير، دمشق، سورية.

- **النكت على مقدمة ابن الصلاح**، للإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق زين العابدين بن محمد بلا فريج، ط١، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، أضواء السلف، الرياض، السعودية.

- **نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ**، للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ)، تحقيق توفيق محمد التكلة، ط١، (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، دار النوادر، دمشق، سورية.

- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، للإمام الحافظ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوقيفية، القاهرة، مصر.

- **الوافي بالوفيات**، للأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط١، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

- **الوجوه والنظائر**، للإمام اللغوي الأديب الشاعر أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ)، تحقيق محمد عثمان، ط١، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر.

- **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، للإمام المفسر أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي الشافعي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق صفوان عدنان داودي، ط١، (١٤١٥هـ)، دار القلم، دمشق، سورية. الدار الشامية، بيروت، لبنان.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، للإمام القاضي المؤرخ أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان الإربلي (ت٦٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، ط١، (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م)، دار صادر، بيروت، لبنان.
- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للإمام الفقيه الصوفي المربي أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت٩٧٣هـ)، المطبعة الميمنية، القاهرة، مصر.

* * *

محتوى الكتاب

بين يدي الكتاب	٧
ترجمة الإمام شمس الدين بن اللبان	١٠
اسمه ونسبه	١٠
ولادته ونشأته	١١
شيوخه	١٣
ذكر بعض الآخذين عنه	١٨
تآليفه ومخلفه العلمي	١٩
محنته وأذيته	٢٢
ثناءات أهل العلم عليه	٣٠
طرف من شعره	٣٢
وفاته	٣٤
كلمة عن كتاب: «إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات» ...	٣٥
اسم الكتاب وتوثيق نسبته للإمام ابن اللبان	٣٦
داعية تأليف كتاب «إزالة الشبهات»	٣٨
الغاية من تأليف الكتاب	٤٢
ماذا نجد في كتاب «إزالة الشبهات»؟	٤٤
معنى قول أهل العلم بأنه ألف «إزالة الشبهات» على طريقة الصوفية	٤٥

قصة نشأة كتاب «إزالة الشبهات» ومنهج الإمام ابن اللبان في تأويل
النصوص المتشابهة ٥٣
أهم مناهج التأويل عند المسلمين ومن ينتسب إليهم ٥٦
التأصيل الشرعي للتأويل الإشاري العرفاني عند السادة الصوفية ٦٨
المتكلمون والصوفية والنص المتشابه ٧٧
بيان معنى المتشابه الذي يدخله التأويل ٧٨
منهج العمل في الكتاب ٨٣
جدول ترتيب فصول كتاب «إزالة الشبهات» ٨٤
وصف النسخ الخطية ٨٧
صور من المخطوطات المستعان بها ٩٣

* * *

إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات ١٠٧
مقدمة المؤلف ١٠٩
داعية تأليف الكتاب ١١٠
نعمة القلب السليم ١١١
رتبة الصحابة العلياء في فهم المتشابه من كتاب وسنة ١١٢
أسباب منعت من فهم المتشابه، وأدت لظهور أرباب البدع ١١٣
السكوت والتسكيت انقطع نفعهما في هذا الباب ١١٤
إجمال القول في المحكم والمتشابه ١١٦
تفصيل القول في المحكم والمتشابه ١١٩

ذكر قاعدة كلية في الكلام على المتشابه ١١٩
تجليات الصفات له تعالى تظهر بمظهرين ١٢٠
التمثيل لما سبق بالقلب وجنوده ١٢٢
القلب بين عالمي الغيب والشهادة ١٢٢
مثال يقرب منهم معنى التجلي والتصور ١٢٤

فصل

في الكلام على صفة النفس ١٢٧
تنبيه: على تلطف سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في مخاطبة مولاه سبحانه ١٣١
تبصرة: في بيان حال المحجوبين من أهل الرئاسة ١٣٢
تنبيه: على سر القدر المنطوي بين الحقيقة والشريعة ١٣٢
إشارة: إلى سر قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ١٣٣
مناجاة ١٣٤
اعتبار: في الخوف من السابقة، وكون الأعمال بالخواتيم اللاحقة ١٣٥
إشارة: إلى المخصوصين بخوف سوء الخاتمة ١٣٦
تتمة: في بيان معنى الذكر في النفس، والذكر في الملأ ١٣٧

فصل

في الكلام على الصورة في حقه سبحانه وتعالى ١٤١
الصور لها حقيقة ومظهر ١٤٤
اختلاف نعيم العباد برؤية الحق يوم القيامة ١٥٢

تنبيه: على معنى الصورة في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم على صورته» ١٥٣
تنبيه: على معنى الصورة في حديث سوق الصور في الجنة ١٥٥

فصل

في الكلام على صفة الوجه ١٥٩
تنبيه: على معنى التعوذ والتعلق بالصورة التي يأتي بها الله يوم القيامة ١٦٢

فصل

في الكلام على الرؤية ١٦٣
تنبيه: على إنكار القاضي ابن العربي المالكي رؤية الله في الموقف ١٦٧
تنبيه: على الرداء والحجب والسبحات لوجهه سبحانه ١٦٨
بيان معنى الرداء ١٦٨
إشارة: إلى أن نعيم الرؤية يحصل لأرباب القلوب في رياض جنة الأذكار وساعة المراقبة ١٧١
بيان معنى الحجب ١٧٢
لطيفة: في بيان تعدد حجب الأنوار ١٧٥
تبصرة: في بيان معنى السبحات ١٧٧
تنبيه: على عدم تناهي متعلقات صفة البصر له تعالى ١٧٩
إشارة: إلى أن العبرة بنظر الحق إليك ١٨٠
إشارة: إلى سر قراءته عليه الصلاة والسلام القرآن على بعض الصحابة ١٨١
لطيفة: في بيان حكمة لفظ الإحراق في حديث: «لأحرقت سبحات وجهه» ١٨٢

تربية: في معرفة قبلة التجلي وميقاته ومشرقه ١٨٣

إشارة: إلى تحقيق تجلي الإكرام لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ١٨٥

فصل

في الكلام على صفة السمع والبصر والعين والأعين ١٨٧

فائدة: من عرف السمع والبصر الحقيقيين فهم تنزهه تعالى عن الجوارح ١٩١

نسبة العين والأعين إليه سبحانه ١٩١

فصل

في الكلام على صفة الكلام ١٩٣

تنبيه: على وجه الشبه بين رؤيا جد النبي عليه الصلاة والسلام للسلسلة تخرج من ظهره وصوت السلسلة على صفوان ٢٠١

تنبيه: على أن إفادة الشجرة لإسماع كلام الله تعالى بمثابة اللسان ٢٠٢

فصل

في الكلام على صفة البطش ٢٠٥

فصل

في الكلام على صفة اليد واليدين والأيدي والأصابع والأنامل ٢٠٩

تنبيه: على ما ورد من ذكر الأصابع والأنامل في حقه تعالى ٢١٣

تنبيه: على معنى الطي باليمين ٢١٩

فصل

في الكلام على صفة الجنب ٢٢٣

تنبيه: على رفعة المتبعين، وحسرة الساخرين ٢٢٦

تبصرة: في الصاحب الحسي والصاحب المعنوي ٢٢٧
بيان: في جلوسه ﷺ على عرش الرحمن ٢٢٨
اعتبار: في لمعة من أسرار اتباع السنة ٢٣١

فصل
في الكلام على صفة القدم ٢٣٣

تحقيق: في أن القدم راجع لنور الإيمان ٢٣٦
فائدة: النبي عليه الصلاة والسلام الأصل الجامع لكل نور من أنوار صفاته تعالى وأسمائه ٢٣٧
تنبيه: على معنى الرجل ٢٣٧
تبصرة: في علاقة القدم بالتثبيت ٢٣٩
تنبيه: على اختصاص سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ببرد النار، وأنس سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بالنار ٢٤٠
إشارة: إلى بيان معنى النعلين اللذين أمر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بخلعهما ٢٤١

فصل
في الكلام على صفة الفوقية ٢٤٧

تنبيه: على تحقيق تنزيه فوقيته سبحانه عن الجهة والمكان ٢٥١
تنَبيه: على معنى رفيع الدرجات ٢٥٣
تنبيه: على معنى البيوت في قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ٢٥٤
فائدة: في الرد على فرعون حين ادعى الألوهية واعتقد الجهة ٢٥٤

فصل

في الكلام على صفة الاستواء ٢٥٧

اعتبار: في أحوال الإنسان الكامل ٢٦٥

فصل

في الكلام على قصة الإسراء والمعراج ٢٦٧

إشارة: إلى أسرار التوجه في ترتيب التبليغ على التلقي ٢٧٣

تنبيه: على دنو التجلي والكشف ٢٧٣

إيضاح: لسر التدلي ٢٧٥

تبصرة: في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «الوقع على الله» ٢٧٦

تبصرة: في زيادة تحقيق نفي الجهة عن الله تعالى ٢٧٧

تشكيك: بذكر آيات وأحاديث ظواهرها تفيد الجهة والفوقية في حق المتعالي سبحانه ٢٧٨

فصل

في الكلام على صفة النزول ٢٨٣

تنبيه: على تعليل نسبة النزول له سبحانه ٢٨٨

تبصرة: في اعتبار النزول في العالم الأصغر ٢٨٨

تذكرة: في استواء حال النبي ﷺ في حياته وبعد مماته ٢٩٠

تبصرة: في أن النزول لا ينحصر بعالم الحس ٢٩١

تنبيه: على اختصاص النزول بالثلث الأخير من الليل ٢٩٢

فصل

في الكلام على صفة المجيء والإتيان ٢٩٥

تحقيق: في الكلام على الروح الجامع ٢٩٧

تنبيه: على أن أسماء العباد الحسنة راجعة إلى أسمائه تعالى الحسنى ٢٩٩

إشارة: إلى صلة الرحم للروح المحمدية ٣٠٠

فصل

في الكلام على صفة القرب ٣٠١

تنبيه: على حقيقة القرب منه سبحانه ٣٠٤

تبصرة: في حكمة مجيء الأقربية من حبل الوريد في هذه الآية الكريمة ٣٠٦

فصل

في الكلام على العندية ٣٠٩

إشارة: إلى أهل العندية وأهل الحجب ٣١٤

تنبيه: على ما ينفد وما يبقى ٣١٤

تربية: للعبد بحسن إقباله على مولاه تعالى ٣١٥

فصل

في الكلام على المعية ٣١٧

فصل

في الكلام على الأينية ٣٢١

تنبيه: على معية الله بصفاته العلية ٣٢٥

تبصرة: في أن شهود المعية قد يتعدى لغير صاحبها وقد لا يتعدى ٣٢٦

تربية: للعبد في تحصيل شهود نور المعية ٣٢٦

فصل
في الكلام على صفة الحب ٣٢٩

تنبيه: على معنى صدق حب العبد لمولاه ٣٣٥
تبصرة: في تأكيد أن سر التوحيد الجامع هو مظهر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ٣٣٦
تحقيق: في أسرار «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» ٣٣٧
دقيقة: في كسوة الصفات ٣٣٨

فصل
في الكلام على صفة الضحك والغضب والرضا ٣٤١

خواتيم النسخ الخطية ٣٤٧

* * *

رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة على طريقة السادة الصوفية ٣٥١

* * *

الفهارس العامة ٣٥٧

فهرس الآيات القرآنية ٣٥٩
فهرس أطراف الأحاديث والآثار ٣٧٢
فهرس الأشعار ٣٧٦
فهرس أهم مصادر ومراجع التحقيق ٣٧٨
محتوى الكتاب ٣٩٢

* * *